مجلة الباحث

في العلوم الإنسانية و الاجتماعية

دورية أكاديمية محكّمة تُعنى بالدراسات والبحوث في العلوم الإنسانية والاجتماعية

تصدر عن كلية العلوم الاجتماعية والانسانية بجامعة الوادي

في هذا العدد:

- الحياة الأدبية في الجزائر الحفصية – أ.علال بن عمر
- طائفة اليهود بمجتمع مدينة الجزائر (1700–1830)–الهجرات و أماكن الإقامة – د.نجوى طوبال
- دور المهاجرين الجزائريين في الحركة الوطنية التونسية في مطلع القرن العشرين – (أحمد توفيق المدني أنموذجا)– أ.محمد بوطيبي
- جوانب من أحداث ماي – جوان 1945 بقالمة من خلال وثائق رسمية فرنسية – د.رمضان بورغدة
- محمد السعيد الزاهري ونضاله في الميدان الصحفي– أ. رانية مخلوف
- مؤتمر الصومام 20اوت1956 من خلال التقارير الفرنسية – د.حفظ الله بوبكر
- وسط الحفظ بالمتحف الوطني للآثار بسطيف – أ.مياطة التجاني
- محال المقاصد الأصلية ومدى أهميتها – د.مليكة مخلوفي
- القراءةُ التخصصيَّةُ للقرآنِ والسنَّةِ: تخصصُ الرياضةِ البدنيَّةِ أنموذجًا– أ.عبد القادر مهاوات
- خريجي الجامعة الجزائرية والأعمال الحرة – أ.فني غنية
- الخصائص الاجتماعية والديموغرافية وعلاقتها بالتشاور بين الزوجين حول عدد الأطفال المراد إنجابهم (دراسة ميدانية بعيادة "مريم بوعتورة" للتوليد وأمراض النساء لمدينة باتنة) – أ.علي العكروف
- دور شبكات التواصل الاجتماعي في تنمية ثقافة العمل التطوعي مجموعة ناس الخير بورقلة ، أنموذجا – أ.جمال كانون

العدد الثالث (3) / صفر 1435هـ - ديسمبر 2013

ISSN 2170-0370

جامعة الشهيد حمّه لخضر بالوادي

كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية

مجلة الباحث

في العلوم الإنسانية و الاجتماعية

دورية أكاديمية محكّمة تُعنى بالدراسات والبحوث في العلوم الإنسانية والاجتماعية

العدد (3) صفر 1435هـ / ديسمبر 2013

توجه جميع المراسلات الى:

رئيس تحرير مجلة الباحث في العلوم الانسانية والاجتماعية

كلية العلوم الاجتماعية والانسانية- جامعة الوادي، طريق الشط 39000- الوادي/ الجزائر

☎ Tél/fax: 032210731B.P 789

Courriel : elbaheth@univ-eloued.dz

ISSN 2170-0370

المدير الشرفي

أ.د/ محمد خير الدين خلادي
مدير جامعة الوادي

مدير المجلة

د/ عاشوري قمعون

رئيس التحرير

أ/ محمد حركات
نائب العميد لما بعد التدرج والبحث العلمي والعلاقات الخارجية

هيئة التحرير

أ/ عثمان زقب
أ/ عثمان عي
أ/ محمد رضا شنة
أ/ عبد الباسط هويدي

الهيئة الاستشارية

أ.د/ بوبكر لشهب
أ.د/ العيس اسماعيل
أ.د/ شاوش حباسى
د/ على غنابزية
أ.د/ عبد العالي دبلة
د/ محمد الحبيب بشاري
أ.د/ نور الدين زمام
د/ محمد الطاهر طعبلي
أ.د/ محمدمصطفى
د/ ابراهيم رحماني
د. لزهر بديدة
د/ لامية بوبيدي
د/ شلالي عبد الوهاب
د/ محمد السعيد عقيب

*** ما ينشر في المجلة يعبر عن رأي كاتبة ولا يعبر عن رأي المجلة.**

*** يخضع ترتيب الموضوعات بالمجلة لاعتبارات فنية لا ترتبط برتبة الباحث ولا بمكانته العلمية.**

شروط و قواعد النشر بمجلّة الباحث في العلوم الإنسانية و الاجتماعية

- المجلّة متفتّحة على جميع البحوث في مجالات العلوم الإنسانية والاجتماعية، المؤلّفة باللغات الثلاث العربية و الفرنسية و الإنجليزية.
- أن يكون الباحث حاصلا على درجة الماجستير على الأقل، أو مسجّلا في الدكتوراه، ويُرفق مشروع مقاله ببيان سيرته الذاتية وصورة فوتوغرافية شخصيّة.
- يُعبّر المقال عن رأي صاحبه الذي يتحمّل المسؤولية المدنية المترتّبة عنه، ولا يُعبّر بالضرورة عن رأي المجلّة.
- ألاّ يكون المقال تلخيصا لمذكرة أو أطروحة جامعية.
- أن يكون مشروع المقال أصيلا وجديدا لم يعرض ولم ينشر سابقا.
- يتألّف مجموع المقال من 4000 إلى 8000 كلمة، على ألاّ يتجاوز بجميع مكوناته العشرين صفحة
- يُزوّد المؤلّف مقاله بملخصين أوّلهما بلغة المقال والثاني بلغة أخرى من المذكورة أعلاه، وعلى أن يكون أحدهما بالعربية، وألاّ يتجاوز الملخّص 100 كلمة.
- ويُزوّد المقال كذلك بخمسة كلمات مفتاحية بلغة المقال، وبترجمتها إلى العربية إن كان المقال بلغة أجنبية.
- أن لا يقل عدد صفحات البحث عن 10 صفحات ولا يزيد عن 25 صفحة مكتوبة بخط Traditional Arabic مقاس 14 وتباعد 1سم. وتكتب الهوامش بطريقة عادية في نهاية البحث، وبمقاس 10 وتباعد 1سم
- تخضع جميع المشاريع المقترحة لفحص علمي دقيق من قبل هيئة خبراء استشارية وقرارها غير قابل للنقض، ولا يمكن إجراء أي خطوة لنشر المقال قبل صدور قرار إيجابي.
- يتحمّل مؤلّف المقال مسؤولية إجراء كافّة التعديلات المطلوبة من هيئة الخبراء أو من فريق التحرير وذلك للسماح بنشر المقال.
- تتمّ مراسلات تأهيل المقال للنشر بين المجلّة والمؤلّف بالبريد الإلكتروني.
- يُلغى المشروع في حال عدم ردّ المؤلّف في أجل 30 يوما من تاريخ آخر مراسلة إلكترونية له من المجلّة
- لا تنشر المجلّة إلاّ المقال الذي تكتمل فيه جميع الشروط، ولفريق التحرير الحقّ في تأجيل نشره إلى عدد لاحق عند الضرورة.
- لا ترد الدراسات والبحوث إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.
- لا يترتّب أي تعويض مادّي للمؤلّف في حال نشر المجلّة لمقاله.

ترسل جميع البحوث والدراسات إلى العنوان الإلكتروني للمجلة: elbaheth@univ-eloued.dz

الكلمة الافتتاحية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين :

ها هو العدد الثالث من مجلة الباحث يرى النور ، ومجلة الباحث هي المجلة المعتمدة في كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية .

وهي مجلة أكاديمية محكمة تعنى بالدراسات والأبحاث في التخصصات الآتية :

1 – العلوم الإنسانية .

2 – العلوم الإسلامية .

3 – العلوم الاجتماعية .

وتلزم الأساتذة أصحاب المقالات بالنزاهة العلمية والموضوعية وإثبات مصادر المعلومات وتوثيق الاقتباسات سواء كانت مباشرة أم عرضا لآراء وأفكار ، والالتزام التام بقواعد وشروط النشر .

تضم المجلة أبحاثا ودراسات متعددة لباحثين من مختلف جامعات الوطن ، هذه الأبحاث حصيلة أوقات وجهود بذلها الباحثون من أجل تحقيق المعلومة وتقديمها للطلبة والقراء .

وفي هذه الكلمة أدعو جميع الأساتذة والباحثين إلى المساهمة في إنجاح هذه المجلة ، ولاسيما أنها في طورها التمهيدي وخطواتها الأولى .

تساهم المجلة في نشر العلم وإعداد العقل والفكر وتربية النفوس وتهذيب الأخلاق ، وكل ذلك يسهم في تقدم المجتمع وتطوره ، وهي تلتزم بنهج البحث العلمي الموضوعي والنزيه ، لتؤدي رسالتها المنوطة بها ولينتفع بها طلاب العلم والقراء في الجزائر .

في هذه الكلمة أتوجه بالشكر إلى السيد مدير الجامعة على إشرافه وموافقته على طباعة المجلة وتشجيعه للبحث العلمي ، كما أتوجه بالشكر والتقدير إلى كل الأساتذة والباحثين الذين ساهموا في إعداد هذا العدد من المجلة .

د. عبد الرحمان تركي

عميد كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية

فهرس الموضوعات

الافتتاحية	كلمة عميد كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية	4
أ.علال بن عمر	الحياة الأدبية في الجزائر الحفصية	6
د.نجوى طوبال	طائفة اليهود بمجتمع مدينة الجزائر (1700-1830)-الهجرات و أماكن الإقامة	25
أ.محمد بوطيبي	دور المهاجرين الجزائريين في الحركة الوطنية التونسية في مطلع القرن العشرين – (أحمد توفيق المدني أنموذجا).	41
د.رمضان بورغدة	جوانب من أحداث ماي – جوان 1945 بقالمة من خلال وثائق رسمية فرنسية	53
أ.رانية مخلوف	محمد السعيد الزاهري ونضاله في الميدان الصحفي	68
أ.د. بوبكر حفظ الله	مؤتمر الصومام 20اوت1956 من خلال التقارير الفرنسية	82
أ. مياطة التجاني	وسط الحفظ بالمتحف الوطني للأثار بسطيف	92
د. مليكة مخلوفي	محال المقاصد الأصلية ومدى أهميتها	103
أ.عبد القادر مهاوات	القراءةُ التخصصيَّةُ للقرآنِ والسنُّةِ: تخصصُ الرياضةِ البدنيَّةِ أنموذجًا	115
أ.فني غنية	خريجي الجامعة الجزائرية والأعمال الحرة	124
أ.علي العكروف	الخصائص الاجتماعية والديموغرافية وعلاقتها بالتشاور بين الزوجين حول عدد الأطفال المراد إنجابهم (دراسة ميدانية بعيادة "مريم بوعتورة" للتوليد وأمراض النساء لمدينة باتنة)	135
أ.جمال كانون	دور شبكات التواصل الاجتماعي في تنمية ثقافة العمل التطوعي(مجموعة "ناس الخير ورقلة " أنموذجا)	147
أ.تواتي إبراهيم عيسى	علاقة تشكل هوية الأنا بالطمأنينة الانفعالية لدى الطالب الجامعي(دراسة ميدانية على عينة من طلبة جامعة الوادي)	162
أ.حمزة قدة	دور وسائل الإعلام في نشر ظاهرة العنف	178

الحياة الأدبية في الجزائر الحفصية

أ. علال بن عمر

جامعة الشهيد حمّة لخضر- الوادي

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

مقدمة:

إن موضوع " الحياة الأدبية في الجزائر الحفصية" قد أثار حفيضتنا لدراسته وتسليط الضوء على مكنوناته، وذلك لأسباب عديدة أهمها؛ أولا ما يتعلق بطبيعة الإطار المكاني للموضوع، فالجزائر الحفصية يُقصد بها الإقليم الغربي للدولة الحفصية أو ما يعرف حاليا بمدن الشرق الجزائري، والتي كانت في تلك الفترة خاضعة لسلطة الحفصيين بتونس ، لذلك معظم الدراسات حول تاريخ الحفصيين وآثارهم الحضارية تناولت العاصمة تونس وضواحيها، بينما بقي الإقليم الغربي لها على هامش تلك الدراسات، أما الأمر الثاني فيتعلق بقلة المصادر والمراجع التي تناولت المجال الثقافي وخاصة الأدبي منه، وما وجد من ذلك ففي كتب التراجم والطبقات أو كتب الرحلات.

أما السبب الرئيسي الذي زرع فينا حب الخوض في مغمار هذا البحث هو مقولة ابن خلدون التي اتسمت بالقسوة تجاه الأدب المغربي والتحامل الكبير على أعمدته في هذه الفترة وذلك عندما أورد قوله:"الأدب المغربي ضعيف نازل الدرجة من أدب الأقطار الإسلامية الأخرى ، ولم ينبغ في الشعر والكتابة من المغاربة إلا قليل كابن رشيق وابن شرف وابن الرقيق ..."[1].

لذلك سنحاول من خلال هذه الدراسة نفض الغبار على تراثنا الأدبي، والإطلالة على أهم ما خلفه سلفنا من إنتاج علمي، وما قدمه أدباؤنا ولغويونا من آثار أدبية أثرت خزانة الأدب في المغرب العربي بل في العالم الإسلامي بأسره.

وكما هو معلوم أن الأحداث السياسية التي شهدها العهد الحفصي كانت جد مضطربة نتيجة كثرة الفتن الداخلية وصراع الأمراء على السلطة، إضافة إلى ظهور حركة الاسترداد المسيحي التي بدأت آثارها تلمس الشواطىء الجنوبية الغربية للبحر المتوسط[2]، وهنا تطرح الإشكالية نفسها؛ هل كان لتلك الاضطرابات دور في تدهور الحياة الأدبية وانهيارها، وهل يمكن أن تنشأ في ظل ذلك كله حركة علمية أو أدبية، وهل ظهر في تلك الفترة أدباء وشعراء ولغويون قادوا الحياة الأدبية بالمنطقة.

سنحاول الإجابة على تلك الإشكاليات بالتعرض إلى ثلاث عناصر أساسية في الموضوع:

1- تبعية الشرق الجزائري للدولة الحفصية (7هـ-10هـ/13م-16م).

2- الإرث الأدبي للمنطقة قبل العهد الحفصي .

3- عوامل نمو الحياة الأدبية بالمنطقة .

4- مظاهر الحياة الأدبية للمنطقة (مع عرض موجز وترجمة للعديد من الأدباء والشعراء المشهورين).

1-تبعية الشرق الجزائري للدولة الحفصية (7هـ-10هـ/13م-16م).

لقد كان عصر الدولة الحفصية وريث عهد الموحدين، ورث عنه تدهورا سياسيا مريعا، كثُر فيه الصراع الذي وقع بين الدويْلات التي قامت بعد سقوط دولة الموحدين، وعلاوةً على ذلك وعلى المستوى الخارجي تكالُبِ الصليبيين على العالم الإسلامي مشرقاً ومغرباً. إن الدولة الحفصية عاصرت دولة بني زيان وانفصلت مثلها عن امبراطورية الموحدين لكنها اعتبرت -في نظر العديد من المؤرخين- الوريث الشرعي لها، وهي تنتسب إلى أبي حفص عمر بن يحي

الهنتاتي أحد الموالين للموحدين ومن أصحاب وأتباع مؤسس دولتهم المهدي بن تومرت وقد أسس الدولة الحفصية أحد أحفاده وهو أبو زكريا يحي (624 هـ - 647هـ /1226م-1249م)؛ وقد كان واليا للموحدين بافريقية، ثم خلع طاعة الموحدين ونقض بيعة الخليفة أبي العلا إدريس المأمون الموحدي(626هـ- 630هـ/1228م- 1232م)، وأقام الخطبة باسم الإمام المهدي و الخلفاء الراشدين فقط، وتمّت له المبايعة من طرف أهل القيروان يوم 18 رجب 625هـ /24جوان 1228م، وعند وصوله إلى تونس جدّد بها البيعة ، ثم اتخذها عاصمة له[3]، لينهض السلطان الحفصي بعدها لإقرار سلطته في البلاد التابعة لنفوذه، فأوّل منطقة سار إليها مدينة قسنطينة، وعند وصوله فرض عليها الحصار أياما عديدة، حتى دخلها دون عناء واستولى عليها صلحا[4]، ثم أخرج منها والي الموحدين ابن أبي عبد الله بن يعقوب المنصور، وعندها بايعه أهلها وأعيانها ووجهاؤها على رضًى منهم وذلك يوم الخميس 26شعبان 626هـ/ 1229م ، وكان على رأسهم الشيخ أبو علنّاس الصنهاجي (توفي آخر شعبان 626هـ /1229م) [5]، ثم انتقل بعدها لإخضاع بجاية التي سرعان ما أذعنت له، وقبض أبو زكريا على واليها وبعث به مع والي قسنطينة المخلوع إلى تونس[6]،وبذلك اتسعت حدود ولايته وشملت سائر بلاد افريقية ، بما فيها ولاية بونة-عنابة- وولاية قسنطينة وولاية بجاية. ونهض الأمير أبو زكريا سنة 636هـ/1239م في اتجاه المغرب الأوسط ، فسار إلى بجاية ومنها إلى الجزائر فاستولى عليها ، ثم قصد ناحية شلف فأطاعته مغراوة ثم انتهى إلى بلاد بني توجين فحاربهم وهزم رئيسهم عبد القوي بن العباس وأسره، وعاد إلى تونس وفي سنة 639هـ/1243م نهض إلى المغرب الأوسط ثانية بغرض إخضاع تلمسان فحاصرها إلى أن أجبر واليها يغمراسن بن زيان إلى الاستسلام وطلب الصلح وقبول ولائه لسلطان الحفصيين وكان ذلك في صفر من سنة 640هـ/1244م فعظم بذلك نفوذ الحفصيين واتسعت إمارتهم إلى نهر ملوية غربا،وأصبحت الدولة الحفصية تتطلع إلى المحافظة على إرث الموحدين وخلافتها لهم[7].

وقد عين الأمير أبو زكرياء ولاّة على كامل المنطقة الخاضعة له في الإقليم الغربي لدولته، ونظرا لأهميتها عنده فقد اختار ولاتها من عائلته؛ فعين ابن عمه أبا علي عمر بن أبي موسى واليا على بونة-عنابة-، كما عين على بجاية ابنه أبا يحي زكرياء وكان لا يزال في سن الراهقة ، وبعد ذلك بسنتين أسند إليه ولاية العهد ، ولم يكن ذلك على عهد السلطان أبي زكريا فقط وإنما اتبع معظم سلاطين الدولة سياسته، فقد عهد السلطان الحفصي أبو يحي أبو بكر (710هـ-747هـ/1310م-1346م) لأبنائه على رأس مدن الشرق الجزائري؛ فعين الفضل على بونة-عنابة- وأبا عبد الله محمد على قسنطينة وأبا زكرياء على بجاية. فكانت المنطقة بذلك دار سلطنة لا دار مملكة ، ذلك أن معظم أمرائها كانوا من البيت الحاكم ومنهم من تقلّد منصب سلطان الدولة الحفصية انطلاقا من قسنطينة أو بجاية[8].

وقد لعب السلاطين الحفصيون وأمراؤهم في المنطقة دورا بارزا ومهما في تطوير الحركة العلمية وتنشيطها، وسنشير إلى ذلك بالتفصيل لاحقا ونفرده بالدراسة.

2- الإرث الأدبي للمنطقة قبل العهد الحفصي:

لقد عرف الإقليم الغربي للدولة الحفصية حركية علمية وأدبية منذ العهد الحمادي(387هـ-537هـ/997م-1142م)، حيث اشتهر العديد من فطاحلة الشعر والأدب خاصة ببجاية والقلعة وطبنة والزاب وبونة وقسنطينة وغيرها من أمصار بلاد المغرب الأوسط، وقد ازدانت المنطقة على ذلك العهد بازدهار الآداب والعلوم خاصة الدينية منها، وشيوع المناظرات والأبحاث الفقهية. وقد لعبت التيارات الفكرية والمذهبية دورا في هذا الزخم العلمي والأدبي، إضافة إلى بداية ظهور أفكار التصوف منذ القرن 5هـ/11م ، كل ذلك شكّل فسيفساء ثقافية وأدبية آتت أكُلها في تنشيط الحركة العلمية والأدبية في كامل بلاد المغرب الأوسط. وقد كانت بجاية وقت ذاك عاصمة للحماديين أوْلاها

أمراؤها أهمية بالغة، فكانت محطة من محطات التزود بالعلم والمعرفة، وشمعة تضيء على من حولها من البلدان،ووصل نورها حتى أوربا التي كانت تعاني من العتمة طيلة القرون الوسطى.

ولما برز الحماديون على مسرح التاريخ وجدوا أن المغرب قد بلغ من الرقي الأدبي منزلة عظيمة بسبب المخلفات الحضارية التي أوجدها من سبقوهم فنسجوا على منوالهم،وساعدهم على ذلك أن معظم الدول التي سبقت عهدهم اهتمت أيما اهتمام بهذا المجال، فكان مؤسسو تلك الدول أنفسهم من الأدباء كالدولة الأغلبية(184هـ-296هـ/800م-908م) التي أشرف على تأسيسها عالم وأديب ومثقف بارع وهو إبراهيم بن الأغلب(140هـ-196هـ/757م-811)،وقد شهدت الدولة الأغلبية عهد النهضة الأدبية بافريقية والجزائر، وممن اشتهر خلال عهدها من الأدباء:عبد الملك بن قطن (ت255هـ/868م) وأحمد الصواف(ت291هـ/903م) الذي اشتهر بالنثر، وأبو العباس محمد بن أ حمد البريدي (ت276هـ/889م) وهو أبرز شخصية أدبية في النثر الفني بافريقية لهذا العصر.

أما الدولة الرستمية (160هـ-296هـ/ 777-909م)فقد اشتهر أئمتها بالعلم والفقه والأدب، وقد مشت شوطا كبيرا في ميدان الأدب العربي، وفتحت للغة الإسلام الأبواب على مصرعيها، فنبع بها الكتاب والشعراء والعلماء؛ ومنهم الإمام أفلح بن عبد الوهاب(188هـ-238هـ/803م-852م) وهو من أكابر الأئمة الرستميين وأشهرهم، و من قصائده العصماء تلكم القصيدة في فضل العلم التي يقول في مطلعها:

العلم أبقى لأهل العلم آثـارا و ليلهم بشموس العلم قد نـارا

يحي به ذكرهم طول الزمان و قد يريك أشخاصهم روحا و أبكارا[9]

كما سطع نجم الأديب الشاعر بكر بن حماد التيهرتي(ت296هـ/908م) في هذا العهد ونبغ في الشعر أيما نبوغ، ونظم قصائد جيدة في أغراض مختلفة؛كالوصف والمديح والهجاء والرثاء والاعتذار و الزهد و الوعظ.[10] ومن شعره:

قف بالقبور فناد الهامدين بها من أعظم بليت فيها و أجساد

قوم تقطعت الأسباب بينهـم مـ ن الوصال و صاروا تحت أطواد

والله و الله لو ردّوا و لو نطقوا إذا لقالوا التّقى من أفضل الزاد[11]

وما إن دخل العصر الحمادي حتى أضحت مدنه قلاع علم ودور أدب وموطن نشاط عقلي ومصدر رقي فكري صارت تضاهي قرطبة والقيروان، فأسس الحماديون المدارس والجوامع التي تدرّس العلوم والآداب، وكان ملوكهم يغْدقون على العلماء والشعراء، وقد راج سوق الشعر على عهدهم وقيل في شأنهم قصائد بليغة، وكان أشهر أدبائهم وشعرائهم من البيت الحاكم؛ أمثال المنصور بن الناصر بن علناس(481-498هـ/1088م-1104م) ويحي بن العزيز بن باديس(498هـ-515هـ/1104-1121م) الذي كان فصيح اللسان والقلم مليح العبارة بديع الإشارة، كما كان العزيز كثير المجالسة للأدباء والشعراء وتعجبه مجالس البحث والمناظرة[12].

أما عن رواد هذا العهد من فطاحل الأدباء فنذكر في مقدمتهم؛ يوسف بن محمد بن يوسف أبا الفضل ابن النحوي (ت513هـ/1119م) الذي ضرب به المثل في تقواه وزهد وورعه وعلمه. أجاد ابن النحوي قرض الشعر كما أجاد علوم الدين والفقه والكلام وغيرها، وقد برع في شعر التوسلات وهو نوع من أنواع الأدب الصوفي الذي انتشر ببلاد المغرب، وقد كتب في ذلك قصيدة جيمية عرفت بالمنفرجة، وهذه القصيدة جيميّة وضّح فيها ابن النحوي انقشاع الأزمة بعد شدّتها ودور الصوفية في فرْيِها، مطلعها –من البحر الخبب-

إشتدّي أزمة تنفرجي قد آذن ليلك بالبلج[13]

وظلام الليل له سرج حتى يغشاه أبو السّرج[14]

وسحاب الخير له مطر فإذا جاء الإبان تجي [15]

وقد نالت المنفرجة اهتمام العامة والخاصة، وأصبحت أثرا يستعينون به كلما حلّت بهم النوائب، وقد قام الفقيه أبو محمد عبد الله الحضرمي (ت 636 هـ - 1239م) لما أدخله الموحدون السجن في قسنطينة بتخميس[16] قصيدة المنفرجة مما يبين استمرارها وتأثيرها على النفوس في دفع الكرب، وتخليص الناس من شدائدهم[17] وقد قال عنها الغبريني:"مازلت هذه القصيدة - أي الجيمية - معلومة الإفادة ظاهرة الزيادة"[18] بل إن الاهتمام بها تواصل في المغرب الأوسط إلى غاية القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي .

ومن الأدباء نذكر أيضا يحي بن معطي الزواوي (ت628هـ/1230م) الذي كان فاضلا أديبا شاعرا وإماما مبرزا في العربية ، أخذ النحو عن الجزولي وله تآليف جليلة منها :في النحو- العقود – القوانين- حواش على أصول ابن السراج-شرح الجمل -شرح أبيات سيبويه نظما إضافة إلى -ديوان خطب-قصيدة في القراءات السبع- نظمان في العروض وفي صحاح الجوهري[19] .

ونشير في هذا العهد إلى تطور لون آخر من ألوان الأدب وهو الرسائل الإخوانية والرسائل الديوانية الإدارية التي كان يغلب عليها السجع واشتهر في هذا اللون ابن العالمي البجائي؛ الذي تفنّن في النثر من خلال رسائله الديوانية إذ كان من كتّاب الدولة الحمادية. وعموما فقد اشتهر العديد من الأدباء خلال هذا العهد نذكر منهم على سبيل الاختصار:

- عبد الكريم النهشلي(ت405هـ/1014م):كان كاتبا نقادة وشاعرا كبيرا عاش في بلاط الحماديين وأثر في البيئة الأدبية المغربية كثيرا، وقد تأثر به في النقد الأدبي ابن رشيق في عمدته. وكان أديبا كبيرا عارفا باللغة وخبيرا بأيام العرب وأشعارها، وكان مذهبه في الأدب مذهب أخلاقي .

-ابن رشيق المسيلي(ت463هـ/1070م) وكان كاتبا كبيرا وشاعرا مفوها ومؤلفا جليلا، ومن أهم آثاره التي رفعت قيمته الأدبية كتبه النقدية؛ ومنها كتاب العمدة في جزأين، وأسلوبه في غير الرسائل أسلوب سهل قوي لا يستهدف فيه السجع إلا ما جاء نادرا.

-أبو عبد الله محمد القلعي: عاش أواخر عهد بني حماد وهو جيد الشعر .

-أبو حفص عمر بن فلفول : وقد كان كاتبا في بلاط يحي بن عبد العزيز الحمادي(515هـ-547هـ/1121م-1152م).

أما على العهد الموحدي فقد اشتهر الشاعر القسنطيني شاعر المغرب الأوسط في زمانه[20] أبو علي حسن بن علي بن عمر بن الفكون القسنطيني (حيًّا سنة 602هـ / 1205م)، وقد ذكره العبدري[21](حيا سنة 688هـ / 1289 م) في كتابه الرحلة. وقد تفنَّن ابن الفكون في علوم شتَّى فكان رحَّالةً، وأديبا، وفقيها، وشاعرا ماهرا، قال عنه الغبريني: "....من العلماء الذين تُستظرف أخبارهم وتروق أشعارهم، غزير النظم والنثر وكأنّهما أنوار الزهر، وهو من الفضلاء النبهاء وكان مُرفَع المقدار، ومن له الحظوة والاعتبار، وكان الأدب له من باب الزينة والكمال، ولم يكن يحترف به لإقامة وُدٍّ أو إصلاح حال، وأصله من قسنطينة من ذوي بيوتاتها ومن كريم أروماتها وتواشيحه مستحسنة"[22] وقد اشتُهر هذا العالم بموالاته للبلاط الموحدي حيث مدح خلفاءهم في العديد من قصائده، حتى أجْزلوا له العطاء ونال منهم العديد من الجوائز، وذكر ابن قنفذ أنّ ابن الفكون[23] مدح الخليفة الناصر عند زيارته إلى قسنطينة(602 هـ/1205م) بقصيدة عظيمة لم تدوَّن، كما وصف بجاية معقل الحماديين في قصيدة- من البحر البسيط- مطلعها:

دع العراق وبغداد وشامَهما فالناصرية ما إن مثلها بلدُ

بَرٌّ وبَحْرٌ وموْج للعيون به مسَارِحٌ بان عنها الهمُّ والنَّكَدُ
حيث الهوى والهواء الطلق مجتمع حيث الغنى والمنى والعيشة الرغَدُ
والنهر كالصِّلِّ والجنَّات مشرقةٌ والنهر والبحر كالمرآة وهو يدُ
فحيثما نظرت راقت وكل نوا حي الدار للفكر للأبصار تتَّقد
إن تنظر البَرَّ فالأزهار يانعة أو تنظر البحر فالأمواج تطَّرد
يا طالبا وصفها إن كنت ذا نصف قل جنَّة الخلد فيها الأهل والولد[24]

كما ذكر لنا الرحالة العبدري أيضا القصيدة التي كتبها أثناء رحلته إلى مراكش وكان قد كتب بها إلى أبي البدر محمد بن مردنيش –أمير شرق الأندلس– وهو بقسنطينة – من البحر الوافر– وهي على النحو التالي:

ألا قل للسري بن السريِّ أبي البدر الجواد الأزْيحيّ[25]
أيا معنى السيادة والمعالي ويا بحر النَّدى بدر النديِّ[26]

4– عوامل تطور الحياة الأدبية في المنطقة خلال العهد الحفصي:

لقد ورث الحفصيون التراث الحضاري الذي خلفته دولة الموحدين مما جعلهم يسبقون بني زيان وبني مرين في المضي قدما نحو التطور والتقدم، فكانت دولتهم بتونس تمثل أرقى ما وصلت إليه الحضارة الإسلامية في القرن 7هـ13م وما بعده.وقد وصف ابن خلدون الدولة في عهد المستنصر (647هـ-675هـ/1249م-1276) بقوله:" وفي أيام هذا السلطان عظمت حضارة تونس وكثر ترف سكانها وتأنق الناس في الملابس والمراكب والمباني والماعون والأبنية فاستجدوها وتناغوا في اتخاذها وانتقائها إلى أن بلغت غايتها ثم رجعت من بعده أدراجها..."[27]وقد ذكر ابن خلدون في مقدمته أن تعلّم العلوم والآداب من جملة الصنائع، وأن الصنائع إنما تكثر في الأمصار وعلى نسبة عمرانها في الكثرة والقلة والحضارة والترف تكون نسبة الصنائع في الجودة والكثرة[28]، ولما كانت تونس من أهم الحواضر الكبرى في بلاد المغرب العربي– على حد تعبيره–أينعت الحياة الثقافية بها وانتشرت في كامل ربوع الدولة الحفصية، فأصبحت المملكة قبلة العلماء والأدباء والشعراء والفقهاء، وفد إليها كثير من علماء المغرب والأندلس بل وحتى بلاد المشرق، ولم تكن الجهة الغربية لها–مدن الشرق الجزائري– بمنأى عن ذلك كله. –ونحن هنا إذ نورد كلام ابن خلدون فنحن نرد عليه بما أورده في مقدمته ونفنّد مقولته الأولى التي قلّل فيها من شأن الأدب المغربي –

إن العامل الأساسي الذي أدى إلى ظهور حركة أدبية رائدة خلال هذه الفترة هو ما أفضنا الحديث عنه في العنصر السابق وهو ما يتعلق بالإرث الأدبي والتراكمات العلمية والفكرية التي سبقت هذا العهد، كما أن هناك عوامل أخرى مهمة لعبت دورها أيضا في تنشيط الحياة الأدبية وتفعيلها أهمها :

1– عناية الحكّام والأمراء بالعلم والعلماء:

لقد كان هذا العهد بالنسبة للمنطقة عهدا مشرقا، حيث ازدهرت فيه الحياة الثقافية بما توفَّر لها من أسباب النشاط، والمتمثّلة خاصة في عناية الملوك والأمراء بالعلماء والأدباء والفقهاء، وإعطائهم المكانة الرفيعة، وقد عمل الملوك الحفصيين على جلب العلماء والأدباء إلى بلاطهم بالحاضرة تونس التي كانت الوجهة الأولى لعلماء المغرب الأوسط، لكونها دار المملكة ومقر السلطنة، وما من فنٍّ من فنون العلم إلاَّ وُجد بها ولا موردا من موارد المعارف إلاَّ رأيت بها حوله واردًا وحائما، وبها من أهل الرواية عدد وافر يجْلُو الفخار بهم، وقال فيها القلقشندي : " لأهلها لُطْف أخلاق وكَرَمُ شمائل بالنسبة لأهل العُدْوة وسائر بلاد المغرب، وناهيك من بلاد شعرٍ ملكها أبو العباس، واسترسل في قوله شعرا–من البحر الطويل –:

مواطننا في دهرهن عجائب وأزماننا لم تعدّهن الغرائب

مواطن لم تحك التواريخ مثلها ولا حدَّثت عنها الليالي الذواهب[29].

وإذا كان هذا ديْدَنُ سلطان الدولة، فما ظنُّك بغيره من الأمراء والوُلاّة في الأقاليم التابعة للدولة، فبذلك وجد العلماء والأدباء طريقهم للسمو بالعلم والأدب في ظل الدولة الحفصية، فكانوا المثل الأعلى في النبوغ العلمي والإنتاج الأدبي[30]،وإسناد مهام الخطط الدينية والسياسية إليهم، والوقوف عند آرائهم السديدة التي يشيرون بها عندما يستشارون، وهذا ما حمل علماء المغرب الأوسط على التقرّب لبلاطات الأمراء الحفصيين، والانقطاع لخدمتهم إجابةً للرغبة العلمية الصادقة ووفاءً بالواجب المفروض ، فبثُّوا العلم ونشروا الأدب، وقدَّموا التآليف الجليلة لخزائن أمراء الدولة، ونثروا على الأسماع محامدهم وأشادوا بمفاخرهم[31].

كما اهتمَّ السلاطين والأمراء الحفصيّون بالمؤسسات التعليمية، وساهموا في بناء المدارس والجوامع والكتاتيب، وشجَّعوا التأليف وجمعوا أصناف الكتب، وبرزت رعايتهم للعلم والأدب، وقد كان من بينهم من ينتمي إلى نخبة العلماء والفقهاء، كالسلطان أبي زكريا الأول بن عبد الواحد بن أبي حفص (625هـ-647هـ/1227م- 1249م) الذي اشتهر بالأدب والشعر وله شعر مدوَّن، وكان يجالس طلبة العلم ويشاركهم أحسن مشاركة نازعا عن نفسه ثوب السلطة متزيّنا بحلَّة العلم، وكان لحرْصه على التعليم يقوم بزيارات خاصة للكتاتيب التي يدرَّس فيها الأولاد[32].

أما السلطان المستنصر (647هـ-675هـ/1249م-1276م) فقد رتَّب لمجالسته أعلاما من الفقهاء والأدباء، كالمحدِّث الحافظ أبي بكر بن سيد الناس[33] (ت669هـ/1270م)، والأستاذ ابن عصفور[34] (ت669هـ/1270م)، وابن الأبَّار[35] (ت658هـ/1259م)، وغيرهم من الأعلام[36].

كما كان الأمير أبو حفص عمر(683هـ-694هـ/1284م-1294م) يعظِّم الفقهاء والصلحاء ويبرُّهم، بل ويبادر إلى قضاء حوائجهم، وعلى عهده ملك الأمير أبو زكريا ابن الأمير أبي إسحاق قسنطينة وبجاية بعد عودته من تلمسان، وأحسن فيهما السيرة بعقله، وكان ميَّالا لمجالس العلم، فقرَّب العلماء وأنزلهم منزلتهم، وكان يجالسهم بمجلسه الموقَّر بقسنطينة وكذلك ببجاية، وهو الذي وسّع جامع القصبة بقسنطينة وأصلحه وجدَّده، وكان مشغولا ببناء المدارس واقتناء الكتب وجمعها، وضمِّ أنواع العلوم لها[37].

وقد كان السلطان أبو العباس أحمد بن أبي عبد الله -القسنطيني المولد-(772هـ-796هـ/ 1370م-1393م)-مثل أسلافه- يحضُر حلقات العلم بالمساجد، وكان ملازما لحلقة قراءة القرآن الأسبوعية بمقصورة جامع الزيتونة، وكان معظَمُ كُتَّابه من الفقهاء والأدباء وفحول الشعراء، وكان أغلبهم قسنطينيون وبجائيون، إذ كان السلطان يقدِّمهم عن غيرهم ولهم عنده مكانة خاصة، وكان من خدّامه المقربين الذين انتقلوا معه إلى الحضرة تونس الشيخ الوزير أبو إسحاق إبراهيم ابن الشيخ أبي الحسن ابن أبي هلال الهنتاتي(عاش في القرن 8هـ/14م)، وشقيقه الشيخ الحاج أبو عبد الله محمد(عاش في القرن 8هـ/14م)، وكلاهما قسنطينيان بالولادة، وقد كان الشيخ إبراهيم بن أبي محمد عبد الكريم بن كمّاد(عاش في القرن 8هـ/14م)-وهو من وجوه وأعيان مدينة قسنطينة- مقرّبا إلى بلاطه، وقد ولاّه السلطان خطّة الكتابة بحضرته[38]، وكان السلطان كثيرا ما يختار كتّابه من أهل قسنطينة وبجاية؛ ففي البيعة الأولى الواقعة بقسنطينة في شعبان من سنة 756هـ/ 1355م كان الكاتب أبو علي حسن بن أبي الفضل القسنطيني (ت 756هـ/1355 م) أوَّل من كتب له، وكان له خطّ حسن شهد له بذلك كل من كتب عنده،وفي مقدمتهم الأمير أبو عنان المريني(749هـ-759هـ/1348م-1358م) وغيره[39].

2- الرحلة في طلب العلم:

كانت الروابط الثقافية بين فقهاء وعلماء قسنطينة وأهل المغرب والمشرق والأندلس متينة، قائمة على الاتصال المتبادل، إما عن طريق النشاط الدبلوماسي، أو عن طريق الرسائل الإخوانية، أو رحلات الحج أو الرحلات العلمية، فتمَّ بذلك التلاقح الفكري رغم التجزئة السياسية التي كانت قائمة بين أقطار العالم الإسلامي آنذاك.

وقد كانت الرحلة في طلب العلم ميزة ذلك العصر، ويقول في ذلك ابن خلدون(ت808هـ/1406م): " فالرحلة لابد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال..."[40] وبقدر ما كانت الرحلة فحْصًا للأغوار والأنجاد، ووصفا للأمصار والبلدان، وتقصِّيًا لأحوالها الجغرافية والتاريخية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية؛ فإنها كانت أيضا محطة من محطات الاستزادة بالعلم والمعرفة، والأخذ عن الشيوخ والعلماء الكبار والتتلمذ على أيديهم،وقد أدرك علماء قسنطينة ما للرحلة من فوائد، فشدوا عصا الترحال عملا بما جاء في الحديث النبوي الذي رواه أبو هريرة (ض) في قوله صلى الله عليه وسلم " من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة "[41].

فكانت الرحلة إذن من التقاليد المعمول بها والمحمودة عند أهل المغرب الأوسط، حيث كانوا يسافرون في وقت كان فيه التنقُّل والترحال أصعب ما يكون في عصور بعده، لكن السعي من أجل العلم والرغبة في تحصيله ذلَّل كل الصعوبات وكسر كل الحواجز، فتوجَّه علماء المدينة للترحال إلى كل الحواضر العلمية مشرقا ومغربا. وقد تفاعل علماء المغرب الأوسط مع علماء وطلاَّب مختلف المدن والحواضر الثقافية التي زاروها، وأثَّروا بدورهم في الطلاَّب والشيوخ الذين التقوا بهم في حواضر المشرق والمغرب والأندلس، وذلك بما قدَّموه من عطاء فكري وبما أضافوه من شروح وتفاسير، صاغوها أفكارا في المختصرات والمدونات والتعليقات المختلفة[42].

3- التفاعل الثقافي بين المغرب والأندلس والمشرق والحضور الأندلسي في الأدب المغربي:

إن الاحتكاك الأدبي الذي وقع بين مثقفين وبين أعلام الثقافة المهاجرين من الأندلس والمشرق، وخصوصا مهاجري الأندلس الكثيرين الذين استوطنوا تلمسان وبجاية وقسنطينة والجزائر، فكان المغرب الأوسط قبلة العلماء ووجهة الرحالة العرب، حيث زاره العديد من علماء العالم الإسلامي ورحّالته الذين وصفوا أحواله، وترجموا لعلمائه الذين التقوا بهم، ومنهم الفقيه المحدث الحافظ المتقن اللغوي التاريخي ابن حمديس الصقلي الذي ولد بجزيرة صقلية سنة 447هـ/1055م ثم سافر إلى الأندلس سنة 471هـ/1078م ليستقر بعد ذلك في بجاية وأصبح شاعر المنصور الحمادي، وله ديوان شعر يشتمل على قصائد في مختلف المواضيع والإغراض الشعرية سواء في المدح أو الرثاء، ويعرف بشاعر الطبيعة الكبير، وقد عاش في بجاية أمدا ونشر بها أدبه. ومن المشرق وفد على بجاية علماء اجلاء واستوطنوها وأشهرهم الفقيه الشيخ تقي اليد الموصلي(القرن7هـ13م) كان ذلك زمن الشيخ أبي الحسن الحرالي[43].

ومن الذين زاروا المغرب الأوسط أيضا عز الدولة بن صمادح الذي كان من أمراء الأندلس وملوك الطوائف بها ولما خلعه يوسف بن تاشفين عن إمارته التحق ببجاية حوالي سنة 488هـ/1095م وكان أديبا وشاعرا فحلا[44]. كما زارها أيضا الفقيه أبو محمد عبد الحق بن إبراهيم الاشبيلي (ت581هـ/1185م) المحدث الحافظ العابد الزاهد نزل بجاية وقت فتنة الأندلس فبث بها علمه وصنف بها التصانيف، وولي أيضا الخطبة والصلاة بها ، وكانت له فقط مشاركة في الأدب والشعر لاهتمامه الكبير بالفقه والحديث ومن شعره :

إن في الموت والمعاد لشغلا وأذكارا لذي البنهى وبلاغا

فاغتنم خصلتين قبل المنايا صحة الجسم يا أخي والفراغا[45]

وممن زارها أيضا الفقيه الأديب الشاعر البليغ أبو بكر بن سيد الناس الاشبيلي(ت659هـ/1260م)، الذي رحل من الأندلس إلى المغرب الأوسط واستقر ببجاية، وولي صلاة الفريضة والجمعة بجامعها العظم، وروى بها وأسمع حتى تتلمذ على يديه العديد من طلبة العلم، وألف بها تآليف عديدة[46]، ولما سمع به المستنصر سلطان الحفصيين بتونس دعاه إلى بلاطه وقربه وجعله من خواصه وعاش بها ما قدره الله له حتى وافته منيته في السنة المذكورة، وكان ابن سيد الناس يكتب جيدا وينظم نظما حسنا ومن قصائده قصيدة على قافية العين في قصد الحج يقول في مقدمتها:

أيا سائرا نحو الحجاز وقصده إلى الكعبة البيت الحرام بلا غ

ومنه إلى قبر النبي محمد يكون له بالروضتين مراغ[47]

وحضيت المنطقة أيضا بوجود القاضي الفقيه الأديب ابن الغماز الأنصاري(ت693هـ/1294م) وهو من بلنسية، رحل إلى بجاية واستوطنها ونشر بها أدبه الصوفي وشعره الزهدي[48].

ومن الكتاب الأدباء الأندلسيين الذين كان لهم الأثر البالغ في الأدب المغربي الكاتبان الشهيران اللذان عاشا معظم حياتهما ببلاد المغرب؛ الأول ابن الأبار(ت658هـ/1259م) وأصله من بلنسيّة[49] وهو النحوي الأديب المجيد اللغوي الكاتب البارع كما وصفه الغبريني في درايته، استوطن بجاية واستقر فيها ودرس بها، وأقرا وروى وأسمع وصنف ، وله تآليف في حسنة، ونزعات في علم الأدب بارعة مستحسنة[50]. وقد كان مقربا أيضا من بلاط المستنصر الذي مدحه في قصائد عديدة وأول إنشاده لما مثل أمامه قوله:

بشراي باشرت الهدى والنور في قصدي المستنصر المنصور

وإذا أمير المؤمنين لقيته لم ألق إلا نصرة وسرورا

وذكر الغبريني انه لو لم يكن لابن الأبار إلا القصيدة التي رفعها لمقام الأمير الحفصي أبي زكريا يستنجده ويستصرخه لنصرة الأندلس لكان فيها كفاية ومطلعها :

أدرك بخيلك أرض الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا

ولو لم يكن له من التآليف غير كتاب "اللجين في مراثي الحسين" لكفاه في ارتفاع درجته فكيف وله تصانيف كثيرة وتآليف جمة[51].وقد أورد الغبريني في درايته الكثير من الوافدين من بلاد الأندلس إلى بلاد المغرب الأوسط وخاصة بجاية، وأشار إلى ذلك التناغم بين الثقافتين المغربية والأندلسية، وأبرز مجالات التأثر والتأثير الثقافي بينهما.

أما الكاتب الثاني فهو أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي الذي قال عنه ابن قنفذ:"رئيس الأدباء وكبير العلماء وعلامة عصره"[52]، عمل في بلاط أبي زكريا الأول(626هـ-647هـ/1228م-1249م) والمستنصر(647هـ/675هـ/1249م-1276م)[53] .

ولم يقتصر تأثير الأندلسيين على الأسلوب الأدبي فقط بل تعداه إلى التأثير في الرسم والخط،وقد كان النسخ يتم في أغلب الأحيان بالخط الأندلسي، فظهر في المنطقة الخطّاطون والنّساخون، وارتبط خطّهم بالخطّ الأندلسي الذي طغى على الخطوط المغربية الأخرى، حتى قال ابن خلدون عن ذلك " ونُسي خطّ القيروان والمهدية بنسيان عوائدهما وصنائعهما وصارت خطوط أهل إفريقية كلها على رسم الأندلس"[54].

وقد أدّى ذلك التفاعل الثقافي والتبادل العلمي إلى زيادة النشاط العلمي والأدبي، فتضلّع علماء وفقهاء المنطقة وبرز العديد منهم في مختلف العلوم، فأينعت التيارات الفكرية التي ظلت تتسرب إلى بلاد المغرب، وتطورت طرق التدريس؛ جامعة بين الطريقة المشرقية والأندلسية، وكثرت التآليف وظهر تيار الاجتهاد، ووردت مؤلفات جديدة،

وأصبحت من أمَّهات الكتب والتي تمَّ استخدامها في البرامج التعليمية كمختصر ابن الحاجب في الأصول والفروع ومختصر خليل بن إسحاق المالكي وغيرها.

2- دور الهجرة الهلالية في تعريب بلاد المغرب

في عهد بني حماد كان زحف بني هلال على افريقية سنة(442هـ/1050م) وعلى المغرب الأوسط(460هـ/1067م) وكان لهذا الزحف أثر كبير على المجال الاقتصادي والاجتماعي وكانت له سلبيات عديدة ، ذلك أن تلك القبائل كانت طبائعها ميالة إلى العنجهية والفوضى والتخريب حتى أن بعض المؤرخين أطلقوا على هذه الهجرات الهلالية مصطلح" الكارثة الهلالية"[55]، ورغم التأثير السلبي لها إلا أنها أثرت إيجابيا خاصة على المستوى الثقافي فقد أدت الهجرة إلى ترسيخ اللغة العربية في بلاد المغرب البربرية وطوعت اللسان البربري لينطق ويكتب بلغة القرآن خاصة عند سكان الأرياف،وسارت عملية الاستعراب بسير عملية المزج والاندماج الاجتماعي لقبائل العرب في المجتمع المغاربي، وبذلك عمت اللغة العربية أو كادت القطر الجزائري خلال هذا العهد .

3- مظاهر الحياة الأدبية في الجزائر الحفصية

إن تلك العوامل أدت إلى ظهور نهظة علمية وفكرية شملت مختلف المجالات الثقافية، فارتقت بذلك الفنون الأدبية بالقطر الجزائري، وبلغت مدى نضجها واستحقت أن تفرَد بالدراسة والتحليل.

1-الأدب النثري

لم يكن النثر في هذا العصر لونا واحدا بل تعددت ألوانه واختلفت؛ فمنه نثر الفقهاء وهو نثر علمي يعمد إلى المعاني ولا يهتم بالأساليب البيانية، وهناك نثر كتّاب التراجم والمؤرخين؛ وهو نثر وسط بين الأدبي والعلمي، فيه بعض عبارات التأنّق ولكنه يخلو من مميزات النثر الفني كالخيال وضروب الاستعارة، ويظهر ذلك من خلال كتاب عنوان الدراية للغبريني، والفارسية في مبادئ الدولة الحفصية لابن قنفذ القسنطيني.

أما **النثر الفني** فقد كان يمثله ببجاية الكاتب المترسل أبي عميرة الذي أقام بها مدة ثم نقله الحفصيون إلى تونس ليتولى كتابة الإنشاء السلطاني بها، وكتابته خفيفة رقيقة الأسلوب شأن كتّاب الأندلس عموما رغم التزامها للسجع. ويمثل هذا اللون أيضا أبو الخطاب ابن دحية الكلبي الذي كان يحشو كتاباته بالغريب تعاظما منه ومباهاة بمعرفة غريب اللغة وشاذّها، وبالتالي فإن نثر المغاربة كان متأثرا بل ومقلّدا لنثر الأندلس والمشرق[56].

كما يتجلى هذا النثر أيضا في **الرسائل الديوانية** التي كان يكتبها كتاب الدولة الحفصية البارعين وأشهرهم أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الوغليسي الذي كان عالما بالكتابتين الأدبية والشرعية،وعليه كان المعتمد في المخاطبات السلطانية إنشاء وجوابا، وعليه كان اعتماد القضاة في التسجيلات، وكان فصيح القلم واللسان بارع الخط[57]. وقد برز أدباء قسنطينة على مسرح البلاط الحفصي أيما بروز، فكان معظم كتاب الدولة منهم؛ وأشهرهم:

*- أبو علي حسن أبو الفضل القسنطيني (ت 756 هـ /1355م) اشتُهر بالكتابة وحُسن الخط ووجازة اللفظ، وهو من كبار كُتّاب الدولة الحفصية في أيّام الأمير أحمد بن محمد الحفصي(750هـ – 751هـ /1349م - 1350م) قال عنه ابن قنفذ " كان له خطّ حسن، وافق على حسنه كل من وقف عليه كالأمير أبي عنان (749هـ .759هـ / 1357.1348م) وغيره"[58].

*- عبد الرحمان بن محمد الغازي القسنطيني(توفي في القرن 8هـ/ 14م): كان فقيهاً له دراية تامة بالأنساب والتاريخ، من كُتّاب الدولة الحفصية على عهد أبي البقاء خالد، الذي بويع في 709 هـ/1309م[59].

*- أبو إسحاق بن إبراهيم بن وحّاد الكومي القسنطيني (عاش في القرن 8هـ /14م): شدَّ الرحال إلى الحاضرة التونسية فانخرط في مجالسها حتى صار شاعرا مفوّها، وأديبا بليغا يعد من فحول الشعراء، مدح سلاطين الدولة الحفصية في بلاطاتهم أمداحاً عذبة، وهو من بيوتات قسنطينة العدول، له كتابة مع حسن خطّ وإجازة لفظ، وكان من كتّاب الدولة الحفصية المشهورين[60]، وهو أول من كتب للسلطان أبي العباس أحمد[61](772هـ-796هـ/1370م-1393م).

*- أبو عبد الله محمد بن قاسم بن عبد الرحمان بن الحجر(ت810هـ/1407م): وهو كاتب علامة السلطان أبي العباس أحمد(772هـ-796هـ/1370م-1393م) واشتهر بحسن الخط ووجازة اللفظ، وبقي في كتابته للخليفة حتى وفاة هذا الأخير، ثم كتب من بعده للسلطان أبي فارس عزوز[62] (796هـ-837هـ/1393م-1433م)-ابن أبي العباس السابق-، واستمرّ أبو عبد الله محمد في خدمة سلاطين بني حفص حتى توفّي في السنة المذكورة[63].

ومن خصائص هذا النوع من النثر؛ التكلف والاعتماد على السجع وضروب البديع، والتضحية بالمعنى في سبيل قصد الألفاظ الجميلة، وكل ذلك يضفي على الرسالة جمالا أخّاذا بسبب التفنّن في انتقاء الألفاظ، وتصيّد ضروب الخيال وإدخال التفكير الفلسفي.

كما ظهر هذا النوع من النثر في **الرسائل الاخوانية**، ونلمس ذلك خاصة في العلاقات الأخوية والاجتماعية والعلمية بين العلماء والأدباء أو بين الشيوخ وتلامذتهم، ونورد هنا على سبيل المثال لا الحصر مراسلات قاضي بجاية أبو عبد الله محمد المسفر(ت744هـ/1343م) لشيخه يوسف بن يعقوب الملاري القسنطيني(ت764هـ/1362م)،والتي ذكرها ابن قنفذ في كتابه أنس الفقير وعز الحقير، أنبأت عن مستوى رفيع في الأدب، ووجدانيات عالية في التصوف والروحانيات، وتبيّن قيمة ومكانة الشيخ يوسف الملاّري عند تلاميذه وبين علماء عصره ونذكر من تلك الرسائل:

"بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

زارت وقد فعل النوى أفعاله صبًّا رأى في وصلها آماله

يا أهل بابل قد شغلتم باله بكم كما أشعلتم بنباله

فخذوا لكم منكم بكم حتى يرى منكم سواء هجره ووصاله[64]

الوحشية، لا أوحش الله منكم ، الالتفات ولو بالسر إلى السوى، والفرقة التفريق من الوصل والهوى، فالأول اعتراض عنه، والثاني طلب الحظ منه، والعبودية إخلاص التسليم، والإتيان بقلب سليم وأسأل الله لي وإياكم الوفاء بالعهود، وبلوغ المقصود بمنّه، وليعلم سيدي أبي يعقوب أن كتابه وصل وكنت على شوق له : فجدّد عندي ما لم يدرس، وأكّد عنّي ما لم يلتبس، وتبرّكت به وتآنست بوروده، وطلب منه موصله الجواب، وكان غرضي أن أطيل الكتاب لأنه عندي مناجاة معكم وملاقاة بكم، ولكن أعجل الظمآن قبل تمام ريِّه، والأمل مرافقتكم والتبرك بكم..."[65].

إن هذه الرسائل تعطي لنا قيما أدبية واجتماعية نادرة، وتوضح لنا العلاقة التي كانت تربط علماء العصر وتبين لنا أيضا مكانة الشيخ عند تلاميذه وقد تميزت تلك الرسائل في مجملها بـ:

- الاستشهاد بأبيات من الشعر في مطلع الرسائل كما في الرسالة الأولى .
- المبالغة في المدح وإضفاء صفاتٍ للممدوح تسمو به إلى مقام عليٍّ، تبرُّكا به وتوسّلا وتزلّفا إليه.
- طغيان عبارات التصوف المنتقاة من المعجم الصوفي على السياق العام للرسائل ومن ذلك" سيدي وسادتي الفقراء- بركتكم وبركة أشياخكم-لطائف روحانية- دوام المعية- الضمآن-باطن – ظاهر..." فهي رسائل من مريد إلى شيخه، تطْفَح بفيوضات الحبّ، وتنضح بلواعج الشوق الجامح إلى الوصْل والتلاقي.

– إن ملامح الخطاب في الرسالة لا تختلف عمّا عهده العرب من سيمات في هذا اللون من الأدب –أدب الرسائل – فالأسلوب يذكّرنا بأسلوب عبد الحميد الكاتب[66] (ت 132هـ/749م) الرفيع والعتيق، فالجمل القصيرة المسجوعة مسكوكة من معدن هذا اللون العريق، ولعلّ التردُّد العالي للجُمل القصار مردُّه إلى اللهفة المتسارعة للكاتب المتشوّق لرؤية سيّده وشيخه.

– طغيان الأسلوب الإنشائي من نداء إلى أمر يناسب هذا الغرض من الرسائل المتوسّلة إلى درجة الاعتقاد في بركة المرسل إليه، فهو مصدر الخير كله والغوث كله، وأسلوب الأمر هنا أمر توسُّل لا أمر تسلُّط أو ردعٍ أو زجر متعالٍ.

– استعمال ضمير جمع المخاطبين للمفرد المخاطب كقوله "سادتي الفقراء،منكم ، أسأل الله لي وإيّاكم، ولا تنسوني،..." وذلك لإعلاء قيمة الشيخ يوسف الذي يخاطبه ورفْعا لشأنه.

2– الشعر

اتسعت موضوعات الشعر في هذا العصر وترقّت أساليبها، ومن الموضوعات العادية المعروفة :الوصف والرثاء والهجاء والغزل والمدح وغيرها ، ولكن ظهرت في الشهر موضوعات جديدة نذكر منها: بكاء الشباب والتشاؤم من إدباره، و ظهور القصة الشعرية، وشعر الفروسية، وشعر التصوف الفلسفي، وشعر المولديات ومدائح النبي –صلى الله عليه وسلم–، ونزعة الزهد والتشاؤم.

وتبدوا في ضروب الشعر نزعتان:

النزعة الأولى :وجدانية وأرستقراطية ويمثلها شعراء البلاط السلطاني:

فكما هو معلوم أن هناك مؤرخون رسميون يؤرّخون للملوك ودولهم وسياساتهم، كان أيضا هناك شعراء رسميون في بلاطات الأمراء والملوك، وقد اشتهر في هذا الضرب الشاعر ابن دحية الكلبي(ت633هـ/1235م) الذي كان نحويا لغويا شاعرا بارعا، وشعره جزل الأسلوب عادي المعاني، وقد روى الغبريني له قصيدتين في مدح بني أيوب بمصر بعد مغادرته بجاية قال في مطلع إحديها:

مالي أسائل برق بارق عنكم من بعد ما بعدت دياري منكم

وبمنحنى الاضلاع بل وادي الغضا من مهجتي يا راحلين نزلتم

ومطلع الأخرى:

شجتني شواج في الغصون سواجع ففاضت هوام للجفون هوامع

وهيجن شوقا للأراجع باللوى وأين اللوى مني وأين الأراجع [67]

أما عن شعراء البلاط الحفصي فأشهرهم الشاعر القسنطيني[68]أحمد الخلّوف(ت899هـ/1493م)، الذي مدح سلاطين بني حفص في العديد من أشعاره، كما اشتهر أيضا بالمديح النبوي والشعر الديني، وله في ذلك ديوان كامل، وكان الخلّوف يجمع بين النثر والشعر حتى لقِّب بذي الصناعتين [69]، وقد كان الخلوف ملازما للسلطان الحفصي أبي عمرو عثمان(839هـ-893هـ/1435م-1488م) ومدحه في العديد من قصائده مشيدا فيها بآثاره وأعماله الجليلة ومنها – من البحر البسيط–:

في كفّه قلم فصل الخطاب غدا مبرّأ من خنى غيّ وفحشاء

يلقى على الطّرس أشياء مغيبة كأنّه قد تلقّاها بإيحاء[70]

ونوع هذا المدح مدحٌ في الخصال الفكرية، حيث مدح الخليفة بالعلم ووفرة العقل ورجاحة الفكر، وفي أبيات أخرى للخلّوف، مدح الشاعر السلطان بالانتصارات العسكرية التي تحققت في عهده، حتى صوّر السلطان في أكمل صورة

من الشجاعة والقوة والإقدام، وهو يحاكي في ذلك المتنبّي (ت354هـ /965 م) في مدحه لسيف الدولة (335هـ – 357 هـ/ 945م–967م)في قوله–من البسيط–:

مجرّد سيف رأى من عزيمته تكاد أن تختشيه أنفس النطف

ويقول الشاعر القسنطيني الخلّوف في أخرى–من الطويل–

تُؤمّل نعماه ويخشى انتقامه لطالب سلم أو لطالب فتنة

أمين بني الفاروق في حفظ سرّهم وعدّة نجواهم لدى كل شدّة

...يصول ويحمي شرعة نبوية بسمر رشاق أو ببيض جلية

...وإن هزّ يوم الحرب عامل رمْحه أراك قضيبا مثمرا بالمنية[71]

ولأحمد الخلوف ديوان ضخم في جزأين، خصّص الجزء الأول لمدائحه السلطانية، ومنها الأبيات التي ذكرناها ، والجزء الثاني لمدائحه النبوية.

ونذكر أيضا من شعراء البلاط الحفصي غير الخلوف:

*– ابن أبي تميم البجائي (ت684هـ/1285م): وهو من فحول شعراء الدولة الحفصية وهو من شعراء البلاط المقربين وقد تولى كغيره الكتابة وديوان الانشاء، ولد ببجاية وبها تعلم، ثم رحل إلى تونس واستقر به، اشتهر بالقصائد المطولة "الغر المستطابة" كما وصفها ابن رشيد السبتي، ومنها قصيدة عنوانها"رقم العذار في التهنئة بالختمة والأعذار " في 75 بيتا. وهي في ضرب المدح، كما عرف بقصائده الهجائية اللاذعة.[72]

*– شعيب البجائي(ت بعد 867هـ/1462م) أصله من بجاية، ويبدوا أنه كان من الوجوه التي تزينت بها تونس في الشعر والمؤانسة، خرج مع ثلة من الأدباء إلى بعض منتزهات تونس وتذاكروا في العلوم والأداب[73]،وهو من شعراء البلاط الحفصي غير أننا لم نعثر على نماذج من شعره.

*– أبو القاسم القالي(النصف الول من القرن السابع) ونسبته إلى مدينة القالة الساحلية بالشرق الجزائري وهو أديب وشاعر نعته ابن سعيد بالرئيس الكاتب وروى له ستة أبيات من الهزج في الفرح بانقضاء شهر رمضان، وكان من شعراء البلاط الحفصي وتولى الكتابة بديوان الإنشاء[74] .

النزعة الثانية:نزعة شعبية تعكس أفكار الشعب وآلامه.

لقد تنوعت ضروب الشعر الذي يحمل هذه النزعة لكن غالبيته كان بين الشعر الصوفي وشعر المديح الديني والشعر الاجتماعي، وقد طغت طائفة شعراء التصوف والمدائح وتوسعت منذ القرن السابع الهجري،وتركت لنا قصائد كثيرة، وقد تأثرت تلك الطائفة بمنهج أبي الفضل ابن النحوي(ت513هـ/1119م) صاحب المنفرجة،كما تأثرت بالصوفي العابد الزاهد الفقيه أبي الحسن علي بن احمد الحرالي(ت 683هـ/1284م) الذي تخلى عن الدنيا ورحل إلى المشرق فتفقه وتصوف، وشعره فيه نزعة التشاؤم، وقد ترك طلبة كثيرين ببجاية ساروا على هذا النهج الصوفي[75].ومن تلك الطائفة نذكر الشاعر الأديب أبو جعفر بن أبي أمية الشهير بـ "ابن مقلة زمانه" وله شعر كثير في الحكمة والتصوف ومنه هذه الأبيات:

أأمسك دمعا وقد أرسلت علي من الهجر ريح عقيم

غفت مقلة الوصل إغفاءه كنومة أهل الرقيم

فإن كان نهج الرضى مائلا فإن صراط المستقيم مستقيم

ولي مقلة نظرت في النجوم قضت لي ان فؤادي سقيم[76]

ومنهم أيضا الشاعر أبو عبد الله محمد بن الحسن القلعي (ت673هـ/1274م) الأستاذ اللغوي النحوي من قلعة بني حماد، اشتهر بشعر الزهد ومدح الرسول ومن شعره في ذلك:

أمن أجل أن بانوا فؤادك مغرم وقلبك خفاق ود معك يسجم

وما ذاك إلا ان جسمك منجد وقلبك مع من سار في الركب متهم

ثم يقول:

فيا طول شوقي للنبي وصحبه ويا شد ما يلقى الفؤاد ويكتم

توهمت من طول الحساب وهوله وكثرة ذنبي كيف لا أتوهم

وقد أثقلت ظهري ذنوب عظيمة ولكن عفو الله أعلى وأعظم

وأختم نظمي بالصلاة مرددا على خير خلق الله ثم أسلم[77]

كما لمع الشاعر أبو الحسن بن أبي القاسم بن الحسين بن باديس القسنطيني(ت787هـ/1385م) في الشعر الصوفي بسينيته المشهورة في التصوف والتي نظمها أواخر ذي الحجة عام 756هـ/1356م، وعدّد أبياتها نحو ست وتسعين بيتا، وقد تهافت العلماء بعده على شرحها؛ وكانت القصيدة السينية في الثناء على شيخ الطريقة القادرية المذكور، و الذي اعتبره الشيخ ابن باديس قطب الصوفية ومصدر النور وطريق الهداية وذلك في قوله(الطويل):

الأصل إلى بغداد فهي منى النفس وحدِّث بها عمن ثوى بطن الرمس

وبالجيلي[78] فابدأ فذاك قطبهم ومنهم استمدوا في الإضاءة والقبس

من أبدالها أقطابها علمائها أولي الكشف والعرفان والبسط والأنس

ومن قد أتاها نازح الدار منهم وضاء له نور الوَلاية كالشمس[79]

وأقرّ ابن باديس في سينيته بضرورة اللجوء إلى الصوفية في فري الأزمات، وهو ما ذهب إليه أبي الفضل النحوي(ت513هـ/1119م) في قصيدته المشهورة "المنفرجة"، فهي أيضا من شعر التوسلات الذي يُذهِب الحزن ويكشف الكُرَب[80]، وتبيّن السينية انتشار هذا الضرب من الشعر في الجزائر الحفصية وارتباط العامة به، وذلك في قوله:

فكم كربة أجلى الإله بجاههم وكم رقبة أعلى وأولى من الأوس[81]

ثم يحذّر الخائضين فيهم وفي كراماتهم ويتوعّدهم إن هم لم يقْلعوا عن ذلك في قوله:

فكن صادقا في حبِّهم ومصدِّقا بأحْوالهم واحذر مخالجة الشَّمس[82]

ومنهم أيضا القسنطيني المذكور آنفا أحمد الخلوف الذي برع في قصيد المدائح الدينية وله قصائد تحمل عناوين مسجّعة وهي قرابة أربعة وعشرين عنوانا منها:

- قطر الغمام في مدح خير الآنام، وعدد أبياتها423بيتا.
- استرواح القبول بمدح طه الرسول وعدد أبياتها 337 بيتا[83].
- استشفاء الكئيب بمناجاة الحبيب، وعدد أبياتها179 بيتا.
- تطفل ذي العدم على موائد ذي الكرم، وعدد أبياتها 67 بيتا[84].

وله أيضا بديعية ميمية سمّاها"**مواهب البديع في علم البديع**" مطلعها:

أمن هوى ثوى باللسان والقلم هلت براعة مرنى الدمع كالضمّ[85]

كما أظهر الشيخ محمد بن محمد بن أبي القاسم أبو العباس أحمد الغربي بركات القسنطيني (عاش في القرن9هـ/15م) رقّة شعرية فائقة، وكان مخالفا لأحمد الخلّوف –المعاصر – في نوع كتاباته الشعرية، فإذا كان شعر الخلّوف لصيقا بمدح

الملوك والأمراء، فإن بركات كرّس شعره في المديح النبوي فكان في مؤلّفاته – خاصة مؤلّفَيْه في المواعظ والإرشاد اللذين ذكرناهما- يفتتح مجالسهما-أي فصولهما- بأبيات من الشعر في مدح الرسول-صلى الله عليه وسلم- ، ومثال ذلك قوله في بداية مجلسه الأول مخاطبا الرسول الكريم -من البحر الطويل- :

دعوتك مضطرّا وأنت سميع وجئتك محتاجا فكيف أضيع

وبدأ المجلس الثاني بقوله- من البحر الخفيف-:

طال والله بالذنوب اشتغالي وتماديت في قبيح فعالي[86]

وبدأ مجلسه الثالث بأبيات منها-من البحر الطويل- :

أسير الخطايا عند بابك واقف له عن طريق الحق قلب مخالف[87]

وتشير كل تلك الأبيات إلى اعتراف الشاعر بذنوبه الكثيرة ومناجاته الله تعالى في أن يغفرها له ، مستشفعا بالنبي – صلى الله عليه وسلم- طالبا الرحمة والغفران

كما اشتهر الشاعر أحمد بن يونس القسنطيني(ت878هـ/1474م) أيضا بالشعر الصوفي والمولديات وأثرت فيه رحلته إلى بلاد المشرق، حيث درس بمكة فنون الكتابة والقراءة وعلوم الحساب والمنطق حتى اشتُهر به، تتلمذ عليه كثير من طُلاّبها، انتقل بعدها للمدينة المنورة وجاور قبر الرسول -صلى الله عليه وسلم- وله شعر عظيم في مدحه (صلى الله عليه وسلم) منه من البحر البسيط قصيدة مطلعها:

يا أعظم الخلق عند الله منزلة ومن عليه الثنا في سائر الكتب[88]

أما عن الإنتاج الأدبي خلال العهد الحفصي في مجال اللغة والأدب[89] فكان غزيرا ومن أهم المؤلفات ما ساهم به ابن قنفذ القسنطيني (ت810هـ/1407م)الذي ألّف الكتب التالية :"الإبراهيمية في مبادئ اللغة العربية"و"هداية السالك في بيان ألفية بن مالك"[90]و"بسط الرّموز الخفية في شرح عروض الخزرجية"[91] و"التخليص في شرح التلخيص"[92].كما ألف أبو عبد الله محمد القلعي(ت683هـ/1284م) كتابا في النحو سماه"الموضح في علم النحو" وله" حدق العيون في تنقيح القانون" وله " نشر الخفي في مشكلات أبي علي" وهو شرح لكتاب الايضاح في النحو[93]. وما هذا إلا غيض من فيض، فمعظم من ترجمنا لهم ومن وجدوا في كتب التراجم إلا ولهم باع في التأليف في مجال الأدب والشعر وغيرها من المجالات الأخرى.

وفي ختام هذا العرض يتبين لنا أن الجزائر الحفصية عاشت بحق عهدا ذهبيا تميز بحركية النشاط العلمي والثقافي والفكري، وأنتج أدبا ناضجا كان من أعمدته العديد من الأدباء والشعراء والذين تجاوزت شهرتهم حدود بلاد المغرب الأوسط إلى المغرب والأندلس والمشرق، وقد أنتجوا لنا تراثا أدبيا وإنتاجا غزيرا دلت عليه مؤلفاتهم وكتاباتهم التي – وللأسف- مازالت متناثرة بين ثنايا كتب التاريخ والتراجم والرحلات، وتنتظر من ينتشلها من ركام تلك المصادر ويجمعها في كتابات أدبية منفردة حتى نستطيع من خلالها الرقي بأدبنا وإحياء معالم الحياة الأدبية في تاريخنا المضيء والحافل بالتراث الثقافي والعلمي على مر العهود والأزمان.

هوامش الموضوع

(1)- ابن خلدون: المقدمة ،طبعة دار الفكر ، بيروت،ط1، 2004، ص452-453-457.

(2)- ابن قنفذ: الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية،تحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، تونس،1968، ص23-24.

(3)- ابن الشماع (أبو عبد الله محمد بن أحمد حيا سنة تأليف الكتاب 861هـ/1457م): الأدلة البينية النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق الطاهر بن محمد المعموري، الدار العربية للكتاب، ص 54.

(4)- عبد الحميد حاجيات " عنابة في عهد الحفصيين "، **مجلة الأصالة**،(تصدر عن وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية)، مطبعة البعث ، قسنطينة، 1976، العدد 35/34،ص75.

(5)- ابن قنفذ: الفارسية، ص108.

(6)- المصدر نفسه، ص108.

(7)-عبد الحميد حاجيات: " عنابة في عهد الحفصيين "، ص77.

(8)- المرجع نفسه، ص79.

(9)- بحاز ابراهيم: الدولة الرستمية، ، جمعية التراث ، القرارة الجزائر 1993 ص: 308- 363.

(10)- المرجع نفسه، 364.

(11)- رابح بونار: المغرب العربي تاريخه وثقافته، دار الهدى ، الجزائر، ط3، 2000، ص104-106.

(12)- سليمان داود بن يوسف: حلقات من تاريخ المغرب الاسلامي،مطبعة أبو داود، الجزائر، 1993، ص87.

(13)- البلج بفتح الفاء واللام : وضوح الصبح والأبلج الذي قد وضح ما بين حاجبيه فلم يقترنا. ينظر ابن منظور(أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الافريقي المصري ت711هـ/1311م):لسان العرب،دار صادر،بيروت،ط1997،1، ج1/ ص339.

(14)- أبو السرج: كناية عن الشمس.

(15)- الغبريني(أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله ت714هـ): عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق عادل نويهض،دار الافاق الجديدة ، بيروت،ط2، 1979، ص 272.

(16)- المراد بالتخميس : هو أن يعمد الشاعر إلى أبيات غيره فيقدم على البيت ثلاثة أشطر على روي الشطر الأول، فتصير خمسة أشطر، ولذلك سمي تخميسا، مثال ذلك: قال أبو بهاء الدين الموصلي في تخميس البردة :

بسم الاله مفيض الجود والكرم بدئي بمدحي وتخميسي بمختتَمي

الحمد لله ذي الآلاء والنعم الحمد لله منشي الخلق من عدم

ثم الصلاة على المختار في القدم

الأشطر التي تحتها خط هي الشطور المضافة إلى الأصل. ينظر عدنان حقي: المفضل في العروض والقافية وفنون الشعر، مكتبة الإيمان دار الرشيد، بيروت لبنان،ط1987،1،ص132.

(17)- الغبريني: المصدر السابق، ص .274

(18)- المصدر نفسه، ص273.

(19) رابح بونار: المغرب العربي تاريخه وثقافته،دار الهدى، عين مليلة الجزائر، ط3، 2000، ،ص191.

(20)- عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر من صدر الاسلام حتى العصر الحالي،مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت،1983، ص253.

(21)- العبدري(محمد البلنسي حيا سنة688هـ/1289م): الرحلة المغربية، تحقيق أحمد بن جدو، نشر كلية الآداب، الجزائر، ص 30.

(22)- العبدري: المصدر السابق، ص280-281.

(23)- ابن قنفذ: الفارسية، ص104 .

(24)- الغبريني: المصدر السابق، ص280-281.

(25)- الأزيحي : الذي يعطي راحة عند ركوبه.

(26)- النّدى : ويقصد بذلك الكرم.النَّديّ: ويقصد به النادي أو المجلس.

(27)- ابن خلدون: المقدمة، ص420.

(28)- المصدر نفسه، نفس الصفحة.

(29)- القلقشندي: كتاب صبح الأعشى، دار الكتب المصرية،مصر،1962،ج5/ص115.

(30)- الرصاع(أبو عبد الله محمد الأنصاري)، فهرست الرصاع، المكتبة العتيقة، تونس، ص53-54.

(31)- المصدر نفسه، ص ز.

(32)- ابن قنفذ: الفارسية، ص112-114.

(33)- هو الشيخ الخطيب الحافظ اللغوي أبو بكر لقي مشايخ عدة منهم والده الفقيه أبو العباس والشيخ أبو العباس أحمد بن عيسى وغيرهما، أقرأ بإشبيلية وكان راوية حافظا للحديث يقوم قياما حسنا على البخاري، وكان يكتب جيدي وينظم حسنا، توفي في ثالث عشر جمادي الأخير من سنة 657هـ/1258م. ينظر أحمد بابا التمبكتي(ت963هـ/1036م): نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تحقيق عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس،ط1، 1989،ص381.كما ينظر ابن قنفذ: الوفيات، تحقيق عادل نويهض، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت ،ط4،1973،ص326.

(34)- هو أبو الحسن علي بن مومن بن محمد بن علي الحضرمي للاشبيلي، المعروف بابن عصفور، حامل لواء العربية بالأندلس، ختم على الشيخ أبي علي الشلوبين كتاب سيبويه، وأقرأ بإشبيلية ومالقة ومرسية، ولد سنة597هـ/1200م، وتوفي سنة669هـ/1270م، من كتبه "الممتع" و"المفتاح" وغيرها. ينظر ابن قنفذ: الوفيات، ص331.

(35)- هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي، المعروف بابن الأبّار، مؤرخ كبير، وأديب وناقد، كان أعلم الناس بتاريخ المسلمين السياسي والعلمي والأدبي، من أهل بلنسية وأصله من أندة، ولد سنة595هـ/1198م، ونشأ في بيت علم ودين وعفاف، ولي قضاء دانية سنة 633هـ/1235م، وبعد استيلاء الروم على بلنسية 636هـ/1238م سافر إلى بجاية ثم إلى تونس، فكان مقرّبا من سلاطين الدولة الحفصية على عهد أبي زكريا ثم ابنه المستنصر المذكور، وقد عمل في بلاط هذا الأخير إلى أن ساءت العلاقة بينهما بعمل الوشاة، فأمر المستنصر باعتقاله وسجنه، ثم ضربه بالسياط حتى قتله سنة 658هـ/1259م، و أُحْرقت جميع مؤلفاته وكانت نحو خمس وأربعين كتابا منها: "التكملة لكتاب الصلة" و"تراجم علماء الأندلس" و"الحلّة السيّراء"و"تحفة القادم" وغيرها. ينظر ابن قنفذ: الوفيات، ص324-325.

(36)- ابن قنفذ: الفارسية، ص123.

(37)- المصدر نفسه، ص148.

(38)- المصدر نفسه ، ص178 .كما ينظر الزركشي(أبو عبد الله محمد بن إبراهيم حيا سنة 894هـ/1488م): تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماضود ، المكتبة العتيقة تونس، 1966، ص107.

(39)- ابن قنفذ: الفارسية، ص179.

(40) ابن خلدون: المقدمة، ص 618.

(41)- حديث شريف رواه مسلم. ينظر أبو زكريا يحي بن شرف النووي الدمشقي:رياض الصالحين ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان،، ط1، 1424هـ/2003،ص252.

(42)- عبد العزيز فيلالي: مدينة قسنطينة في العصر الوسيط،طبعة دار البعث، قسنطينة، 2007 ، ص 99.

(43)- الغبريني: المصدر السابق، ص180 وما بعدها.

(44)- ابن الذيب عيسى وآخرون: الحواضر والمراكز الثقافية في الجزائر ، سلسلة المشاريع الوطنية للبحث، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث،2007، ص132-133.

(45)- الغبريني : المصدر السابق ، ص41.

(46)- المصدر نفسه، ص292-294.

(47)- المصدر نفسه، ص295.

(48)- نفسه،ص119-121.

(49)- ابن قنفذ: الفارسية، ص122.

(50)- الغبريني :المصدر السابق،ص310-311.

(51)- المصدر نفسه، ص310-312.

(52)- ابن قنفذ: الفارسية ، ص166.

(53) روبار برونشفيك: تاريخ افريقية في العهد الحفصي، ترجمة حمادي الساحلي، ط1، دار الغرب الاسلامي،بيروت ،1988، ج2 /ص 420 .

(54)- عبد الرحمان ابن خلدون:كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، طبعة بيروت،1966،، م6/ ص751 . وينظر سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ج1/ ص 292.

(55)- علاوة اعمارة:"الهجرة الهلالية وإشكالية انحطاط حضارة المغرب الوسيط"مجلة الآداب والعلوم الانسانية،العدد الرابع، جامعة الأمير عبد القادر ، قسنطينة، 2004، ص46.

(56)- رابح بونار: المرجع السابق، ص319-320.

(57)- الغبريني: المصدر السابق، ص282

(58)- ابن قنفذ: الفارسية، ص179.كما ينظر عبد العزيز فيلالي: قسنطينة، ص 148.

(59)- ابن قنفذ: الفارسية، ص156.

(60)- المصدر نفسه، ص 178.كما ينظر عبد العزيز فيلالي: قسنطينة، ص148.

(61)- ابن قنفذ: المصدر السابق، ص179.كما ينظر الزركشي: المصدر السابق، ص107.

(62)- الزركشي: المصدر السابق ، ص115.

(63)- المصدر نفسه، ص123.

(64)- الأبيات من البحر الكامل.

(65)- ابن قنفذ:أنس الفقير وعز الحقير، تحقيق محمد الفاسي وأدولف، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1965، ص54.

(66)- هو الأستاذ الأول للكتابة الفنية عند العرب، عبد الحميد بن يحي بن سعد العامري نشأ في الأنبار واحترف التعليم في الكوفة، واتصل بخلفاء بني أمية وعظمت منزلته عند الخليفة مروان بن محمد، قتل في أثناء الصراع العباسي الأموي عام سقوط دولة الأمويين في 132هـ/749م ، وهو أستاذ البلاغة العربية ورائد كتَّاب الرسائل عامة، طوّر الرسائل بكثرة التحميدات في صدر الرسالة، وبالتوسع في المعاني والعناية بترتيبها ووضوحها. ينظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام، دار الجيل ، بيروت ، ط15، 2001، ج2/ص281.

(67)- الغبريني: المصدر السابق، ص223-225.كما ينظر رابح بونار: المرجع السابق،ص325.

(68)- نسبة أحمد الخلوف إلى قسنطينة عن طريق المولد حيث ولِد بها سنة 829هـ/1425م، ولكنه رحل منذ صغره مع أبيه إلى مكة ثم إلى بيت المقدس، وبعد وفاة والده رحل الخلوف إلى تونس سنة859هـ/1454م واستقرها. ينظر أحمد الطويلي: الحياة الأدبية بتونس في العهد الحفصي، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، القيروان تونس، 1996، المجلد الثاني، ص280.

(69)- سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1/ص79.

(70)- أحمد الطويلي: المرجع السابق، المجلد الثالث،ص369.

(71)- المرجع نفسه، ، ص371.

(72)- المرجع نفسه، المجلد الأول، ص127.

(73)- المرجع نفسه،المجلد الثاني، ص265.

(74)- أحمد الطويلي: المرجع السابق،المجلد الأول، ص69.

(75)- الغبريني:المصدر السابق،ص151-155.رابح بونار:المرجع السابق، ص325.

(76)- الغبريني: المصدر السابق، ص616-617.

(77)- المصدر نفسه، ص69-71.

(78)- يقصد بالجيلي: الشيخ عبد القادر الجيلاني(ت560هـ/1165م).

(79)- الأبيات مضطربة الوزن وهكذا وُجدت في المخطوط.

(80)- رابح بونار: المرجع السابق، ص 271.

(81)- ابن باديس: مخطوط اللمحات الأنسية في شرح النفحات القدسية، مخطوط ضمن مجموعة الخزانة العامة، الرباط، تحت رقم2189D.، ورقة 279.

(82)- ابن الحاج التلمساني:(أبو العباس أحمد ابن الحاج اللبيدي ت 930هـ/1523م): أنيس الجليس في جلو الحناديس عن سينية ابن باديس، تحقيق الميسوم فضة ،دار الخليل القاسمي، الجزائر، 2006، ص14.

(83)- محمد بن محمد مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية،دار الفكر، بيروت ،(د ت)، ص273. كما ينظر سعد الله:تاريخ الجزائر الثقافي،ج1/ص82-83.

(84)- أحمد الطويلي: المرجع السابق، المجلد الثاني ، ص281.

(85)- المرجع نفسه، المجلد الثالث،ص371.

(86)- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي ،ج1/ ص109.

(87)- المرجع نفسه، ص110.

(88)- الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، مؤسسة الرحالة ، المكتبة العتيقة، تونس، 1985،ج2/ ص ص 106-107. كما ينظر عبد العزيز فيلالي: مدينة قسنطينة في العصر الوسيط، طبعة دار البعث، قسنطينة، 2007، ص ص 136-137.

(89)- اللغة: تعني اللسن، وهي أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم ولغوت أي تكلمت،واللغو: النطق، واللغة هي الألفاظ الموضوعة للمعاني.أما الأدب فهو الإجادة في فني النظم والنثر أو ما يعبر عن معنى الحياة، بأسلوب لطيف جميل سواء كان ذلك شعرا أم نثرا. ينظر محمد حسين محاسنة: أضواء على تاريخ العلوم عند المسلمين،دار الكتاب الجامعي، العين الامارات،ط 2000،2001/1،، ص175.وعند ابن خلدون باختصار دقيق: اللغة هي عبارة المتكلِّم عن مقصوده. ينظر المقدمة، ص624.

(90)- وابن مالك هو أبو عبد الله محمد بن مالك الطائي الأندلسي النحوي عاش بين(600 هـ- 672هـ/1203 م-1273م) ولد بجيَّان وتوفي بدمشق، وألفيته مشهورة ولها العديد من الشروح وهي مطبوعة. والكتاب في حكم المعدوم ينظر ابن قنفذ : الفارسية، ص 80-83.

(91)- وهو أيضا مفقود.ابن قنفذ: شرف الطالب، ص 54. أما الخزرجية في العروض فهي لضياء الدين أبي محمد عبد الله بن محمد الخزرجي المالكي الأندلسي وهي من البحر الطويل مطلعها:

وللشعر ميزان تسمّى عروضه بها النقص والرجحان يدريهما الفتى

وشروح هذه القصيدة عديدة منها المطبوع والمخطوط . ينظر ابن قنفذ: الفارسية، ص79-80.

(92)- للكتاب ذكر في مخطوطات الرباط والمكتبة الوطنية بتونس. ينظر ابن قنفذ: شرف الطالب، ص45. وقد ذكر الأستاذ سعد الله أن الكتاب مختصر لكتابه"خط النقاب" في الحساب أي تلخيص أعمال الحساب لابن البنا. سعد الله:تاريخ الجزائر الثقافي،ج1/ص114.

(93)- الغبريني: المصدر السابق،ص70.

الهجرات و أماكن الإقامة [1]

د.نجوى طوبال

قسم التاريخ /جامعة الجزائر2- ابو القاسم سعدالله

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

Résume:

La communauté Juifs d'Alger, à été formaient: des Juifs originaires du pays ; les immigrants plus récent venaient de l'Espagne en 1387, en 1391 et surtout en 1494 ; il y eut par la suite des juifs qui vinrent des principaux pays européens et surtout d'Italie, pendant des nombreuse années restée fidèles à leurs coutumes, avaient leurs propre justice, des écoles hébraïque ; ils jouissaient d'une très grande liberté et tolérance et ils ont installé dans plusieurs cite à la ville d, Alger.

الملخص:

تتشكل الطائفة اليهودية سكنت بمدينة الجزائر، من اليهود المهاجرين من اسبانيا، سنوات 1387 و 1391، و خاصة سنة 1494، أي بعد سقوط الأندلس، و تباعا توافدت إلى المدينة هجرات أخرى من دول أوروبية مختلفة، و خاصة من إيطاليا. و على مر السنوات بقي اليهود بمدينة الجزائر محتفظين بعاداتهم و قضائهم المستقل و مدارسهم العبرية، و تمتعوا وسط السكان بحرية و تسامح كبيرين، و هم الذين استوطنوا في عديد المواقع بمدينة الجزائر.

مقدمة:

مما لا شك فيه أن البحث في وضعية اليهود أثناء مرحلة حكم الدايات، و هي مرحلة هامة جدا من تاريخ الجزائر، يثير الكثير من الفضول التاريخي ويطرح جملة من التساؤلات، نظرا للخصوصية الدينية-العرقية لهذه الطائفة من جهة، وانطلاقا من الدور الحساس الذي لعبه اليهود في تاريخ الجزائر من جهة ثانية، إذ اعتبروا من بين الأسباب التي نخرت جسدها وزادته ضعفا حتى سقطت تحت وطأة الاحتلال الفرنسي سنة 1830.

فقد حرص اليهود على استغلال هذه الأوضاع السياسية و الإدارية الهشة لصالحهم، فتفرغوا لتحقيق المكاسب الاقتصادية والمالية، وعملوا على الاحتكاك والتقرب من الفئة الحاكمة وموظفي الجهاز الإداري، فاستحوذوا على احتكارات تجارية، باستعمال وسائل مختلفة كالرشوة و القرب بالهدايا ثمينة والقروض المالية والتجسس في الداخل والخارج لحساب البعض...الخ، فساهموا بذلك في نشر الفساد والرشوة بين موظفي الإدارة. كما نجحوا أيضا في تهميش المنافسين من التجار المسلمين، وبذلك سيطر اليهود على مقاليد التجارة الخارجية، التي تعتبر عصبا اقتصاديا حساسا.

1- هجرات اليهود إلى مدينة الجزائر

وجدت بمدينة الجزائر- العهد العثماني[2] جماعات يهودية مختلفة، فقد سُجل منذ القديم توافد عناصر يهودية إلى شمال إفريقيا، بعدما لحق بهم من شتات [3] واستقروا بالمراكز التجارية التي أنشأها الفينيقيون على سواحل الشمال

(1)- يعود الفضل في اهتمامي بالدراسات الاجتماعية في الجزائر في العهد العثماني ، للأستاذة المرحومة بإذن الله تعالى- الدكتورة عائشة غطاس، التي و بخبرتها رأت أن الدارسين، الجزائريين في هذا الجانب قلة، و أن هذا الضعف يجب أن يُغطى حتى يسد الباب أمام المدرسة التاريخية الفرنسية، التي عمل أصحابها على تشويه تاريخ الجزائر عموما و الجزائر في العهد العثماني خصوصا.

الإفريقي، واستمر توافدهم إلى المنطقة لكن بصفة غير منتظمة، ذلك خلال العهود الرومانية و الوندالية والبيزنطية، كما سجل وقتئذ تهوّد بعض القبائل البربرية. ومع بداية الفتوحات الإسلامية ذكرت الصادر توافد أعداد أخرى من اليهود استقرت بمختلف المدن الداخلية الواقعة على الخطوط التجارية وبالمدن الجديدة التي بنيت أو أعيد بناؤها بالمغرب الإسلامي[3]وشكل هؤلاء جميعا ما عرف بجماعة **اليهود الأهالي أو"التوشابيم**[4]

أما **جماعة اليهود "الميغورشيم"** فهم من أصول إسبانية وبرتغالية، هاجروا من شبه الجزيرة الإيبرية واستقروا ببلاد المغرب بعد صدور قرارات الطرد في كل من –إسبانيا والبرتغال– خلال سنوات 1391م، 1492م، 1496م، ولم تتوقف حركة الهجرة اليهودية بل تواصلت طيلة القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين، اثر وصول عناصر جديدة من اليهود الأوروبيين عرفوا باليهود الفرنجة "Les Juifs Francs"[5] وأبرزهم: اليهود الليفورنيون (نسبة إلى مدينة ليفرونه الإيطالية)، الذين تميزوا عن غيرهم بنفوذهم المادي وتحكمهم في التجارة، وتقربهم من الفئة الحاكمة، و تنضوي هذه الجماعات اليهودية ضمن طائفة كبرى ينتمي إليها يهود حوض البحر المتوسط، وهي طائفة اليهود "السفرديم[6]

1–1– هجرات اليهود خلال القرن الرابع عشر

ذكر "حنون" بأن حركة الهجرة اليهودية من الأراضي الأوروبية إلى بلاد المغرب الأوسط خصوصا، بدأت قبل عام 1391م، حيث يشير إلى أواخر القرن الثالث عشر ميلادي، حين تحدث عن وصول جماعة صغيرة من اليهود، وفدت إلى مدينة الجزائر من جزر البليار، وبالضبط من مدينة مايورقة بعد أن تعرضوا للطرد من طرف الملك ألفونسو الأراغوني[7]

أما لوجي دي تاسي "Laugier de Tassy" فقد ذكر أنه في سنة 1342م، وصل إلى مدينة الجزائر مهاجرون يهود من إيطاليا ويضيف بأن عناصر أخرى وفدت من الأراضي المنخفضة عام 1350م [8] غير أن هذه الهجرة أصبحت أكثر أهمية بداية من سنة 1391م، على إثر أعمال العنف التي لحقت باليهود في بعض المناطق من إسبانيا وتحديدا في مملكتي قشتالة وأرغونة ثم في كتالونيا وجزر البليار[9]، و قد اعتبر دي غرامون "De Grammont" ظاهرة لجوء اليهود إلى بلاد المغرب بالذات، طيلة القرن الرابع عشر ميلادي من الأمور الغريبة، ولم يجد لهذا الأمر تفسيرا مقنعا[10]

1–2– الهجرة اليهودية بعد سقوط الأندلس:

استقبلت بلاد المغرب أعدادا كبيرة من المهاجرين المسلمين واليهود على السواء بعد سقوط الأندلس عام 1492م [11]، والملاحظ أن عدد اليهود ازداد بالمنطقة بعد إصدار الملك "فرديناد الكاثوليكي" لمرسوم ملكي في 31 مارس 1492م، يقضي بطرد اليهود نهائيا من إسبانيا [12] إذ تحدث أبيطبول "Abitbol" عن خروج 160 ألف يهودي –على الأقل– من إسبانيا خلال صائفة عام 1492م[13] في حين ذكر زعفراني "Zafrani" حوالي 200 ألف يهودي في الفترة نفسها[14]

وبالرغم من اختلاف التقديرات، فإن الكثير من اليهود استقروا بالأراضي العثمانية فبمدينة اسطنبول وحدها تكونت أكبر جماعة يهودية في أوروبا، كما استقبلت كل من مصر وسوريا وفلسطين أعدادا هامة منهم، إضافة إلى الذين استقروا بمختلف مدن بلاد المغرب[15] خاصة وأن ظروف إقامة اليهود في الأراضي العثمانية وقتئذ اختلفت كثيرا عن تلك

التي عرفوها في أجزاء مختلفة من أوروبا[116] إذ نوّه أندريه ريمون "André Raymond" بسياسة التسامح الديني التي انتهجتها الدولة العثمانية تجاه الأقليات ويرى أنه كان لهذا الأمر تأثيرا إيجابيا على وضع جميع الجماعات اليهودية، سواء تلك التي استقرت منذ القديم في البلاد العربية أو تلك التي وفدت لاحقا من أوروبا، هروبا من الاضطهاد الذي لحق بها، خاصة في إسبانيا والبرتغال[17] بالرغم من أن العثمانيين لم يشجعوا الهجرة اليهودية ولم يعرقلوها، وإنما حرصوا على معاملتهم معاملة حسنة حسب ما تقتضيه الشريعة الإسلامية[18]

لقد كانت مدينة الجزائر من المدن التي استقر بها اليهود، و عرف هؤلاء القادمون الجدد بـ "حاملي القبعات" أو"الكابوسين" (Porteurs de capuches) [19]، وعاش اليهود بين الجزائريين منذ نهاية القرن الخامس عشر و طيلة القرن السادس عشر في أمان، حيث مارسوا شعائرهم الدينية و حافظوا على عاداتهم الاجتماعية، و تعاطوا النشاط الاقتصادي بكل حرية، خاصة بعدما سمح لهم "خير الدين بربروس" بالإقامة في المدينة و مكّنهم من فتح عدد من الورشات و المحلات في كل سوق، لممارسة حرفهم اليدوية و نشاطاتهم الاقتصادية المختلفة[20]، و مما ساعد على اندماج اليهود في الحياة العامة، ثقة الحكام الأتراك بهم، وتفضيل المسلمين التعامل مع اليهود الميغورشيم خاصة، لتشابههم مع مسلمي الأندلس في طرق المعيشة وأسلوب الحياة وفي اشتغالهم بالحرف اليدوية[21].

1-3- اليهود "الليفورنيون[23]" في المدينة

إن بداية استقرار عناصر يهودية ليفورنية بمدينة الجزائر يعود إلى النصف الثاني من القرن السابع عشر، على أن توافدهم استمر طيلة القرن الثامن عشر ميلادي وعرفوا باليهود الليفورنيين أو "اليهود الفرنجة" وقد تمتعوا بامتيازات خاصة، إذ شملتهم امتيازات حظي بها الفرنسيون خصوصا والأوروبيون عموما لدى الدولة العثمانية[24] من بينها الإعفاء من دفع أغلب الغرامات والمساهمات التي كان يدفعها باقي اليهود حيث أعتبر اليهود الليفورنيين رعايا أوروبيين، شملتهم حماية القنصل الفرنسي مباشرة كما تميزوا عن باقي أبناء ملتهم حتّى في اللباس إذ ارتدوا الأزياء الأوروبية[25]

أما عن سبب استقرارهم بالمدينة، فيبدو أن ذلك حدث بتشجيع كبير ومباشر من دوق توسكانيا[26] فتحولوا بفعل علاقاتهم العائلية مع يهود مدينة الجزائر، إلى وسطاء هامين ما بين الولايات العثمانية (الجزائر وتونس وطرابلس)، والمدن الأوروبية ولاسيما في عملية افتداء الأسرى وبيع الغنائم البحرية، فحققوا من وراء هذه التجارة أرباحا طائلة، ونتيجة ممارستهم لمثل هذه الأعمال تدعمت وتقوت صلتهم بالدول المسيحية[27]، كما دفع هذا النشاط بالكثير منهم في البداية إلى الاستقرار المؤقت بالمدينة، ثم تحولوا إلى الإقامة الدائمة، وكانت الامتيازات التي حظيوا بها حافزا لذلك[28]

وقد تميزت الأعمال التجارية لليهود الليفورنيين بطابعها العائلي، فبعض العائلات رأت أنه من الحكمة إنشاء فروع ووكالات لشركاتها في كل من الجزائر وتونس وطرابلس، وعينوا أقاربهم مشرفين لهذه الفروع، بهدف تسهيل الصفقات التجارية[29] ومن أبرز هؤلاء التجار الذين استقروا بمدينة الجزائر في أواخر القرن17م، نذكر كل من: بن دحمان وساكوتو وإسحاق وكوهين وصموئيل هانريكان وموسى كوهين وباروخ لوصاد وموسى قابيسون وهارون ديباز...إلخ[30]

وإذا كانت معظم المصادر تشير إلى خط الهجرة المعروف من مدينة ليفورنه باتجاه مدينة الجزائر، فإن فيليبيني "Phillipini" يشير إلى وجود تيار هجرة معاكس أي من مدينة الجزائر نحو مدينة ليفورنه، ابتداء من منتصف القرن السابع عشر ميلادي واستمر طوال القرن الثامن عشر، وقدرت نسبة اليهود الوافدين إلى ليفورنه من مدينة الجزائر مع نهاية القرن، بـ13% من مجمل اليهود المقيمين بليفورنه. وتعود هذه الهجرة بالدرجة الأولى إلى عوامل اقتصادية، ورغم أنها

شملت فئات اجتماعية مختلفة من اليهود، إلا أن الغالبية تشكلت من اليهود المغامرين والباحثين عن فرص العمل والارتزاق في ميناء ليفورنه، ومن التجار الباحثين عن الثروة وعن فضاء أوسع للتجارة، هذا بالإضافة لظروف الإقامة المشجعة والمعاملة الحسنة التي خصّتهم بها سلطات مدينة ليفورنه، نظرا للمكاسب المادية التي كان يتحصل عليها الحكام من جراء ازدهار تجارة الغنائم البحرية[31]

وما يجب ذكره أن هجرة اليهود الليفورنيين إلى مدينة الجزائر قد اختلفت عن باقي الهجرات نظرا لكونها هجرة اختيارية فاستقرارهم كان لأسباب اقتصادية-تجارية بالدرجة الأولى، على عكس الهجرات اليهودية الأخرى والتي كانت اضطرارية (لأسباب دينية-سياسية). و قد شكل اليهود الليفورنيون قوة اقتصادية بالمدينة ونشطوا حركة التجارة بين موانئ ضفتي البحر المتوسط واستفادوا من علاقاتهم التجارية في أوروبا عموما، ومن صلاتهم العائلية مع اليهود الأوروبيين خصوصا، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن الاستقرار اليهودي بمدينة الجزائر لم يكن عشوائيا، لأنهم قدّروا ذلك الازدهار الاقتصادي الذي عرفته المدينة والمتأتي من عوائد النشاط البحري. ومن ثمة أضحت مدينة الجزائر نقطة جذب واستقطاب لهؤلاء اليهود الذين أصبحوا وسطاء مهمين في عملية افتداء الأسرى و تجارة الغنائم البحرية.

2- أماكن الاقامة

2-1- انتشار اليهود في المدينة

لقد فضل اليهود الاقامة في المنطقة السفلى من مدينة الجزائر[32]، حسب ما ذكرته المراجع اليهودية ونشير هنا إلى "حنون"[33]، وما أكدته الدراسات الحديثة، ونشير إلى الدراسة التي قام بها "بن حموش"، والذي حاول رصد مراكز تجمع اليهود بالمدينة وتوصل إلى أن نسبة كبيرة من ملكيات اليهود تركزت في القسم السفلي منها وبصفة خاصة حول قصر الداي بنسبة 67,7% واعتبر هذه المنطقة من أهم المناطق التي أقام فيها اليهود أما المنطقة الثانية، فهي القريبة من باب الوادي حيث توجد بيعة اليهود الكبرى، في حين جاءت المنطقة الواقعة على طول شارع البوزة والسوق الكبير في المرتبة الثالثة. [34]

و مرد اختيار هذا الموقع يعود للخصائص والمميزات التي يتمتع بها الجزء السفلي، وقد أتخذ الشارع الرئيسي الرابط بين باب الوادي وباب عزون، معلما للفصل بينه وبين الجزء العلوي المعروف بالجبل، ويمتد هذا الأخير إلى الغرب من الشارع المذكور، في حين يمتد الجزء السفلي إلى الشرق منه. وهذا القسم يسميه طال شوفال "Tall Shuval"[35] ومن قبله "اندريه ريمون"[36] بـ "المركز" و"القلب النابض" للمدينة حيث حدث به تمركز وتجمع المؤسسات الحيوية للبلاد.

كما تجمعت فيه الأجهزة والمؤسسات السياسية والاقتصادية والعسكرية و الثقافية، فبالإضافة إلى لقصر الداي، وجد بهذا القسم أهم مساجد المدينة، كالجامع الأعظم والجامع الجديد وجامع السيدة، كما وجدت به المقاهي الرئيسية والأسواق ودكاكين الحلاقين. [37]وهو أيضا القسم الذي اختارته الفئة الميسورة من السكان للإقامة، كريّاس البحر وكبار رجال الدولة والحكم، إذ أقام ريّاس البحر بباب الجزيرة، وهناك وجد البادستان (المستشفى). كما أقام الجند هناك إذ وجدت ثكنات الإنكشارية في هذا الجزء. [38] بل إن إحدى الوثائق التي بحوزتنا تثبت مجاورة اليهود لمقر إقامة الإنكشارية، إذ أن المسكن السادس من دار الطفيل الواقع قرب دار الإنكشارية الخراطين، كان من أملاك الذميين: فرايو القرداشي وحييم الخياط وقنون الحرداشي أولاد إبراهيم سبورطيش. [39]

كما أن هذه المنطقة السفلية ربطت بين ثلاثة من أهم أبواب المدينة ألا وهي: باب عزون وباب الوادي وباب الجزيرة وبذلك اعتبرت مركز تجمع الفعاليات الاقتصادية، حتى أن الرحالة "هاينريش فون مالتسان" قال بأن الشارع الممتد من باب عزون إلى باب الوادي هو الشريان الرئيسي لتجارة المدينة[40].

3- معطيات جديدة

لقد قام" بن حموش بإحصاء اليهود بمدينة الجزائر"[41]، إلا أن القيام بإحصائيات جديدة، هو بهدف التوصل إلى نتائج أخرى، قد تدعم أو تنفي النتائج الأولية التي جاء بها من سبقنا. لهذا الغرض اخترنا عينة من عقود الملكية، بلغت سبعون عقدا، توزعت ما بين القرن الثامن عشر ميلادي و حتى العقد الثالث من القرن التاسع عشر ميلادي.و بناء عليه يمكن القول، أن اليهود فضلوا الإقامة في نوعين من الأماكن هما: 1) الإقامة في الأحياء السكنية الواقعة بالجزء السفلي للمدينة، والذي سبق وأن عرّفنا بأهم خصائصه، مشكلين بذلك نسبة 58,57 2.% الإقامة في الأسواق باعتبارها مراكز اقتصادية، إذ اتخذت بعض مباني السوق أو أجزاء منها كمحلات للإقامة، مشكلين بذلك نسبة 41,42 .%

3-1- الإقامة في الأحياء السكنية

شاع بمدينة الجزائر، استعمال مصطلحي "الحارة" و"الحومة"، وعبارة الحومة للتعبير عن الأماكن المخصصة للإقامة و كانت تدل في بعض الأحيان على الشارع [42]، أما الأحياء السكنية فلها بوابات عرفت بالدرب [43]، و قد وصفت مصادر أوروبية أحياء و شوارع المدينة، فهذه الأخيرة كانت ضيقة لدرجة يتعذر مرور ثلاثة أشخاص بها[44]، أما الأحياء فقذرة و فيها رائحة كريهة و مظلمة، لأن القمامة كانت توضع أمام المنازل، التي كانت قريبة بعضها من بعض، فأصبحت تنبعث منها روائح كريهة[45]، و هذا الأمر يزداد حدة في الأحياء التي أقام فيها اليهود حسب ما ذكره الأسير "كاثكارت"[46].

إلا أن" غطاس" واعتمادا على وثائق من الأرشيف، تؤكد بأن تنظيف شوارع المدينة خضع إلى تنظيم محكم للغاية، وكان تحت الإشراف المباشر "لقائد الزبل"، وخضع رأسا لسلطة الداي ويساعده في مهمته عدد من الموظفين. فقد كان تنظيف المدينة عملية يومية، إذ يمرّ الساهرون على ذلك في كل صباح بالبغال أو الحمير وعلى ظهرها "الشواري"، ثم يحملون ما جمعوه من قمامات إلى خارج المدينة حيث يتم تفريغها في موضع عرف بـ "برج الزوبية" أو البرج الجديد الواقع شمال المدينة. [47]

كما ذكرت الباحثة أن منازل المدينة مبنية على نفس الطراز لدرجة أنك إذا رأيت منزلا واحدا منها، يمكنك أن تكوّن فكرة عن باقي المنازل الصغيرة والكبيرة على السواء، إذ اشتمل أغلبها على طابق أرضي وطابق علوي. وقد بنيت المنازل بالحجارة من الأسفل و بالآجر من الأعلى [48]، أما "مالتسان" فقد ذكر أن المظهر الخارجي للبيوت العربية معتما وبشعا، مُقرا بأن المنظر الداخلي غالبا ما يكون لطيفا يروق للعين التي تعجب بالجمال المعماري، فكل إنسان له نصيب ضئيل من الذوق، لابد أن يعترف بأن هذه الصور المعمارية البسيطة المزخرفة أجمل وأكثر تناسقا من كل تلك البنايات الأوروبية الخرقاء. [49]

3-1-1- حارة اليهود

ذهب "بن حموش" إلى القول بأنه، على خلاف حالة اليهود في تونس والقاهرة حيث خصصت لهم حارة، فإنه لا توجد في سجلات البايلك أية إشارة إلى وجود حي خاص باليهود بمدينة الجزائر باستثناء الشارع الذي يطلق عليه زنقة اليهود والذي يدعى أحيانا حومة اليهود [50]، و ما يجب ذكره في هذا الصدد، هي الإشارة الصريحة التي وردت في أحد العقود، ودلت على وجود "حارة اليهود"[51]، وقد عرّفها الموثق بهذه التسمية التي لا تدع مجال لأي التباس أو شك في حين ورد في عقد آخر إشارة ضمنية إليها بعبارة "...الدار الكاينة في الحارة .."[52] ونميل إلى الاعتقاد أن الموثق يشير إلى حارة اليهود.

لكن وجود حي خاص، عرف بـ "حارة اليهود" لا يدل على ظاهرة الانغلاق الاجتماعي التي أشارت إليها أغلب المصادر الأوروبية المعتمدة في هذه الدراسة، بل إن بعض المؤرخين اليهود المهتمين بدراسة أوضاع الجماعات اليهودية المستقرة ببلاد المغرب يرون بأن، تجمع اليهود في أحياء خاصة في مدن المسلمين، يدل على مستوى الحرية الذي تمتعوا به، فقد سمح لهم بالتجمع في مكان واحد، باعتبارهم مجموعة عرقية و إثنية، وهذا شبيه بوضع الجماعات الحرفية التي كانت كل واحدة منها تقطن بنفس الحي فالأمر لا يختلف كثيرا، وهذا لا يعني الانعزال عن بقية السكان[53].

3-1-2- سبع لويات

إن أقدم إشارة إلى "سبع لويات" في الوثائق الشرعية تعود إلى سنة 1742م[54] إلا أنها عرفت كأكبر تجمع سكني لليهود بمدينة الجزائر قبل هذا التاريخ وبوقت طويل، فقد أشار "شوفال" إلى ما قبل سنة 1575 م. [55] ونعتقد أن تسمية "سبع لويات" لها علاقة بالإلتواءات والمنعرجات الموجودة بها خصوصا وأنها كانت تقع على الشارع الكبير الذي يشبهه "سبنسر" في انعراجاته العديدة بالشارع الكبير لمدينة القسطنطينية، التي تتداخل فيها الممرات وتتكاثر فيها الدكاكين والحوانيت الصغيرة[56].

وقد اختلفت الوثائق في التعريف بـ" سبع لويات"، فتارة تذكر بـ "مضيق سبع لويات" وتارة "درب سبع لويات" وتارة أخرى "زنقة سبع لويات"، وفي كثير من الوثائق تذكر بدون أي وصف، وهذا ما يدفعنا للافتراض بأنها لم تكن حيا مستقلا بذاته فالمضيق والدرب والزنقة هي تسميات تطلق على الدروب الضيقة والصغيرة، التي تنضوي تحت الأحياء والحارات. ويشير أحد العقود إلى أن سبع لويات كانت تقع بحارة اليهود مثلما تبينه العبارة التالية: "...الدار قريبة من سبع لويات بحارة اليهود...". [57] على عكس ما جاء به "شوفال" الذي يعتقد بأن سبع لويات هي نفسها حارة اليهود. [58]

أما عن موقع سبع لويات داخل المدينة، فيبدو أنها كانت تحتل موقعا هاما فوجودها بحارة اليهود جعلها محاطة بأهم المراكز والتجمعات السكنية والإدارية والاقتصادية، فهي "المقابلة لسوق المالح، وبمقربة من سوق السمن"[59]، إذ يعتبر سوق السمن أحد أهم المراكز الاقتصادية بالمدينة، في حين "...حومة حمام المالح بالرغم من أنها تبدو حيا سكنيا ذا حجم صغير، إلا أنها تعد من الحومات الراقية، فقد اتخذتها الطبقة الأرستقراطية مقرا لها، إذ أقامت بها أسرة "الشويهد" الشهيرة وغدت دارها من المعالم الحضرية وأقام بها الأثرياء من الريّاس وتميزت بحفاظها على طابعها الأرستقراطي عبر سنوات عديدة، كما كانت مقرا للطبقة الحاكمة مثل الداي عبدي باشا، ولموظفي الإدارة كأحمد شاوش، ويوسف خوجة، صهر الحاج علي، ولمشاهير الرياس كعائلة طاطار..." [60]. وتعرفنا الوثائق على أحد عشر منزلا يهوديا بسبع لويات، نذكرهم كالتالي:

1- دار البردي	4- دار بن عزيزه	7- دار مرباطي	9- دار إسحاق
2- دار بن خلفون	5- دار بن بويضه	8- دار النخلة	10- دار سرفاتي
3- دار بن عزره	6- دار حجحود		11- دار الفل

لقد اشترك بعض أفراد من عائلات سماجة والأشقر وزرافة بالإقامة في دار بن عزيزه[61]، وبعض أفراد من عائلتي خياكو وبلخير، أقاموا بدار بن خلفون[62]، كما كانت منطقة سبع لويات مقرا لإقامة بعض أفراد عائلة كوهين الشهيرة[63]، أما بعض العناصر من عائلات أزكان وأزيلو وساخو، فقد اشتركوا كلهم في إحدى الدور الواقعة بسبع لويات دائما[64]، كما أقام بها أهل الحرف مثل الذمي إبراهيم الصايغ بن يعقوب الذي كان يقيم بدار مرباطي[65]، للإشارة أن سبع لويات" والتي تبدو حيا يهوديا لم تشكل في الواقع تجمعا يهوديا بحتا، إذ كشف استقراء سجل خاص بأوقاف الحرمين الشريفين أن شرائح أخرى أقامت بها، والبعض الآخر تعاطى نشاطا تجاريا، فقد تم إحصاء سبعة عشر عقد ملكية أوقفها أصحابها لصالح الحرمين الشريفين..."[66].

أما عن طبيعة المالكين من المسلمين، فنجد بعضهم من الصفوة الحاكمة وموظفي الإدارة، وعلى رأسهم الداي حسن باشا بن المرحوم السيد حسين، الذي اشترى في سنة 1797م"... جميع الربع الواحد شايعا من جميع الدار المعروفة بدار بن عزره..."[67] و الداي مصطفى باشا الذي اشترى سنة 1799م، نصف الدار المعروفة بدار بن خلفون[68]."... وجميع الثمن الواحد من الدار المعروفة بدار النخلة، وكانت من أملاك الأخوين الشقيقين الذميين إسحاق ويعقوب ولدى يونه(؟) كوهين..."[69]، كما اشترى أيضا سنة 1802م"... ثلاثة أثمان من إحدى الدور..."[70].

ومن الذين ملكوا بسبع لويات أيضا، نجد وكيل الحرمين الشريفين السيد أحمد بن محمد[71]، وشاوش أوقاف الحرمين الشريفين السيد محمد بن المقفولجي، الذي اشترى حظين اثنين من جملة اثنين وسبعين حظا من جميع الدار المعروفة بدار مرباطي مشهدا مع ذلك السيد محمد المذكور، أن ابتياعه لجميع ما ذكر، هو لصالح أوقاف الحرمين الشريفين،[72] أما المعظم السيد الحاج الطاهر بن موسى، فقد ملك الثمن الواحد من الدار المسماة بدار الفل. [73]

3-1-3- زنقة الجرابة

احتلت زنقة الجرابة المرتبة الثانية بعد سبع لويات من حيث إقامة اليهود بها، وهو أمر يدل على مدى الحرية التي حظي بها اليهود بالإقامة بمختلف جهات المدينة. فقد عرفت هذه الزنقة بكونها أكبر تجمع للعناصر الوافدة من جزيرة جربة، وهم من أهم العناصر المغاربية الوافدة إلى المدينة. [74] والذين اشتغلوا بالتجارة ولعل هذا ما دفع باليهود إلى الاحتكاك بهم والإقامة بينهم،و من الدلالات على أهمية العنصر الجربي بمجتمع مدينة الجزائر، وجود نهج أشتهر باسمهم وهو "زنقة الجرابة" والموجود قبل سنة 1623 م، كما نسب إليهم أيضا "سوق الجرابة" و"فندق الجرابة "[75] و"دار الجرابة" بالسوق الكبير[76]، وهي كلها مؤشرات تدل على أهمية العنصر الجربي بالمدينة.

- دار اليهود

إن من أهم الإشارات الدالة على إقامة اليهود بزنقة الجرابة وجود دار بهذا الحي اشتهرت بـ "بدار اليهود" المعروفة لدينا قبل سنة 1694 م، وقد عرفت أيضا بـ "...دار بن ماني الموجودة بسباط بزنقة الجرابة مجاورة من جهة لدار مليلي، ومن جهة أخرى لدار بن للوش الصغيرة..."[77] إن شح الأخبار في الوثائق حول دار اليهود لم يسمح بالتعرف على المقيمين بها من اليهود، ما عدا بعض الأفراد من عائلتي بن ماني وكوهين، أما عن المالكين المسلمين بها، فنجد كل من السيد مصطفى بن عمر خوجة[78] والسيد محمود الانكشاري الجقماقجي بن مصطفى آغا[79]، ويخبرنا أحد العقود أن "...نصف دار اليهود كانت حبسا (وقف) انحصر بعضه على الولية آسيا بنت احمد ساقة ومن عمّرها من المحبس عليهم، وبعضه الآخر حبس على فقراء الحرمين الشريفين..."[80].

– دار للوش

هي أشهر المنازل التي سكنها اليهود، و تذكر بدار "للوش الكبيرة"[81] كما وجد بزنقة الجرابة أيضا دار عرفت بدار "بن للوش الصغيرة"[82]. و يبدو إنها كانت مقرا لعائلة موحى اليهودية، بدليل أن ثلاثة وثائق تشير إلى ملكية أفراد من هذه العائلة بها، وهم الذميين: موشي بن مسعود بن موحى[83]، وموسى بن شوحة موحى، وانجر لهما حظ من الدار بالشراء الصحيح و الثمن المقبوض من الذميين يعقوب اليهودي بن جليطو[84] وحييم بن سعدية موحى.[85]ا و ملك الذمي أبراهام بن يعقوب الوهراني ثلثين اثنين من الدار، بالشراء الصحيح من الذميين دابيد مزغيش والذمي طوبوا سنة 1744م[86]، وبعد خمس سنوات أي في 1749م باع نصيبه إلى السيد عبد الرحمن الكوّاش ولا ندري فيما إذا كان الذمي يعقوب الوهراني قد أقام باستمرار طيلة هذه المدة بالدار، أم انه كان يتنقل بين مدينتي وهران والجزائر؟.

و قد دلت العقود على مشاركة المسلمين في ملكية هذه الدار أيضا مثل وكيل الحرج بباب الجزيرة المعظم السيد حسن بن حسين الذي ملك حظين اثنين منها، إذ ورد ذكره مشتريا لمرتين وفي وثيقتين منفصلتين المرة الأولى سنة 1785م[87] والثانية في العام الموالي، أي في سنة 1786م.[88]كما اشتركت في ملكيتها سنة 1748 م "... الولية يمونة بنت محمد السليعي والتي اشترت حظا واحدا من الدار من الذمية اليهودية المسماة [كذا] الجوهر بنت يوسف زوجة الذمي موشي ابن مسعود موحى..."[89].

3-1-4- حومة البوزة

تميزت حومة البوزة –الواقعة بالقرب من السوق الكبير– بخاصية مميزة تمثلت في هيمنة العنصر التركي بها، كما غلب عليها طابع النشاط التجاري بحكم موقعها في قلب منطقة الأسواق.[90] وإلى جانب العنصر التركي، أقام بزنقة البوزة اليهود فمثلا دلّت إحدى الوثائق على أن المكرم الأجل السيد عمران الانكشاري الخياط بن عمر خوجة اشترى نصف السدس من الدار المعروفة بدار السويسوا المجاورة من بعض جهاتها لدار الزواوة من الذمي إسحاق بن نسيم بن طيبي سنة 1770م.[91]

و تخبرنا وثيقة أخرى بأن الحاج محمد بلكباشي بن بابا حاجي اشترى الربع الواحد شايعا من جميع الدار التي كانت على ملك شمويل بن مخلوف سرور سنة 1769م، كما اشترى ربعا آخر من نفس الدار والذي كان من أملاك شمعون ننوشي.[92] و اكتسبت زنقة البوزة أهميتها بالنسبة لليهود، نتيجة لقربها من السوق الكبير ومن "زنقة القورنيين" المقابلة للسوق المذكور[93] و كانت بذلك من المراكز الهامة التي أقاموا بها. و لم تقتصر إقامة اليهود المناطق التي أشرنا إليها سابقا فحسب، بل انتشروا بمختلف أحياء المدينة، إذ ملك بعضهم بحومة خيضر القريبة من باب الوادي[94]، و بعضهم

بدار النصارى الواقعة قرب حمام القدور والمجاورة لدار بن الشتري ودار بن سلطان ودار زرافة[95]، كما ملكوا بدار نجام الواقعة بحومة الكبابطية[96]، وبدار ديدومة الواقعة بديار أقماد(؟)[97]، وبزنقة بن قربار[98] وبزنقة علوى(؟) الواقعة بمقربة فندق [كذا] على يسار الذاهب لباب عزون.[99]

3-2- الإقامة بالأسواق

3-2-1- السوق الكبير

إن المنطقة السفلى من مدينة الجزائر تميزت بتمركز أغلب الأنشطة الحضرية بها و ما ساعد على ذلك موقعها الهام وقربها من الميناء. وتتوزع تلك الأنشطة على طول المحاور الثلاثة التي تربط مركز المدينة، والمسجد في السوق الكبير ودار الإمارة –الجنبية– والجامع الكبير، بأبواب المدينة: باب عزون وباب الوادي وباب الجزيرة ولا تختلف كثيرا مدينة الجزائر في تنظيمها الفضائي عن المدن الإسلامية الكبرى مثل فاس وتونس والقاهرة وحلب ودمشق في كون الأسواق تتوزع على محاورها الرئيسية.[100]

و التمييز بين المنطقتين: منطقة الفعاليات الاقتصادية ومنطقة الإقامة –الأحياء- لا يعني أن الأحياء انعدمت فيها النشاطات الاقتصادية. إذ نجد بالحومات نفسها مجموعة من الحوانيت[101]، كما وجدت منازل بالأسواق أيضا. وكان المنزل يتكون عادة من طابقين طابق أرضي يخصص كمقر للعمل (حانوت أو ورشة) وعلوي قد يخصص لتخزين البضاعة أو للإقامة وفي ذلك دلالة على رغبة الحرفيين والتجار في الجمع بين مقرات العمل والإقامة.

- دار اللحم، معلم لتحديد الجوار

تعد "دار اللحم" من أشهر الدور التي أقام بها اليهود. وشهرتها تضاهي "دار النخلة" السابقة الذكر. ولعل هذا ما سمح بأن تتخذ كمعلم لتحديد موقع الكثير من الملكيات مثل الدور والعلويات والمحلات المجاورة لها. فمن بين تسعة عقود ملكية بالسوق الكبير ذكرت دار اللحم كمعلم لتحديد سبعة منازل مجاورة لها. والحقيقة أن المعلومات شحيحة حول الدار ومالكيها من اليهود، إذ يشير أحد العقود سنة 1752م "... أن ربع العلوي الواقع بدار اللحم والمجاور لعلوي موسى كان على ملك موشي بن داود كوهين، وعاد بعد وفاته إلى زوجته طبنة بنت شلومو وولديه منها شلومو وإبراهيم الصغير المستقر إلى نظر والدته..."[102]، ويقدم لنا عقد آخر مؤرخ في سنة 1761م، وصفا أدق حين يذكر "...سقيفة دار اللحم الواقعة قرب دار الجرابة مقابلة للداخل للدار المذكورة، مجاورة من إحدى جهاتها لعلوي موسى اليهودي ومن جهة أخرى لما وراء البوزة ومن أخرى لدار بن يعيش التي كانت عل ملك الذمي هارون بن خلفون اليهودي...".[103]

هذان العقدان لا يقدمان معلومات دقيقة عن المالكين المسلمين في هذه الدار، إلا أن أحد العقود المؤرخ في سنة 1798م، يدلنا على أن دار اللحم كانت مجاورة لدار كانت على ملك السيد محمد بن الشيخ محمد الشريف الزهار[104].و المعروف أن عائلة "الزهار" هي من العائلات الشريفة كما ذكر حمدان خوجة[105] كما أنها من أبرز العائلات التي تولت نقابة الأشراف إلى غاية 1830م.[106]

إذ جاء في الوثيقة التي بحوزتنا، أن مجموعة من الذميين "...اشتركوا في خمسة أثمان من جميع دار بن يعيش الواقعة قرب دار اللحم من سكة غير نافذة هناك، المجاورة من بعض جهاتها لحانوت الحلاق والمجاورة لدار المدينة الباقية على ملك السيد محمد بن الشيخ محمد الشريف الزهار، وقد انتقل الحظ المذكور من الدار بالشراء إلى الداي مصطفى

باشا الذي شهد أن ابتياعه هو لصالح السيد قدور بن محمد الشريف الزهار...". [107] و لهذه الوثيقة أهمية بالغة، إذ تؤكد بأن اليهود لم يمنعوا من الإقامة أو من مجاورة أشهر العائلات الجزائرية مثل عائلة الزهار التي لا يخفى مكانتها وتأثيرها بمجتمع المدينة، حتّى أن الداي مصطفى باشا تقرب من السيد قدور بن محمد الشريف الزهار بإهدائه خمسة أثمان من دار بن يعيش. فلا شك أن الداي مصطفى باشا كان حريصا على كسب ودّ أفراد عائلة الزهار نظرا لمكانتها عند الأهالي ولأهمية منصب نقيب الأشراف.

– دار بن بويضة

إن "دار بن بويضة" هي الدار الوحيدة التي توصلنا إلى معرفة جميع مالكيها الحقيقيين في سنة 1767م "...فقد تقرر الاشتراك بين الولية الجليلة السيدة آمنة بنت المرحوم السيد عبدي باشا [...] وبين جماعة من اليهود وهم دابيد شراخه وموشي بن مردخاي بن المقوس وموشي بن شموييل ليبي وموشي مزغيش وسمير بن سخرية شراخه وشموييل بن حقون وموشي بن سخرية شراخه في جميع الدار الواقعة قرب دار اللحم المعروفة بدار بن بويضة، على نسبة أن للولية آمنة المذكورة تسعة حظوظ و للذمين دابيد شراخة المذكور أربعة حظوظ ونصف وللذمي موشي بن المقوس المذكور تسعة حظوظ وللذمي موشي ليبي اثني عشر حظا وللذمي موشي مزغيش المذكور خمسة حظوظ وللذمي سمير المذكور سبعة حظوظ وللذمي سعد المذكور عشرة حظوظ ونصف وأخيه موشي بن سخرية أحد عشر حظا في جميع الدار المذكورة بإقرار جميع الشركاء المذكورين على الشياع بينهم..."[108]

ونستنتج مما سبق أن السيدة آمنة بنت عبدي باشا (حكم في الفترة ما بين 1724م–1732م)، وهي من الشخصيات النسائية المعروفة بمجتمع مدينة الجزائر، قد اشتركت مع جماعة من اليهود في ملكية دار بن بويضة الواقعة بالسوق الكبيرة.

كما أقامت بالسوق الكبير شخصيات يهودية معروفة مثل مقدم طائفة اليهود، إذ يؤكد العقد المؤرخ في سنة 1763م "...أن الذمي يعقوب المدعو عقيبات، مقدم جماعة اليهود في التاريخ بن الذمي إبراهيم اليهودي كان له مالا من ماله وملكا صحيحا من جملة أملاكه جميع الدويرة بالسوق الكبير داخل محروسة الجزاير[...] الواقعة بزقاق غير نافذ هناك التي على ناحية الشمال للداخل للزقاق المذكور المجاورة من أحد جهاتها لدار العربي الكاينة هناك من ناحية بابها للزقاق المذكور ومن الناحيتين الباقيتين الحوانيت الفاصلة بينها وبين السوق المذكور انجرت له الدويرة المذكورة بالابتياع الصحيح والثمن المقبوض..."[109] وباع نصيبه إلى الداي علي باشا، كما أقامت بالسوق الكبير أيضا عائلات يهودية بارزة مثل عائلات: ليبي، ومزغيش والمقوس...الخ.

و من ثمة فأن أهمية السوق الكبير تزداد، مع معرفة مكانة الذين ملكوا به سواء من اليهود أو من المسلمين. فبالإضافة إلى السيدة آمنة بنت عبدي باشا والداي علي باشا، نجد أيضا الداي مصطفى باشا الذي ملك بعقد شراء مؤرخ سنة 1798م، سبعة أثمان من الدار الواقعة بالسوق الكبير قرب دار اللحم من الذميين موشي بن المقوس وموشي بن مزغيش، وموشي ليبي بن يعقوب وشلومو بن شراخه ولياهو بن شراخه وشلوب بن مرباطي القلاب ويوسف بن سلطان ولياهو ماشطو. [110]

ومن المالكين نجد أيضا، الوجيه الأفضل محمد بن مسطول قايد بني جعد الذي ملك ربع العلوي بالسوق الكبير سنة 1753م المجاور لدار اللحم من جهة ولدار بن بويضة من جهة أخرى. [111]و بالتالي كان السوق الكبير بالفعل، مركز المدينة الاقتصادي الذي استقطب الكثير من الشخصيات الهامة والمعروفة من المسلمين واليهود على السواء.

3-2-2- سوق العطارين اليهود [112]

- دار بن معطي

من بين دور اليهود الواقعة بهذا السوق، نجد دار بن معطي ومما يدل على أن هذه الدار هي فعلا لعائلة بن معطي اليهودية الشهيرة، أنها كانت في سنة 1799م "...من أملاك الذمي جلاذ بن معطي مقدم طائفة اليهود وابن أخيه الذمي شموييل بن دابيد معطي واللذان ملكا ثمنين ونصف الثمن إنصافا بينهما واعتدالا، وقد عاد إليهما ذلك بعضه بالإرث من آبائهما وبعضه بالشراء الصحيح والثمن المقبوض..."[113]، وباعا نصيبهما من الدار إلى الداي مصطفى باشا سنة 1798م.

كما اشترى المعظم السيد الحاج محمد بن الحاج محمد "...جميع الثمن الواحد وثلاثة أثمان الثمن من جميع الدار المذكورة من الذمي يوسف بن جورنو..."[114]، وما نلاحظه أن الوثائق لم تذكر المنازل المجاورة لدار بن معطي، وتفسير ذلك أن شهرة الدار أغنت عن التعريف بها.

وتخبرنا إحدى الوثائق عن ملكية بعض المسلمين بسوق العطارين اليهود مثلا في عام 1723م ملك "... السيد الحاج محمد الشريف الخياط بن السيد الحاج محمد بن ناصر التدلسي، جميع الثمن الواحد شايعا من جميع الدار الواقعة أسفل سوق السمن بسوق العطارين اليهود المجاورة من بعض جهاتها لحانوت الحاج علي بن الحاج قاسم الجرموح بالشراء الصحيح والثمن المقبوض..." [115].

ومن المالكين أيضا بسوق العطارين اليهود، السيد حسن باشا بن حسين، الذي اشترى في سنة 1794م، شطر الدار الواقعة بهذا السوق والتي كانت من أملاك "...الذمي يعقوب اليهودي وشقيقه دابيد والذمي يوسف بن ليبي والذمي سخرية بن موشي شراخه وابن عمه موشي بن إبراهيم شراخه والذمي دابيد بن شمعون بن مزغيش والذمية ريكة بنت موشي ليبي..." [116]، أما المكرم الأجل السيد عبد القادر الحرار بن عمر باشا فتذكر إحدى الوثائق أنه "...اشترى من الذمي يعقوب الجدرني ثلاثة أرباع الدار الواقعة أسفل سوق السمن بعطارين اليهود اللصيقة بسوق الدخان.." [117].

هوامش وإحالات

[2]- مدينة الجزائر، عرفت قديما بـ إيكوسيوم"ICOSIUM" وتعني جزيرة النوارس، وهي كلمة لاتينية مركبة تركيبا مزجيا من شقين الشق الأول"I" وهو اختزال لاسم"ISLA" أي الجزيرة، أما الشق الثاني"KOSIM" فيعني النوارس، وهكذا تشكلت "ICOSIUM" أي "جزيرة النوارس". أنظر:

- حمادي، عبد الله. "جزائر القرن السادس عشر من خلال وثائق بعض الأسرى الإسبان"، المصادر، عدد 6، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2002، ص 255-256.

[3]- بفعل استقرار الفينيقيين بقرطاجة دفع الفضول التجاري باليهود إلى الاستقرار بسواحل البحر المتوسط وإنشاء قواعد بحرية نابضة على طول الساحل، ويرجح بعض المؤرخين أن أول قدوم لليهود إلى شمال إفريقيا كان في هذه الفترة فقد قدموا على قوارب فينيقية حاملين ديانتهم اليهودية وبضائعهم التجارية، فاستقروا بالمراكز التجارية على السواحل المتوسطية التي أنشأها الفينيقيون. ويبدو أن حركة هجرة اليهود الفردية

والجماعية من الشرق إلى شمال إفريقيا قد استمرت حتى في عهد الرومان، وهذا نتيجة لما حلّ بالمنطقة من أحداث ألّمت باليهود فلجأت مجموعات منهم إلى شمال إفريقيا بعد تحطيم الهيكل ثانية سنة 70م على يد الرومان. وقد استفاد اليهود من بعض الحقوق المدنية، إذ يبدو على العموم أن السلطة الرومانية كانت متسامحة معهم إلا حد ما، أنظر:

- Chouraqui, A. Histoire des Juifs en Afrique du Nord, Edition du Rocher, T1, 1998, p 49.

- Hirschberg, H. A history of the Jews in North Africa, VII, Second revised edition translated from the Hebrew, Leaden, 1981, p 55-56.

(4)- بالرغم من أن اليهود قد كوّنوا مجموعة دينية هامة في سائر البلاد العربية، فإن هذا لا يعني أنهم كانوا يشكلون وحدة عنصرية عرقية. بل هم جماعات ترتبط بالدين والتقاليد، نظرا لافتقارهم منذ القدم لكيان سياسي، لذلك حرصوا على أن يكون الرابط بينهم دينيا اثنيا في أي مكان من المعمورة.

(5) - Haëdo, D. D. "Topographie et histoire générale d'Alger", Revue africaine, N°15, 1871 p 19.

(6)- ينتمي اليهود المستقرون في حوض البحر الأبيض المتوسط إلى طائفة اليهود "السفرديم" في حين ينتمي اليهود المستقرون بشمال وشرق أوروبا إلى طائفة اليهود "الإشكينازيم"، أنظر:

- أتوكاريف، سرغي. الأديان في تاريخ شعوب العالم، تعريب أحمد فاضل، منشورات الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1998، ص 202.

(7)- Hanoune. Op.Cit, p 7

(8)- Tassy, L. D. Histoire du royaume d'Alger, Loysel, Paris, 1992, p 55.

(9) -من أعمال العنف التي انطلقت ضد اليهود، تلك التي حدثت يوم 4 جوان 1391م بمدينة سفيل "Séville"، إذ تم إشعال النار بالحي اليهودي وقتل حوالي أربع آلاف من اليهود. ثم توسعت بعدها إلى مدن عديدة من إسبانيا مثل: قرطبة وطليلطلة ومدريد وسرقسطة وجزر البليار. أما في مدينة البندقية فقد قتل في 9 جويلية 1391م، حوالي 250 يهودي، لذا توجه الآلاف منهم إلى سواحل بلاد المغرب. أنظر:

Abitbol, M. Le passé d'une discorde, Juifs et arabe du VIIème siècle à nos jours, Perrin - 1999, p 72.

(10)- Grammont, H. D. Histoire d'Alger sous la domination turque (1515-1830), paris, 1887 pp 233.

Cahen, A. B. L'Afrique septentrional, Constantine, 1867, p53.-

(11) - Khiari, F. "Une communauté "résurgente": Les Andalous à Alger de 1570 à 1670" Revue d'histoire maghrébine, N°69-70, 1995, p 122.

(12) - إن السبب المباشر في إصدار مرسوم الطرد يعود إلى احتدام الصراع بين رجال الإكليروس المسيحيين والحاخامات اليهود، مما حدا بالإسبان لأن يهبّوا لمحاربة اليهودذ وإيقاف الفتن التي كانوا يثيرونها في كل مكان. فهاجموهم في أحيائهم وبطشوا بهم وقدّم البعض منهم لمحاكم التفتيش وكادت الفوضى أن تعم البلاد، فأصدر الملك فيرديناد مرسوما ملكيا في 31 مارس 1492م يقضي بطرد اليهود خارج إسبانيا، وأهم ما جاء فيه ما يلي: "...يعيش في مملكتنا عدد غير قليل من اليهود، ولقد أنشأنا محاكم التفتيش منذ اثنتي عشرة سنة، وهي تعمل دائما على توقيع العقوبة على المذنبين وبناء على التقارير التي رفعتها لنا محاكم التفتيش، ثبت بأن الصدام الذي يقع بين المسيحيين واليهود سيؤدي إلى ضرر عظيم وهو القضاء على المذهب الكاثوليكي، ولذا قررنا: نفي اليهود ذكورا وإناثا خارج حدود مملكتنا وإلى الأبد وعلى اليهود جميعا الذين يعيشون في بلادنا ومملكتنا ومن غير تمييز في الجنس أو العمر أن يغادروا البلاد في غضون مدة أقصاها نهاية جويلية من نفس العام. وعليهم ألا يحاولوا العودة تحت أي ظرف أو أي سبب. ومن أجل أن يتدبروا أمورهم منحناهم حمايتنا الملكية، وضمنا أرواحهم وأملاكهم حتى آخر جويلية القادم ونسمح لهم بأن ينقلوا معهم برا وبحرا ما يملكون باستثناء الذهب والفضة والعملة الذهبية، والأشياء الأخرى التي يشملها قانون المنع العام"، أنظر:- حسين. سبق ذكره، ص 13.

.(13) - Abitbol. Op Cit, p 82.

(14)- Zafrani, H. Juifs d'Andalousie et du Maghreb, Maisonneuve et Larousse, Paris, 1996 P 214.

(15) - Franco. Op. Cit, p 25-27.

(16)- مظالم في بوهيميا والنمسا وبولندا والبرتغال، وصلت أوجها في إسبانيا. أنظر:

Lewis. Op. Cit, p, 135.-

(17) - Raymond, A. Grandes villes arabes à l'époque ottomane, Sindbad, paris, 1985, p 51.

- ونقلا عن "ريموند" نورد هذا المقطع من رسالة كتبها أحد اليهود، إلى أحد أقاربه يصف فيها وضع اليهود في ظل الدولة العثمانية قائلا:

"Ici, les portes de la liberté sont toujours largement ouvertes pour vous, afin que vous puissiez pleinement pratiquer votre judaïsm-Ibid, p 11.

(18) - أصدر السلطان العثماني بايزيد الثاني (1481م-1512م)، فرمانا يقضي بالسماح لليهود باللجوء إلى سائر الأراضي التابعة للإمبراطورية، وأوصى بحسن معاملتهم أنظر:- حلاق، حسن. موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، ط 3، دار النهضة العربية، بيروت، 1999، ص 28.

(19) -هذه التسمية تمييزا لهم عن حاملي العمائم (اليهود الأهالي) ، أنظر:

- Mainz, E. "Les Juifs d'Alger sous la domination Turque", Journal Asiatique, N°240.1952, p202

(20) - Grammont. Op. Cit, p 233.

(21)- سعيدوني، ناصر الدين؛ البوعبدلي، المهدي. الجزائر في التاريخ—العهد العثماني- ج 4، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1984، ص 103.

(22) - Sotomayor, L. J. D. Brève relation de l'expulsion des Juifs d'Oran en 1669, Trad. jean Fédéric Schaub, Bouchene, 1998, p 68.

(23) - نسبة إلى مدينة ليفورنه الإيطالية.

(24) - Hirschberg. OP. Cit, p 21-22.

(25) - Hanoune. Op. Cit, p 08.

(26) - سمح دوق توسكانيا لليهود بفتح المخازن لشراء الغنائم البحرية وشراء الأسرى فقدم رئيس طريقة (سان إيتيتيان) شكوى لدى جميع الحكام وملوك أوروبا للوقوف ضد دوق توسكانيا، لكنهم لم يصغوا لندائه.

(27) - ألتر، عزيز سامح. الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، تعريب محمود علي عامر، دار النهضة العربية بيروت، 1989، ص 409.

-Ghettas, A et Guechi, F-Z. "La communauté juive dans les relations rive nord - rive sud", in parlez-moi d Alger, réunion des musées nationaux, paris, 2003, p69.

(28) - Belhamissi, M. Alger- L'Europe et la guerre secrète (1518-1830), Edition Dahleb, Alger, 1996, p 125.

(29) - Hierschberg. (Op.Cit, p 22

-Gettas, Guechi." La communauté…", Op. Cit, p 72

(30) - غطاس، عائشة. الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر (1700م-1830م) مقاربة اجتماعية- اقتصادية، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث، ج 1 جامعة الجزائر، 2001، ص 38.

(31)- Phillipini, J. P. Juifs d'Afrique du Nord et Livourne dans le seconde moitié du XVIII siècle, Revue des études juives, T CXLI, 1982, p 459-460.

(32) -الجيلالي، عبد الرحمن. تاريخ المدن الثلاث، الجزائر المدية مليانة، مطبعة صاري بدر الدين وأبنائه، الجزائر. 1972 ص 22.

(33)- Hanoune. Op. Cit, p 08

(34)- Ben Hamouche, M. "Les quartiers résidentiels et les organisations populaires à Alger à l'époque Ottoman", Revue d'histoire Maghrébine, N°83-84, 1996, p 525-527.

(35) - Shuval. Op. Cit, p 63.

(36)-Raymand. Op. Cit, p 180.

(37)-Missoum, S. Alger à l'époque Ottomane la Médina et la-Maison traditionnelle INAS édition, Alger, 2003, p38

(38)- كان هناك سبع ثكنات للإنكشارية، وهي أولا دار المقرين تقع ما بين باب البحر وباب الوادي، بنيت من طرف العلج علي ما بين 1569م-1572م، ثانيا: دار الإنكشارية بباب عزون وتعرف بدار اللّبابحية، بنيت من طرف حسن بن خير الدين سنة 1551م ثالثا: ثكنة الخراطين تقع بسوق الخراطين (عرف الإنكشارية المقيمين بها بحمايتهم لليهود) بنيت في سنة 1769م، وهدمت عام 1869م، رابعا: دار الإنكشارية القديمة وتعرف أيضا بالفوقانية، بنيت ما بين 1596م-1597م، خامسا: دار الإنكشارية الجديدة وتعرف أيضا بالتحتانية، بنيت من طرف حسن باشا ما بين 1627م-1628م سادسا دار الإنكشارية المعروفة بدار أوسطه موسى القريبة من باب الجزيرة، وتنسب إلى المهندس الأندلسي الشهير أوسطه موسى الذي أنشأ عدة منشآت عمرانية بمدينة الجزائر، سابعا دار الدروج تعتبر الأقل أهمية من بين سابقيها هدمت سنوات قليلة بعد الحملة الفرنسية أنظر:

"-- Devoulx. El Djazaïr", Histoire…., Op. Cit, p 261-273.

- Berbrugger, A." Les casernes des janissaires à . Alger", revue Africaine, T1, 1864 P 132-150.

(39)- م، ش، ع: 84-85-86. (9)

- لا بد من الإشارة إلى أن بعض اليهود تمكنوا من الإقامة خارج المدينة أي بالفحص بل إن بعضهم ملك بفحص بوزريعة والأبيار على وجه الخصوص مثلما ذكره "كاهين". وزرعوا حول منازلهم أشجار الفواكه والخضراوات المختلفة، والقمح والشعير.

(40)- مالتسان، هاينريش فون. ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا، تعريب أبو العيد دودو، ج1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (بدون تاريخ)، ص25.

(41) - Ben Hamouche. Op, Cit, PP 525-527.

(42) - غطاس. الحرف والحرفيون، سبق ذكره، ص 373.

(43) - كانت بوابات المدن والحارات تترك مفتوحة أثناء النهار وتغلق بالليل بعد صلاة العشاء مباشرة وبعضها بعد صلاة المغرب في المدن الإسلامية. أنظر:- عزب، خالد مصطفى. تخطيط وعمارة المدن الإسلامية، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة(بدون تاريخ)، ص 92.

(44)- غير أن "حليمي عبد القادر" قدم تفسيرا لوضعية هذه الأحياء بقوله: "إن الأزقة الضيقة والأنهج الملتوية و الدروب المغطاة تقي المارة من حرارة قيض الصيف وتجلب لهم الدفء. ثم إن حاجة سكان القصبة في العهد العثماني لم تدعو إلى توسيع الأنهج لأن التنقلات كانت تقع أكثر ما تقع على الأرجل ولا تدخل دواب تكفيها الأنهج الضيقة (الجمال والبغال)، بل اقتصرت على الحمير لنقل الأوساخ، وهذه الأخيرة كانت تترك في إسطبلات بالقرب من أسوار المدينة"، أنظر:- حليمي، عبد القادر. مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل 1830م، دار الفكر الإسلامي، الجزائر، 1972، ص 25.

(45) - Paradis. Op. Cit, p 10.

(46)- العربي، إسماعيل. مذكرات أسير الداي كاثكارت، قنصل أمريكا في المغرب، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1982، ص 93.

(47) -غطاس. الحرف والحرفيون، سبق ذكره، ص 113.

(48) - Paradis. Op. Cit, p 7-8.

(49) - مالتسان. سبق ذكره، ص 26.

(50) - بن حموش، مصطفى أحمد. المدينة والسلطة في الإسلام(نموذج الجزائر في العهد العثماني)، دار البشائر، دمشق 1999، ص 160.

(51) - م، ش، ع: 51 (66).

(52) – م، ش، ع: 142-1473 (8)

(53)- Chouraqui. Op. Cit, p 11.- Raymond. Op. Cit, p283.

(54) – م، ش، ع: 51 (66).

(55)- Shuval. Op. Cit, p205

(56)– سبنسر، وليام. الجزائر في عهد ريّاس البحر، تعريب وتعليق عبد القادر زبادية الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1980، ص 41.

(57)– م، ش، ع: 51 (66).

(58)- Shuval. Op. Cit, p205.

(59) – م، ش، ع: 49 (19).

(60) – غطاس. الحرف والحرفيون، سبق ذكره، ص 402.

(61)– م، ش، ع: 121 (32).

(62)– م، ش، ع: 49 (57) رقم قديم.

(63)– م، ش، ع: 45 (42).

(64)– م، ش، ع: 49 (22).

(65)– م، ش، ع: 121 (32).

(66) –غطاس. الحرف والحرفيون، سبق ذكره، ص413.

(67) – م، ش، ع: 56 (30).

(68) – م، ش، ع: 49 (57) رقم قديم.

(69) – م، ش، ع: 45 (42).

(70) – م، ش، ع: 49 (14).

(71) – م، ش، ع: 51 (66).

(72) – م، ش، ع: 15 (14).

(73) – م، ش، ع: 49 (48).

(74)– تنسب هذه الزنقة إلى سكان جزيرة جربة الواقعة بالقرب من تونس، وقد أقام بهذا الحي العنصر الجربي، وكان أغلبهم من التجار والوكلاء نشطوا في التجارة ما بين موانئ ومدن عديدة أهمها: جربه والإسكندرية وتونس وطرابلس.

(75)– غطاس، الحرف والحرفيون، سبق ذكره، ص 47.

(76)– م، ش، ع: 119-120 (34).

(77)- م، ش، ع: 119-120 (؟) غير واضح.

(78)– م، ش، ع: 119-120 (15).

(79)– م، ش، ع: نفسه.

(80)– م، ش، ع: 100-101 (79).

(81)– م، ش، ع: 57 (28).

(82)– م، ش، ع: 119-120 (؟) غير واضح. سبق ذكره.

(83)– م، ش، ع: 57 (28). سبق ذكره.

(84)– م، ش، ع: 84-85-86 (19).

(85)- م، ش، ع: 57 (27).

(86)– م، ش، ع: 57 (28).

(87) -م، ش، ع: 57(27).

(88) - م، ش، ع: 84-85-86(14).

(89)- م، ش، ع: 141(42).

(90)– غطاس. الحرف والحرفيون، سبق ذكره، ص 403.

(91)– م، ش، ع: 170 (7).

(92)– م، ش، ع: 140 (16).

(93) –م، ش، ع: 16.– نقلا عن: – غطاس. الحرف والحرفيون، سبق ذكره، ص414.

(94) – م، ش، ع: 140 (17).

(95) – م، ش، ع: 100-101 (34).

(96) – م، ش، ع: 63 (90).

(97) – م، ش، ع: 45-2 (6).

(98) – م، ش، ع: 6 (؟) غير واضح.

(99) – م، ش، ع: 10-1 (29).

(100)- Raymond. Op, Cit, p 238-239.

(101)– غطاس. الحرف والحرفيون، سبق ذكره، ص 375.

(102)– م، ش، ع: 119-120 (10).

(103) – م، ش، ع: 119-120 (34).

(104)– م، ش، ع: 10 (14).

(105)– خوجة، حمدان بن عثمان. المرآة، تعريب وتحقيق الزبيري محمد العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1982، ص125.

(106) –غطاس. الحرف والحرفيون، سبق ذكره، ص 136.

(107) – م، ش، ع: 10(14).

(108)– م، ش، ع: 28 (10). أنظر ملحق رقم: 48.

(109) – م، ش، ع: (؟) 28.

(110) – م، ش، ع: 9-2 (غير واضح).

(111) – م، ش، ع: 10 (1).

(112) – وثائق المحاكم الشرعية تذكر أن سوق العطارين اليهود يقع أسفل سوق السمن أنظر:– م، ش، ع: 49 (2).

(113) – م، ش، ع: 41 (22).

(114) – م، ش، ع: 9-2 (27).

(115) – م، ش، ع: 49 (2).

(116) – م، ش،ع: 151-152(3).

(117) – م، ش، ع: 71-72 (15).

دور المهاجرين الجزائريين في الحركة الوطنية التونسية في مطلع القرن العشرين
(أحمد توفيق المدني أنموذجا).

أ. بوطيبي محمد

قسم التاريخ – جامعة المسيلة

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

الملخص:

ساهم الكثير من المهاجرين الجزائريون في الحركة الوطنية التونسية، منهم، أحمد توفيق المدني والهادي المدني، عبد العزيز الثعالبي، الطيب بن عيسى، محمد الصادق أرزقي، إبراهيم الطفيش، علي بشوشة، حسين الجزائري، عبد الرحمان اليعلاوي و صالح بن يحي، وقد مثل هؤلاء مختلف مناطق القطر الجزائري ومن بينهم مهاجري جهات المدية، والورقليين، السوفيين، العنابيين، القسنطيين والوهرانيين. وأخذت نموذجا حسن قلاتي في هذه الدراسة نظرا لدوره الكبير في الحركة الوطنية التونسية.

Résumé :

Bou coups des algériens ont participé dans le mouvement national tunisien, par exemple : Ahmed Toufik et el Hadi el Madani, abd el Aziz th'alibi, Taieb ben issa, Ali Bouchoucha, Hocine el djazairi, Brahim t'faiche, abd Rahman yaalaoui, Saleh ben yahia. Tous ces gens des différents régions de l'Algérie .par eus les émigrés des régions : Médéa, Ouargla, oied seuf, Annaba, Constantine et Oran...

Et j'ai choisi hassen guellaty comme exemple à cause de son rôle dans le mouvement nationale tunisienne .

مقدمة :

– ساهم الجزائريون كغيرهم من التونسيين في الحركة الوطنية التونسية، حيث يعود هذا النشاط إلى وقت مبكر منذ احتلال البلاد التونسية، ومن هؤلاء أحمد توفيق المدني، أحد ي الحزب الحر الدستوري التونسي.

– كما ساهم جزائريون آخرون في الحركة الوطنية التونسية، مثل: حسن قلاتي مؤسس الحزب الإصلاحي، علي بوشوشة، عبد الرحمان اليعلاوي، الصادق الرزقي، الهادي المدني، الطيب بن عيسى، وغيرهم من الجزائريين الآخرين، وأحمد توفيق المدني الذي لعب دورا بارزا في الحركة الوطنية التونسية،لذلك تستحق هذه الشخصية تسليط الضوء نظرا لما قدمته من نشاطات مختلفة على الساحة السياسية والإعلامية التونسية.

1- نبذة عن حياته:

– ولد أحمد توفيق المدني في الفاتح نوفمبر 1889م الموافق ل24 جمادي الثانية 1317هـ، في مدينة تونس، من أسرة جزائرية مهاجرة من صلب محمد بن أحمد بن محمد المدني القبي، الغرناطي الأصل من السادة الأشراف .

– ولد أبوه عام 1852م، وتلقى علومه بالجامع الكبير، أما جده فقد شغل منصب أمين الأمناء (شيخ بلدية الجزائر العاصمة)،ونتيجة السياسة الفرنسية المطبقة ضد الأهالي الجزائريين قررت الأسرة السفر اتجاه تونس، حيث استقرت الأسرة في بجاية، لكن ثورة المقراني التي اندلعت عام 1870م حالت دون ذلك، مما ألزم الأسرة الهجرة نحو البلاد التونسية .

– ومن باب الصدف أن التقت عائلته بأسرة الشيخ عمر بويراز الجد بالأم لأحمد توفيق المدني، وانتقلت كلا العائلتين إلى تونس[1]. أما أمه فهي عائشة بنت عمر بويراز وكريمة من عائلة ابن هشام التونسية الأصل، حيث تزوجت وعمرها 16 سنة مع أبيه محمد، وهو في سن يزيد عن الأربعين سنة. [2]

– تربى الابن أحمد توفيق في جو العائلة المحافظة على الشرف والدين، وفي الخامسة من عمره بدأ حفظ القرآن في الكتاتيب التونسية، أين تميز بقوة الحفظ والفراسة، حتى إذا بلغ السنة التاسعة أصبح الفتى أحمد يقرأ الجرائد، ويتبع أمور وأحداث

السياسة التي بدأت تتخمر في ذهنه بفعل تتبع وتطلع العائلة وأخواله على القضايا السياسية السائدة في البلاد، حيث اضطلع على مجلة العروة الوثقى والمؤيد واللواء .[3]

-وفي سن العاشرة انتقل الطالب من الكتاب إلى المدرسة القرآنية الأهلية وتتلمذ على يد محمد صفر، ووضع في الصف الرابع مبكرا، وفي عام 1915م حكم على الشاب اليافع بالسجن مدة أربع سنوات، بعدها عاد على الجزائر ليناضل في صفوف جمعية العلماء المسلمين، وكان له الفضل في إنشاء نادي الإتحاد والترقي مع العلامة عبد الحميد بن بأديس، كما انضم في صفوف الثورة الجزائرية عام 1956م، أما بعد الاستقلال فتقلد عدة مناصب منها سفيرا في تركيا، إيران، العراق .[4]

ترك العديد من المؤلفات منها :

- تقويم المنصور جمهورية الجزائر سياسيا اقتصاديا وطبيعيا
- حياة كفاح مذكرات في تونس 19015-1925م .الجزء الأول.
- حياة كفاح مذكرات في الجزائر ، 1925-1954م-الجزء الثاني.
- حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792م.
- مذكرات أحمد الشريف الزهار 1754-1830م.
- المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا

2-النشـاط السيـاسي لأحمد توفيق المدني :

2-1 أحمد توفي المدني في مشروع ثورة فاشل:

عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى، ظهرت فكرة إعلان الثورة في تونس، بإيعاز من طرف أحمد توفيق المدني والصادق الرزقي[6] في ديسمبر 1914م بالاشتراك مع أحمد نجاح، محمد النيفر، محمد السعيد الخلصي والهادي مزاح، تلك الجماعة التي كانت تدرس الخطط والمنهاج العملية في الاجتماعات السرية التي انتهت إلى تفجير ثورة اعتمدت على الأسس التالية : [7]

1.بث دعاية واسعة لدى الجيش والشعب التونسي ضد تجنيد فرنسا للأهالي كقطعان في الحرب العالمية الأولى.

2.مواجهة فكرة الخمول واليأس التي أصابت المجتمع التونسي منذ حوادث الزلاج.

3.الاتصال بقبائل بني زيد في الجنوب التونسي، لمواجهة الحامية المتواجدة في تلك الجهات، وفتح واجهات متعددة للجيش الفرنسي .

4.بمجرد خروج الحامية الفرنسية من قفصة، يتم مهاجمة الثكنات التي يوجد فيها الأسرى الألمان حتى يكونون ضباطا للمقاتلين التونسيين والزحف على مدينة قابس واحتلالها .

5.الاعتماد على الطلبة الزيتونيين الجزائريين من جهات تبسة، عين البيضاء وقسنطينة لبث الدعاية الحربية. [8]

6.عندما تنجح العملية يستطيع المواطنون التونسيون خوض العمل .

7.تنشأ شفرة موحدة للاتصال [8].

- وتم تكليف أحمد توفيق المدني بالاتصال مع الجهات الجنوبية، وعلى رأسهم علي فارس قصد الاتصال بالقبائل، وتحضير الأسلحة تحت التستر وراء تجارة التمر بعد أن انقطع عن الدراسة، لكن هذا المشروع لم

ينجح بسبب وشاية أحد الأطراف الذين انظموا إلى الجماعة السرية، وتم إبلاغ الأمر إلى الأمن الفرنسي، الذي انتهى بإلقاء القبض عليه يوم 14 فيفري 1915م، وبذلك فشل مشروع الثورة في المهد [9]، خلال الحرب العالمية الأولى، تلك الحرب التي جندت خلالها السلطات الفرنسية حوالي 56000 مقاتل، و 45000 عامل من الشباب التونسي خدمة للحرب، وفقدت تونس 45000 ضحية من فلذات أكبادها[10].

– بعد خروج أحمد توفيق المدني من السجن، وتشبعه السياسي والفكري من خلال الجرائد والصحف السرية التي كانت تصله سريا من بعض المتعاطفين معه، فقد انفتحت نفسيته على ممارسة النشاط السياسي بالاتصال مع بعض السياسيين وعقد الاجتماعات السرية.[11]

2–2 الاجتماعات السياسية السرية :

2–2–ا **اجتماع مطبعة محمد التليلي :

– كان أول اجتماع سياسي سري لأحمد توفيق في بداية 1919م في مطبعة محمد التليلي[12]، حيث حضر هذا الاجتماع خمسة أعضاء، هم: الصادق المعروف، محمد بن عمار، الشيخ محمد الرياحي، الشيخ أحمد المنستيري، أحمد توفيق المدني، فخلال ذلك اللقاء تمت مناقشة قضايا الوضع الدولي، خاصة وأن الفترة هي فترة نهاية الحرب العالمية الأولى وأهم انعكاساتها على الشعوب المستعمرة، وأهمها: بنود ولسون الأربعة عشر التي كانت تحمل في طياتها: تقرير مصير الشعوب،كما ناقش الاجتماع مسألة طرح القضية التونسية في مؤتمر الصلح[13]، ومن خلال هذا الاجتماع تم تعرف أحمد توفيق على الشيخ عبد العزيز الثعالبي، الذي كان قد سافر إلى باريس من أجل تولي مهمة الدفاع عن القضية التونسية . كما تم التوصل إلى ضرورة مشاركة الوفد التونسي في مؤتمر الصلح والتنسيق والتشاور مع وفود البلدان العربية الحاضرة ، رغم انعدام الثقة في الدول الكبرى.[14]

2–3–ب– اجتماع مدرسة السلام :

– ظلت الاجتماعات السياسية متواصلة بين هذا الرعيل وزملائه حول القضايا الهامة في العالم الإسلامي، حيث عرفت إحدى المدارس المذكورة لقاء آخر بحضور السادة:الشاذلي المورالي، الشيخ صالح بن يحي، الشيخ إبراهيم الطفيش، الشيخ أبو اليقظان، أحمد توفيق المدني وإبراهيم بن عيسى وغيره من الشخصيات الأخرى. وفي هذا الاجتماع تعرف أحمد توفيق على الشيخ علي كاهية والشاذلي خزندار.[15]

3 – نضال أحمد توفيق المدني في الحزب الحر الدستوري التونسي:

لعل من أهم دواعي تأسيس الحزب الحر الدستوري هو فشل عبد العزيز الثعالبي في مسعاه عشية انعقاد مؤتمر الصلح، حيث يذكر أحمد توفيق:أنه في شهر فيفري وصلت رسالة من الشيخ الثعالبي، قرأتها بنفسي من بعد عند الشيخ حمودة المنستيري يقول فيها ما من مصلحة: أن حركة ولسون قد أخفقت، وأن الآمال المبنية قد انهارت وعلمت الشعوب العربية كلها أنها لا تنال حقها إلا بجهادها، ولهذا لزم الأمر الاستعداد لكفاح طويل ومرير ربما ولجت رحابه الأجيال.[16]إنه لم يعد الآن المطالبة بإلغاء نظام الحماية، فذلك قول لا يسمع له أحد اليوم، إنما يجب أن نطالب بإعلان الدستور التونسي، وأخذ زمام الأمور بأيدينا. يجب أن يتطور الحزب وينظم ويجب أن يدع: **الحزب الحر الدستوري التونسي**، ويشمل كل الطبقات التونسية... ومن خلال هذه المقتطفات من رسالة عبد العزيز الثعالبي يتبين أن الدعوة لإنشاء الحزب الحر

الدستوري التونسي في 14 مارس 1920م من طرف مجموعة من الأعضاء، حيث يقول أحمد توفيق المدني:<< وهكذا فإن جماعة... أعلنوا تأسيس الحزب الحر الدستوري... وعزموا على إرسال الوفد إلى باريس بأسرع وقت ممكن... ويضيف قائلا:<< وكنت والحمد لله من بين ذلك الرعيل الأول الذي أدى القسم وأوفى بما عاهد الله عليه...>>.(17)

-وبذلك بدأ أحمد توفيق نشاطه السياسي ضمن الحزب الحر الدستوري، وربط علاقاته مع الأعضاء البارزين في الحزب بداية من شهر ماي، وأصبح عضوا ضمن اللجنة العليا للحزب. وهكذا أصبح أحمد توفيق ظاهريا محاسبا في مكتب الطاهر بن حمودة المنستيري يقوم بضبط الحسابات الزراعية، لكن في الخفاء كان كاتبا للحزب الحر الدستوري وحافظا لأسراره .(18) وتشير التقارير الأمنية أن انه كان يتقاضى من الحزب مبلغا شهريا قدره 600 فرنك، وهو خمس ما كان يتقاضاه رئيس الحزب. (19)

- يبدو أنه كان صاحب علاقات واسعة مع رجال الصحافة، مما جعل الحزب يبعثه وسيطا إلى الشاذلي المورالي صاحب جريد المنير يترجاه كي يعدل عن الأقوال التي نشرها ضد الشيوعيين الذين كانت تربطهم علاقات طيبة مع الحزب، إذ اتهم هذا الأخير الأمين العام للحزب الشيوعي ببعض التهم، التي كادت أن تعصف بالعلاقات التي تربط الحزب الحر الدستوري بالحزب الشيوعي . (20)

3-1- وفد الأربعين ومقابلة الملك الناصر باي (18جوان 1920م):

من غير المعقول أن يرفع الحزب الحر الدستوري مطالبه إلى السلطات الفرنسية، من دون اطلاع الملك الناصر باي (21) على انشغال الحزب، لذلك خططت اللجنة التنفيذية للحزب وجهزت وفدا سياسيا يتكون من 40 عضوا* من مختلف الفئات التونسية من عمال، تجار، فلاحين، مدرسين وعلى رأسهم الشيخ محمد الصادق النيفر(22)، وبهدف تشكيل وفد لمقابلة الملك، تشكلت لجنة سياسية مكونة من عشرة أعضاء، منهم أحمد توفيق المدني في بيت الشيخ حمودة المنستيري، قصد التخطيط للعملية وزيارة الملك الناصر باي في قصره ببلدة المرسى، وعرض الانشغالات والمطالب السياسية التونسية عليه، تلك المقابلة التي واجهتها صعوبات في البداية، وصدت أبواب القصر في وجه الوفد من طرف الوزير الأكبر الطيب الجلولي، وكاد الوضع أن يتحول إلى مأزق خطير بسبب تعنت هذا الأخير، بعدم مقدرة الملك على مقابلة الوفد، لأنه كان طريحا على فراش المرض، لكن تدخل الابن الأكبر المنصف باي (23)حسم الأمر بإدخال الوفد إلى القصر، وتمت مقابلة الملك وهو فعلا على فراش المرض، حيث عرضوا عليه مسألة تأسيس الحزب الحر الدستوري، وأخبار الوفد التونسي المتوجه نحو فرنسا لطرح القضية الوطنية في مؤتمر باريس، وجملة مطالبه السياسية، وفي هذا اللقاء كان يتنقل أحمد توفيق المدني بين الصفوف، ويتأكد من الأعضاء الحاضرين والغائبين من الحزب .(24)

3-ب- نتائجه:

- اتساع العلاقة بين الأهالي والحزب وانضمامهم للوفد حتى أصبح عدد المساندين يقدرون بالمئات.

- حدوث تجاوب بين الملك الناصر والوفد وقبوله مبدئيا المطالب التي كانت تتماشى ومصالح الشعب التونسي (25).

4- مع الوفد التونسي الثاني :

– بعد عودة الوفد الأول من باريس، ونجاحه في إخماد الأصوات التي كانت تطالب بالاستحواذ على الأوقاف التونسية الخاصة، على عكس المطالب السياسية التي لم تجد لها أذانا صاغية، خاصة مطلبي: المجلس التشريعي والحكومة المسئولة أمام المجلس التشريعي. لأجل ذلك اجتمع الدستوريون لتحوير هذين المطلبين، وهو أن يعوض المطلب الأول بمجلس تفاوضي على قاعدة التساوي المطلق بين التونسيين والفرنسيين، أما مطلب الحكومة المسئولة فتم استثناء منه ممثل فرنسا قائد الجيش، وأميرال البحرية.

– إن المطالب السياسية التي حملها الوفد الثاني مرة أخرى إلى باريس بقيادة الطاهر بن عمار في 22 ديسمبر 1920، قصد محو الصورة الخطرة على الكيان الاستعماري التي رسمتها الأحزاب اليمينية الفرنسية على الوطنيين الدستوريين، [26]والتي عارضها بعض الدستوريين،ومنهم أحمد توفيق المدني، وبذلك أصبحت المطالب على النحو التالي :

1.مجلس تفاوضي مشترك بين التونسيين والفرنسيين يملك حق وضع منهاج أعماله .

2.حكومة مسئولة أمام هذا المجلس باستثناء المقيم العام الفرنسي والجنرال قائد الجيش والأميرال قائد البحرية الفصل بين السلطات الثلاث .

3.قبول التونسيين في جميع الوظائف العامة إذا استوت الكفاءة.

4. التساوي في المرتبات بين التونسيين والفرنسيين.

5.الانتخابات الحرة للمجالس البلدية

6.حرية الصحافة والاجتماع والمؤسسات .[27]

7.التعليم الإجباري العام.

8.مشاركة التونسيين في ابتياع الأراضي المخصصة للمستعمرين. [28]

4- مواقف أحمد توفيق المدني من المطالب الجديدة :

– اعتبر أحمد توفيق المدني أن تحوير المطلبين المذكورين سابقا هو وأد للثورة وإعدام للاستقلال، وأن الأحرار بطشوا بالحرية بدعوى الاعتدال والحصول على الحقوق البسيطة،[29] إذ يقول:<< ثرت يومئذ ثورة عارمة، تحدث الناس عنها كثيرا، وقابلت الجماعة وخاصة الصافي، حمودة المنستيري، محمد بن عمار أحمد التليلي، صالح بن يحي...إنكم قد خنتم الوطن...أعطيتم الفرنسيين طوعا واختيارا حق التشريع ببلادكم...أهذه هي بداية الاستقلال ...أصبحتم أذل وأحقر من مصطفى بن إسماعيل والصادق باي عندما قبل الحماية...>> .[30]

5- تأسيس اللجنة الثانية للحزب الحر الدستوري و أمانة أحمد توفيق للقلم :

قصد تأطير الحزب وتنظيمه وهيكلته، اجتمع بعض الأعضاء البارزين يوم 29 ماي 1921م في منزل حمودة المنستيري ببلدية المرسى بحضور51 عضوا *، منهم المناضل أحمد توفيق المدني. وفي هذا الاجتماع استهل عبد العزيز الثعالبي بتقييم نشاط اللجنة التنفيذية الأولى وأعمالها،وما حققه الوفدين المفاوضين، تمهيدها لعرضها على سمو الباي، فطلب وجوب انتخاب أحمد توفيق المدني أمينا عاما مساعدا يتولى القلم العربي باللجنة التنفيذية، ثم انتخبت اللجنة التنفيذية الثانية للحزب الحر الدستوري التونسي على النحو التالي :

أحمد الصافي: أمين عام للحزب، أحمد توفيق المدني : **أمينا عاما مساعدا للقلم العربي**، الطيب الجميل أمينا مساعدا.

حمودة المنستيري: أمينا للمال، المحامي ألبير: أمينا بالنيابة (يهودي)، المنوبي درغوث:مستشار، الطيب رضوان كمستشار، عبد العزيز الثعالبي: عضو لكنه الرئيس الفعلي، إضافة إلى تسعة عشر عضوا آخرين بمثابة أعضاء داخل اللجنة التنفيذية المتكونة من 27 عضوا، كما تم إقرار لجنة تشريعية للحزب.[31]

6- مع الوفد الدستوري الثالث في باريس :

بفعل تأجج المعارضة الشعبية في تونس بضرورة إدخال إصلاحات جديدة، وكثرة عيوب المجلس الكبير التونسي وحدوث انتخابات في شهر جوان 1924م، التي فازت فيها كتلة اليسار، التي يتزعمها الرئيس إدوارد هيريو رئيس الحزب الراديكالي الذي كان يجمع أحزاب يسارية تتميز بأفكارها الحرة .[32] فخلال مؤتمر الأحرار المنعقد في 16 سبتمبر 1924م تقرر إيفاد وفد تونسي آخر إلى باريس لبسط المسألة التونسية على الحكومة الفرنسية الجديدة والرأي العام الفرنسي، وإقناع أصحاب الأفكار الحرة التي تبوأت مقاعد الحكم إثر انتخابات11ماي بأحقية المطالب وحسن النوايا [33]، لذلك رأى أعضاء الحزب الحر الدستوري ضرورة طرح المسألة على الحكومة الجديدة، مثل تحويل المجلس الكبير إلى مجلس تفاوض، لأجل ذلك الغرض تم تشكيل الوفد المتكون من السادة: أحمد الصافي: رئيسا، **أحمد توفيق المدني: كاتب عضو اللجنة التنفيذية**، صالح فرحات: عضوا ، الطيب الجميل: عضو محامي. [34]

-لقد سافر الوفد الدستوري الثالث يوم 29 نوفمبر، باستثناء أحمد الصافي الذي سافر من قبل لاحتياطات أمنية، وسط توديع حار من الأهالي والمؤيدين للحزب، وصولا إلى مدينة مرسيليا يوم 01 ديسمبر 1924م [35]، حيث كان الوفد يحمل عريضة تحمل ألاف التوقيعات للأهالي التونسيين المتعاطفين مع الحزب قصد لفت القضية الوطنية إلى ممثلي الأمة والحكومة الفرنسية، نحو فكرة الحزب الدستوري البعيد عن التوجهات الاشتراكية، بينما المطالب بقيت نفسها منذ 1920 م الهادفة إلى المساواة بين الجزائريين والتونسيين والمساهمة في تسيير شؤون بلادهم . [36]

6-1- نشاط وأعمال الوفد في باريس:

التشاور بين أعضاء الوفد حول المسائل الهامة ومنها ضرورة تحرير بيان للشعب التونسي قصد توضيح مواقف الوفد مقابلة أحمد الصافي النائب الاشتراكي ماريوس موتي.

- الاتصال بالنائب السنغالي الأصل لكنه رفض المقابلة التي قد تحدث لاحقا.

- مقابلة النائب الشيوعي برتون قصد التوسط لمقابلة رئيس الحكومة الفرنسية بواسطة مدير ديوانه ميسو إسرائيل، لكنه بحجة أن الوفد أصبح محل إزعاج من طرف الباي التونسي الذي احتج على هذه الزيارة [37].

- مقابلة هنري دي شامبون صديق الحزب الذي ينتمي إلى عصبة اليسار، قصد السعي لمقابلة ادوارد هيريو الذي رفض المقابلة في 3 ديسمبر 1924م أثناء مقابلته لبيرتون.

- زيارة جريدة الكوتيديان اليسارية التي تفهمت الوضع، لكن تأسفت بحجة التمويل و مصلحة الجريدة .

- وفي نفس التاريخ السابق التقى أعضاء الوفد بالسيد حاج علي رئيس جمعية نجم شمال إفريقيا، والسيد ميصالي الحاج .

– عرض مطالب الوفد على ماريوس موتي عضو مجلس الأمة والأوضاع التي آلت إليها البلاد[38].

– مقابلة أعضاء جمعية حقوق الإنسان الفرنسية، وأمينها العام ميسو فيرنوت، الذين وعدوهم بطرح القضية باسم الوفد خلال المؤتمر الذي سيعقد بمرسيليا يوم 27 ديسمبر 1924م.

– 13 نوفبر 1924م تم مقابلة وزير المستعمرات ادوار دلاديه الذي رد عليهم بعدم التدخل في أمور بلاد الحماية، واكتفى بتقديم بعض النصائح لأعضاء الوفد وتقديم يد المساعدة. [39]

–وظل الوفد التونسي يواصل جهده بين الصحافة الصباح (لومتان) اليومية، (الكوتيديان) وباريس الفتاة (البتي بارزيان) و غيرها من الجرائد الأخرى، الجمعيات الحقوقية وناب الأمة والبرلمان والشخصيات الهامة وخاصة اليساريين، لكن دون جدوى، وبالتالي فهم أعضاء الوفد الدرس متأخرين [40].

6–2– نتائج زيارة الوفد التونسي الثالث :

– فمن خلال تفحص يوميات الوفد الثالث التي دونها أحمد توفيق المدني طيلة رحلة الوفد من 29 نوفمبر 1924م إلى غاية 22 ديسمبر من نفس السنة، تم الوصول لبعض النتائج التالية:

– تلاحم الأهالي مع الحزب الحر الدستوري.

– ظهور خلاف بين الباي و الحزب.

– معرفة أعضاء الوفد مدى التلاعب السياسي لمختلف الهيئات والتيارات السياسية.

– مواجهة المشاكل والتهم الملفقة من طرف الوالي العام في تونس والعودة بخفي حنين [41].

7– موقف أحمد توفيق لمشروع التجنيس الفرنسي في الإيالة التونسية :

يعد أحمد توفيق المدني من أشد المعارضين لقانون التجنيس عام 1923م[42]، إذ يقول ما خاننا يومئذ إلا المجلس الشرعي، و يضيف : <<...ذهبت إليهم واحدا واحدا فكنا نقابل بالتقدير و الاحترام >>[43]، ويقول في شأنهم :<<...مصابيح الظلام نصروا الظلام وقاوموا النور، نقل لكم بصراحة إن التجنيس حرام وكفر ، وقال بعضهم وهو الشيخ محمد بن يوسف أننا لا نستطع إطلاقا وبأية صفة من الصفات إعلان ذلك لا قولا ولا كتابة بالتهديد، فالقرار الذي صدر منهم قاس وشديد ونحن لا نستطيع أن نتمرد–أي نهان– في آخر أعمارنا، قلت محتجا صاخبا أتخشونهم والله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين، اتفقوا عليه وهم كارهون عندما كانوا يسمونه سيدي الحبيب خادم فرنسا المطيع عامله الله بما يستحق، إلا المفتي الحنفي الشيخ العلامة محمد بن الخوجة فقد قال كلمة الحق جاهر بردة المتجنس رحمه الله ورضي عنه>>.[44] ، وعاتب السيد أحمد توفيق المدني دعاة التجنيس بالقول التالي :<< أما صغار العلماء فقد جاهروا بكلمة الحق ... إذا أسقطك العلماء فسيرفعك الشعب بمجدك الله، وكان فيما بعد شأن يذكر علما و عملا، أما رجال المجلس الشرعي فقد توليت قولا وتولى أصحابي كتابة تنشر فضيحتهم ومهاجمتهم، ومعاملتهم بما يستحقونه زراية وتحقيرا وكانت العامة تقول عند مرورهم : انظروا شيبة جهنم>> .[45]

8–التجمعات و التوعية الجماهيرية و تكوين الشعب الدستورية:

بعد تشكيل الحزب الدستوري وتأليف اللجنة التنفيذية للحزب قررت هذه الأخيرة يوم6 سبتمبر1921م الخروج بالحزب من دائرة الانكماش داخل العاصمة إلى دور إشراك الشعب.[46] في المسئوليات، وذلك بتكوين الشعب في المدن والقرى التونسية، حتى تكون وسيطا بين القمة والقاعدة، ويقول أحد توفيق

المدني: ومن أجل تحقيق تلك الغاية العملية النبيلة شرفتني الهيئة بأن انتدبتني للقيام بهذه المهمة وعينت معي محمد الجعايبي صاحب جريدة الصواب .[47]

وبالفعل فقد غادر العاصمة يوم 23 سبتمبر 1921م إلى بلاد الساحل، حيث زار سوسة التي عقد فيها أول اجتماع وخطب فيهم كما زار قرى الساحل منها: أكودة، جمال، القصيبة، المسعدين، مساكن، قصر هلال ومدينة صفاقس والقيروان، فكان في كل منطقة يحط رحاله فيها إلا وخطب في الناس ويؤسس الشعب الدستورية ويعامل ويقابل مقابلة الأسياد من الأهالي.

– كما زار بنزرت التي مهد له فيها الجو حمودة بن ميهوب الزواوي الجزائري وبنزرت البحرية وماطر، حيث مكن هذا المناضل من تأسيس أكثر من 130 شعبة دستورية في هذه المناطق قبل نفيه للجزائر . [48]

9– النضـال النقابي :

لأول مرة في تاريخ البلاد التونسية التف العمال حول قيادة قومية مخلصة لهم بعد أن كانوا أشتاتا، فخرجوا من عزلتهم وأرسلوا نوابهم إلى العاصمة للتشاور مع محمد علي الحامي، واستمر نشاط العمال رغم معارضة الاشتراكيين والسلطات الفرنسية ضد مشروع المؤسسة النقابية التي ظهرت يوم الفاتح نوفمبر 1924م، حيث اجتمع محمد علي الحامي ورفاقه في قاعة بنهج الجزيرة مع العمال لينظروا في تأسيس جامعتهم النقابية، وانتخبوا لرئاسة هذه الجلسة هيئة تضم محمد علي، الطاهر حداد وأحمد توفيق المدني والمختار العياشي، لكن هذا المشروع فشل في تأسيس الحركة النقابية التي انبعثت يوم 3 ديسمبر 1924م تحت جامعة عموم العملة التونسيين . [49]

وبذلك نلاحظ دور أحمد المدني في تأسيس نقابة عمال تونسية وجمع شتات العمال، وإنقاذهم من الخطر الداهم بطريقة ذكية والقيام بالواجب للمطالبة بحقوق الحركة العمالية مع بعض الأصدقاء القلائل من الحزب الحر التونسي، أمثال الطاهر صفر والطاهر الحداد وأحمد الدرعي ومساندة محمد علي الحامي[50]، كما عمل على تقريب الحركة العمالية من الحزب الدستوري وذلك بجمع الأموال للحركة، ومنه مبلغ 5000 فرنك من صندوق الحزب على حد قوله: <<ومد الشيخ المنستيري يده إلى محفظة أوراقه ودفع خمسة ألاف فرنك، فتناولتها شاكرا، وخرجت مسرعا أمتطي الرتل الحديدي إلى باب السويقة، ودخلت مكان الاجتماع وكان مكتظا بجموع طائلة من مختلف طبقات العمال، فدفعت أمامهم للأخ محمد علي الخمسة ألاف وتعالى هتاف القوم للحزب الدستوري>>[51]، وأصبح عضوا فاعلا في جامعة عموم العمال التونسيين، يتردد باستمرار على اجتماعاتهم ويخطب فيهم. ولذلك اتهمت اللجنة التنفيذية للحزب الحر الدستوري بمساندتها للحركة النقابية من طرف إدارة الحماية الفرنسية، التي أمرت يوم 5 جانفي 1925م بتفتيش منزل أحمد توفيق المدني، ومقر ومسكن محمد علي الحامي. [52]

10– موقف السلطات الفرنسية من أحمد توفيق المدني :

بفعل النشاط السياسي الذي كان يقوم به أحمد توفيق المدني، فإن السلطات الفرنسية ألقت القبض على أحمد توفيق المدني في سن السابعة عشر من عمره صحبة حسين الجزائري، والحجة في ذلك ثابتة والمتمثلة في المواقف المعادية لفرنسا والتحريض ضدها بواسطة وثائق وجدت بحوزته وتتمثل تلك الوثائق فيما يلي :

1– تنظيم قصيدة في شكل حوار بين فرنسا، انجلترا، روسيا وتونس والسلطان العثماني تتضمن لهجة شديدة ضد فرنسا.

2- العثور بحوزته على نظم لحسين الجزائري، مقال أحمد توفيق المدني ينتقد فيه السلطة الاستعمارية.

3- صورة غليوم الثاني ملك ألمانيا وعدو فرنسا، مقال بعنوان: اضطهاد المسلمين بتونس ينتقد ويبين سياسة فرنسا اتجاه اللغة العربية، مدح الجيش التركي الذي كان في منظوره أنه سيحرر تونس، كما حررها وطرد منها الإسبانيين في القرن السادس عشر .(63)

غير أن السجن كان مدرسة لأحمد توفيق المدني وتجربة سياسية وفكرية، وأضفى وزنا سياسيا على حياته المستقبلية التي لا يحيط بها أدنى شك أو ظن، هذا السجن الذي جعل منه شاعرا، فيلسوفا ناثرا وأديبا، فكتب ما يلي في جانفي 1918م داخل الغرفة رقم 12: << فإذا كنت قد دخلته واكتفيت بالأرض فراشا وبالعراء لباسا وقنعت بالجوع طعاما وبالوحشة أسبابا وتوالت عليك الأيام ومرت الشهور وانقضت الأعوام وأنت على تلك ثم خرجت من جديد إلى عالم الحياة.>>(64)

وبفتح العالم صحايف أسراره و تسقط أمامك حجب اللانهاية فتبصر الخيال مجسما، وترى المعنويات محسوسة وتتحول أيها السجن السامي الدري أيها المكان العلي أمنحك... فأنت أستاذي في الدنيا وأنت مكوني فيها، إنني سأغادرك أيها الأستاذ وكيف أصطبر على فراقك وكيف أستطيع ؟ لكن قضى الله بأن نفترق بعد أن صفا بيننا العيش ثلاثة أعوام مستتمة فسيرى الذين ظلموا أنهم إذا دخلوا السجن ... يستعدوا لخوض الحياة السياسية فقد أخرجوا بعد أعوام ثلاثة رجلا يستعد للجهاد في سبيل الحرية لقومه والاستقلال لبلاده>> . (65) كما قامت الجهات الأمنية الفرنسية بتفتيش بيته يوم أن كان عضوا في اللجنة التنفيذية للحزب الحر التونسي، متهمة إياه بالعداء للإدارة الفرنسية، وفي ذلك قال فيه الشاذلي خزندار :

بفضلك أيها الوطني تراض جوامع الزمن
فأنت التونسي و إن دعوك بأحمد المدني

-كما داهمت السلطات أعضاء اللجنة التنفيذية، متهمة أعضاءها بمساندة وبتأييد محمد علي الحامي وصورت خطر الهيجان في البلاد أنه من فعل الوطنيين والشيوعي، لذلك أمرت يوم 15جانفي 1925م بتفتيش منزل أحمد توفيق المدني(66)، غير أن استمراره في النشاط السياسي، جعل السلطات الفرنسية تقوم بنفيه إلى الجزائر يوم السبت 6 جوان 1925م بحجة أنه جزائري الأصل، وبذلك أبعدته عن وطنه الذي ولد فيه وترعرع فيه وهو تونس(67)، لكن لسوء حظ الفرنسيين لم يجدوا شيئا من الوثائق التي تم تحصينها في مكان لا تستطع فرقة التفتيش الوصول إليها.(68) واستمرت أعين الفرنسيين في مراقبة الثائر أحمد توفيق المدني، لتجد له في هذه المرة طريقة الإبعاد بالنفي نحو الجزائر بسبب مقال نشره في جريدة إفريقيا حول حرب الريف والمجاهد عبد الكريم الخطابي حيث مجد هذا الرجل البطولي، وفضح الأساليب الفرنسية مع ذمه للطبقات العميلة التي سايرت فرنسا وخدمتها بجوارحها، مما جعل السلطات الفرنسية تبعده نحو الجزائر بعد تحقيق مع السيد كامبانا في 25 جوان 1925م، وتم تسليمه إلى مفتش أمن عنابة .(69)

-وبذلك انتهى عهد أحمد توفيق المدني في النضال المباشر، وبنهاية دوره في النشاط التونسي قال فيه الشاذلي خزندار اعترافا ببطولته ومواقفه الباهرة ما يلي :

هذا الأبي التونسي هذا هو الوطني الممجد
هذا هو المنصور بل هذا هو المدني أحمد
هذا الصقيل يراعه أمضى في السيف الجحر

فتاكة أقلامه يرقى الشعور لها و يصعد
هذي المنابر تعرفه سلوهـا ثمة تشهد
هذي مواقفه و مازالت هنا و هناك توجد
هو آية الآيات يركع للإله بها ويسعد
هو خادم لبلاده ولدين سيدنا محمد
فلله ينصر حزبه فبمثله الإسلام يسعد
و يريه في الخضراء ما يرجى لها منه ويسعد.(70)

الخلاصـــة:

-كان أحمد توفيق المدني واحدا من الجزائريين الذين ساهموا في بناء الحركة الوطنية التونسية في مطلع القرن العشرين، وبالذات في الحزب الدستوري الحر التونسي إلى جانب ابن عبد العزيز الثعالبي .

-لقد كان أحمد توفيق مدافعا على القضايا التونسية في مختلف الجوانب السياسية والاجتماعية والثقافية، فهو المفكر والنقابي والسياسي والصحفي.

-يعتبر أحمد توفيق المدني من الرجال المناضلين الأحرار المحافظين القلائل الذين دافعوا عن القضية التونسية في البداية، والقضية الجزائرية معا بعد نفيه من طرف السلطات الفرنسية فيما بعد من بلاده بالولادة إلى بلده بالنسب.

هوامش البحث

1)- أحمد ،توفيق المدني ، حياة كفاح (مذكرات). في تونس 1905- 1925 .ج 1 ،(الجزائر : ، ش.و.ن.ت ، 1973)، ، ص13.

2)- نفسه ، ص 16 .

3)- نفسه ، ص20-22.

4)- عمر، بن قفصة ، أضواء على الصحافة التونسية ، 1860 -1970 .(ط 1، تونس : دار بوسلامة للطباعة والنشر ، 1972)،ص 129.

5)- أحمد، توفيق المدني ، مصدر سابق ، ص 351 .

6)- نفسه ، ص 85 .

7)- نفسه ، ص87 ،88.

9)- نفسه ، ص97- 99 .

10)- أحمد، العباسي ، الشيخ عبد العزيز الثعالبي ودفاعه عن القضية التونسية ، ما أهمله التاريخ.(ط 1،تونس:1987) ، ص 23.

11)- أحمد، توفيق المدني ، مصدر سابق ، ص 154 .

12)- محمد ،التليلي: ولد عام 1880 درس في الصادقية وتحصل على شهادة المدرسة المهنية ، اشتغل في الطباعة والنشر وتحصل على امتياز جريدة الزهرة . أنظر - محمد ،حمدان ، أعلام الإعلام في تونس 1860-1956.(ط1 ، تونس: مطبعة الشركة التونسية لفنون الرسم ،1991)، ص179 .

13)- أحمد ،توفيق المدني ، مصدر سابق ، ص 154.

14)- نفسه ، ص 155،156.

15)- نفسه ، ص 173.

16)- نفسه ، ص 173

17)- أحمد، توفيق المدني ، مصدر سابق ، ص173.

18)- نفسه ، ص175.

)-ANT, On me communique les renseignements - Commissariat spécial, n 865. le 19 31/05/1922, SMNT- D:2- C:21- DN:1.

. SMNT – C:21 –DOS : 2)-ANT,- Rapport – Commissaire General. 07/02/192220 –DN:47 .

21)- محمد الناصر باي بن محمود بن حسين بن علي باي: ولد في 14جويلية 1855 بالمرسى وتأدب بالعربية ثم بالفرنسية وسمي واليا للعهد عام 1902 ليولي الحكم في 11ماي 1906، واستمر في الحكم 16 عاما، حيث أصدر مجلة العقود والالتزامات وأدخل لأول مرة نواب تونسيين في مجلس الشورى، عرفت تونس عدة أحداث في عهده منها حوادث الزلاج، توفي في 16جويلية 1922 .حول الموضوع أنظر – محمد ، بوذيبة ، مشاهير التونسيين.(تونس: م.و ، 1992)، ص 437، 438.

* بينما ذكر محمد صالح لجري 30 عضوا وكان اللقاء يوم ثاني عيدا لفطر ، أنظر

- Mohamed Salah Lejri, Evolution du Mouvement National (des origines à la deuxième guerre mondiale) (1ere Ed,Tunis:Maison Tunisienne de l'Edition, 1974) . 191..p،

22)- أحمد، توفيق المدني ، مصدر سابق ، ص 180.

23)- المنصف باي بن محمد بن حسين: ولد في 4 مارس 1881 تعلم في المدرسة الصادقية ، رجل متعاطف مع الحركة الوطنية التونسية كمحادث عام 1920، حاول إقناع والده التنازل عن العرش بعدم تلبية السلطات الفرنسة للمطالب الوطنية في 5 أفريل 1920، ولي الحكم في 6جويلية 1942 وألغى عادة تقبيل اليد، في 4 سبتمبر 1942 أقسم بالمصحف على خدمة الشعب 18 أوت 1642 وجه رسالة إلى رئيس الدولة الفرنسة الماريشال بيتان فيها مطالب منها تأسيس مجلس تشريعي تونسي وتمكين التونسيين المساهمة في المجالس البلدية والمساواة في المرتبات بين الموظفين ، وإجبار التعليم وإثناء الحرب العالمية الثانية اتخذ موقفا محايدا، خلع من السلطة في14ماي 1943 وتم نفيه خارج البلاد، توفي في 1 سبتمبر 1948. حول الموضوع أنظر- محمد، بوذينة ، مرجع سابق ، ص 438-435 .

24)- أحمد ،توفيق المدني ، مصدر سابق ، ص 181.

26)- أ حمد، توفيق المدني ، مصدر سابق ، ص 183.

25)- يوسف،مناصرية ، ، الصراع الإيديولوجي في الحركة الوطنية التونسية 1934-1937 . (ط 1، سوسة ، تونس : دار الطباعة للنشر ، 2002)، ص 152 .

27)- أحمد، توفيق المدني ، مصدر سابق ، ص 168،169.

28)- أحمد ،توفيق المدني ، مصدر سابق ، ص 168،169.

29)- نفسه ، ص 185.

30)- نفسه ، ص 185،186.

(.31)- Toufik EL MADANI, Mémoire de Combat, (traduit par Malika Merabet) Alger: ENAP ,1989) , p.204.

)- Ibid. , pp.207,208.32

33)- أحمد، الصافي ، صالح، فرحات، الطيب، الجميل ، أحمد، توفيق المدني ، << بيان من الوفد إلى الأمة>> ، جريدة إفريقيا ، تونس ، العدد 29 ، بتاريخ (01/14/ 1925)، ص1.

Mahjoubi,Les Origines du Mouvement National en Tunisie 1904-1934. (،)- Ali34 1ere Ed, Tunis: La presse de la Société Tunisienne des arts graphique, 1982) , p367.

35)-أحمد، توفيق المدني ، مصدر سابق ، ص 298 ، 299 .

369. .Mahjoubi ,op.cit. ,p،)-Ali 36

37)- أ حمد ،توفيق المدني ، مصدر سابق ، ص300 .

38)- أ حمد ،توفيق المدني ، مصدر سابق ، ص 302 .

39)- نفسه ، ص 311 .

40)- نفسه ، ص 312 ،313.

41)- نفسه ، ص 300-313.

42)-هو قانون يضمن تفوق الجالية الفرنسية في المحمية التونسية ضد مطامح موسوليني في إفريقيا ثم تأثيرات الحرب العالمية الأولى على النمو الديمغرافي السكاني وبموجبه يتم الناصر منها اليهود ، قدمته الحكومة الفرنسية في 31/ماي /1923 وصادق عليه مجلس النواب في 13 ديسمبر، بينما مجلس الشيوخ في 13 ديسمبر 1923، وتم نشره يوم 1923/12/20 ونص على ما يلي : حق الأجانب في كسب الجنسية الفرنسية وحتى التونسيين أنفسهم وقد صاحبه قانون تونسي في 1923/12/8 ينص على أن الأجانب المولودين بالإيالة التونسية قبل عشر سنوات همت تونسيين وبذلك هم فرنسيين بصفة آلية وقد عارضته بريطانيا في محكمة لاهاي لكن تم تسوية الوضع بين الطرفين على حرية الخيار للمالطيين بالقبول أو الرفض. حول الموضوع أنظر علي، المحجوبي ، جذور الحركة الوطنية التونسية (1904-1934). تعريب. عبد الحميد الشلبي ، (ط 1، مصر : شركة أرابيسك للطباعة ، 1999)، ص370-371.

43)- أ حمد ،توفيق ،المدني ، مصدر سابق ، ص 313.

44)-نقلا عن المعهد الأعلى للحركة الوطنية التونسية، وثائق نصية وشفوية ، رجال الدين والحركة الوطنية التونسية 1881-1930، أحداث الثلاثينات من خلال الذاكرة ،(دط، تونس:1939)، ص39.

45)- أ حمد ،توفيق المدني ، مصدر سابق ، ص 281،282 .

46)- أحمد ،خالد ، أضواء من البيئة التونسية – الطاهر حداد ونضال جيل. (ط 3 ، تونس:، الدار التونسية للنشر 1985)، ص184.

47)- أحمد ،توفيق المدني ، مصدر سابق ، ص22.

48)- نفسه ، ص230-233-234-240.

49)- أحمد، خالد ، مرجع سابق ، ص187 .

50)- محمد ،علي الحامي، محمد علي وحوادث الأيام. (ط1، تونس: مطبعة الإتحاد العام للشغل التونسي، 1985)،ص 73.

51)-أحمد، توفيق المدني ، مصدر سابق ، ص286 ،287.

52)- أحمد، خالد ، مرجع سابق ، ص 193.

62)- أحمد ،الصافي ، صالح فرحات ، الطيب الجميل ، المرجع السابق ، ص1.

53)- مختار، العياشي، البيئة الزيتونية 1910-1945، مساهمة في تاريخ الجامعة الإسلامية التونسية . تعريب. حماد الساحلي، (تونس: م.و ، 1990)، ص147.

54)- مجهول،<< المطلوبون و جناية السيد أحمد المدني>>،دورية الجناة ، دون رقم عدد ،بتاريخ(1926/06/06)،ص45 .

55)- مجهول، نفس المرجع السابق، ص55، 56.

56)- أحمد، خالد ، أضواء من البيئة التونسية،مرجع سابق ، ص 193.

57)- أحمد، توفيق المدني ، مصدر سابق ، ص 336 ،337 .

58)- الجناة ، مرجع سابق، ص22.

59)- أحمد، توفيق المدني، مصدر سابق ، 334-336.

60)- نفسه، ص 159،160.

جوانب من أحداث ماي – جوان 1945 بقالمة من خلال وثائق رسمية فرنسية

د.رمضان بورغدة– جامعة قالمة

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

Abstract:
Aspects of the events of May - June 1945 in Guelma through French official documents
In this study, I will focus on incidents of May - June 1945 in the area of Guelma, which began on May 08, 1945, with peaceful demonstrations holding r national demands, but the French authorities committed great massacres against these peaceful demonstrators.
The gradual allowance of the French authorities to historians to study the French archive of that period made it possible to detect serious aspects of the colonial oppression of the Algerian Muslims.
I will confine myself, in this context, to the study and analysis of three issues that I consider very important, namely:.
- The European militias and their crimes in Guelma and its nearby areas
- The fate of the missing Algerian Muslim
- The impact of incidents on European settlers.
We will see how the oppression was a kind of genocide and a crime against the humanity (if we use a modern term) that the French authorities are responsible of and will never lose their validity through history

مدخل:

ما تزال الأحداث التي شهدتها الجزائر منذ 08 ماي1945 والتي استمرت إلى غاية شهر جوان من السنة نفسها تثير كثيرا من الجدل، وتعكر صفو العلاقات بين الجزائر وفرنسا، لأن تلك الأحداث التي بدأت بمظاهرات شعبية سلمية يوم 08 ماي بمناسبة انتصار الحلفاء على النازية في الحرب، حولتها الوحشية الاستعمارية– مع سبق الإصرار و الترصد– إلى مجازر رهيبة ذهب ضحيتها آلاف الأبرياء، وأخذت في العديد من مناطق الجزائر، ومنها منطقة قالمة طابع جريمة حرب وجريمة ضد الإنسانية.

و نظرا لخطورة هذه الجرائم وتأثيرها على صورة فرنسا لدى الرأي العام الدولي، وعلى العلاقات الجزائرية الفرنسية، لجأت السلطات الفرنسية المتعاقبة إلى حجب الوثائق الرسمية التي تعالج هذه الأحداث من مختلف جوانبها عن متناول الباحثين، بحجة أن نشر مضمونها قد "يهدد أمن الدولة أو يمس بشرف وسمعة الأفراد".

غير أن النقاش الذي احتدم داخل فرنسا، وبينها وبين الجزائر في السنوات الأخيرة حول ضرورة اعتراف الدولة الفرنسية بجرائمها في الجزائر، ومنها جرائم ماي– جوان 1945م، قد دفعت السلطات الفرنسية إلى فتح مشروط وجزئي للأرشيف الخاص بهذه الأحداث كوسيلة لتخفيض حجم الضغوط التي كانت مسلطة عليها، بحجة أن موضوع الذاكرة من اختصاص المؤرخين دون غيرهم، وهو ما مكنني من الإطلاع على العديد من العلب الأرشيفية المودعة بأرشيف ما وراء البحار(Centre des archives d'outre-mer) بمدينة إكس أو بروفنس(Aix –en-province)، جنوب فرنسا.

وتتضمن هذه العلب الأرشيفية آلاف الوثائق الرسمية التي أصدرتها خلال الأحداث وبعدها مختلف السلطات الفرنسية التي كانت لها علاقة بالأحداث، ولكنها ظلت من أسرار الدولة الفرنسية طوال حوالي 60 سنة، وهي تقدم دليلا هاما سيكون أساسا صلبا لأية دعوى قضائية يمكن أن ترفع في المستقبل لتجريم الدولة الفرنسية، وهذه العلب الأرشيفية هي:

1-9cab/147 : émeutes de Guelma : disparus, pillages,rapports de police,fiches de renseignements…….
2-8 cab/97 : évènements de mai 1945 à Guelma (communicable depuis 2005).
3-81f/869 : répression de l'insurrection du 08 mai 1945…

4-81f/867 : évènements dans l'arrondissement de Guelma (notes,rapports, répression militaire….(communicable depuis 2007).
5-81f/868 : victimes des évènements, listes, répression judiciaire (communicable depuis début 2008).

وإذا كان من غير الممكن– لاعتبارات منهجية – أن أتطرق في هذه الدراسة إلى كل مضامين هذه الوثائق التي تتطلب دراسة ضخمة، فإنني سأقتصر في هذا السياق على معالجة قضايا أعتبر أنها مهمة، سأتناولها من خلال ثلاث محاور رئيسية، وهي: المليشيات الأوروبية وجرائمها، ومدى تواطؤ مختلف المؤسسات الأمنية والإدارية الرسمية معها، ومشكلة المفقودين، ونتيجة التحقيقات التي فتحت حول مصيرهم، وتأثير هذه الأحداث على المستوطنين الأوروبيين في الجزائر، حيث سأحاول أن أجيب عن السؤال المركزي الآتي، وهو:« هل وفر القمع الاستعماري للمستوطنين الشعور بالأمن؟ كما خطط له الجنرال ديفال(Duval)، قائد القطاع العسكري القسنطيني الذي أشرف على عمليات القمع باعتباره المسؤول العسكري عن الشرق الجزائري، وهو المنطقة التي شهدت أعنف الأحداث.

أولا– المليشيات الأوروبية وجرائمها في قالمة وما جاورها: كانت قالمة عشية الأحداث عبارة عن دائرة صغيرة تابعة لمقاطعة قسنطينة، يسكنها 4500 مستوطنا أوروبيا، وحوالي 15000 مسلما.

وتشكيل التيارات الوطنية الجزائرية جبهة أحباب البيان والحرية يوم 14 مارس 1945[1]، استقطبت عددا كبيرا من المسلمين من مختلف التوجهات السياسية والطبقات الاجتماعية، بحيث قدر السيد فرحات عباس، الأمين العام لهذا التنظيم السياسي الجديد عددهم بأكثرمن500 ألف منخرط[2] كان من بينهم عدد كبير من سكان قالمة المسلمين، فكان النشاط الوطني في ذروته عشية أحداث ماي 1945م، وساءت العلاقات مع المستوطنين الأوروبيين أكثر من أي وقت مضي، و أبدى الأهالي المسلمون بشكل متزايد عدائهم الشديد للمستوطنين الأوروبيين، الذين ساد بينهم جو من عدم الارتياح حول ما يخفيه المستقبل، وهو ما عبرت بعض تقارير أعيانهم التي رفعوها إلى السلطات المختصة قبيل انفجار الأحداث، ومنها عريضة المستشارين العامين، أعضاء المجلس العام بقسنطينة (conseil général de Constantine) التي رفعوا إلى والي قسنطينة بمناسبة الدورة العادية للمجلس التي جرت خلال شهر أفريل 1945، ومما ورد فيها قولهم(3):" توجد إشارات مقلقة حول إمكانية انفجار أحداث خطيرة في الغد القريب قد تضع في خطر داهم الفرنسيين الذين يسكنون مناطق جبلية معزولة، أين ازدهرت منذ ثلاث سنوات تجارة سرية للأسلحة الحربية".

وإذا كانت أحداث يوم 08 ماي 1945م قد تميزت بتفريق رئيس دائرة قالمة السيد أشياري (Achiary) للمظاهرة التي نظمها المسلمون داخل المدينة بالقوة، فإن الأحداث أخذت منعطفا دمويا ابتداء من اليوم الموالي نتيجة الإجراءات الوحشية التي اتخذها ضد السكان المسلمين.

ففي يوم 09 ماي 1945م، على الساعة الحادية عشر صباحا، استدعى أشياري إلى مكتبه "رئيس فرنسا المقاتلة"، السيد غاريفي(Garrivet)، وأمين الاتحاد المحلي للنقابات، السيد جارمان غبريال(Germain Gabriel)، وكانوا يشكلون في الوقت نفسه" اللجنة المحلية لفرنسا المقاتلة".[4]

وقد حضر هذا الاجتماع العقيد قائد الجيش و قوات الدرك وشرطة الدولة(Police d'Etat).

وقد أبلغ رئيس الدائرة الحاضرين أنه نتيجة ضعف تعداد قوات الدرك، فقد تقرر تشكيل ميليشيا مدنية فورا، وطلب من هؤلاء الأشخاص تنظيمها، وتقرر أن يذهب المتطوعون إلى الثكنة من أجل الحصول على الأسلحة، على أن يأتوا بعد ذلك ويسجلوا أنفسهم لدى الدرك.

وأمام تفاقم شعور المستوطنين بالخطر نتيجة تواتر أخبار عن وجود عدد كبير من الأهالي، انتظموا في شكل مجموعات في ضواحي المدينة منذ صباح يوم 09 ماي، سارت عملية تشكيل الميليشيا بسرعة هائلة، فخلال الفترة المحصورة بين الساعتين الثانية والسادسة زوالا تجمع عدد كبير من المتطوعين، ووزعت 80 بندقية عليهم، كما زودت مختلف الإدارات العمومية بـ21 بندقية أخرى.

ومن خلال دراسة قائمة الأشخاص الذين وزعت عليهم تلك الأسلحة نستخلص أن ثلث(3/1) هؤلاء المتطوعين ينتمون إلى أحزاب اليسار الفرنسي(اشتراكيين وشيوعيين)، وكان عدد المناضلين الشيوعيين من الأوروبيين قليلا في قالمة، إذ لم يكن يتجاوز30 مناضلا، و50 متعاطفا.

وبعد ذلك جرى تشكيل لجنة مديرة للإدارة الميليشيات شكلت من المستوطنين الآتية أسماؤهم:[5]

1-شومب(Champ): رئيس منظمة قدماء المحاربين، وهو اشتراكي التوجه.

2-كابريفي(Cabrivet): رئيس " فرنسا المقاتلة"، ينتمي إلى الحزب الاشتراكي الفرنسي(الشعبة الفرنسية للأممية العمالية((S.F.I.O.

3-شيلون غبريال (Ceylan Gabriel): أمين الاتحاد المحلي للنقابات، وينتمي سياسيا للحزب الاشتراكي الفرنسي.

4-ترازيني(Trazini):مفوض التعاضدية الفرنسية، ذو توجه اشتراكي.

5-جون ألكسندر(Jean Alexandre):محافظ

6-إبسلان(Ibselin):قاضي الأمن، ورئيس كشافة فرنسا.

7-أتالي(Attali)، يهودي يشغل منصب رئيس المجمع الإسرائيلي.

أما المدعو الطيب، وهو أهلي يبلغ من العمر 28 سنة، لم يرد لقبه في الوثائق الفرنسية، فقد كلف بمنصب أمانة اللجنة.

وفي مساء اليوم نفسه أخبر محافظ الشرطة أعضاء الميليشيا أن الجيش الذي انغمس طوال اليوم في عمليات عسكرية في المناطق الريفية المحيطة بقالمة، سيدخل المدينة مساء، غير أن تعداده لا يسمح له بضمان الأمن التام في كل مناطق المدينة، ولذلك طلب منهم الاستعداد قصد ضمان تغطية العديد من المراكز الحساسة، ولهذا تشكلت بسرعة مجموعات مسلحة، سواء بأسلحة عسكرية أو ببنادق صيد.

وقد تشكلت هذه المجموعات من كل مناضلي الأحزاب السياسية الفرنسية على اختلاف توجهاتهم السياسية ومشاربهم الأيديولوجية، كما انظم إليهم عددا كبيرا من اليهود.

وهكذا، فما إن دقت عقارب الساعة السابعة مساء من يوم 09 ماي 1945م حتى أصبحت المليشيا مستعدة للقيام بالمهام التي أنشأت من أجلها، فأخبر محافظ الشرطة زعماء المليشيا بالمراكز التي أوكلتها إليها السلطات العسكرية، وهي:

1-مركز الحي الأهلي: استقر في هذا المركز 20 رجل من المليشيا تحت مسؤولية السيد فوكو(Fauqueux)، وهو مناضل في الحزب الاشتراكي الفرنسي.

-مركز يتشكل من 04 أشخاص تحت إدارة السيد روي(Roy)، وهو كذلك اشتراكي، كما أنه أحد ضحايا حكومة فيشي بقيادة الماريشال بيتان.

2-مركز السينما: حولت إلى مكان لتمركز المليشيات، حيث استقر بها 20 شخصا وضعوا تحت إدارة السيد غيافيرا(Giaffera)، لم تذكر التقارير الفرنسية مهنته الأصلية وانتماءه السياسي.

3-مركز حي حسن الاستقبال(Cité bon accueil): أنشأ فيه مركز استقر به 40 رجلا من أعضاء المليشيا، تحت إدارة ضابط الاحتياط شازوت(Chazot).

4-مركز هبودروم(Hippodrome):ظم 10 أشخاص تحت إدارة شيلون غبريال(Cheylan Gabriel)،أمين الاتحاد المحلي للنقابات، وقد انتقل هذا الشخص فيما بعد ليشغل منصب عضو اللجنة المديرة للمليشيا.

5-باب قسنطينة:استقر به 20 شخصا تحت إدارة شيلون فكتور(Cheylan Victor)، وهو عضو في الحزب الشيوعي الفرنسي.

ولضمان استمرار عمل هذه المراكز على مدار الساعة جرى تعيين نواب لرؤسائها، وهم على التوالي:

المركز الأول: لبرينكا لويس((Labianca Louis، وكازنوفا فكتور(Casanova Victor).

المركز الثاني: حلين(Halin):شغل في السابق رتبة مساعد في الجيش الفرنسي.

المركز الثالث:كنفاجيو(Canavaggio)، ملازم أول في قوات الاحتياط.

-مراكز صغيرة أخرى، كثيرة العدد، أدارها الأشخاص الآتية أسماؤهم:جينيه (Geniez)، ريكار (Recart)، غيستي(Gustu) المحافظ برونطا(Brenta)، مراقب الضرائب المباشرة ريفيل(Rieffel).

المركز الخامس: أوبراني روني(Ouprani René) عضو الحزب الاشتراكي.

وكانت مهمة هذه المراكز هي منع كل اتصال بين الأهالي الذين يسكنون داخل المدينة والأهالي المستقرين في محيطها، والدفاع عن المدينة في حالة تعرضها لهجوم.

كما قامت هذه المليشيات خلال الأحداث بتأمين وصول المؤونة إلى المدينة، وأنجزت مساء يوم 09 ماي 1945 ثلاث عمليات إجلاء للسكان الأوروبيين من بلدة بوتي(Petit)، بومهرة حاليا، حيث نقلتهم إلى مدينة قالمة، وهي المهمة نفسه التي قامت بها يوم 10 ماي في قلعة بوصبع، وبلاد قفار، وقلياني(Galliani)، بوعاتي محمود حاليا.(6)

وبالإضافة إلى ذلك، قامت هذه المليشيات بتسيير عدد كبير من الدوريات لفائدة إدارة البريد والمواصلات من أجل حماية أعوان هذه المؤسسة الذين كانوا منهمكين في إصلاح خطوط الهاتف التي قام المسلمون بقطعها لتعطيل الاتصالات الحيوية بالنسبة لعمل الجيش ومختلف أجهزة الأمن الفرنسية.

وهكذا، ما إن حلت الساعة السادسة مساء من يوم 09 ماي 1945م حتى تم تشكيل مركز قيادة المليشيا، وجرى جرد أسلحتها التي زودها بها الجيش.لكن التقارير الرسمية الفرنسية أكدت أن العقيد قائد قوات الجيش الفرنسي في منطقة قالمة لم يكن يملك بتاريخ 15 جوان 1945م هذا السجل، ولهذا اتصل بقائد المليشيا لتزويده عدة مرات لتزويده به، ولكن دون نتيجة.

ولما كان توزيع الأسلحة على أفراد المليشيات قد تم بشكل استثنائي، ومستعجل، فقد وجدت السلطات العسكرية نفسها بعد انتهاء الأحداث تواجه صعوبات جمة لجمع الأسلحة، إذ أنه إلى غاية 16 جوان 1945م لم يبادر إلا عددا قليلا من أفراد المليشيا بإعادة الأسلحة الحربية إلى السلطات العسكرية.

والواقع أن هذه الأسلحة هي التي صنعت تفاصيل المجازر الرهيبة التي اقترفتها هذه المليشيات ضد عدد غير معروف من الأهالي المسلمين، وإن كانت المؤشرات التي يمكن أن نستخلصها من التقارير الفرنسية التي عالجت تلك الأحداث، تبين أن عدد الضحايا كان كبيرا.

وسأقدم في هذا السياق نماذج عن الجرائم المروعة التي اقترفتها هذه المليشيات في حق السكان المسلمين على ضوء ما تضمنته التقارير الفرنسية.

أ- جريمة المليشيات الأوروبية في حق سكان المزرعة المزابية: [7] تسمى هذه المزرعة" مرصد"، وتقع على بعد كلم واحد فقط من مزرعة شيمول(Cheymol)، أحد أكثر رموز الميليشيا الأوروبية دموية، وتتوسط عدد من مزارع

المستوطنين، حيث أنه على الرغم من أن المستوطنين لم يلحق بهم، ولا بمزارعهم أي ضرر في هذه المنطقة إلا أن المليشيات الأوروبية قامت بإحراق المزرعة وأبادت عائلات الخماسين التي كانت تسكنها عن بكرة أبيها، حيث وجدت ما بين 11 و14 جثة لنساء وأطفال وشبان مكدسة فوق بعضها البعض في حفرة، ووجدت أمامها أظرفة أعيرة نارية تم استعمالها، وتتعلق بمسدسات وبنادق رشاشة وجدت مرمية فوق الأرض، غير أن القتلة عمدوا خلال ليلة 15-16 جوان 1945م إلى إخفاء معالم هذه الجريمة المروعة.

ولكن قادري صالح، الذي كان مسيرا للمزرعة خلال الأحداث، وفقد كل أفراد أسرته، ونجا لوحده من هذه الجريمة المروعة، كشف للجنة التحقيق هوية الضحايا، وهم على التوالي حسب شهادته:[8]

أولا- عائلة الخماس: قادري علي بن رابح:

1-دواخة مريم: 21 سنة: زوجته.

2-قادري مسعودة: 02 سنة، ابنته.

3-قادري فاطمة:02 سنة، ابنته.

ثانيا-عائلة الخماس:سعيد بن رابح

1-قادري فاطمة بنت صادق، 29 سنة، زوجته.

2-قادري مسعود،02 سنة، ابنه.

3-قادري مسعودة، 04 سنوات، ابنته.

ثالثا-عائلة الخماس: سعايدية مجيد بن عمار

1-يحياوي عائشة، 20 سنة، زوجته.

2-سعايدية عبد الحفيظ، 02 سنة، ابنه.

3-يحياوي عرجونة،60 سنة ، أمه.

رابعا- عائلة الخماس سعايدية علي بن أحمد

بوريشم بليدة بنت محمد،40 سنة، زوجته.

خامسا-عائلة مسير المزرعة: قادري صالح

1-دواخة مسعودة، 38 سنة، زوجته.

2-قادري سعيد، 13 سنة، ابنه.

3- قادري حفصة، 10 سنوات، ابنته.

4- قادري عائشة بنت لخميسي، 05 سنوات، ابنة أخيه.

5- قادري محمد بن رابح، 33 سنة، أخيه.

وقد أكد المسير في شهادته أنه من بين القتلة، تمكن من معرفة الأشخاص الآتية أسماؤهم:

1-شيمول إدموند(Cheymol Edmond).

2-جربولي ليسيان(Gerboulit Lucien).

3- كريستي(Crustu).

والواقع أن الأمر أن هذه المجزرة تدخل تحت المفهوم القانوني للإبادة جماعية(Génocide)، التي أطلقها رجل القانون رفئيل ليمكن(Raphaël Lemkin) عام 1944م على جرائم ألمانيا النازية، ونصت عليها المادة الثانية من اتفاقية

الوقاية من جريمة الإبادة الجماعية وقمعها التي صدرت يوم 09 ديسمبر 1948، وأصبحت سارية المفعول ابتداء من يوم 12 جانفي 1951م، وورد فيها ما يأتي[9]:« في هذه الاتفاقية تشمل الإبادة الجماعية الأفعال الآتية التي تقترف بنية تدمير جزئي أو كلي لمجموعة أثنية أو دينية:

1-قتل أعضاء المجموعة.

2-المساس بشكل خطير بالسلامة الجسدية والعقلية لأعضاء المجموعة.

3-إخضاع المجموعة عمدا لظروف حياة تؤدي إلى تدميرها جسديا بشكل جزئي أو كلي.

4-إجراءات تستهدف تعطيل عملية التناسل بالنسبة للمجموعة البشرية المستهدفة.

5-النقل القصري لأطفال المجموعة ودمجهم بمجموعة أخرى.

ب-شاحنات الموت: لقد كان هنالك تنسيق كامل بين مختلف أجهزة الأمن والمليشيات، حيث كانت جرائم هذه الأخيرة تتم تحت رعاية ودعم الجهات الأمنية المختصة، وكنموذج على ذلك يمكن الإشارة إلى السيد ديرود(Deraud) محافظ شرطة الاستعلامات العامة الذي قدم للمليشيات قائمة بأسماء أعضاء جبهة أحباب البيان والحرية، وقائمة أخرى تتضمن أسماء أعضاء مجلس إدارة المدرسة، وقائمة بأسماء الأعضاء الأهالي في مختلف النقابات الموجودة في مدينة قالمة وما جاورها، وبفضل هذه الخدمة الثمينة، قامت المليشيات بالبحث خلال الليل عن الأشخاص الذين وردت أسماؤهم في القوائم من أجل حشرهم في شاحنات الموت التي بدأت تتحرك لتنفيذ إحدى المهمات الوحشية التي تكفلت المليشيات بتنفيذها.

وهكذا، فعلى الساعة السادسة صباحا من يوم 10 ماي 1945م كانت هناك شاحنة محملة بالأهالي اعترفوا بأنهم" مشبوهين" بعد استنطاق سريع، وضعت تحت حماية الجندرمة والمليشيات، ثم مرت أمام السجن، من أجل إتمام حمولتها بالمتهمين الذين تقرر إعدامهم، ثم اتجهت نحو الريف، وبعد بضع دقائق توقفت الشاحنة، وجرى إنزال المعتقلين وحشدهم على حافة الطريق وبعد ذلك أعدموا جميعا رميا بالرصاص، دون أي شكل من أشكال المحاكمة، ثم ما لبثت أن عاد القتلة بالشاحنة إلى المدينة.

وفي المساء، وقبل نصف ساعة من حلول الظلام، تم تنظيم رحلة جديدة، حيث حملت الشاحنة حوالي 20 معتقلا، في إطار ما سماه أفراد الدرك المرافقين للشاحنة« بنظام التنزه على طريق الجنوب» (système de promenade sur la route du sud).[10]

وقد تكررت هذه العملية الإجرامية لمدة تتراوح ما بين 06 و10 أيام، ولهذا اعتبر التقرير أنه يمكن تقدير عدد الأشخاص الذين تم إعدامهم بحوالي 300 شخص.

لقد نصت المادة الثامنة من مشروع خاص بمسؤولية الدول عن الأفعال غير المشروعة دوليا أصدرته لجنة القانون الدولي عام 2001 أن[11]:« سلوك شخص ما أو مجموعة من الأشخاص يعتبر عملا من أعمال الدولة بموجب القانون الدولي إذا عمل هذا الشخص أو هذه المجموعة بناء على تعليمات تلك الدولة أو تحت إشرافها عند تنفيذ هذا العمل»، ولهذا، فإن مسؤولية الدولة الفرنسية عن هذه الجريمة لا لبس فيها، فقد اقترفت بأيادي المليشيات التي شكلتها وسلحتها السلطات العسكرية و المدنية، وبمساهمة قوات الدرك الفرنسي، وكان ضحاياها مدنيون عزل لم يكونوا يشكلون أي خطر لأنهم كانوا مجردين من السلاح وتم اختطافهم ليلا من بيوتهم، وهو ما يؤكده هذا التقرير الذي سجل أن المليشيا لم تمنى بأية خسائر، ولم يصب أي من أعضائها بجروح، فالأمر يتعلق إذن إن صح التعبير بمذبحة حقيقية يبررها فقط الحقد العنصري اتجاه العنصر الأهلي الذي كان يملأ نفوس المستوطنين الأوروبيين منذ بداية تواجدهم على الأرض الجزائرية، ولهذا يمكن أن

تكيف على أساس أنها جريمة حرب طبقا للفقرة ب من المادة السادسة لقانون محكمة نورنبرغ العسكرية التي عرفت جريمة الحرب بأنها:« قتل أو معاملة سيئة أو نقل للسكان المدنيين في الأراضي المحتلة من أجل الأشغال الشاقة أو من أجل أي هدف آخر، قتل وسوء معاملة الأسرى في البحر، وإعدام الرهائن ونهب الأملاك العمومية أو الخاصة، وتدمير المدن والقرى من دون سبب، والتخريب الذي لا يمكن تبريره بدواع عسكرية ».[12]

ومما يؤكد مسؤولية السلطات الرسمية الفرنسية عن هذه الجرائم أنه خلال زيارة السيد ليستراد كربونال(Lestrade Carbonel) إلى قالمة يوم السبت 12 ماي 1945م خاطب أعضاء الميليشيا في ساحة ثكنة الدرك، ومما قاله:« إنني أهنئ الأشخاص الذين دافعوا عن هذه المنطقة، و أحي رئيس الدائرة [أشياري]، إنني لم آتي هنا من أجل وقف القمع، اعلموا أنني سأحميكم، حتى ولو ارتكبتم حماقات»، وهو ضوء أخضر للمليشيات للتمادي في اقتراف جرائمها المروعة.

ولقد كان الجنرال ديفال(Duval) أكثر وضوحا من السيد ليستراد، حيث اتصل هاتفيا على الساعة السابعة من مساء يوم 12 ماي بالطيارين، وأمرهم بقوله:« اجعلوا من حمام أولاد علي برلين صغيرة »

ج–الإعدام الصوري للنشطاء السياسيين الوطنيين:

لقد لجأت المليشيات الأوروبية وأجهزة الأمن الفرنسية إلى تنفيذ عمليات إعدام دون محاكمة بغرض إرهاب السكان المسلمين، والتخلص من العناصر الوطنية التي يمكن أن تكسب مزيدا من الجماهير المسلمة لصالح القضية الوطنية، ولهذا حول أشياري رئيس دائرة قالمة نفسه إلى رئيس لمحكمة جنائية، فأمر بإعدام العديد من العناصر الوطنية ممن اتهمهم بالمشاركة في المظاهرات التي نظمت في فترة (01–08) ماي 1945م، وقيادتها بعد أن زعم بأن استجوابهم قد أفضى إلى اعترافهم بإشعال الثورة في كل مكان، امتثالا لأوامر وردت من مدينة الجزائر.

وهكذا جرى تنفيذ أوامر أشياري، فتم إعدام الأشخاص الآتية أسماؤهم[13]، والذين تم اعتقالهم يوم 09 ماي 1945م من قبل شرطة الدولة(Police d'état):

1–ورتزي مبروك، 40 سنة، تاجر، أمين مال فرع جبهة أحباب البيان والحرية في قالمة.

2– عبدة سماعيل، 24 سنة، تاجر الأمين العام.

3–ورتزي عمار، 19 سنة، طالب، مكلف بالدعاية.

4–شرفي مسعود، 22 سنة، صاحب مطعم، مكلف بالدعاية.

5–بن صويلح عبد الكريم،22 سنة، مكلف بالدعاية.

6–عبدة علي، 20 سنة، مكلف بالدعاية.

7–دواورلة حميد، 20 سنة، تاجر، مكلف بالدعاية.

8–أومرزوق محمد،20 سنة، تاجر، مكلف بالدعاية.

9–بن عزوق سعيد،24 سنة، تاجر، مكلف بالدعاية.

ولقد أثارت كثافة عمليات الخطف والإعدام التي قامت بها المليشيات الأوروبية تحت رعاية السلطات حديث الصحافة بعد نهاية الأحداث، وكذلك لجنة الشؤون الإسلامية، وهو ما كان من شأنه أن يثير اهتمام الرأي العام العالمي، ويتحول إلى فضيحة أخلاقية بالنسبة لفرنسا، التي كانت في ذلك الوقت طرفا مؤسسا لمحكمة نورنبرغ المتخصصة في محاكمة القادة النازيين الألمان بتهمة ارتكاب جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية، وهو ما دفع وزير الداخلية الفرنسي السيد تكسي(Texier) إلى توجيه مراسلة سرية إلى الحاكم العام للجزائر، ورد فيها ما يأتي:[14]

أولا–إن قضية عمليات الإعدام غير الشرعية التي اقترفتها الميليشيات أو الحرس المدني في مناطق مختلفة من مقاطعة قسنطينة، وبشكل رئيسي في قالمة، سواء تعلق بعمليات الإعدام فردي أو الجماعي التي اقترفها مستوطنون ضد الأهالي، قد جرى إثارتها هذا الصباح في لجنة الشؤون الإسلامية، وكانت لدي الإمكانية لإعادة الأمور إلى نصابها.

ثانيا–ولكن القضية سيتم بكل تأكيد إثارتها من جديد، وبشكل مدو في الجلسة العلنية للمجلس الاستشاري، وإنه من الضروري أن أستطيع حينها القول بأن العدالة قد أخطرت بهذه القضية.

ثالثا–يجب إذن فتح تحقيق قضائي ضد مقترفي عمليات الإعدام غير القانونية، وعمليات الانتقام الفردية والجماعية.

رابعا–يطرح سؤال حول هذه القضايا، هل يجب إحالتها على المحكمة العسكرية بقسنطينة، أو أمام المحاكم المدنية المتخصصة[محاكم الجنايات].

وتكشف رسالة أخرى أن غرض وزير الداخلية من مطالبه بفتح تحقيق، هو في الواقع محاولة لتخفيف الضغط على الحكومة، وطي الملف بسرعة، وهو ما عبر عنه بقوله:«إن نهاية سريعة للتحقيقات المفتوحة لا يمكن إلا أن تؤدي إلى تهدئة الخواطر ووضع حد للجدل الدائر حول هذا الموضوع»

والواقع أن هذه التحقيقات لم تكن إلا ذرا للرماد في العيون لأنه لم يكن من المعقول أن تحيل الدولة الفرنسية نفسها أمام العدالة، وتجرم نفسها بنفسها ما دامت أن وثائقها الرسمية تثبت–من دون لبس– التهمة عليها وعلى أعوانها سواء أكانوا من الميليشيات أو أعضاء في الإدارة والجيش.

أما القتلة فهم معروفون، وقد حددت أسمائهم إحدى الوثائق الفرنسية التي لم يسمح بالإطلاع عليها إلا سنة 2009م[15].

ثالثا– قضية المفقودين: تعد ظاهرة المفقودين واحدة من الأوجه المأساوية للحروب والنزاعات، سواء أكانت حروبا أهلية أو حروبا بين الدول، أو عمليات قمع وحشية تقوم بها أنظمة دكتاتورية أو أنظمة استعمارية ضد معارضيها وأنصارهم، أو من تفترض أنهم كذلك، كما أنها تجسد التجاوزات التي يقترفها هذا الطرف أو ذاك ضد أشخاص في غالب الأحيان يصنفون كمدنيين عزل، يتم اختطافهم لأسباب انتقامية، أو بدافع الكراهية الدينية أو العرقية، وفي غالب الأحيان يكون مصيرهم التصفية الجسدية، حيث يعمد جلادوهم إلى إخفاء آثار الجريمة، ولهذا كثيرا ما تبقى قضية المفقودين معلقة، ولكنها تبقى دائما بمثابة اللعنة التي تقض مضاجع الجلادين والقتلة.

ولما كانت السلطات الاستعمارية الفرنسية قد لجأت إلى استعمال كل أساليب القمع خلال أحداث ماي– جوان 1945م، فقد كان منطقيا أن يترتب عن هذا القمع ظاهرة المفقودين التي كانت أكثر مأساوية في منطقة قالمة وما جاورها من بقية مناطق الوطن، حيث فقد مئات الجزائريين الذين جرى اختطافهم من منازلهم من قبل مختلف أجهزة الأمن الفرنسية والمليشيات، ولم يعودوا أبدا بعد ذلك إلى أهلهم.

وقد أثارت هذه الظاهرة المأساوية اهتمام الصحافة وبعض الساسة الجزائريين في ذلك الوقت خاصة بعد صدور مرسوم العفو الرئاسي الفرنسي خلال مارس 1946، حيث تمت المطالبة بتشكيل لجان تحقيق للكشف عن مصير المفقودين.

ولقد وجدت الحكومة الفرنسية نفسها في حرج شديد، خاصة أنها كانت تعرف جيدا مصير هؤلاء المفقودين، وهي التي رفعت شعار محاكمة القادة النازيين الألمان بتهمة ارتكاب جرائم الحرب، وكانت عضوا مؤسسا لمحكمة نورنبرغ[16] ولهذا أعطيت أوامرها بإجراء تحقيقات للكشف عن مصيرهم، وطي الملف حتى لا يتطور الحديث عنه بشكل قد تكون عواقبه وخيمة، وهو ما قامت به الشرطة القضائية لمدينة قالمة ابتداء من شهر فيفري 1947، أي بعد عامين تقريبا من حدوث الوقائع، حيث قدم أهالي أكثر من ثلاثمائة (300) مفقود شهاداتهم حول الكيفية التي اختفى بها أهلهم،[17] ويمكن أن

نستخلص من تحليل مضمون تلك الشهادات أن بداية مأساة تلك العائلات كانت متشابه، إذ جرى اختطاف ذويهم من منازلهم من قبل أجهزة الأمن والمليشيات، أو تم استدعائهم إلى مراكز الأمن ثم اختفوا بعد ذلك إلى الأبد.

ورغم أن أهالي الضحايا قدموا شهادات دقيقة حول هوية المتهمين المسؤولين عن عمليات اختطاف ذويهم، وأن مصالح الشرطة القضائية لديها من الإمكانيات والتجربة ما يمكنها من الوصول إلى حقيقة غائبة عنها، فكيف إذا كانت تعرف الحقيقة قبل مباشرة التحقيق، لأنها ببساطة كانت هي نفسها طرفا مذنبا، حيث ساهم هذا الجهاز الأمني إلى جانب الأجهزة الأمنية الأخرى(الدرك، شرطة الاستعلامات العامة، الجيش) والميليشيات في صنع مأساة المفقودين، ولهذا كان منطقيا ومتوقعا أن تكون تلك التحقيقات عقيمة، لأن السلطات أرادتها وسيلة لطمس الحقيقة، وهو ما حدث فعلا، حيث أنهيت كل التحقيقات من دون أن يتم كشف مصير المفقودين أو تحديد هوية القتلة.

ونظرا لتشابه هذه الشهادات، وطريقة تعامل الشرطة القضائية الفرنسية معها، سأقوم بعرض نموذجين اثنين فقط، لتأكيد مدى سطحية تلك التحقيقات وعدم جديتها.

النموذج الأول:حالة المفقود سوداني محمد[18]

في يوم 21 مارس 1947م، قدمت السيدة سوداني حدة أرملة المفقود سوداني محمد شهادتها أمام ضابط الشرطة القضائية لدى الفرقة المتنقلة للشرطة القضائية بقالمة وهو المكلف بإجراء حول مصير المفقودين وملابسات اختفائهم، والأشخاص المسؤولين عن هذه الجريمة، ومما ورد فيها أن أب زوجها المفقود أخبرها أن ابنه جرى اختطافه يوم الجمعة 11 ماي 1945م من فندق ريغي(Reggui) الذي كان يعمل فيه، وذلك من قبل مستوطنين اثنين من أصول مالطية، ودركيين اثنين، وعون الأمن بن ناجي شوشان.غير أن ضابط الشرطة القضائية سجل أنه لم يتم الاستماع إلى هؤلاء الأشخاص،وقدم المبررات الآتية:

1- إن عون الأمن بن ناجي شوشان قد جرى نقله إلى مدينة سكيكدة حيث يعمل هناك.

2-يستحيل تحديد هوية الدركيين والمالطيين اللذين اتهمتهما أرملة المفقود.

وواضح أن ضابط الشرطة القضائية كان يريد أن يغلق الملف، لأن يعلم – وهذا أمر بديهي بالنسبة له- انه توجد إمكانية لاستجواب المتهم بن ناجي شوشان قائمة من الناحية القانونية، ولو تمت هذه العملية لسمحت بتحديد هوية المتهمين الآخرين.

ولهذا كان هذا التحقيق أشبه ما يكون بمسرحية سيئة الإخراج، حيث ختمها بقوله[18]:« لم يتم اقتفاء أي أثر لسوداني محمد».

النموذج الثاني: حالة المفقود ظافري عمار[19]

بادرت السيدة ظافري، المولودة خليفة الزهرة، وهي أرملة المفقود السيد عمار ظافري بتقديم شكواها لضابط الشرطة القضائية لدى الفرقة المتنقلة للشرطة القضائية بقالمة، وذلك يوم 20 مارس 1947م، حيث أنها استقت معلوماتها من السيد ألكسي فيدال(Alexis Vidal) المحاسب بمحل المشروبات، وهو المحل الذين كان يعمل فيه زوجها المفقود، حيث أكد لها أنه أرسل زوجها في الصباح إلى مقر الدرك من أجل ختم جواز مرور(Laissez passer)، ولكن أفراد الدرك قاموا باعتقاله، وأنه لم يره منذ ذلك الوقت، وأكدت أنها انتقلت إلى مقر فرقة الدرك، ولكنها لم تتمكن من الحصول على أية معلومات حول زوجها المفقود، مشيرة إلى أنها سمعت أحاديث مفادها أن زوجها قد جرى إعدامه رميا بالرصاص من قبل أفراد من المليشيا التي شكلها المستوطنون الأوروبيون في مدينة قالمة.

وقد أكدت الطفلة المسماة ظافري شيماء، ابنة الشاكية أنها انتقلت فعلا مع أمها إلى محل بيع المشروبات، وإلى مقر فرقة الدرك، وأكدت شهادة أمها.

غير أن السيد ألكسي فيدال(Alexis Vidal) أكد خلال استجوابه من قبل ضابط الشرطة القضائية أنه لم يتذكر أسماء المسلمين الذين كانوا يعملون معه خلال شهر ماي 1945م، وأنه كان غائبا عن العمل لمدة 04 أو 05 أيام ابتداء من يوم 08 ماي 1945م، وزعم أنه لم يرسل أي عامل إلى مقر الدرك لختم جواز المرور.

وأكد ضابط الشرطة القضائية في نهاية تقريره أن المواجهة التي أقامه بين السيدة ظافري وابنتها من جهة والسيد ألكسي فيدال(Alexis Vidal) لم تضف أية معطيات جديدة حول هذه القضية، وأن كل الأبحاث التي تم القيام بها من أجل الوصول إلى أثر للمسمى ظافري عمار لم تثمر.[20]

وإذا سلمنا جدلا أن قضية هذين المفقودين يكتنفها بعض الغموض، فقد كانت هنالك العديد من القضايا أكثر وضوحا، كحالة السيد عياشة العمري بن عبد الله من بلدة بوتي(Petit)، بومهرة أحمد حاليا، حيث وجهت أمه، السيدة بلفيل فاطمة، أرملة العمري عبد الله إلى النائب العام في مدينة الجزائر عريضة مؤرخة يوم 10 جانفي 1949، ملتمسة منه فتح تحقيق حول اختفاء ابنها عياشي العمري بن عبد الله الذي جرى اختطافه يوم 13 ماي 1945م من قبل رئيس بلدية بوتي، المدعو جوليا فرنسوا (Julia François) والمدعو دلماس بريسيو(Roland Brussiou)، دلماس ألفونس(Delmas Alphonse)، والمدعو عليوي الشريف الذي كان يشغل مهنة ناطور(garde champêtre)، الذين قاموا بقتله رميا بالرصاص، حيث أكدت المشتكية أنها قامت بنفسها بدفن جثة ابنها بعد أن بقيت في مكان الجريمة حوالي 20 يوما.

أما ضابط الشرطة القضائية الذي قام بالتحقيق، فقد أشار إلى أنه استمع للمشتكية التي أكدت حسب ما ورد في محضر التحقيق الذي أنجزه أن المتهمين الأربعة قدموا إلى منزلها واستدعوا ابنها إلى مقر بلدية بوتي(Petit)، ثم ما لبثوا أن انصرفوا، وبعد ذلك ذهب ابنها وحده إلى مقر البلدية، وفي الطريق، غير بعيد عن منزله قتله شخصان لم تستطيع تحديد هويتهما رغم أنها كانت شاهد عيان على وقائع الجريمة، ولكنها أكدت أنها تعرف جيدا الأشخاص الأربعة المذكورين أعلاه.

وسجل المحقق أن أرملة العمري لا تملك عقد وفاة ابنها، ولا بطاقة التموين الخاصة به.

وبعد استجواب المتهمين من قبل ضابط الشرطة القضائية، أكد المدعو رولان بريسيو((Roland Brussiou أنه غادر بلدية بوتي يوم 08 ماي 1945م، و أنه لم يستدع أحدا.

في حين زعم المدعو دلماس ألفونس(Delmas Alphonse) أن السلطات العسكرية فرضت عليه الإقامة الجبرية في منزله خلال الأحداث، وأنه لم يستدع أحدا، ولا يعلم شيئا عن هذه القضية.

أما جوليا فرنسوا رئيس بلدية بوتي، فأكد أنه لم يستدعي أي شخص، وأنه نقل صلاحياته إلى السلطات العسكرية التي وضعت البلدة في حالة حصار.

ومن جهته، عزز المدعو عليوي الشريف موقف المتهمين الآخرين، حيث أنكر أن يكون قد كلف بمهمة استدعاء الضحية من قبل أي مسؤول.

وهكذا قرر الضابط المحقق إغلاق هذا الملف، وإحالته على القاضي المختص بعد أن وصلت التحقيقات إلى طريق مسدود، حيث لم يتوصل إلى فك طلاسم هذه الجريمة.[21]

والواقع أن السلطات الفرنسية كانت تعلم جيدا مصير المفقودين، لأنهم ببساطة كانوا ضحايا عمليات الاختطاف والقتل التي بادرت بها الأجهزة الأمنية أو تشكيلات المليشيات الأوروبية التي قام أشياري، رئيس دائرة قالمة بتشكيلها بالتعاون مع قادة الأجهزة الأمنية الذين تكفلوا بتنظيمها وتموينها بمختلف الأسلحة، وكانت تعلم من خلال التقارير التي تصلها عن تفاصيل الأساليب التي استخدمتها الميليشيات لإخفاء آثار الجرائم المروعة التي اقترفوها في حق المسلمين العزل.

ففي وثيقة رسمية[22] مؤرخة بمدينة الجزائر يوم 27 جوان 1945، تحت عنوان" مليشيا قالمة تواصل إخفاء جثث الأهالي الذين جرى إعدامهم صوريا خلال ماي"، ورد ما يأتي:« لقد جرى إخراج بقايا جثث خمسمائة(500) شخص من الأهالي المسلمين من تحت التراب، وكان قد تم إعدامهم، ونقلت بقايا الجثث الآدمية خلال الليل بواسطة شاحنة، وتحت حماية قوات الدرك إلى المكان المسمى" الينبوع الساخن"، وقام أسرى الحرب الإيطاليون يعملون لحساب السيد لافي(Lavie) بوضعها في فرن لصناعة الجير، ملك للسيد ليبوري(Lepori)، وأضافوا إليها أغصان الزيتون، ثم أشعلوا فيها النار.

وأشار التقرير نفسه إلى وجود مدفن هام للعظام(Charnier) في زاوية طريق هليوبوليس-ومفترق طرق كيلرمان(Kellermann)، في المكان المسمى " كاف البومبة"، ويظم هذا المدفن أربعة خنادق، يتراوح طول كل خندق ما بين 20 و25 متر، ويحتوى كل واحد على 20 جثة.

وعلى الرغم من الجرائم التي اقترفتها مختلف أجهزة الأمن وأفراد المليشيات إلا أن التحقيقات التي أمرت بها السلطات المركزية في باريس لم تؤدي إلى نتيجة، فلم تقدم إجابات مقنعة لذوي الضحايا، حيث قامت السلطات العسكرية القضائية والسياسية بطي هذا الملف الحساس إلى غاية اليوم، وحرمت ذوي الضحايا حتى من شهادات الوفاة الضرورية لتسوية المشاكل العائلية[23] ولم يحل أي شخص للعدالة، على عكس الأهالي المسلمين الذين زج بأعداد هائلة منهم في السجون، وصدرت ضدهم أحكام كثيرة من قبل المحاكم العسكرية تتراوح بين السجن والإعدام.

والأسوأ من ذلك، أن رئيس دائرة قالمة الذي أسس وقاد المليشيات وأمر باختطاف الأهالي وإعدامهم جرى تكريمه يوم 12 جانفي 1946م في حفل ضخم حضره حوالي 2000 شخص، منهم عدد كبير من المسلمين، وترأس الاحتفال كل من السيد بصون(Besson) ضابط وسام جوق الشرف(Légion d'honneur)، ورئيس بلدية سوق أهراس الذي ينتمي إلى الحزب الاشتراكي الفرنسي.

وقد قدم السيد بصون وسام جوق الشرف إلى أشياري باسم كل سكان دائرة قالمة حسب زعمه، كم تم منحه كذلك وسام صليب الحرب(Croix de guerre).

وبعد ذلك، أكد رئيس بلدية سوق أهراس أن التسليم الرسمي لهذا الوسام سيتم لاحقا خلال حفل رسمي تحضره السلطات العسكرية، ألقى كلمة ذكر فيها بدور أشياري رئيس دائرة قالمة في المقاومة الفرنسية بشمال أفريقيا، وكممثل لفرنسا في قالمة.

كما ألقيت كلمات أخرى من قبل العديد من الشخصيات مثل مصاري(Massari) الأمين العام لمقاطعة قسنطينة، والسيد قادري أحمد صالح رئيس الجماعة ببلدية الصافية المختلطة، ولافي لويس (Lavis Louis) المستشار العام لدائرة قالمة، ومصايرية علي الأمين العام للجماعة بدوار بني بربر، وقريفي هنري (Garivet Henri) رئيس بلدية قالمة والمستشار العام، وسي الحاج الطاهر بن تام، مرابط بمجاز الصفا، وبلعيد الشريف مفتي جامع قالمة، وبن جمعة الذي يعمل طبوغرافيا بمدينة قالمة.

وبعد أن عبر أشياري عن امتنانه لكل الحاضرين، قام كل من غيرو(Guiraud) رئيس بلدية هيليوبوليس و قيقدي عيسى المستشار البلدي لسوق أهراس عرائض تحمل عدد كبير من الإمضاءات للأشخاص عبروا عن امتنانهم لما قام به أشياري.[24]

وإذا كان منتظرا أن يختفي رموز الاستعماري الفرنسي في منطقة قالمة وما جاورها مثل رئيس بلدية سوق هراس، فقد كانوا شركاؤه في الجرائم، فإن الخطورة تكمن في مواقف الأعيان المسلمين المفترضين الذين أجمعت شهاداتهم على التنويه بما اقترفه أشياري، وحجتهم أن موقفه الحازم خلال الأحداث هو الذي مكن من تفاقمها، ويمكن أن نقدم في هذا السياق موقف المستشار العام السابق لدى المجلس العام بقسنطينة، وهو المدعو دحال محمد لخضر، الذي لخصه بقوله[25]:« بالنسبة لرئيس الدائرة، أعتقد أنه كانت لديه القوة الكافية والضرورية، فحينما تكون مسؤولا خلال الظروف الصعبة، عليك أن تكون صارما وأن تضرب بقوة، فإذا بقيت فرنسا حازمة فكل شيء سيبقى هادئا ».

ولكننا سنرى فيما يأتي أن هذا القمع الهمجي كانت له أثارا عكسية.

رابعا–تأثير الأحداث على المستوطنين: ولقد بدأ المستوطنون يشعرون بانعدام الأمن وينتابهم قلق متعاظم على مستقبلهم في الجزائر قبل الأحداث، وهو ما أشارت إليه عريضة[25] وجهها يوم 24 أفريل 1945م إلى والي قسنطينة المستشارون العامون الفرنسيون، أعضاء المجلس العام لمقاطعة قسنطينة لفتوا انتباهه إلى القلق المتزايد الذي أصبح يعيشه المستوطنون خاصة في المناطق الجبلية منذ سنة، حيث أصبح الأهالي يسيئون معاملتهم ويسبونهم، وفي بعض الأحيان يهددونهم بالموت، ولم ينجو من ذلك الأطفال والنساء.

وتحدثوا عن انعدام الأمن في كل مكان وعن الاعتداءات التي تعرضت لها أملاك المستوطنين، وتخريب قنوات المياه الصالحة للشرب الخاصة بالقرى، وأكدوا تنظيم المسلمين لمظاهرات ومسيرات في المدن وتحدثوا عن الصيحات التي كانوا يطلقونها، ومفادها أن الجزائر ملك للعرب.

وتحدثت العريضة عن تنظيمات أهلية محلية اعتبروها " تنظيمات معارك"، تحاول الحلول محل الإدارة الفرنسية، وقدموا مثالا على ذلك بتلك الموجودة في الميلية.

وتبعا لذلك، أكدوا أن حياة الفرنسيين الذين يعيشون في مناطق معزولة أصبحت في خطر

وطالبوا الوالي في نهاية عريضتهم باستخدام كل الوسائل التي توجد بحوزة السلطات لضمان الأمن. وقد ذيلت هذه العريضة بإمضاءات المستشارون العامون الآتية أسماؤهم:

–بول كيطولي(Paul Cuttoli): رئيس المجلس العام لمقاطعة قسنطينة.

–أوجان فالي(Eugène Vallet):المستشار العام، ممثل فج مزالة(فرجيوة).

–مرسال لافي (Marcel Lavie): المستشار العام، ممثل منطقة قالمة.

–كيزان(Cusin): المستشار العام، ممثل منطقة عزابة(Jemmapes)، ونائب رئيس المجلس.

–ليون ديرون(Léon Deyron): المستشار العام، ممثل سوق أهراس.

– فاردان(Verdin): المستشار العام، ممثل آقبو ورئيس بلدية القصور.

–بورنيه روجر(Pournier Roger): المستشار العام، ممثل سكان عين أعبابسة، من منطقة سطيف.

–ماير أوجان(Meyer Eugène): المستشار العام، ممثل الخروب، ورئيس بلدية أولاد رحمون.

باكه(Bacca): المستشار العام، ممثل سكان باتنة.

وعلى الرغم من الجرائم التي اقترفتها مختلف أجهزة الأمن ومليشيات المستوطنين في حق الأهالي المسلمين خلال زمن الأحداث، وكان من بين أهدافها الأساسية ضمان الأمن للمستوطنين الأوروبيين في الجزائر إلا أن عمليات القمع جعلت من إمكانية العيش المشترك في الجزائر بين الغالبية المسلمة والأقلية الأوروبية أمرا مستحيلا.

فلقد كان لانغماس المستوطنين في عمليات القمع الوحشية التي تعرض لها المسلمون خلال الأحداث عن طريق المليشيات التي شكلوها أثارا عكسية، حيث أصبحوا ينتابهم شعور جارف بانعدام الأمن، بل إنهم غدوا يفكرون في مغادرة الجزائر والعودة إلى فرنسا إذا لم تبادر السلطات الفرنسية المختصة باتخاذ التدابير الأمنية الضرورية لتوفير الأمن لهم ولأبنائهم وممتلكاتهم، وهو ما يستشف من مختلف العرائض التي رفعوها إلى صناع القرار.

وفي هذا السياق، أشار تقرير رسمي[26] مستخلص من اعتراض 460 مراسلة عن طريق البريد أجراها المستوطنون، ولها علاقة بأحداث ماي-جوان 1945م أن الشعور العام السائد لدى هؤلاء المستوطنون هو أنهم قلقون على مستقبلهم وأن الكثير من الأشخاص ما يزالون خائفين من إمكانية حدوث ثورة جديدة يقوم بها المسلمون، ولهذا فإن الغالبية الساحقة من أصحاب هذه المراسلات قد أبدوا رغبتهم في مغادرة الجزائر والعودة إلى فرنسا، وذلك خوفا من العرب.

وأضاف التقرير أنه ورد في كثير من المراسلات التي تم اعتراضها ما يلي:« لا نستطيع أن نبقى هنا، أوريد أن أموت في فرنسا.....»، ولهذا استخلصت المصالح الأمنية في نهاية تقرير في نهايته أن الهوة بين المسلمين والفرنسيين، ازدادت اتساعا.

وفي يوم 21 ماي 1945 اجتمع سكان قالمة من الفرنسيين، وأمضوا عريضة وجهوها إلى السلطات المركزية، شكروا فيها السلطات المحلية، المدنية والعسكرية« خاصة السيد رئيس الدائرة، أشياري الذي بفضل قوته وشجاعته حد من الكارثة» حسب تعبيرهم، وطالبوا بتهنئة ومكافئة الموظفين.

وفي المقابل نددوا بما اعتبروه خيانة لفرنسا من قبل المنتخبين المسلمين وقدماء المحاربين المسلمين والنقابيين المسلمين والكشافة الإسلامية، الذين« تركوا فراغا بانسحابهم من صفوف المظاهرة الرسمية، ولم يكتفوا بذلك، بل انضموا إلى صفوف الثائرين».

ولقد تجلت الهواجس الأمنية للمستوطنين في أخر مقطع من عريضتهم، حيث عبروا عنها بقولهم[27]:« إن السكان لا يستطيعون العودة إلى مشاغلهم وإلى نشاطهم الاقتصادي إذا لم يتلقوا بصورة مستعجلة جدا التطمينات والحماية الضرورية».

والواقع أن هذا الشعور كان يتقاسمه المستوطنون الفرنسيون في منطقة قالمة مع بقية المناطق الجزائرية، ويمكن أن يعزز هذا الرأي مضمون العريضة التي وجهها أعضاء النقابة الزراعية لمنطقة فج مزالة إلى الحاكم العام للجزائر يوم 20 ماي 1945، والتي تتضمن معطيات هامة حول أحداث 08 ماي في هذه المنطقة، وخاصة اجتياح الأهالي المسلمين لبلدة فج مزالة " وعدم تعرضهم لمخازن القمح" التي كانت لديهم القدرة للاستيلاء عليها، ولكنهم لم يفعلوا مما يدل على أن غرض الأهالي لم يكن السلب والنهب كما زعمت الإدارة الاستعمارية حينما تابعت المحاكم العسكرية آلاف المتهمين بهذه التهم إلى جانب تهم القتل والاغتصاب...إلخ[28] بل إن المسألة كانت سياسية، حيث كان المتظاهرون يريدون الخروج " من ليل الاستعمار" ، واستعادة حريتهم واستقلالهم.

وطالب الموقعون على هذه العريضة السلطات باتخاذ تدابير أمنية فعالة كتعزيز مراكز المراقبة الأمنية، وتعزيز الاتصالات وتسليح المستوطنات والقرى المعزولة، وذلك لحماية أرواحهم وممتلكاتهم كما طالبوا بإنزال أشد العقوبات بالمسؤولين عن هذه الأحداث" بشكل علني وسريع وشجاع".

وفي الأخير، خيروا السلطات بين الاستجابة لمطالبهم أو إعادتهم بشكل جماعي وسريع إلى فرنسا.

وقد ذيلت هذه العريضة بإمضاءات 76 مزارعا، ولما اطلع عليها التجار والموظفون الفرنسيون العاملون ببلدية فج مزالة وافقوا عليها، وأمضى عليها 26 شخصا من بينهم.

وهكذا، وعلى الرغم من أن القمع الاستعماري كان يستهدف توفير الأمن للمستوطنين وإبقاء الجزائر فرنسية إلى الأبد، إلا أن لعنة الضحايا الأبرياء طاردت المستوطنين وحرمتهم من الشعور بالأمن، ولهذا كان منطقيا أن يغادر مليون مستوطن الجزائر في صيف عام 1962م رغم الضمانات الهائلة التي قدمت لهم في اتفاقيات إفيان، لأن هؤلاء المستوطنين كانوا يعلمون أن الجرائم التي اقترفوها في حق الأهالي تجعل التعايش معهم في جزائر مستقلة عن فرنسا أمرا مستحيلا.

خاتمة: مما سبق عرضه وتحليله في هذا السياق يمكن القول أن الإطلاع على مضمون كل الوثائق الرسمية المتعلقة بهذه الأحداث المأساوية، والمودعة بمختلف دور الأرشيف الفرنسية يعد أمرا في غاية الأهمية لأنه سيمكن من إماطة اللثام عن الزوايا المظلمة لهذه القضية التي ما تزال تثير كثيرا من الجدل السياسي والنقاش التاريخي الأكاديمي، بسبب الهمجية الاستعمارية التي وجدت في تنظيم الأهالي المسلمين لمظاهرات سلمية فرصة لاقتراف مذبحة راح ضحيتها عددا هائلا من المسلمين الجزائريين.

إن إعادة تشكيل أحداث تلك الفترة سيمكن بلا شك من إعداد ملف متكامل من الوثائق الفرنسية الرسمية يستجيب لمتطلبات القانون الدولي، و يسمح بإثبات مسؤولية الدولة الفرنسية عن جرائم الإبادة، وجرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية التي ارتكبتها في الجزائر طوال الفترة الاستعمارية وخاصة خلال أحداث ماي-جوان 1945م.

الهوامش:

1-Annie Rey-Goldzeiguer: aux origines de la guerre d'Algérie (1940-1945),de Mers-el –Kebir aux massacres du nord constantinois,éditions Casbah,Alger:2002,p.232.
2-Ferhat Abbas, la nuit coloniale, éditions René Julliard, Paris:1962,p.152.
3- Rapport des conseilleurs généraux au préfet de Constantine le 24 avril 1945 , in : Centre des archives d'outre-mer,81f/867
4- ibid, « étude de l'insurrection de Guelma, analyse de l'activité de la milice civile ».
5- ibid,« comité directeur de la milice civile ».
6-للإطلاع على تاريخ تأسيس هذه القرى الاستيطانية التي أنشأها الفرنسيون في ضواحي مدينة قالمة، ينظر:
-voire: Alquier prosper, notice concernant les communes du département de Constantine, Paris:1927,et aussi étude monographique de Guelma et sa région, in: archives de la Wilaya de Constantine.
7- Centre des archives d'outre-mer,81f/867, étude de l'insurrection de Guelma, analyse de l'activité de la milice civile.
8-ibid,«déclaration de perte en vie humaine faite par Kadri Salah ben Rabah,gérant de la ferme marsad».
9- http //www.crimeshumanite.be/questce/questce.htm« introduction au notion de génocide ». et aussi :Nations unies, haut- commissariat du droit de l'homme, fiche d'information 02,république démocratique de Congo 1993-1994, rapport mapping des nations unies.
10- Centre des archives d'outre-mer,81f/867, étude de l'insurrection de Guelma, op.cit.
11- http //www.crimeshumanite.be/questce/questce.htm.
12- http //www.crimeshumanite.be/questce/questce.htm
13- Lettre de monsieur le ministre de l'intérieur à monsieur le gouverneur général de l'Algérie, Paris:04 juillet 1945,in:CAOM,boîte81f/867.
14- Lettre de Mr le ministre de l'intérieur à Mr le ministre des armées, direction de la justice militaire,17/02/1946.
15- précisions sur les tueurs de la milice (17juin 1945), in : CAOM, boîte81f/867, op.cit.

16-تم تشكيل محكمة نورنبرغ(Nuremberg) يوم 08 أوت 1945 بمقتضى اتفاق لندن بين الاتحاد السوفيتي وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية، وفرنسا التي مثلتها الحكومة المؤقتة للجمهورية الفرنسية التي كان يترأسها الجنرال دي غول(De Gaulle)، وحددت المادة السادسة من قانونها الأساسي مهمتها وهي"كبار مجرمي الحرب الذين ينتمون إلى الدول الأوروبية التي تنتمي إلى المحور..."، على اقترافهم لثلاث جرائم، هي جرائم ضد السلم، وجرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية، ينظر:.natanson/nuremberg-creation.htm http//pagesperso-orange.fr/d-d

17-voir: Centre des archives d'outre-mer, 9cab/147 : émeutes de Guelma: disparus,pillages,rapports de police,fiches de renseignements…….

18 -ibid, fiche de renseignement n°=292.

19-ibid, R.S,N°=700 du 21 mars 1947 de l'inspecteur O.P.G, de la brigade mobile de Guelma.

20-ibid, fiche de renseignement n°=295.

21- R.S,N°=699 du 20 mars 1947 de l'inspecteur O.P.G, de la brigade mobile de Guelma ,Mr Daoudi.

22- Rapport spécial de l'inspecteur principal O.P.G Delsaux ,Guelma,le 18 février 1949.

Objet : homicide volontaire commis sur la personne de Ayacha Lamri ben Abdellah en mai 1945 à Petit

Référence : délégation générale N°=13/g, du 22/01/1947 de Mr le juge d'instruction chargé de la première chambre à Guelma.

23- لمزيد من المعطيات حول منهجية السلطات الاستعمارية في التعتيم على ملف المفقودين الذين هم في الواقع أشخاص عزل جرى اختطافهم واغتيالهم من قبل أجهزة الأمن والميلشيات، وإخفاء آثار الجريمة، ينظر:

Préface : pour une histoire des évènements de mai – juin 1945,réalisée par Jean –Pierre Peyoulou, in Marcel Reggui, les massacres de Geulma, Algérie , mai 1945, une enquête inédite sur la furie des milices coloniales, éditions la découverte, Paris, 2006, pp.23-25.

24-9cab/147 : émeutes de Guelma: disparus,pillages,rapports de police,fiches de renseignements…….

24- Lettre du gouverneur général de l'Algérie au ministre de l'intérieur

Objet : remise de la légion d'honneur à Mr Achiary, sous-préfet de Guelma.

25- Témoignage de Mr Dahel mohamed Lakhdar,ex- conseiller général,in: CAOM, 81f/867.

26- Centre des archives d'outre –mer,boîte 8cab/84 « Etat d'esprit de la population, étude de 460 interceptions postales ayant trait aux évènement du Constantine ».

27- Centre des archives d'outre –mer, boîte 81f/867 «motion de la population française de Guelma et sa région, Guelma, le 21 mai 1945 ».

28-81f/868 : victimes des évènements, listes, répression judiciaire (communicable depuis début 2008).

محمد السعيد الزاهري ونضاله في الميدان الصحفي

أ.رانية مخلوف

قسم التاريخ /جامعة الجزائر(2)

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

Résume:

les médias et la propagande Occupent une grande importance dans tout mouvement politique, se sont des moyens essentiels pour transférer les idées de tel mouvement ou tel système, Le succès de toute organisation, qu'elle soit politiquement ou culturellement ou socialement basé sur son succès dans le domaine de l'information et de la propagande, et dans cet aspect Le Mouvement national algérien a accordé une grande attention à l'activité des médias et lui fait l'un des fondements de la lutte nationale .Dans ce cadre Mohamed Said Azzahiri a établi le journal El Maghreb el Arabi « », -qu'est l'objet de cette étude-, Il était l'un des principaux journaux dans le domaine d'activité de la presse après la Seconde Guerre mondiale, et a joué un rôle de premier plan dans la lutte nationale ; grâce à sa critique de la politique de la colonisation française appliquée contre le peuple algérien.

مقدمة

لقد كانت مسيرة كفاح الشعب الجزائري التي خاضها من اجل استرجاع السيادة الوطنية ذات مظاهر متعددة ،إذ لم تكن معركة السيف كافية بل كان لابد من خوض معارك أخرى في الجانب السياسي والثقافي ، والحال فان كفاح الشعب الجزائري كان أمام مشروع استعماري شمل جميع جوانب الحياة ، وعليه كان لابد من مواجهة ذلك بمعركة مفتوحة على كل الجبهات ، ومن بين المعارك المهمة التي كان لابد على الشعب الجزائري من خوضها هي معركة الكلمة بما تحمله من معان متعددة ، لاسيما وان هذا الجانب أي معركة الكلمة كانت إحدى أهم محاور مشروع الاستعمار الفرنسي الذي كان يحمله عشية احتلاله للجزائر ، بحيث رافق الجيش الفرنسي مثقفون وعلماء وكتاب ،والهدف من كل هذا واضح وهو تحقيق تثبيت وجوده بالجزائر ،وقد كانت الصحافة إحدى الوسائل التي اعتمد عليها الاستعمار الفرنسي في ذلك ، وكانت وسيلة فعّالة استعملها استعمار للسيطرة على النفوس والعقول بعد السيطرة على الأرض ، وكانت أغلب الصحف قد أنشأت لتحقيق أهداف ومقاصد الإدارة الاستعمارية في الجزائر ،وفي إبراز أهمية النشاط الصحفي يذكر الحاكم العام "**جان ميرنت**"**مسؤول** في الولاية العامة بالجزائر ومدير الشؤون الأهلية بأن الجرائد هي الآلة التي تجمع في وقت واحد بين البساطة والقوة ،ويكفي أن نشير إلى أن عدد الصحف بلغ من 1847 إلى سنة 1939 أي في مدة زمنية اقل من قرن إلى مائة وخمسون جريدة مابين دورية ويومية.

وإذا كان هذا هو حال النشاط الصحفي بالنسبة للفرنسيين بالجزائر ،فإن الجزائريين كانوا محرومين من ممارسته، إذ لم يكن النشاط الصحفي لدى الجزائريين طريقا ذلولا ولم تكن تجربته سهلة ، بل كان النضال في هذا المضمار جهادا طويلا وشاقا ، وطبع تاريخ مسيرته ورسم واقعه بطابع المقاومة المستمرة ، بحيث اصطدمت منذ البداية بعدو استعماري لدود أغلق كل الأبواب في شتى المجالات أمام الجزائريين ، وما يؤكد ذلك هو التساقط المتتابع للصحف الجزائرية الوطنية ،وقد واجه نشاط الصحفيين الوطنيين الجزائريين موقف السلطات الاستعمارية المتسلط بتحد وإصرار كبيرين ،لاسيما بعدما أدركوا ما للصحافة من أهمية في إيقاظ الأمة ودور فعّال في بث الوعي ونشره بين الجزائريين ،فكانت أقلامهم سيوفا مشهورة في وجه سياسة الإدارة الاستعمارية ، بحيث لم يستسلموا وجعلوا من الكلمة وسيلة فعالة في ميدان النضال

والمقاومة من أجل استرجاع السيادة الوطنية ، فقد برز النضال في هذا المجال الكثير من الأعلام والأقلام التي تركت بصماتها وأثرها ليس فقط في ميدان الصحافة الصرف ، بل في ميدان النضال الوطني وبث الوعي الوطني ، منهم أبو اليقضان،وأبو القاسم الخمار، وعبد الحميد بن باديس ، واحمد توفيق المدني ،وبوزوزو...وكان محمد السعيد الزاهري أحد رواد عالم الصحافة في الجزائر ،بحيث كرس كل حياته نضالا في هذا الميدان ،جاعلا من قلمه وسيلة فعالة في النضال ، وهذه الدراسة المتواضعة تحاول إظهار بعض جوانب من مسيرته النضالية في ميدان الصحافة والإعلام.

1- نشأة محمد السعيد الزاهري العلمية :

ولد محمد السعيد الزاهري بن بشير بن علي المعروف بالسعيد الزاهري في 18 سبتمبر 1900 بقرية ليانة قرب بسكرة، وكان لجد الزاهري"**الشيخ علي ناجي**" الفضل في صقل موهبة حفيده التلميذ الصغير وهو لا يزال صغيرا ،بحيث أخذ عليه اللغة العربية ومبادئ الفقه الإسلامي[1]،وبعد الحرب العالمية الأولى انتقل الزاهري إلى قسنطينة وواصل تعليمه على يد الشيخ عبد الحميد ابن باديس[2]، وقد استغرقت مدة تعلمه هذه زهاء أربعة عشر شهرا ،أتم خلالها حفظ القرآن الكريم ، وبعد ذلك انتقل إلى جامع الزيتونة بتونس لمواصلة دراسته به،وكان الزاهري من بين طلبة البعثة العلمية التي أرسلها عبد الحميد ابن باديس في هذه الفترة إلى جامع الزيتونة بتونس[3]،بحيث كانت هذه البعثة منتقاة وضمت وجوها من كبار علماء الجزائر أمثال محمد مبارك الميلي والعربي التبسي وعبد السلام القسنطيني ومحمد العيد الخليفة،[4]،وفي جامع الزيتونة التزم الزاهري في هذا المعلم العلمي بالدراسة والمطالعة ومجالسة أهل العلم والأدب [5]،كما كان من أوائل الطلبة الذين عرفوا من خلال مساهماتهم الأدبية والفكرية في مجال الكتابات الصحفية والتجمعات العلمية[6]ويذكر الزاهري في هذا الجانب فضل الزيتونة عليه مباهيا بانتسابه لهذا المعلم علمي، فقد كان من الرعيل الأول الذي درس في الزيتونة وتخرج منه سنة 1924بدرجة حسن وهي آخر ما كان يحصل عليه الطالب في تونس[7].

2- النشاط السياسي للزاهري وعمله الإصلاحي:

شكل المجال السياسي ميدانا خصبا للزاهري كي يبرز كناشط سياسي مدافعا عن قضايا وطنه ، فقد أظهر في فترة متقدمة من مسيرة نضاله السياسي الوطني شجاعة كبيرة واستعدادا للتضحية في سبيل إنهاض الشعب الجزائري والأخذ بيده لخوض معركة الكرامة واسترجاع السيادة الوطنية[8]،وهذا ما سبب له الكثير من المتاعب مع إدارة الاستعمار الفرنسي ونال قسطه من المحاكمات والتعسف والإرهاب، وقد برز نضاله السياسي من خلال نشاطه السياسي في العديد من الميادين ،وبالعودة إلى كتاباته وأشعاره يمكن للدارسين استنتاج مواقفه المتعددة ، فقد كان من الاوائل الذين تبنوا مواقف حركة نجم شمال إفريقيا في الجزائر، وبعد ذلك أصبح عضوا بارزا في الحركة الإصلاحية بصفة عامة وجمعية العلماء المسلمين بصفة خاصة[9]،وهذا التغير والتقلب في المواقف جعل البعض يفسره تفسيرا ايجابيا في مواقف الزاهري ورده إلى شمولية مذهب الزاهري، فقد كان في الوقت نفسه عضوا قياديا بالجمعية ومناضلا بارزا في صفوف حركة نجم شمال إفريقيا في الجزائر يؤمن ببرنامجها السياسي ويدعو بشتى الوسائل إلى تطبيقه[10]،ورغم أنه قضى حوالي أربع سنوات مع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، إلا أن ذلك لم يمنعه من النشاط السياسي، لذلك وبعد انسحابه من الجمعية عاد مرة أخرى وواصل نضاله في صفوف "نجم شمال إفريقيا "وفي صفوف حزب الشعب من بعده[11].

ومن خلال كتابات الزاهري نجده عالم دين متمسك بالقيم الإسلامية داعيا إلى تطبيقها، وإلى التمسك بالهوية الجزائرية،كما نجده يدعو إلى التحرر والاستقلال منتقدا الاحتلال ، وبهذا يكون الزاهري قد عمل في حقلي الدين والسياسة بخلاص المصلح ،وروح السياسي الذي لا يستكين،وبمبدأ الجهاد في سبيل التحرير، وفي هذا الجانب يذكر **محمد**

العربي الزبيري في كتابه "**المثقفون والثورة الجزائرية**" أن الزاهري يلتقي مع **حمدان خوجة** من حيث الهيكلة والتصورات الذهنية، أما من حيث التكوين السياسي والثقافي، فكان يشبه **الأمير خالد**، إذ كان حر التفكير ، وطني التوجه، يبحث دائما بلا هوادة ولا كلل عن السبيل الموصل إلى تخليص شعبه من براثن الاستعمار، ومن اجل تحقيق ذلك فإن الزاهري كانت له قناعة بأن المعرفة هي أفضل سلاح لذلك، اذ لم يكن يفرق بين مختلف مجالاتها بل كان يعتبر أن السياسة والأدب وعلوم الاجتماع والاقتصاد والدين كلها مكملة بعضها البعض[12].

كما كان الزاهري شاعرا أيضا إذْ يعد في هذا المجال من أبرز الشعراء الجزائريين الذين تخرجوا من الزيتونة وأسمعوا العالم أصواتهم من خلال الصحافة التونسية أولا ثم الصحافة الجزائرية فيما بعد[13] ،ورغم أن الزاهري كان شاعرا أيضا ونظم العديد من الأشعار والقصائد إلاأن اغلب أشعاره كانت سياسية تتغنى بالجزائر أحيانا وتدعو الشعب الجزائري إلى تحطيم الأغلال التي كبل بها أحيانا أخرى[14]، ومن أبيات الزاهري التي كتبها سنة 1925 يصف فيها حال الجزائريين نذكر :

وإذا كانت أعناق الحرية البرية حرة *** فأعناقنا مغلولة في السلاسل

وإنا لمسجونون وسط ديارنا *** خضعونا لقانون من "الأم" عادل

ولكننا نعي إذا الحرب شمرت *** نقي "أمنا" من عاديات القنابل [15]

لم يقتصر جهد الزاهري على محاولات الكتابة في الصحافة والعمل في السياسة والأدب بل عمل جاهدا ومنذ وقت مبكر إلى بعث حركة سياسية ، فبدأ في 1928 يعد قانونا أساسيا لبعث ما سماه "بحزب الإصلاح الديني"، وقد أشار إلى هذا القانون في حديث مع الشيخ عمر راسم ونشره سنة 1929، بمجلة "الفتح" وكان يطمح من وراء هذا التنظيم إلى رد الشعب الجزائري إلى القران الكريم وجمعهم على كلمة واحدة[16]، ويعزو البعض أن هذا المشروع هو الذي قاد بعد سنتين إلى تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي كان الزاهري احد أعضاء مجلسها الإداري الأول البارزين النشطين[17].

ورغم أن الزاهري كان جزائري الانتساب إلا أنه كان مغاربي التوجه،ناضل من أجل وحدة المغرب العربي وتحريره ، وقد عبر عن ذلك من خلال كتاباته الكثيرة في هذا الجانب ، إذ كان يدعو إلى إرساء تفكير مغاربي ، داعيا المثقفين في الجزائر وفي تونس ، وكذا في مراكش أن يفكر بالمغرب العربي وأن لا يخصصوا بعملهم الصالح قطرا دون آخر وأنْ يكون ذلك بتوحيد الجهود التي تعمل لصالح بلاد المغرب العربي "[18]، واصفا تاريخ المنطقة بأنه تاريخ واحد متصل تمام الاتصال بعضه ببعض، مشيرا إلى أنه لا يقوم تاريخ تونس مثلا دون تاريخ الجزائر ومراكش ، ومن أجل ذلك دعا للعمل على تقوية الرابطة الإسلامية وإحيائها بين أقطار المغرب العربي الثلاثة وإحياء مجد المغرب، والدعوة إلى الوحدة المغاربية[19].

ولم يتوقف نضال الزاهري على هذه المنطقة الجغرافية بل كان تطلعه إلى الوطن العربي حاضرا من خلال تواصله مع الجرائد العربية والكتابة على صفحاتها مثل جرائد "الثقافة"، "الرسالة"، "المصري" و"البشير" وهي دوريات مصرية، وأخرى سورية كجريدتي "القبس" و"الأيام" وجريدة "السعادة" المغربية، أو من خلال جرائده التي كانت تهتم بالشأن العربي وحتى الإسلامي ومنها جريدة المغرب العربي التي أولى فيها اهتماما كبيرا لبعض قضايا الأمة العربية وخاصة القضية الفلسطينية، وقد سعى الزاهري إلى إيصال صوت الجزائر إلى العالم العربي من خلال هذه الجريدة [20].

وفي الجانب العلمي التربوي شارك الزاهري في الحركة الإصلاحية بمقالاته في عدد من صحف جمعية العلماء، كالشهاب، كما جند قلمه لخدمة الإسلام ونشر فكره الإصلاحي، ولم يتردد في التصدي لمختلف مشايخ الطرق الصوفية و"علماء الاستعمار"، وكان للزاهري ثقة كبيرة في كفاءته العلمية وقدرته على الكتابة شعرا ونثرا لذلك حمله ابن باديس بمعية الشيخ الطيب العقبي رئاسة تحرير جريدتي "السنة النبوية" و"الصراط السوي" اللتين صدرتا في قسنطينة سنتي 1933-1934[21].

وقد ظل الزاهري طيلة حياته شاهرا قلمه يحارب البدع والتفرنس ويدعو إلى التمسك بالقرآن والتحصن بالأصالة والاحتماء بالتراث، وقد سبب له ذلك الكثير من المشاكل والاعتداءات كاد أن يهلك بسببها. ولم يكتف الزاهري في مجال الإصلاح بالكتابة فقط، بل كان عضوا بارزا في صفوف جمعية العلماء المسلمين[22]، وبقي ينشط في صفوفها حوالي أربع سنوات، لكن الأمر لم يستقر به في الجمعية حيث تأكد أن الإصلاح بعيدا عن التكوين السياسي والإيديولوجي لا يكفي لإعداد أجيال الثورة، لأجل ذلك اغتنم فرصة انعقاد أول مؤتمر للجمعية فيعبر عن تشاؤمه وانسحب بالتدرج من الجمعية مع التركيز من جديد في نضاله مع حركة النجم ، وبعد حل هذه الحركة انضم بعد ذلك إلى صفوف حزب الشعب، ورغم انسحاب الزاهري من الهيئة الإدارية لجمعية العلماء إلا انه لم يبتعد عن الإصلاح وحاول إعطاء نظرة جديدة لمفهوم الإصلاح وهو أنه يسعى إلى التقريب بين مختلف الطوائف الشعبية التي كانت لا تزال الرجعية الاستعمارية تنشر بين صفوفها التفرقة والبلبلة وقد عبر عن ذلك سنة 1938 في افتتاحية جريدته "**الوفاق**"[23].

وقد تطور بعد ذلك اختلاف الزاهري مع الجمعية حول مفهوم الإصلاح إلى خلاف، وبدأت الخصومة تظهر بينه وبين بعض العلماء،وبرز ذلك من خلال جريدتي "**الوفاق**"التابعة للزاهري وجريدة "**البصائر**"التابعة لجمعية العلماء، وبدأت تلك الخصومة بانتقاد جريدة"**الوفاق**" لسلوك بعض أعضاء الجمعية ولاسيما المسؤولين منها ثم تحولت إلى اتهام فظيع للسلوك الشخصي والعواطف الوطنية[24]، كما برز هذا الخلاف حين عزم الزاهري على إنشاء ما يسميه " **الإصلاح الإسلامي**" عام 1939، ليواجه به جمعية العلماء، ووصل هذا الخلاف إلى حد مهاجمة مشايخ الجمعية وعلمائها،فهاجم **الإبراهيمي ومبارك الميلي والشيخ خير الدين** وحتى معلمه وشيخه **عبد الحميد ابن باديس**، فاتهمه في وطنيته مستندا على بعض ما كان يكتب في **البصائر**[25].

وكبقية الفاعلين في الساحة الجزائرية السياسية والإصلاحية اختفى نشاط الزاهري أثناء الحرب العالمية الثانية،وتم إيقاف جريدته "**الوفاق**".وبعد الحرب العالمية الثانية عاد الزاهري من جديد إلى ميدانه المفضل وهو النشاط الصحفي فأصدر جريدة المغرب العربي في ماي 1947 ،أما سياسيا فقد أصبح من أنصار ومناضلي حركة الانتصار للحريات الديمقراطية، ،ورغم أن جريدة المغرب العربي هذه م تكن لسان حال حركة الانتصار إلا أنها تبنت خطها السياسي ، كما أن حركة الانتصار من جهتها تبنت نهج جريدة المغرب العربي وكانت تدعمها ماليا ومعنويا،[26] وقد استمر الخلاف بين الزاهري وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين وواصل يهاجم جمعية العلماء، وخاصة الشيخ الإبراهيمي والفضيل الورثلاني عبر جريدته المغرب العربي [27] ويبدو أن الشيخ البشير الإبراهيمي لم يطق صبرا لما كان يصدر من الزاهري فيرد عليه في البصائر يصفه بـ"الكذاب والشر والحقد "،وبأنّه مدار وليس مدير وعامل مأجور وعديم المبادئ ،وأنّ حركة الانتصار تستغله في السب ، كما وصف الإبراهيمي الزاهري ببائع السّب والكذب ،وأنّ صحائفه الماضية التي تهاوت في عمر الزهر من "الجزائر" إلى البرق إلى "الوفاق" ماتت كلها بالهزال، متهما إياه وحركة الانتصار بالتحالف مع الاستعمار لضرب الجمعية [28]

- **مسيرة محمد السعيد الزاهري في عالم الصحافة :**

بعد عودة الزاهري إلى الجزائر سنة 1925 كان من الأوائل الذين حملوا لواء الدفاع عن القضية الجزائرية ، بحيث وزع نشاطه بين النشاط السياسي المباشر، والعمل العلمي والتربوي، وغير أن الجانب الصحفي كان قد أخذ من وقته الكثير، فالزاهري في هذا المجال يعتبر من رواد هذا النشاط في الجزائر، حيث تناول في كتاباته القضايا السياسية والاجتماعية والوطنية على مختلف الفترات وساهم بنشاطه هذا مع مجموعة كبير من الجزائريين[29] في خلق تيار فكري جسد المواقف السياسية المختلفة التي تنبع من القيم الجزائرية، فكان له دورا مهما في المعركة الإعلامية أثناء الحركة الوطنية[30].

ففي الجانب الصحفي كان للزاهري قلما سيَّالا ، بحيث تعددت وتنوعت مجالات كتاباته ، إذ لم يرتبط بصحيفة معينة فقط ، بل كتب في عدة صحف ،فقد كتب في جريدة "**النهضة**" التونسية لسنوات عديدة منذ 1923، وظل يثابر على مراسلتها حتى بعد تخرجه من الزيتونة وعودته إلى الجزائر عام 1925[31]، كما جند الزاهري قلمه وأنذر وقته كله لخدمة اتجاهه،وكان كلما تعطلت جريدة أو أوقفت إلا واتجه بكتاباته إلى جريدة أخرى، فقد كان يكتب في كل جريدة تتشجع على قبول إنتاجه الجريء دون نقصان أو تحريف، بحيث كتب في جريدة "**الأقدام**"[32]، وكانت اغلب كتاباته في هذه الجريدة سياسية وطنية سعى من خلالها إلى نشر الوعي الوطني، وآزر بها الأمير خالد في دعوته الرامية إلى محاربة التجنس والمطالبة بحق الشعب الجزائري في تقرير مصيره بنفسه[33].

وبعد أن أتم دراسته بجامع الزيتونة عاد إلى الجزائر العاصمة، فكان أول شيئا أقدم عليه هو إنشاء جريدة "**الجزائر**" في جويلية 1925، وهي صحيفة وطنية عربية اللسان[34]، جعل شعارها "**الجزائر للجزائريين**" ويذكر الزاهري في عددها الأول بان جريدته هذه جاءت لتكمل الرسالة الوطنية التي بدأتها جريدة "**الإقدام**" السابقة الذكر التي كتم الاستعمار أنفاسها سنة 1923[35]، وعن جريدة "**الجزائر**" كتب ابن باديس في جريدة "المنتقد" يمتدحها من حيث اللغة والمحتوى، حيث يقول بأنّه وجد بها مقالات بليغة في متانة التعبير وسمو الفكرة ونبالة المقصد وثقة ببلوغ الغاية[36].

إنّ شهادة عبد الحميد ابن باديس هذه على الدور المهم الذي كانت تلعبه جريدة "الجزائر" تأكده السلطات الفرنسية التي يبدو أنها لم تستسغ ما كان يكتبه الزاهري على صفحات هذه الجريدة من نقد لاذع وتهكم مرير ضد السياسة الفرنسية ، لذلك أقدمت هذه الأخيرة على غلقها بعد صدور ثلاثة أعداد منها فقط[37]، ورغم إيقاف جريدة "**الجزائر**" واصل الزاهري نضاله في عالم الصحافة ومضى في مسيرته في الميدان الإعلامي متصلا بكل الجرائد التي تقبل إنتاجه كاملا دون إخضاعه لعملية المقص أو أنواع الرقابة، فعاود الكتابة مرة أخرى في جريدة "**النهضة**" التونسية كمراسل لها بالجزائر، وحاول من خلالها تصوير ونقل ما يجري في الجزائر على المستوى القوانين والتشريعات وكذا الصراعات السياسية والانتخابات بما يتوفر له من الإخبار الهامة عن الوضع الداخلي ببلاده[38]، كما كتب على أعمدة جريدة "**الوزير**" التونسية، ودعا على صفحاتها إلى وحدة المغرب العربي[39]، وفي سنة 1927 أصدر بقسنطينة أسبوعية "**البرق**"، وهي جريدة تهتم بالشؤون العامة "الاجتماعية والسياسية الاقتصادية " وكانت نقدية فكاهية شعارها "خدمة الوطن ومصلحة الأمة واستثمار المال"، ويظهر أن هذه الجريدة جاءت لتكريس جهوده الإصلاحية، وبعد خلاف مع صاحب المطبعة نقل طبعها إلى تونس[40]، كما كتب الزاهري في جريدة "**الرسالة المصرية** " التابعة لحزب الشعب المصري ،و كذا جريدة "**الليالي** "ذات النزعة الإصلاحية وجريدة "**الفتح**" القاهرية[41]، إلى جانب ذلك ساهم الزاهري ببعض المقالات في بعض الجرائد الأخرى ، مثل "**الثقافة**"،و"**الرسالة**"، و"**المصري** " و"**البشير**" وهي دوريات مصرية، كما كتب أيضا في بعض الجرائد السورية مثل "**القبس**" و"**الأيام**"، وجريدة "**السعادة**" المغربية، و من خلال جرائده التي كانت تهتم بالشأن العربي وحتى الإسلامي ومنها جريدة "المغرب العربي" التي هي محور هذا البحث، حيث صهر الزاهري على إيصالها إلى الأقطار العربية مثل مصر سوريا والعراق[42]، وبعد توقف هذه الجريدة في ماي 1949 اصدر الزاهري جريدة "الشعلة " بقسنطينة في 15ديسمبر 1949، وبعد الشعلة اصدر الزاهري جريدة "عصى موسى"، وبعد اندلاع الثورة التحريرية عام 1954 أعاد الزاهري إصدار جريدة المغرب العربي وكانت متعاطفة مع الحركة المصالية، وقد كانت سببا في قتله من طرف جبهة التحرير الوطني في 21 ماي 1956 بحي القصبة بالعاصمة[43].

1- محمد السعيد الزاهري :الصحافة إعلام وقضية

رغم مسيرة الزاهري الطويلة في عالم الصحافة والإعلام إلا أنّ إنشائه لجريدة "المغرب العربي" بعد الحرب العالمية الثانية كان له أهمية كبيرة ، ليس فقط لكون الجريدة جاءت في ظروف خطيرة كانت تمر بها الحركة الوطنية، بل نظرا للتطور الكبير الذي عرفه إعلام الحركة الوطنية في هذه الفترة ، وكذا تعاطي جريدة المغرب العربي مع هذه التطورات ،وتبنيها أيضا للقضية الجزائرية وجعل هذه الأخيرة محور اهتماماتها ،وباختصار فان المطلع على يوميات جريدة المغرب العربي سيدرك بأن الصحافة لدى الزاهري كانت إعلام وقضية

3-1-ظروف إصدار جريدة المغرب العربي وأهدافها المختلفة :

ظهر أول عدد من جريدة المغرب العربي في 13جوان 1947 الموافق لـ 24 رجب 13366 هـ، كان المدير ورئيس تحريرها محمد السعيد الزاهري[44] وحسب ماجاء في شعارها فهي "جريدة أسبوعية تحررها نخبة من الجزائريين"، ويبدو أن جريدة المغرب العربي كانت استمرارا لجريدة "**الوفاق**" التي اشرنا إليها من قبل والتي كانت تصدر قبل الحرب العالمية الثانية بوهران، لكن ظروف الحرب العالمية الثانية جعلتها تتوقف في أوت 1940، وقد بعثت هذه الجريدة بعد انتهاء الحرب العامية الثانية من جديد باسم "المغرب العربي"[45].

ورغم أن صاحب الجريدة لم يشر ولم يحدد بصورة مباشرة دواعي تغير جريدته من اسم "**الوفاق**" إلى "المغرب العربي"، وهل كانت هناك دواعي سياسية أو اجتماعية أو ثقافية؟، إلا أن المتتبع لما كان ينشر على صفحات هذه الجريدة يمكن أن يستشف دوافع هذه التسمية والأهداف الحقيقية من وراء ذلك، إذ يبدو أن تسمية الجريدة باسم المغرب العربي لم تكن صدفة، بل هناك عوامل عدة وظروف مختلفة أدتإلى تسمية هذا المولود الإعلامي باسم "**المغرب العربي**"، وبما أن جريدة المغرب العربي هي امتداد لجريدة الوفاق الوهرانية فهذا يعني أنها جريدة سياسية بامتياز ذلك أنجريدة الوفاق يذكر في شأنها الزاهري بأنها كانت تنتصر للحريات والديمقراطية ،وتطالب بتحقيقها وتناوئ كل أشكال العنصرية والاستعمار[46]،ويتجلى هذا من خلال ما كانت تناوله جريدة المغرب العربي ،بحيث أولت اهتماما كبيرا للجوانب السياسية والاجتماعية في الجزائر وبلدان المغرب العربي مما يدل على أن اهتمامها وتوجهاتها لم تكن محلية بل كانت مغاربية، وبالتالي فان ميلاد جريدة "المغرب العربي" بهذا الاسم جاء تماشيا والتطورات التي كانت تمر بها الحركة الوطنية الجزائرية خاصة ، وإلى الظروف والمستجدات التي أصبحت تمر بها أقطار المغرب العربي بصفة عامة[47].

قد كانت هذه المستجدات محل اهتمام كبير لدى الجريدة، إذ رغم أن الجريدة كانت موجهة بالدرجة الأولى إلى الشعب الجزائري إلا أن ذلك لم يمنعها من اهتمامها بالتطورات الحاصلة في المغرب العربي، وهذا التوجه جعلها تنشر وتتبع كل ما يحدث في بلدان المغرب العربي، فخصصت عمودا قارا تحت اسم "المغرب العربي" كانت الجريدة تنشر أخبار التطورات المختلفة التي كانت تعرفها البلدان المغاربية، وهذا ما يتركنا ندرك أن الجريدة جاءت لتساير هذه التطورات السياسية التي عرفتها منطقة المغرب العربي وفي مقدمتها توحيد النضال المغاربي بين مختلف الحركات الوطنية المغاربية ، هذه الأخيرة التي كانت في هذه الفترة تحاول لملمة أشطارها والعمل على بعث مسألة توحيد الكفاح في المغرب العربي ،وذلك من خلال تأسيس مكتب المغرب العربي 1943 ببرلين[48]، ثم تأسيس "جبهة الدفاع عن شمال إفريقيا" في 18فبراير 1944[49]، وبعد الحرب العالية الثانية تأسس مكتب المغرب العربي بالقاهرة1947، [50]،لذلك فان تأسيس هذه الجريدة جاء تماشيا مع هذه التطورات التي عرفتها منطقة المغرب العربي، وبالتالي فإن الجريدة حاولت أنتكون صدى لما يحدث من تطورات سياسية واجتماعية في أقطار المغرب العربي.

كما يمكن ربط تسمية الجريدة باسم المغرب العربي إلى التوجه المغاربي الذي تبنته حركة الانتصار للحريات الديمقراطية ،وبالتالي جاءت الجريدة لتساهم هي الأخرى في تكريس وتفعيل هذا التوجه الوحدوي المغاربي الذي تبنّاه التيار الثوري منذ

تأسيس نجم إفريقيا الشمالية 1926، ثم حزب الشعب 1937[51]وقد تجسد هذا التوجه خاصة بعد الحرب العالمية الثانية، فظهرت بعض الجرائد كانت تحمل الأبعاد المغاربية و تدعو لوحدة المغرب العربي، مثل جريدة "إفريقيا الشمالية " وهي مجلة شهرية وكان يديرها إسماعيل العربي صدرت في 1946 وكانت تصدر بالعاصمة الجزائر وكانت تخلط بين الاتجاه الوطني لحركة الانتصار والحزب الإصلاحي للعلماء صدر منها 4 أعداد توقفت لصعوبة مالية [52]وكل هذه الجرائد جاءت لتساهم في التواصل بين الحركات الوطنية المغاربية والعمل على تفعيل مسالة الكفاح المغاربي المشترك فيما بينها ، كما أُردِف إصدار جريدة المغرب العربي باللغة العربية التي كان يديرها الزاهري بإصدار نسخة ثانية باللغة الفرنسية لهذه الجريدة في نفس السنة من طرف "**أمحمد بن امحل**"،وكان يشرف على تحرير النسخة الفرنسية **بن يوسف بن خدة**[53]،وكانت حركة الانتصار تدعم هذه الجريدة قبل صدور جريدتها الخاصة الناطقة بالفرنسية في اوت 1949 "**الجزائر الحرة**" [54].

ويبدو أن ميلاد جريدة المغرب العربي له علاقة قوية بالمسار النضالي للزاهري نفسه، فرغم وجود بعض الصحف التي كانت تحمل نفس الاسم كالتي تحدثنا عنها سلفا أو مثل تلك الصادرة قبل الحرب العالمية الثانية كجريدة "المغرب" التي صدرت بين 1930-1931[55]وكذا جريدة "المغرب العربي" التي صدرت في وهران سنة 1937[56]، ثم صدور جريدة "المغرب العربي" لسان حال مكتب المغرب العربي ببرلين سنة 1944، والتي كانت موجهة لشعوب المغرب العربي، إلا أنّ المتتبع لمسار صاحب جريدة المغرب العربي السياسي والإصلاحي، وكذا الإعلامي يدرك جيدا بأنه بقدر ما كان تأسيس جريدة "المغرب العربي" محاولة من الزاهري لمسايرة التطورات الحاصلة في الجزائر ومنطقة المغرب العربي، بقدر مايُظهر لنا ويؤكد أنّ تسمية جريدة المغرب العربي بهذا الاسم مرده أيضا إلى توجهات الزاهري الإيديولوجية والسياسية ، وإيمانه بضرورة النضال والكفاح في إطار مغاربي، وقد ترجم الزاهري هذه القناعة على أرض الواقع من خلال نضاله السياسي في صفوف حركة نجم إفريقيا الشمالية وهي أول حركة سياسية مغاربية دعت على توحيد صفوف أبناء المغرب العربي والعمل ككتلة واحدة ضد الاستعمار الأجنبي[57] ، أو من خلال كتاباته الصحفية في صحف جزائرية وعربية التي أشرنا إليها سلفا، بحيث كان يدعو على صفحات هذه الجرائد إلى وجوب الإسراع بالوحدة المغاربية التي من شأنها أن تبلور الإرادة الجماعية والكفاح المشترك والتصميم الموحد لأبناء المغرب العربي على مقاومة الاستعمار الذي جثم على أرضهم ذات الطبيعة الجغرافية الواحدة وذات العناصر الجنسية المتآخية [58].

ويؤكد هذا التوجه صاحب الجريدة نفسه في افتتاحية العدد الأول من الجريدة في حديثه حول أسباب تأسيس جريدة المغرب العربي؛ حيث يذكر أنه-الزاهري- أول من استعمل مصطلح المغرب العربي بهذا المعنى الحديث منذ أكثر من عشرين سنة ،وأنّ الصحافة في المشرق العربي كانت تخلط في تسمية هذه البلاد فكانت تسميها تونس،وفاس،ووهران أو تلمسان أو القيروان...، كما كانت تسميها إفريقيا الشمالية أو الشمال الإفريقي، فاستعمل الزاهري هذا المصطلح توضيحا للأمر،ويذكر في هذا الشأن أنه استعمل كلمة"**المغرب**"وزادها العربي، وأنّه أراد بذلك القول أن منطقة المغرب العربي هي منطقة عربية واحدة لها مقومات وقيم واحدة، فاستعمل هذا مصطلح- المغرب العربي-ردا على الكتاب الفرنسيين الذين كانوا "يزعمون أن هذه المنطقة تابعة لفرنسا، وأنها لم تكن عربية، وإنما كانت رومانية مسيحية، وبالتالي يجب إعادتها إلى سيرتها الأولى"[59].

3-2 -محتوى جريدة المغرب العربي

لقد كان عدد صفحات الجريدة طوال المدة التي عاشتها وهي حوالي سنتين[60]،لا يزيد عن الأربع صفحات، ووصل عدد النسخ التي تسحبها يوميا إلى حوالي 2000 نسخة [61]، ويبدو أن جريدة المغرب العربي كانت كثيرة القراء وواسعة الانتشار محليا، وحتى خارج الجزائر ، بحيث كانت تصل أعدادها إلى بعض البلدان العربية وخاصة بلدان المغرب العربي بما

فيها ليبيا، ، وهذا الانتشار الواسع الذي كانت تتمتع به جريدة المغرب العربي هو الذي جعلها تنوع من المواضيع التي كانت منها السياسية والثقافية والاجتماعية وحتى الاقتصادية[62].

ولمعالجة هذه المواضيع المتنوعة عمدت جريدة المغرب العربي إلى وضع أركان وأعمدة قارة، فكانت الجريدة تنشر ما يصلها من أخبار من طرف قرائها الذين كانت الجريدة تخفي أسماء هؤلاء المراسلين[63]، كما كانت الجريدة ترصد تطور النضال الوطني عبر مختلف مراحله من جهة وتبرز سياسة الاستعمار الفرنسي منذ غزوه الجزائر من جهة أخرى ،وفضلا عن ذلك ناقشت الجريدة أيضا بعض القضايا الحساسة التي تهم الأمة الجزائرية والتي كانت محل جدال كبير بين روافد الحركة الوطنية، كمسألة الدين واللغة والسياسة[64].أما على مستوى المغرب العربي فقد أولت الجريدة اهتماما كبيرا بما كان يحدث في المنطقة ، والجانب كان يسير بموازاة مع الاهتمام الوطني ،بحيث كانت الجريدة تهتم بالتطورات الحاصلة في أقطار المغرب العربي ، ولعل عنوان الجريدة كان يفرض عليها هذا التوجه، فهي جاءت لتحيي فكرة النضال الموحد بين الشعوب المغاربية، لذلك خصصت ركنا قارا باسم " **أخبار المغرب العربي**" وكان هذا الركن يهتم بكل ما كان يحدث من تطورات في كل من المغرب وتونس وليبيا خاصة في الجانب السياسي، ، كما تحدثت الجريدة عن وحدة المغرب العربي فكانت ترصد وتنشر أخبار مكتب المغرب العربي بالقاهرة[65].وإلى جانب ذلك أولت الجريدة اهتماما أيضا بما كان يحدث في المشرق العربي،وبشكل كبير القضية الفلسطينية[66]،وكل ذلك لم ينس الجريدة الاهتمام أيضا ببعض قضايا الأقطار الإسلامية مثل القضية الاندونيسية التي كانت تصارع من اجل التخلص من الاستعمار الهولندي [67].

3-3 الخط السياسي لجريدة المغرب العربي

يصنف الدكتور **زهير احدادن** في كتابه "تاريخ الصحافة الأهلية في الجزائر" الصحف الجزائرية في عهد الاستعمار الفرنسي، إلى عدة أنواع من الجرائد،بحيث يميز بين الجرائد الحكومية والصحف الكولونيالية، والصحف الأهلية، والصحف الوطنية [68]، وجريدة المغرب العربي يمكن أن تصنف في الصنف الأخير التي كانت تركز في مطالبها على وجود الأمة الجزائرية وأنها تختلف عن الأمة الفرنسية، ووسط هذا النوع الأخير من النشاط الصحفي يمكن أن نجد الصحف السياسية والثقافية والأدبية، الحزبية وغير الحزبية.

وحول توجهات الجريدة السياسية والإيديولوجية تذكر في ديباجته بأنها "جريدة أسبوعية يحررها نخبة من الجزائريين"[69]، وهذا يعني أنها جريدة حرة ومستقلة، ولعل الاستقلالية الرأي هذه ستجعلها تنوع من المواضيع التي تتناولها والإخبار التي تنشرها، كما كانت الجريدة في كونها إعلامية تقدم المعلومات إلى القراء في شكل نشرات أخبار محلية ودولية ، وتعمل على اطلاع القارئ الجزائري بذلك، وكذا اطلاع الرأي العام الخارجي بما يحدث في الجزائر[70]،ولم تكتف الجريدة بما كانت تنشره من أخبار، بل كانت تضيف تحاليل وآراء ومواقف لما كانت تنشره، فهي عندما تتحدث عن السياسة الاستعمارية تنتقدها اشد الانتقاد[71] وحين تتحدث عن حركة الانتصار للحريات الديمقراطية تصف قادتها بالوطنيين ومواقفهم بالوطنية[72]، في حين نجدها عندما تتحدث عن حركة الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري تصف قادتها باللاوطنيين وباللائكين والعملاء [73].كما وصفت جمعية العلماء ومناضليها بالنفاق والعمالة للاستعمار[74].

والحقيقة أن الخط السياسي للجريدة كان واضحا منذ العدد الأول فقد جاء في افتتاحية أول عدد من جريدة المغرب العربي أن هذه عودة الزاهري إلى عالم الصحافة هي عودة إلى ميدان النضال لخدمة العروبة والإسلام في هذا الجزء من المغرب العربي[75]، ورغم محاولة صاحب الجريدة إظهار استقلالية جريدته إلاّ هذه الأخيرة قد تحولت من جريدة مستقلة إلى جريدة مناضلة تتبنى الخط السياسي لحركة الانتصار وتدافع عنها وتناوئ من يناوئها[76].وهذا ماذهب إليه محمد ناصر

حيث يذكر أن الجريدة كانت لسان حال حركة الانتصار للحريات الديمقراطية، حيث نجدها تقوم بنشر كل ما يتعلق بهذه الحركة لقد كانت الجريدة صريحة في تبنيها لمواقف حركة الانتصار[77].

والحال فإنّ العارف بمسيرة الزاهري النضالية ومواقفه السياسية، والمتصفح لما كان يكتبه في جرائده التي أسسها من قبل كجريدة الجزائر 1925 ثم الفروق 1927، والوفاق في 1938، وبالنظر إلى الظروف التي صدرت فيها جريدة المغرب العربي وما كانت تنشره وتكتبه على صفحاتها، يدرك أن الجريدة وإنْ كانت حرة إلاّ أنها لم تكن مستقلة ،بل كانت بمثابة لسان حال حركة الانتصار للحريات الديمقراطية، وهذا ما ذهب إليه محمد ناصر في كتابه "**الصحف العربية الجزائري**" حيث يقول بأن جريدة المغرب العربي كانت لسان حال حركة الانتصار للحريات والديمقراطية [78].

ويبدو أن الزاهري أسس هذه الجريدة لغايات سياسية، وبذلك فهي تأكيد على أنها استمرارا لجريدة الوفاق التي توقفت في 1940 والتي كانت جريدة سياسية واجتماعية ، وبعد الحرب العالمية الثانية رأى الزاهري أن الوقت مناسبا لمواصلة مسيرته النضالية في عالم الصحافة والإعلام التي بدأها منذ العشرينات، لذلك جاءت أغلب مواضيع جريدة المغرب العربي سياسية[79]، فكانت التطورات السياسية التي عرفها العالم العربي عامة والجزائر خاصة قد انعكست في اهتمامات الجريدة فجعلتها محور اهتماماتها ، كما أن طغيان الجانب السياسي على محتوى الجريدة جعلها تكون جريدة سياسية بالدرجة الأولى ، بحيث أولت اهتماما كبيرا لشان المحلي – الجزائري–، وكانت تنشر كل ما كان يحدث بالجزائر وتتبع كل التطورات السياسية سواء فيما يخص نشاط الحركة الوطنية الجزائرية أو ما كانت تقوم به سياسة الإدارة الاستعمارية[80].

4–موقف الإدارة الاستعمارية من جريدة المغرب العربي:

لقد كان سلوك الإدارة الاستعمارية واضحا من النشاط الصحفي في الجزائر، يدلنا على ذلك السياسة التي انتهجتها السلطات الفرنسية ضد الجرائد التي كانت تصدر بالجزائر وخاصة تلك التي كانت تدافع عن قضايا "الأهالي"،ذلك أن الفرنسيين أدركوا ما للصحافة من أثر في إنهاض الشعوب وبث الثقافة والوعي فيها، وقد وصف "جان ميرانت "وهو مسؤول في الولاية العامة بالجزائر ومدير الشؤون الأهلية بقوله "إن الجرائد هي هذه الآلة التي تجمع في وقت واحد بين البساطة والقوة، وأنها هي التي شع منها النور فبدد الظلام الذي كان يلف الشعوب المتخلفة"[81].

وفي هذا الجانب لاقت العديد من الصحف العربية التي كانت تصدر بالجزائر تسلطا وتجبرا من قبل الإدارة الاستعمارية [82]، ويبدو أن جريدة المغرب العربي لاقت نفس المصير ،خاصة وأن صاحب الجريدة كان معروفا لدى السلطات الفرنسية بمواقفه السياسية، كما أن جريدته لم تكن من الجرائد التي تسبح بحمد السلطات الفرنسية، لذلك واجهت عدة متاعب ومصاعب، بحيث لجأت السلطات الفرنسية إلى أسلوب المضايقات السياسية للضغط على صاحبها وجعله يخنع لما تهواه السلطات الاستعمارية[83]، اذ في الوقت الذي كانت الإدارة الاستعمارية تغدق بالورق على الصحف الفرنسية كانت جريدة المغرب العربي تشكو من نقص في هذا الجانب وكانت لجنة توزيع الورق على الصحف في الولاية تجيب بأنه لا توجد أوراق عندها وان الورق للصحف العربية غير متوفرة وعلتها في ذلك "كثرة المطاعم والمطابخ في أنحاء القطر الجزائري"[84] ، فقد كتبت الجريدة في عددها السابع أي بعد أكثر من شهرين من صدور أول عدد أن الإدارة الاستعمارية لا تزال مصرة على حرمان المغرب العربي من الورق، وأن ذلك أسلوب من أساليب الترهيب لدفعها التراجع عن خطها ، ولمنع حرية التعبير عن الجزائريين، كما كان أعوان السلطة الإدارية يعرقلون رواج الجريدة في عدة جهات من القطر الجزائري ، بحث زُج في السجن الذين كانوا يروجون لهذه الجريدة ، وتذكر الجريدة أن سبب العراقيل لا يعود إلى كون الجريدة متطرفة في طرحها، بل تلجأ السلطات الاستعمارية إلى ذلك لتضغط عليها حتى تغير خطها السياسي ولهجتها الخطابية[85].

ويبدو أن الجريدة قد أقلقت الإدارة الاستعمارية في الجزائر لموقفها الصريح وجرأتها في وضع النقاط على الحروف ،الأمر الذي جعل الإدارة الاستعمارية تقوم ولعدة مرات بحجزها، ويذكر الزاهري أن المغرب العربي منذ نشأتها كانت شوكة في حلق الاستعمار تفضح جرائمه التي لا تزال ترتكب في حق الشعب الجزائري من أول يوم الاحتلال وأن الاستعمار متهمة هذا الأخير بالدوس على القوانين التي أقرها هو نفسه فسلط جوره على جريدة المغرب العربي دون غيرها من الصحف، إذْ كثيرا ما كانت تتعرض هذه الجريدة لعراقيل مثل الذي حدث لها في 23 مارس 1948، حيث ضربت الشرطة حصارا على مقر الجريدة ولم تترك أحدا يدخلها أو يخرج منها إلا وفُتِش تفتيشا دقيقا ،واستمر هذا الحصار المضروب على الجريدة إلى غاية 11 أفريل 1948 إي إلى ما بعد الانتخابات الخاصة بالمجلس الجزائري ، وتم خلال هذه المدة من الحصار حجز ثمانية أعداد من الجريدة أربعة عربية وأربعة من الطبعة الفرنسية[86].

ولم تكتف الإدارة الاستعمارية بهذا السلوك بل تعدت إدارة الحاكم العام للجزائر ذلك ، فقامت بقطع على الجريدة نصيبها من الورق على قلته فكان ذلك اعتداء صارخا على حرية الصحافة العربية في الجزائر[87]، ومن البديهي أن مثل تلك الإجراءات التعسفية لم تكن تتخذ ضد الصحف العربية التي ترضى عنها الحكومة الاستعمارية أو تنظر إليها نظرة مسالمة، فحجة قلة الورق كانت واهية بالنسبة للزاهري بدليل أن الإدارة الاستعمارية في الولاية العامة كانت تقدم الأطنان من الورق إلى صحف أخرى كانت تسبح في تيار المسبحين بحمدها [88]، لكن بالنسبة لجريدة المغرب العربي فقد ظلت محل تهديد من قبل الإدارة الاستعمارية ،وان التعطيل الذي كانت تتعرض له كان إجراء تعسفيا، ففي بعض الأحيان كانت الإدارة الاستعمارية تلجأ إلى أسلوب التخويف بعدم منح الورق إلى الجريدة بحجة عدم توفرها الأمر الذي كان يؤثر على مسالة صدور الجريدة بصفة منتظمة[89].

كما كانت الجريدة تتعرض باستمرار لمضايقات الإدارة الاستعمارية حيث تقوم باضطهاد باعتها ومتعهديها في كل مكان، بحيث كان بائعو هذه الجريدة من الأطفال يتعرضون للاعتقالات وحجز الجريدة[90]، وكثيرا ما تعرض بائعو الجريدة إلى محاكمات وحتى الزج بهم في السجون[91]، وفي الوقت الذي كانت جريدة المغرب العربي تواجه مثل هذه الممارسات ، لم يحدث وأن قامت السلطات الاستعمارية بمصادرة صحيفة فرنسية وكانت تقوم كل مرة بمصادرة المغرب العربي لأنها جريدة عربية ولأن صاحبها عربي[91]، وقد كانت مثل هذه المشاكل تؤثر سلبا على الجريدة خاصة في الجانب المالي، حيث كانت الجريدة تتكلف المشقة وتبذل الجهود والنفقات الباهظة المرهقة في إصدار الجريدة ثم تقوم الشرطة الاستعمارية بمصادرتها ،ووصل لأمر بالسلطات الفرنسية أن دفعت برجال الشرطة إلى اقتحام بيوت ومنازل الجزائريين بحثا عن جريدة المغرب العربي، بل وصل الأمر بإدارة الاستعمار الفرنسي إلى حد قيام ممثلي الإدارة الفرنسية بعمالة قسنطينة إصدار أمر يمنع من خلاله الجزائريين من قراءة المغرب العربي[92].

كما كانت الإدارة الاستعمارية تصعد من العراقيل والمضايقات على الجريدة خاصة أثناء الانتخابات المختلفة التي تدور في الجزائر ، بحيث كانت تمنع باعتها من بيعها وتطارد هم حيث ما وجدوا، وهذا لأنها في مثل هذه المناسبات تتحول إلى ناطق باسم حركة الانتصار للحريات الديمقراطية وتدافع عنها وتنشر تصريحات وخطب مناضلي وقادة هذه الحركة، وبموازاة ذلك كانت الجريدة تكشف من الهجوم وانتقاد الحركات السياسية الأخرى وكذا سياسية الاستعمار الفرنسي بالجزائر[93]، لاسيما وأن جريدة المغرب العربي كانت واسعة الانتشار ولها قراء كثر من الجزائريين يترقبونها في كثير من اللهفة وفي هذا الشأن كان بعض حكام الدوائر يطلبون من المدير تعطيل الجريدة لهذا السبب فقط، فذنب الجريدة حسب مديرها أنها محبوبة لدى مختلف الطبقات الشعب وأن ادعاء الإدارة بحدة اللهجة لا أساس له من الصحة، بدليل وجود صحف أخرى تعمل على إثارة الفتن بين الجزائريين ، وإذا كان حال جريدة المغرب العربي بالنسبة للنسخة العربية فالأمر نفسه حدث

للنسخة الفرنسية، فقد كانت الشرطة الاستعمارية تقوم بمصادرة الملحق بالفرنسية واعتقال بائعيه، حتى تحول دون اطلاع الرأي العام الفرنسي بما تقوم به السياسة استعمارية بالجزائر وما يعانيه الشعب الجزائري[94].

خاتمة: من خلال تناولنا لهذه الدراسة تبين بشكل واضح دور الصحافة في النضال الوطني ، كما أن الموضوع يكشف لنا عن جانب مهم من جوانب النضال الوطني ، وهو دوره الصحافة والإعلام في النضال الوطني ، وفي هذا الجانب كانت الحركة الوطنية الجزائرية قد أولت لهذا الجانب أهمية كبيرة ، وجعلته من بيت وسائلها الفعالة معركتها النضالية ، و يظهر ذلك من خلال عدد الصحف والجرائد التي صدرت في هذه الفترة ، بحيث جعلت منها احدي آليات النضال الوطني ، فكان هذا الجانب بحق عاملا أساسيا ومهما في النضال الوطني ضد الاستعمار الفرنسي .

ولم يكن لهذه الوسيلة أن تحقق هذه النجاحات لو لم تجد رجالا كان لهم الفضل الكبير في تفعيل النشاط الصحفي والإعلامي وجعله من ركائز العمل الوطني ، فكانت معركة القلم والفكر والكلمة أبلغ من والمهرجانات والخطب السياسية ، وكان للزاهري أثره البارز في هذا الميدان وترك بصمات بارزة طيلة مسيرته النضالية ، إذ يعتبر احد أعمدة العمل الإعلامي في الحركة الوطني وكان له الفضل في تفعيل هذا الجانب وجعله في مقدمة المعركة التي كان يخوضها الشعب الجزائري ضد الاستعمار ،ويتجلى ذلك من خلال عدد الصحف التي أنشاها أو مساهماته في الجرائد الأخرى الجزائرية منها والعربية ، فهذه المسيرة الطويلة التي بدأها بإنشاء جريدة الجزائر سنة 1925 وصولا إلى جريدة المغرب العربي عام 1947 والجرائد التي إنشاءها بعد ذلك تجعلنا نقدر لهذا الرجل عمله النضالي في هذا الجانب

الهوامش:

1. محمد الصالح الجابري،**النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس 1900–1962**، الدار العربية للكتاب، 1983، ص189.
2. صالح خرفي، **محمد السعيد الزاهري**، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986، ص22؛ ص59.
3. محمد الصالح الجابري، مرجع سابق ، ص36.
4. صالح خرفي، مرجع سابق ، ص 25، أنظر أيضا محمد الصالح الجابري، مرجع سابق، ص36.
5. محمد العربي الزبيري، **المثقفون الجزائريون والثورة**، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، الرويبة، 1995، ص59.انظر أيضا ، صالح خرفي ، المرجع السابق ص22
6. صالح خرفي، المرجع السابق، ص57ومابعدها؛أنظر أيضا محمد العربي الزبيري، المرجع سابق، ص60.
7. محمد العر بي الزبيري ،المرجع السابق ص63.
8. صالح خرفي، المرجع السابق ، ص 47 ومابعدها
9. محمد العربي الزبيري، المرجع السابق ، ص61.
10. صالح خرفي، المرجع السابق ، ص 48 ومابعدها ، انظر أيضا محمد العربي الزبيري ، مرجع سابق، ص61.
11. محمد العربي الزبيري، ، مرجع سابق، ص60.
12. منهم محمد العيد آل خليفة أبواليقظان مفدي زكريا، رمضان حمود، العيد الجباري، محمد خير الدين، وأحمد سحنون، الأخضر لسائحي، عمر البرناوي وصالح خرفي...؛ انظر محمد الصالح الجابري ، مرجع سابق، ص50.
13. محمد العربي الزبيري ، مرجع سابق، ص61.
14. المرجع نفسه ، ص62.
15. صالح خرفي، مرجع سابق، ص71.
16. المرجع نفسه ،ص161.
17. محمد العربي الزبيري،المرجع سابق، ص63.
18. محمدصالح ناصر، المرجع سابق، ص218.

19. المرجع نفسه ، ص64.
20. المرجع نفسه ،ص63. 65
21. الوفاق الوهراني أصدرها الزاهري في 1938 وكانت لسان حال كتلة الجمعيات الإسلامية لعمالة وهران التي كان رئيسا لها صدر منها حوالي 37 عدد وصدرت لغايات سياسية وتوقفت عن الصدور في عام 1940 ، انظر محمدصالح ناصر، مرجع سابق،ص216
22. محمد صالح ناصر ،المرجع السابق ، ص219
23. المرجع نفسه، ص220.
24. Ben Youcef Ben Khadda, Les Origines du premier novembre 1954.2 em Editions ,CNER, 1999 , p201
25. انظر المغرب العربي أعداد 12-24-25-34
26. محمد البشير الإبراهيمي " إلى الزاهري " البصائر عدد 61 (1948/12/27
27. نذكر منهم: ابن باديس، توفيق المدني، مبارك الميلي، بوكوشة عبد الرحمان، يعلاوي احمد حماني، مولود قاسم، عبد الرحمان شيبان، محمد الصالح الصديق، عبد الله شريط، عبد الله الركيبي، أبو القاسم سعد الله، الجنيدي خليفة، محمد الميلي، يحي بوعزيز، عمار طالبيوعبد القادر زبادي وغيرهم؛ لمزيد من المعلوماتانظر محمد الصالح الجابري، مرجع سابق، ص51ومابعدها.
28. محمد الصالح الجابري ،المرجع نفسه، ص51.
29. صدرت في فيفري 1919 باللغة الفرنسية من طرف الصادق دندان صاحب جريدة "الإسلام" سابقا والحاج عمار مدير "الراشدي" والأمير خالد،وكان الهدف هو توحيد القوى الوطنية في سبيل الدفاع عن الحقوق السياسية والاقتصادية لمسلمي شمال إفريقيا، انظر محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية من 1847-1939،الشركة الوطنية للكتاب ، 1980 ، ع ص 46-48.
30. محمد العربي الزبيري، المرجع السابق ص59.
31. صدرت هذه الجريدة في 1925 وهي غير مجلة الجزائر الصادرة في 1908 لصاحبها عمر راسم، وكانت جريدة الجزائر جريدة سياسية أدبية دينية أخلاقية اجتماعية، انظر محمد ناصر، مرجع سابق، ص55-65.
32. محمد ناصر، مرجع سابق، ص55؛ أنظر أيضا محمد العربي الزبيري، مرجع سابق، ص60.
33. المنتقد 1925 جريدة سياسية تهذيبية انتقاديه تصدرها نخبة من الشبيبة الجزائري1925، صدرت في شكل كتاب قدم لها وصححها عبد الهادي قطش، دار الهدى، عين مليلة، 2005، ص89.
34. "في الموقف الحاضر" ، الشهاب ج9 ، م9 1933
35. محمد الصالح الجابري.مرجع سابق ص 189 ،306،انظر أيضا الزبيري ص61
36. محمد العربي الزبيري.مرجع سابق ص63
37. محمد ناصر،المرجع السابق ص83
38. محمد العربي الزبيري ،المرجع السابق ، ص66
39. محمد صالح ناصر ، مرجع سابق ص218
40. Achouer,Cheurfi, op.cit., pp 818-819.
41. انظر الصفحة الأولى من إعداد جريدة المغرب العربي
42. محمد السعيد الزاهري، "فاتحة"، **المغرب العربي**، عدد 1، السنة 1، ص1.
43. بعد الحرب العالية الثانية بعث من جديد النضال المغاربي الموحد وتجسد ذلك في تكوين مكتب المغرب العربي بالقاهرة في 1946 ثم مكتب المغرب العربي في 1947 ، وبعده لجنة تحرير المغرب العربي في 1948
44. محمد بلقاسم،**الاتجاه الوحدوي في المغرب العربي 1910/1328-1954/1373**،رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر، 1994، ص13ومابعدها؛ .
45. تأسست في 18 فيفري 1944 بالقاهرة وكان من بين مؤسسيا الشيخ محمد الخضر حسين والشيخ الفضيل الورثلاني؛ لمزيد من المعلومات أنظر: الفضيل الورثلاني، **الجزائر الثائرة** .دار الهدى الجزائرط3 1992ص309.
46. حول الاتجاه الوحدوي للحركة الوطنية انظر محمد بلقاسم المرجع السابق ج2 ص 340 ومابعدها

47. أبو القاسم سعد الله، **الحركة الوطنية الجزائرية**، ج3، ط 4، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1992، ص143ومابعدها، أنظر أيضا محمد بلقاسم، مرجع سابق، ص282 ومابعدها.
48. Ben Youssef Ben, Khadda .op ,cit. pp 201 ,202
49. محمد بلقاسم ، المرجع السابق ، ص340
50. محمد صالح ناصر ، المرجع السابق ،ص261
51. صدرت هذه الجريدة في ماي 1930، وهي أسبوعية كانت تصدر بالجزائر العاصمة ورغم أنها كانت تعتبر من الصحف الإصلاحية إلا أنها اهتمت بالجوانب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.
52. كان يديرها الشيخ حمزة بكوشه، وكانت خطة الجريدة إصلاحية وطنية تقاوم الفساد الإداري والاجتماعي، توقفت الجريدة في نفس عام صدورها أي في 1937؛ انظر محمد ناصر، مرجع سابق، ص ص93-207.
53. ابو القاسم سعد الله ، **الحركة الوطنية الجزائرية**، ج2، ، ط 4، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1992ص 372 وبعدها.
54. محمد الصالح الجابري، مرجع سابق، ص 307، أيضا محمد صالح ناصر، مرجع سابق، ص46 ومابعدها.
55. محمدالسعيد الزاهري، "نحن أمة واحدة في هذا المغرب العربي"، المغرب العربي، عدد35، السنة 2، ص ص1 -2.
56. ،صدر اول عدد في 13 ماي 1947 كان آخر عدد توصلنا إليه هو العدد رقم 43 المواقف ل 1949/03/12.
57. كانت تصدر الجريدة عن مطبعة الجزائر الجمهورية، 9 نهد ككلين الجزائر العاصمة.
58. "رسالة طرابلس"، المغرب العربي، عدد 12، السنة1، ص3.
59. انظر الصفحة الأولى من أعداد جريدة المغرب العربي.
60. "منطق الأحداث"، جريدة المغرب العربي، عدد 6، السنة 1 ،ص2.
61. انظر المغرب العربي ،الأعداد 5-7-9-12-22-26-33
62. انظر المغرب العربي،الأعداد.2- 4- 5- 7
63. انظر المغرب العربي الأعداد. 8 - 10 -.16 -.22 .
64.) انظر المغرب العربي الا عدد7 -،12 -،14-، 15-، 24 -،35
65. انظر محمد صالح ناصر، مرجع سابق، ط 2ص263.
66. رغم أن جريدة المغرب العربي كانت تتناول الجوانب الاجتماعية والثقافية إلا أن ذلك كان قليلا إذ ما قرن بالجانب السياسي ،حيث كانت تتبع تطورات السياسية للحركة الوطنية وخاصة حركة الانتصار ،
67. المغرب العربي انظر الأعداد9، 21 ، 35
68. المغرب العربي، العدد 12، السنة 1، ص1.
69. انظر المغرب العربي (
70. انظر المغرب العربي ، الأعداد 9، 12،15 ،20، 35
71. انظر المغرب العربي، أعداد 10 ، 38 ،
72. Zahir.Ihddane ,**Histoire de la presse indigène , des origines jusqu'en 1930**.ENAL.ALGER.1983.PP 18,19
73. المغرب العربي، عدد 1، السنة 1، (1947/06/13) ،ص1.
74. - انظر جريدة المغرب العربي ، أعداد ،8 ، 10 ،
75. محمد صالح ناصر ، مرجع سابق، ص 263.
76. محمد ناصر، مرجع سابق، ص10.
77. مثل جريدة الحق 1883، والحق الوهراني 1893، والفاروق 1915، وذو الفقار 1913؛ المزيد من المعلومات أنظر محمد ناصر ، المرجع السابق ، ص13-14.
78. حدث هذا عدة مرات خاصة أثناء الانتخابات مثل انتخابات افريل1948 حيث غابت الجريدة مدة أربعة أشهر عن الصدور .
79. المغرب العربي، عدد 1 ،سنة 1 (1947/06/13) ،ص1.
80. "تحت السياط نغني " ، المغرب العربي، عدد 7 ، السنة 1 (1947/09/5) ،ص1.

81. "عودة جريدة المغرب العربي" ،المغرب العربي، عدد 25 ،السنة 1 (1947/07/7) ، ص1.
82. "عودة جريدة المغرب العربي" ،المغرب العربي، عدد 25 ،السنة 1 (1947/07/7) ، ص1
83. "توزيع الورقعلى الصحف" المغرب العربي، عدد 5، السنة 1 (1947/07/29) ، ص3.
84. "توزيع الورقعلى الصحف" المغرب العربي، عدد 5، السنة 1 (1947/07/29) ، ص3.
85. "اعتداء آخر على المغرب العربي" المغرب العربي، عدد 11 ،السنة 1 ، (1947/10/17) ، ص2.
86. المغرب العربي، عدد 22، السنة 1 (1948/02/27)،ص1.
87. "سياسية القمع الاستعمارية" المغرب العربي، عدد 22، السنة 1 (1948/02/27)، ص1-3.
88. " في دائرة البيان " المغرب العربي، عدد 22، السنة 1 (1948/02/27)، ص3.
89. "خلال الديار " المغرب العربي، عدد 24 ،ص2.
90. "تحت السياط نغني « المغرب العربي، عدد 7،، ص1.
91. المغرب العربي، عدد 21، ص2.
92. المغرب العربي، عدد 22، سياسة القمع الاستعمارية، ص1-3.
93. Ben Youssef Ben Khadda ,Op,cit p201
94. المغرب العربي، عدد 25، عودة جريدة المغرب العربي، ص1.

مؤتمر الصومام 20اوت1956 من خلال التقارير الفرنسية

أ.د.بوبكر حفظ الله

جامعة تبسة

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

Résumé:
Les rapports du Congrès de la SOUMAM 20 Août 1956, inclus le nombre de recrues et des armes dans la troisième, quatrième et la sixième région, le nombre de militants du Front de Libération Nationale (FLN) et l'argent appartenu au Commandement de la Révolution, ainsi que la formation du Conseil national de la Révolution et le Comité de coordination. Il y avait de nettes différences entre les rapports présentés par la direction de la révolution et les rapports français à l'égard du recensement de l'Armée de libération, son armement, ainsi que l'argent collecté. Ce congrès a connu, également, l'émergence de nouvelles institutions, de la révolution comme: le C.N.R.A et le Comité de Coordination et de l'Exécution (CCE).
Durant le mois d'Août 1957, une réunion a eu lieu au Caire où a émergé d'importants résultats dont les plus essentiels sont: la restructuration du Conseil national de la Révolution, et le Comité de coordination et de l'Exécution, ainsi que de réexaminer la priorité de l'intérieur par rapport à l'extérieur et de la politique par rapport au militaire; et tenter de surmonter les différences qui ont eu lieu depuis 1956 entre certains dirigeants de la révolution algérienne

مقدمة:

يعد مؤتمر الصومام 20أوت 1956 نقطة تحول في تاريخ الثورة الجزائرية وبالرغم من عدم حضور المنطقة الاولى ووفد الخارج أشغال المؤتمر الا أن قادة الثورة حاولوا من خلال هذا الاجتماع التاريخي وضع قواعد واسس تنظيمية في الجانب السياسي والعسكري ساهمت الى حد كبير في زيادة العمل الثوري الذي افشل الاستراتيجية الفرنسية الرامية للقضاء على الثورة والسؤال الذي يطرح ماهي المسائل الجوهرية التى تم عرضها اثناء انعقاد مؤتمر الصومام والتطورات التي طرأت بعد ذلك فيما يتعلق بمؤسسات الثورة

اعتمادا على الوثائق التى تمكنت السلطات الفرنسية الحصول عليها يوم 1956/11/21م في بني وقاق والتى كانت بحوزة ميرة عبد الرحمان قائد المنطقة الثالثة من الولاية الثالثة نجد ان تقرير الصومام تضمن مايلي: [1]

عدد المجندين والاسلحة بالمنطقة الثالثة والرابعة والسادسة بتاريخ 20 أوت 1956م.

عدد المناضلين في جبهة التحرير.

الأموال التي تم جمعها في هذه الولايات.

تشكيل المجلس الوطني للثورة ولجنة التنسيق والتنفيذ.

1.عدد المجندين وتسليح جيش التحرير:

حسب الوثيقة التي تمت مصادرتها من طرف القوّات الفرنسية فإنّ محضر الصومام خلص إلى التقرير الآتي [2].

*المنطقة الثانية: قدّم تقرير المنطقة إلى المؤتمرين زيغود يوسف مكتوبًا، والذي أشار إلى نقص المناضلين في جبهة التحرير الوطني، وقدّم إحصاء حول التسليح والتموين.

*المنطقة الثالثة: قدّم تقرير المنطقة كريم بلقاسم الذي أشار إلى كيفية تقسيم المنطقة، والتي تضم القبائل السفلى والعليا والصغرى، وهذه النواحي الثلاث مقسّمة إلى عشر مناطق، وهذه الأخيرة بدورها مقسّمة إلى ثلاثين قطاع، وكان عدد المجندين في أوّل نوفمبر 1954م حوالي 450 مجاهدا وفي الخزينة 100 ألف فرنك فرنسي قديم، وفي 20 أوت 1956م بلغ العدد الإجمالي للمجندين بالمنطقة 3100 مجاهد، و7470 مسبّل، و87044 مناضل في جبهة التحرير الوطني[3].

وحدات جيش التحرير: الفوج تحت قيادة عريف، ويتكون من 10 إلى 20 مجاهد.

ثلاثة أفواج يشكلون فصيلة يحكمها مساعد

– حدود المنطقة الثالثة: جيجل، سطيف، برج بوعريريج، مسيلة، أومال، عين بسّام، باليسترو (الأخضرية)، البحر الأبيض المتوسط، مينارفيل.

– التسليح: تمتلك المنطقة الثالثة 404 بندقية حربية، 105 مدفع رشاش، 06 بنادق رشاشة، و04 بنادق *FM* و29 بندقية *PM*، و4425 بندقية صيد.

– الأموال:يوجد في خزينة المنطقة 445 فرنك قديم علمًا أنّ خزينة المنطقة في أوّل نوفمبر كانت تحتوي على 100 ألف فرنك فرنسي قديم، وكان معدل الدخل الشهري للخزينة سنة 1956م 110 مليون فرنك فرنسي ومعدّل المصاريف الشهرية 55 مليون فرنك فرنسي قديم والاحتياطي 55 مليون فرنك فرنسي قديم.

– الحالة النفسية للمجاهدين وللشعب: كانت الحالة النفسية للمجاهدين جيدة، وكان نقص السلاح هو العائق بالنسبة لهم، أمّا بالنسبة للشعب فهو متضامن ومدعم للثورة ومستعد للتضحية.

* المنطقة الرابعة: قدّم تقرير المنطقة عمر أو عمران، واكد ان عدد المجاهدين في أوّل نوفمبر 1954م يقدّر بـ 50 مجاهد، وفي سنة 1956 أصبح تعداد المجاهدين 1000 مجاهد، و40 ألف مناضل في جبهة التحرير الوطني، و2000 مسبّل[4].

وكانت معظم العناصر المشكلة لجيش التحرير بهذه المنطقة من المدية، البرواقية، ثنية الحد، مليانة، تنس.

– التسليح: كانت المنطقة تمتلك 5 بنادق *FM* و200 بندقية حربية و80 بندقية رشاشة و500 مسدس و1500 بندقية صيد.

– الأموال: في سنة 1956م كان بخزينة المنطقة 200 مليون فرنك فرنسي قديم.

* المنطقة الخامسة: قدم تقرير المنطقة العربي بن مهيدي الذي غادر المنطقة يوم 01 ماي 1956م.

– حدود المنطقة: وهران و تحتوي على ست نواحي هي مغنية نمور، وهران، مستغانم، معسكر حتى الجنوب، كلومب بشّار[5].

كان عدد جنود جيش التحرير في أوّل نوفمبر 1954م 60 مجاهدا وفي أكتوبر 1955م، أصبح عدد جنود جيش التحرير بالمنطقة 500 مجاهد و500 مسبل، وفي 01 ماي 1956م ارتفع عدد جنود جيش التحرير إلى 1500 مجاهد، و1000 مسبل.

– السلاح: في أوّل ماي 1956م كانت المنطقة تمتلك 50 بندقية رشاشة و165 رشاش و1400 بندقية حربية و100 مسدس و100 بندقية صيد.

– الأموال: في أوّل نوفمبر 1954م كان بخزينة المنطقة 80 ألف فرنك فرنسي قديم و في أوّل ماي 1956م كان بخزينة المنطقة 33 مليون فرنك فرنسي قديم، منها 25 مليون فرنك فرنسي قديم خارج المنطقة بمنطقة الريف المغربي.

– الحالة النفسية للمجاهدين والشعب: بالنسبة للمجاهدين كانت حالتهم جيدة، والعلاقات بين جيش التحرير وجبهة التحرير والشعب كانت جيدة.

* المنطقة السادسة: قدّم تقرير شفوي من طرف عمر أو عمران نيابةً عن سي الشريف، و استحدثت هذه المنطقة سنة 1956م وتضم أومال، سيدي عيسى، عين بوسيف، شلالة والجلفة، الأغواط، المزاب، وأقصى جنوب منطقة الجزائر.

كان عدد جنود جيش التحرير بالمنطقة سنة 1956م 200 مجاهد و100 مسبل و5000 مناضل في جبهة التحرير.

– التسليح: تمتلك المنطقة السادسة 100 بندقية حربية وبندقية *FM* و10 بنادق رشاشة و50 مسدس و100 بندقية صيد.

– الأموال: كان بخزينة المنطقة 10 مليون فرنك فرنسي قديم تم ضمّها لخزينة المنطقة الرابعة[6].

2.هياكل التسيير:

ا– المجلس الوطني للثورة الجزائرية: يتكون هذا المجلس من 34 عضو 17 دائم و17 مؤقت ويتم عقد اجتماع مجلس الثورة بطلب من لجنة التنسيق والتنفيذ أو بطلب من نصف أعضائه، ومداولات المجلس لا تصبح سارية المفعول إلاّ بعد توقيع إثنا عشر عضو دائم أو مؤقت ويعقد اجتماع المجلس مرّةً كلّ سنة [7].

–الاعضاء الدائمون: مصطفى بن بولعيد/زيروت يوسف/كريم بلقاسم/عمر اوعمران/محمد العربي بن مهيدي/رابح بيطاط/عبان رمضان/بن يوسف بن خدة/عيسات ايدير/بوضياف محمد/حسين آيت احمد/محمد خيذر/احمد بن بلة/لمين محمد/عباس فرحات/توفيق المدني/محمد يزيد

–الاعضاء المؤقتون:

النائب السابق لمصطفى بن بولعيد/لخضر بن طوبال/محمدي السعيد/دهيلس سليمان/بوصوف عبد الحفيظ/ملاح غلي/بن يحي/محمد بجاوي/مالك/دحلس سعد/الاتحاد العام للعمال الجزائريين/اتحاد الطلبة الجزائريين/الوانشي صالح/الطيب الثعالبي/عبد الحميد مهري/احمد فرنسيس/سي ابراهيم

– لجنة التنسيق والتنفيذ: تتكون من يوسف بن خدة وعبّان رمضان و محمد العربي بن مهيدي وكريم بلقاسم وسعد دحلب، وإذا كان هذا الأخير مازال في السجن يعوض بمالك.

3– تحليل تعداد جيش التحرير وتسليحه:

حسب التقارير الفرنسية كانت امكانات جيش التحرير بتاريخ 15 أوت 1956م كالآتي:

حسب تقرير مؤتمر الصومام فإنّ تعداد جيش التحريرفي ثلاث ولايات كان 4300 جندي، أمّا التقرير الفرنسي فيشير إلى ان العدد يتراوح ما بين 3200 و4000 جندي.

– المسبّلون: يشيرتقرير الثورة في مؤتمر الصومام إلى ان عدد المسبلين هو 9570 مسبّل، بينما التقارير الفرنسية تشير إلى 6000 آلاف مسبّل[8].

– السلاح: التقارير الفرنسية تشير إلى أنّ الأسلحة المتطورة لجيش التحرير كانت 25 بندقيةFM و500 بندقية PM و1300 بندقية حربية و6000 بندقية صيد، أمّا تقرير مؤتمر الصومام يشير إلى أنّ سلاح جيش التحرير يتمثل في 14 بندقية FM و196 بندقية PM و704 بندقية حربية و6025 بندقية صيد.

من خلال هذه المعطيات نلاحظ اختلافات واضحة بين تقارير الثورة وتقرير السلطات الفرنسية فيما يتعلق بعدد المجندين في جيش التحرير وفي عدد المسبلن والمناضلين، وتفسر المصادر الفرنسية ان الاختلاف يعود الى ان المعلومات التي أستندت عليها السلطات الفرنسية في كتابة التقرير كانت ما بين 15 جوان و15 جويلية 1956م أي قبل شهر من انعقاد مؤتمر الصومام.

ويمكن أن نقارن هنا بين تقارير الثورة والتقارير الفرنسية حول عدد المجندين والسلاح.

– الولاية الثالثة: بالنسبة للولاية الثالثة تشيرالتقارير الفرنسية إلى أنّ عدد جنود جيش التحرير يتراوح ما بين 3000 و3500 جندي والمسبلين 3500 مسبّل يمتلكون 10 بنادق FM و400 بندقية PM و1000 بندقية حربية و4000 بندقية صي [9] د.

وفي المقابل يشير تقرير الثورة في مؤتمر الصومام إلى أنّ عدد جنود جيش التحرير كان 3100 مجاهد والمسبلين 7470 مسبل يمتلكون 08 بنادق FM و106 بندقية PM، و404 بندقية حربية و4425 بندقية صيد.

– الولاية الرابعة: حسب التقارير الفرنسية كان عدد جنود جيش التحرير ما بين 1400 و1500 جندي وعدد المسبلين 2000 مسبل يمتلكون 09 بنادق FM و200 بندقية PM و400 بندقية حربية و1000 بندقية صيد.

أمّا تقارير الثورة تشير إلى أنّ عدد جنود جيش التحرير يقدر بـ 1000 مجاهد والمسبلين 1500 مسبل يمتلكون 05 بنادق FM و80 بندقية PM و200 بندقية حربية و1500 بندقية صيد[10].

– الولاية السادسة: تشير التقارير الفرنسية إلى أنّ عدد جنود جيش التحرير كان ما بين 200 و500 جندي والمسبلين 1000 مسبل يمتلكون بندقية FM و30 بندقية PM و60 بندقية حربية و1000 بندقية صيد[11].

وتشير تقارير الثورة إلى أنّ عدد جنود جيش التحرير كان 200 مجاهدًا والمسبلين 100 مسبل يمتلكون بندقية FM و10 بنادق PM و100 بندقية حربية و100 بندقية صيد.

ومن خلال المقارنة تبدو أنّ المعطيات متقاربة من حيث تعداد جيش التحرير والتسليح اذ كان التعداد الإجمالي لجنود جيش التحرير في ثلاث ولايات 13870مجاهد يمتلكون 6939 قطعة سلاح بمعدّل قطعة سلاح لكل جنديين خاصةً الولاية الثالثة والرابعة.

بالنسبة للولاية الخامسة حسب التقارير الفرنسية في تاريخ 17 ماي 1956م كان عدد جنود جيش التحرير 2500 جندي يمتلكون 2700 قطعة سلاح وهذا ما يؤكد أنّ تسليح الولاية كان جيدًا بحكم عدّة معطيات لاسيما منها الجغرافية التي ساعدت على تهريب السلاح.

حسب التقارير الفرنسية فإنّه لا توجد فوارق كبيرة من حيث عدد المجندين والسلاح فيما يتعلق بالولاية الأولى والثانية وكان تسليح هاتين الولايتين جيدا بحكم الدور الذي لعبته الحدود الشرقية في مجال تهريب السلاح خاصة عبر

الولاية الاولى بينما كانت كل من الولاية الثالثة والرابعة والسادسة تعاني من نقص التموين بالسلاح حسب التقارير الفرنسية وكانت الولاية الاولى والخامسة الأوفر حظًا من حيث التسليح.

4. مناضلو جبهة التحرير:

حسب الوثائق الفرنسية فإنّ عدد مناضلي جبهة التحرير قبل انعقاد مؤتمر الصومام كان كالآتي:

الولاية الثالثة كان عدد المناضلين بالولاية 87044 مناضل.

الولاية الرابعة كان عدد المناضلين بالولاية 40000 مناضل.

الولاية السادسة كان عدد المناضلين بالولاية 5000 مناضل.

كانالعدد الإجمالي تقريبًا 132000 مناضل وفي أوت 1956م فإنّ عدد مناضلي الولاية الرابعة والسادسة تضاعف بسبب توسع الولاية الثالثة إلى الغرب ليصل العدد الإجمالي إلى 200000 مناضل وهؤلاء المناضلين لم يكونوا مسلحين وكان عدد الأشخاص القادرين على حمل السلاح في الولاية الرابعة والذين تتراوح أعمارهم ما بين 15 و50 سنة يصل إلى 670000 شخص [12].

وفي ناحية بوجي كان عدد القادرين على حمل السلاح 160000 شخص وكان العدد الإجمالي ما بين الولاية الثالثة والرابعة والسادسة يصل إلى 850000 رجل بين 15 و50 سنة، وكان عدد مناضلي جبهة التحرير يشكلون نسبة 25 % من العدد الإجمالي للأشخاص القادرين على حمل السلاح. وفي نظر التقارير الفرنسية فإنّ تقرير مؤتمر الصومام حول تعداد جيش التحرير وتسليحه كان مبالغ فيه وكان لمناضلي جيش التحرير الدور البارز والأساسي في الثورة [13].

.الجانب المالي:

كانت الأموال الموجودة بخزينة الثورة معتبرة لاسيما الموجودة بالولاية الثالثة وكانت العائدات المالية تقدرب110 مليون فرنك فرنسي قديم شهريًا وكانت عائدات الولاية الخامسة قريبة من هذا المعدّل، وكان العربي بن مهيدي حسب التقارير الفرنسية متكتمًا على ميزانية الولاية.

5. قراءة في المجلس الوطني للثورة ولجنة التنسيق والتنفيذ:

حسب التقارير الفرنسية وتقارير الثورة نجد اختلافًا طفيفا في اسماء اعضاء مجلس الثورة

– الاعضاء الدائمون: بالنسبة للعضو رقم 09 يشيرالتقرير الفرنسي الى عيسات إيدير والإسكندرو التقرير الجزائري يشير إلى عيسات إيدير فقط ويضيف التقرير الفرنسي اسم الإسكندر.

– الاعضاء المؤقتون: بالنسبة للعضو رقم 08 يشير تقرير الصومام إلى بجاوي محمد، أمّا التقرير الفرنسي يقول مراد وبجاوي محمد وسي الشريف. ويذكرالتقرير الجزائري بالنسبة للعضو رقم 09 اسم مالك التقريرالفرنسي يذكر اسم ميشال ومالك والعضو رقم 10 يذكر التقرير الجزائري اسم دحلس سعد ويذكر التقريرالفرنس اسم السعيد ودحلس سعد،وبانسبة للعضو رقم 11 يشير التقرير الجزائري إلى الاتحاد العام للعمال الجزائريين *U.G.T.A* والتقرير الفرنسي يذكر محساس وممثل عن الاتحاد، والعضورقم 12 يشيرالتقرير الجزائري الاتحاد العام للعمال الجزائريين *U.G.T.A* والتقرير الفرنسي يذكر *JESUS* وممثل عن الاتحاد *U.G.T.A* و بالنسبة للعضورقم 13 يذكر التقرير الجزائري اسم الوانشي صالح والتقرير الفرنسي يشير إلى جون *JEAN* والوانشي صالح.

– لجنة التنسيق والتنفيذ: يمكن أن يكون اسم السعيد دحلس الوارد في التقارير الفرنسية هو نفسه دحلب حسب الطرح الفرنسي.

وضعية الأعضاء الحاليين في المجلس ولجنة التنسيق:

أ/ الاعضاء الدائمون :

1- مصطفى بن بولعيد: استشهد قبل انعقاد مؤتمر الصومام، والسؤال المطروح لماذا ورد اسمه؟.

2- زيغود يوسف: استشهد بعد انعقاد مؤتمر الصومام.

المعتقلون: رابح بيطاط، محمد بوضياف، آيت أحمد حسين، خيضر محمد، احمد بن بلة.

في الداخل:

3- كريم بلقاسم الولاية الرابعة.

4- عمر أوعمران الولاية الرابعة.

5- محمد العربي بن مهيدي (في المغرب).

7- عبان رمضان منطقة الجزائر.

8- بن يوسف بن خدة منطقة الجزائر.

14- لمين محمد في القاهرة.

16- توفيق المدني

17- يزيد محمد بدلاً عن آيت أحمد في مهمة بأمريكا الجنوبية ومن المحتمل تنقله إلى نيويورك لحضور دورة الأمم المتحدة.

15- عباس فرحات.

وضعية غير معروفة

9- عيسات إيدير.

ب/ الاعضاء المؤقتون:

1- نائب بن بولعيد.

2- بن طوبال لخضر (الولاية الثانية).

3- محمدي السعيد (الولاية الثالثة).

4- دهيلس سليمان (الولاية الرابعة).

5- علي ملاح (الولاية السادسة) [14].

– مهمة في أمريكا الجنوبية والأمم المتحدة رقم 16 فرنسيس أحمد.

– مكتب جبهة التحرير في دمشق عبد الحميد مهري رقم 15.

– مكتب جبهة التحرير بتونس أحمد محساس رقم 11.

– ممثل جبهة التحرير في المغرب الثعالبي الطيب رقم 14.

وضعيات غير معروفة:

5- بوالصوف عبد الحفيظ.

7- بن يحي.

8- بجاوي محمد ربما يكون سي الشريف حسب وجهةالنظر الفرنسية الولاية السادسة.

مراد يمكن أن يكون بن عودة عمار المدعو (سي عمار) والمدعو الرائد مراد الولاية الثانية.

9- مالك (أو ماليك) ميشال.

10- دحلس سعد او دحلب السعيد.

13- الوانشي صالح جون *JEAN* هو ممثل جبهة التحرير في باريس .

17- سي إبراهيم.

التعديلات التي طرأت على مؤسسات الثورة بعد مؤتمر الصومام

.مؤتمر القاهرة 20 إلى 28 أوت 1957م

إعادة هيكلة المجلس الوطني للثورة ولجنة التنسيق والتنفيذ مؤتمر القاهرة 20 إلى 28 أوت 1957م

اجتمع المجلس الوطني للثورة في القاهرة ما بين 20 و28 أوت 1957م بحضور الأعضاء الآتية أسمائهم:

عبّان رمضان: عضو لجنة التنسيق والتنفيذ.

كريم بلقاسم: عضو لجنة التنسيق والتنفيذ.

بن خدة بن يوسف: عضو لجنة التنسيق والتنفيذ.

سعد دحلب: عضو لجنة التنسيق والتنفيذ.

لمين دباغين: رئيس مندوبية الخارج.

عمر أوعمران: مندوب عسكري في الخارج.

الشريف محمود: قائد الولاية الأولى.

بن طوبال لخضر: قائد الولاية الثانية.

دهيلس سليمان: قائد الولاية الرابعة.

بوالصوف عبد الحفيظ: قائد الولاية الخامسة.

العسكري عمّار: قائد ولاية سوڤ أهراس.

لعموري: الولاية الأولى.

بومدين: الولاية الخامسة.

عمار بن عودة: تنظيم جبهة التحرير في تونس.

مزهودي إبراهيم: تنظيم جبهة التحرير في تونس.

فرحات عباس: مندوب سياسي بالخارج.

فرنسيس أحمد: مندوب سياسي بالخارج.

ثعالبي الطيب: مندوب سياسي بالخارج.

توفيق المدني: مندوب سياسي بالخارج.

يزيد محمد: مندوب سياسي بالخارج.[15]

مهري عبد الحميد: مندوب سياسي بالخارج.

واعتمادًا على أسماء الحاضرين ومقارنة بتشكيلة المجلس الوطني للثورة التي انبثقت عن مؤتمر الصومام 20 أوت 1956م فإنّ هناك العديد من الأسماء كانت غائبة في مؤتمر القاهرة، ومن هؤلاء الغائبين:

بيطاط رابح، عيسات إيدير، محمد بوضياف، آيت أحمد حسين، محمد خيضر، أحمد بن بلة وهؤلاء ينتمون إلى الأعضاء الرسميين.

محمد بجاوي، دوم أحمد، صالح الونشي (المؤقتون)

ملاح على المدعو سي الشريف (عضو مؤقت) قائد الولاية السادسة استشهد.

– محمدي السعيد المدعو ناصر، ومحساس وڤايد مولود المدعو رشيد عبد العزيز لم تكن لهم تعيينات ولم يلتقي الأعضاء المجتمعين في مؤتمر القاهرة بهؤلاء الأشخاص.

ومن جهة أخرى فإنّ الأعضاء الجدد في الجهاز تموقعوا بسهولة ونذكر محمود الشريف (العضو دائم) ولعموري (العضو المؤقت) عن الولاية الأولى، وبومدين (العضو المؤقت) الولاية الخامسة وبوالصوف عبد الحفيظ (العضو الدائم) الولاية الخامسة، وعمار العسكري ولاية سوڤ أهراس. ولم يكن عميروش من الأعضاء الحاضرين، ولم يذكر في قيادة الولاية الثالثة، وكذلك الاتحاد العام للعمال الجزائريين الذي لم يكن من الحاضرين.

نتائج مؤتمر القاهرة:

كانت نتائج المؤتمر منصبة على المسائل الأساسية للثورة وتنظيم الداخل، وقد خرج المؤتمر بقرارات سياسية وعسكرية هامّة منها:

1– بالنسبة للمجلس الوطني للثورة ولجنة التنسيق والتنفيذ:

– توسيع تشكيلة المجلس الوطني للثورة؛ حيث أصبح عدد الأعضاء 54 عضو دائم منذ انعقاد مؤتمر القاهرة، وكان من المقرر أن تعين لجنة التنسيق والتنفيذ 20 عضوًا جديد في المجلس الوطني للثورة.

– يكونوا معروفين بانتمائهم المسبق المجلس الوطني للثورة، أي 22 الذين حضروا مؤتمر القاهرة.

– تضم أيضًا التسعة أعضاء القدامى للمجلس الوطني للثورة المسجونين وهم: بيطاط رابح– عيسات إيدير– بوضياف محمد– آيت أحمد حسين– محمد خيضر– أحمد بن بلى– محمد لبجاوي– دوم أحمد– الوانشي صالح.

– كما تضم أيضًا الثلاث أعضاء الغائبين عن مؤتمر القاهرة محمدي السعيد، ومحساس أحمد، وڤايد مولود، أي بمجموع أربعة وثلاثين عضوًا.

يبقى إذًا 20 عضوًا سيتم تعيينهم من ضمن هؤلاء، ومن المحتمل أن يكونوا عميروش وبعض القادة العسكريين للجان الولايات أو قادة المناطق والقادة قاسي وإيدير مولود وواحد أو اثنان من ممثلي فيدرالية جبهة التحرير في فرنسا مثل عباس تركي والاتحاد العام (U.G.C.A) وممثل إضافي عن الاتحاد العام للعمال الجزائريين [16].

أصبحت لجنة التنسيق والتنفيذ مشكلة من تسعة أعضاء دائمين وهم:

عبان رمضان عضو سابق في اللجنة وكريم بلقاسم عضو سابق، ولمين دباغين رئيس مندوبية الخارج وعضو سابق عمر أو عمران مندوب عسكري بالخارج عضو سابق، لخضر بن طوبال القائد السابق للولاية الثانية، وبوالصوف عبد الحفيظ القائد السابق للولاية الخامسة.

بالإضافة إلى الأعضاء السابقين المعروفين كالشريف محمود القائد السابق للولاية الأولى الذي تربطه علاقة جيدة بعباس فرحات ومع أعضاء جمعية العلماء وفرحات عباس، وكذلك عبد الحميد مهري مندوب جبهة التحرير الوطني بسوريا.

ومن أجل التذكير: أحمد بن بلة، خيذر محمد، آيت أحمد حسين، رابح بيطاط أعضاء شرفيين.

2- إعلان التضامن مع الأعضاء الغائبين القدامى المسجونين والموجودين ضمن القائمة الشرفية للجنة التنسيق والتنفيذ وكذلك المجلس الوطني للثورة.

3- البحث عن المصالحة من أجل وضع نهاية للصراع بين قدماء قادة الثورة حتى 1956م (وكان الصراع المعني أساسًا هو القائم بين عبان رمضان وأحمد بن بلة).

4- في إطار مخطط المنافسة الشخصية، فإنّه لا توجد أولوية للسياسي علي العسكري وللداخل على الخارج [17].

5- وفي إطار مخطط النظام المستقبلي للجزائر فإنّ الهدف هو إقامة جمهورية جزائرية ديمقراطية شعبية دون أن ننسى المبادئ الأساسية للدين الإسلامي.

6- بالنسبة للمبدأ الذي من خلاله تموقعت لجنة التنسيق والتنفيذ في الداخل لم يعد مطروحًا.

7- تم إبعاد كل من بن خدة بن يوسف، وسعد دحلب من لجنة التنسيق والتنفيذ لأسباب مجهولة.

8- إنّ التوافق بين السياسي والعسكري والداخل والخارجي من شأنه خدمة النشاط الثوري في الداخل، والذي يساهم في نجاح مهمّة لجنة التنسيق والتنفيذ.

وهذا الاتفاق من شأنه دحض الأفكار السابقة القائلة بأنّ الثورة لا يمكن أن تسير إلاّ بقاعدة أولوية الداخل على الخارج .

9- كما فقد تكتل القبائل في لجنة التنسيق والتنفيذ سيطرته على اللجنة بعد هيكلتها، وهذا لا ينفي أنّ بعض العناصر مازالت لها كلمتها في اللجنة مثل عبّان رمضان خصوصًا بحكم أنّ المجلس الوطني للثورة قد اجتمع في القاهرة وليس في تونس أو في المغرب الأقصى فإنّ ذلك يعني أنّ الثورة لازالت تخضع للمؤتمرات المصرية حسب وجهة النظر الفرنسية، كما أنّ تعيين السيد عبد الحميد مهري الممثل السابق لجبهة التحرير الوطني في دمشق في لجنة التنسيق والتنفيذ يدعم الموقف السوري كحليف للثورة الجزائرية[18].

كما أنّ التعديل في قيادة جبهة التحرير لا يعني التغير في التوجه ولكن هو دليل إسرار على المواصلة، والشكل الجديد الذي ظهر به المجلس الوطني للثورة ولجنة التنسيق والتنفيذ يبين من جهة عودة التوازن بين الأطراف التي كانت لمدة طويلة متصارعة ومن جهة أخرى يجسد الدعم المصري والسوري للثورة الجزائرية بالإضافة إلى الدعم المغاربي للقضية الجزائرية.

خاتمة: استطاع مؤتمر الصومام هيكلة الثورة الجزائرية حيث وضع اسس جديدة للقيادة السياسية والعسكرية ذلك من خلال المؤسسات الجديدة التي ظهرت كالمجلس الوطني للثورة ولجنة التنسيق والتنفيذ وكذلك التقسيمات العسكرية الجديدة وتنظيم جيش التحرير واستطاعت الثورة معالجة بعض الخلافات التى طرأت في مؤتمر الصومام من خلال مؤتمر القاهرة الذي حاول تقريب وجهات النظر واعادة هيكلة الثورة الجزائرية

الهوامش:

1- Organisation-effectifs et armement de l'ALN FR CAOM GGA 3R 33/34

2- ibid

3- Organisation-effectifs et armement de l'ALN op.cit

4- Organisation-effectifs et armement de l'ALN op.cit

5- Organisation-effectifs et armement de l'ALN op.cit

6- ibid

7- Organisation-effectifs et armement de l'ALN op.cit

8- Réorganisation du C.N.R.A et du C.C.E. – C.A.O.M

9- Organisation-effectifs et armement de l'ALN op.cit

10- Organisation-effectifs et armement de l'ALN

11- ibid

12- Réorganisation du C.N.R.A et du C.C.E. – C.A.O.M

13- Organisation-effectifs et armement de l'ALN op.cit

14- Organisation-effectifs et armement de l'ALN op.cit

وسط الحفظ بالمتحف الوطني للأثار بسطيف

أ. التجاني مياطة

جامعة الشهيد حمة لخضر– الوادي

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

abstract

The importance of conservation and protection within our museums of topics and issues important to preserve the historical and cultural heritage from extinction and damage, and in this regard was the subject of our study which deals with the National Museum of Antiquities Setif An Empirical Study of the central conservation.

The seriousness of the subject lies in highlighting the negative and positive aspects, views, storage and conservation center of the current museum and the means and methods used to maintain the holdings of external influences, both human and biological also climatic.

The study includes the solutions and suggestions in order to provide a lasting climate to maintain the museum's holdings of all effects, in addition to providing the means for the prevention of all workers from the ravages and furniture appropriate in line with the functions of the display, storage and commensurate with the museum's holdings

مقدمة : إذا أردنا قراءة التاريخ المكتوب وغير المكتوب فما علينا إلا المحافظة على إرثنا الحضاري الذي تحتضنه متاحفنا ومواقعنا الأثرية، ومنها فالمؤسسة المتحفية تمثل البنك الحافظ والحاضن لهذا الإرث فهي تعمل على جمعه والحفاظ عليه.

وبالرغم مما تحتويه المتاحف الجزائرية من مقتنيات أثرية متنوعة ومتعددة ومختلفة المصادر والفترات التاريخية، فإنها تواجه صعوبات وتحديات في المحافظة على هذه المقتنيات انطلاقا من الوسط المناخي الذي يحيط بالتحف المعروضة أو المخزونة بالمتحف.

بالإضافة إلى طرق العرض والحفظ، وعدم التحكم في مستويات الحرارة والرطوبة والكائنات الحية والفطريات،وكل هذه أخطار تتسبب في تلف المقتنيات والمتحف الوطني للآثار بسطيف هو نموذج من المتاحف الوطنية الذي يعاني هو الآخر من المخاطر تحديات عوامل التلف في مجال حفظ وصيانة المقتنيات من عوامل التلف المختلفة ومحاولة معرفة العلاقة بين عمارة المتحف والأضرار التي يمكن أن تلحقها ،وإتمام النقائص الخاصة بوسط الحفظ.

وتكمن جدية الموضوع في إظهار مزايا وعيوب العمارة المتحفية من جوانبها سواء التقنية أو وضعية الحفظ الحالية بالمتحف وكيفية توجيه وتفعيل عمل هذه المؤسسة على الوجه الصحيح في إيجاد وسط حفظ ملائم تتوفر فيه شروط الحماية والصيانة.

يعاني متحف سطيف كغيره من المتاحف الجزائرية من مشاكل عويصة ناتجة عن عدة أسباب مختلفة مثل العمارة والمحيط والتأثيرات البشرية وغير البشرية :فما هي طرق وأساليب حفظ وحماية المجموعات الأثرية؟

يعتمد متحف سطيف على عدة مناهج في طريقتي عرض وتخزين التحف الأثرية وستحاول هذه الدراسة إبراز الطرق المعتمدة في ذلك بإيجابياتها وسلبياتها.

عانقت منطقة سطيف التاريخ مند القدم ويعود تأريخها إلى العصور الغابرة والحفريات التي أجريت بمناطق عدة كشفت على أدوات يعود تاريخها إلى العصر الحجري القديم الأسفل مثل منطقة عين الحنش التي تبعد عن منطقة سطيف بحوالي 32 كلم والتي وجدت بها حفريات تعود إلى 2 مليون سنة.1

أ – سطيف في العصر القديم:

كانت سطيف تسمى " أزديف " وهي كلمة بربرية تعني التربة السوداء أي بمعنى خصوبة التربة، وهي الاسم الأصلي للمنطقة وفي العهد الروماني أطلق عليها اسم ستيفيس. وكان يقطنها منذ آلاف السنين السكان الأصليون (الأمازيغ) والذين تنظموا في شكل قبائل اتحدت بعد القرن الثالث والثاني قبل الميلاد. فتأسست مملكتين هما مملكة مساسيلية يحكمها سيفاكس ومملكة مسيليا بقيادة ماسينيسا2، وكانت سطيف تابعة إلى مساسيلية.

وفي سنة 225 ق م تحالف سيفاكس مع قرطاجة بينما ماسينيسا بقي حليفا لروما، وبعد انهزام قرطاجة تحصل ماسينيسا على نوميديا جزاءا له وكانت منطقة سطيف جزءا تابعا لها، وبعد وفاة ماسينيسا اشتدت المنافسة بين أحفاده ومنهم يوغرطة الذي كان ينوي منح الاستقلال لنوميديا، ولكنه فشل في ذلك واستغلت روما هذه الظروف وتدخلت بعد محاولة أهالي سطيف التصدي لها بقيادة يوغرطة الذي قتل ماريوس قرب مدينة سطيف لكنه انهزم فيما بعد سنة 105 ق.م وهذا لا يعني استسلام النوميديين النهائي بل كانت بعض المقاومات من حين إلى آخر حتى مقتل بطليموس آخر ملوكهم سنة 39م، وسيطرت روما على ممالكها وضمت سطيف لموريطانيا القيصرية.3

اهتم الرومان بسطيف نظرا لموقعها الجغرافي والإستراتيجي المتميز بوجود سهول شاسعة ذات الأراضي الخصبة ففكروا أن يجعلوها مخزنا لهم لتخزين القمح وهو ما دفع بالإمبراطور الروماني " نيرفا " في سنة 97 م إلى تأسيس مستعمرة ستيفيس لقدماء الجيش الروماني وأطلق عليها اسم "كولونيا نيرفيانيا أوغسطا مارسياليس فيتيرانوروم سيتيفانسيوم " Colonia nerviana augusta martialis veteranorum sitifensium 4

ومن أجل ذلك فرض النظام الاستيطاني وتم إنشاء إدارة ومراكز للحراسة سميت بـ: كاستيلا (معسكر) في منطقة سطيف كفكرة أولية ثم تطورت خلال القرنين الثاني والثالث ميلادي لتصبح مدينة استوطنها مجموعة من السكان الأجانب الذين قدموا من اليونان ورومانيا وإفريقيا البروقنصلية وكانوا يعيشون في بلد واحد مع السكان الأصليين رغم اختلافهم الديني والعقائدي.5

ونظرا للانتفاضات والثورات التي شهدتها إفريقيا الشمالية عرفت الدولة الرومانية تدهورا وأزمات اجتماعية واقتصادية وسياسية دفعت بالإمبراطور الروماني " ديوكليسان " في أواخر القرن الثالث ميلادي حوالي 297 م إلى تقسيم موريطانيا القيصرية إلى ناحيتين منهما موريطانيا القيصرية السطائفية وعاصمتها سيتيفيس، والتي كانت مستقلة إداريا وعرفت ازدهارا اقتصاديا أوصلها إلى التحكم في التبادل التجاري خاصة الحبوب.

وشهدت مدينة سطيف خلال الفترة المسيحية حركة عمرانية مميزة تمثلت في حي الكنائس وبروز بعض المدن المجاورة لها مثل كويكول "جميلة " و"مونس" (واد الذهب، بني فودة). رغم وجودهم من قبل في نفس الفترة مع ستيفيس أي خلال القرن الأول لكن هذا الازدهار العمراني لم يدم طويلا بحيث انهار أمام الثورات المحلية التي استمرت حتى أدت إلى سقوط الإمبراطورية الرومانية وساهمت في تفكيكها، وتأثر عمران المدينة أكثر بسبب الهزة الأرضية التي هدمت كل المدينة تقريبا سنة 419 م وحسب المؤرخ القديس أوغسطين فإن الزلزال كان عنيفا وحطم هياكلها العمرانية وأرغم السكان على البقاء خارج بيوتهم حوالي خمسة عشرة يوما6. و قبل أن تضمد جراحها غزاها الوندال تقريبا سنة 429 م.7

ووصل البيزنطيون إلى سيتيفيس بقيادة الجنرال " سالومون " الذي قام بترميم المدينة وأقام بها البيزنطيون أسوارهم وحصونهم وجعلوا منها عاصمة لمقاطعة موريطانيا الأولى ومركزا عسكريا بعد ما كانت مركزا اقتصاديا فقط، ومازالت القلعة البيزنطية التي بنيت سنة 540 م شاهدة على مرورهم بالمدينة8. ولم تستمر الهيمنة البيزنطية طويلا نظرا لعدم سيطرتها على زمام الحكم بسبب تزايد الثورات وظهور الإسلام.

ب – سطيف في العهد الإسلامي:

وكان الفتح الإسلامي للجزائر سنة 27 هـ / 647 م، على يد عقبة بن نافع وفي نفس التاريخ كان دخول المسلمين إلى سطيف التي رحب أهاليها بالرسالة الدينية والسياسة الاجتماعية التي حملها العرب بعد تفهمهم لمحتواها وأهدافها السامية.9

في خلال هذه المدة (ثلاثة قرون تقريبا) عرفت المدينة ازدهارا اقتصاديا ترجمه الجغرافيون بالوصف؛ منهم حسن الوزان الذي أشار إلى أنها مدينة كبيرة ومهمة وحسب وصفه لها "... وهي محاطة بأسوار مبنية بحجر جميل ... وكانت في العصور الغابرة متحضرة ... ".10

وبظهور الدويلات في بلاد المغرب أصبحت مدينة سطيف تابعة للدولة الفاطمية، حيث شهدت استقرارا سياسيا واقتصاديا.11

وبعد انتقال الحكم الفاطمي إلى المشرق أصبحت سطيف مدينة تابعة للحكم الزيري، ثم الحكم الحمادي، لكنها فقدت أهميتها السياسية والأيديولوجية بعدما اختيرت مدن أخرى لتكون عاصمة للدول الإسلامية في المغرب مما أدى إلى بعدها عن التغيرات السياسية والدينية وأفقدها أهميتها كمدينة حضارية في المنطقة.

هذا ما أطلق عليه المؤرخون بالفراغ التاريخي للمدينة وما أكده وصف حسن الوزان في كتابة وصف إفريقيا "... لكنها انحطت منذ الفتح الإسلامي وخصوصا عند مجيئ الذين حطموا أجزاء من أسوارها ولم يبق منها سوى مائة دار مسكونة ... ".12 أما في الفترة العثمانية فلم يكن لمدينة سطيف أهمية كبيرة.

3 - موقع المتحف في المدينة:

كون متحف سطيف بني خصيصا ليكون متحفا عصريا وتم مراعاة الكثير من الشروط اللازمة لإنجاز متحف جديد أختير له موقع في وسط المدينة يتميز بسهولة الوصول إليه سواء بالنسبة للزوار أو للعمال أنفسهم، وقربه من أهم معالم المدينة؛ كالمسجد العتيق و حديقة رفوفي (الحمامات الرومانية)، وعين الفوارة، وحديقة الأمير عبد القادر.

ويحده من الجهة الشرقية مقر الولاية والقطاع العسكري اللذان تفصلهما والمتحف طريق مزدوج للسيارات، ومن الشمال دار الثقافة وفندق الهضاب، ومن الغرب حديقة التسلية، وهي نفسها الموقع الأثري لمدينة ستيفيس ويحده من الجنوب الطريق الرئيسي للمدينة (طريق قسنطينة).

تاريخ متحف سطيف:

قبل أن نتطرق إلى نشأة تاريخ متحف سطيف لابد لنا من إعطاء لمحة وجيزة عن نشأة فكرة المتحف وتاريخ ظهوره.

فالأثر هو كل ما خلفه الإنسان وبصمته لتاريخ الحضارات الإنسانية ولأننا من الصعب التطلع على حضارة الإنسان بدون بقايا مادية، فالمتحف الأثرية ترجمة لحوادث تاريخية هامة تحفظ في المتحف، هذا الأخير يعتبر كمؤسسة دائمة دون هدف مربح لخدمة المجتمع وتطويره، مفتوحة للجمهور، وهي تقوم بأبحاث تتعلق بالشواهد المادية للإنسان وبيئته فتقتنيها ،تحفظها، تنشرها، ولا سيما تعرضها لأغراض دراسية، تربوية، متاعية13. فالمتحف هو الذاكرة الخالدة للمجتمعات إذ أنه يحفظ تراثها وتاريخها كما يعتبر رمز التقدم الحضاري.

فالمتحف ليس وليد عهدنا هذا، بل إن طعم جميع الأشياء قديم دون شك، حيث اعتبر المختصون أن المتاحف الأولى هي تلك التي ارتبطت بالحياة العقائدية للشعوب سواء الرسوم والنقوش الجدارية المعبرة عن حياتها اليومية من متاحف في الهواء الطلق (الطاسيلي بالجزائر أهرامات الفراعنة بمصر، أضرحة وقبور الملوك النوميديين)14 حيث كانت تتبعهم إلى مثواهم الأخير مجموعة من التحف الثمينة اعتقادا بالحياة بعد الموت.

وكانت أيضا في الفترة القديمة15)(الحضارة الإغريقية) حسب ما يرى بعض العلماء أن اليونان ممن يعود لهم الفضل في إعطاء المفاهيم الأولى للمتحف بحيث اختاروا معبدا في أثينا وجمعوا فيه كل ما هو فني من تماثيل وتحف تخص آلهة الفنون " موزيوم " MOUSEOUM وأطلقوا عليه هذا الاسم، مثل الرومان حيث اتخذوا معابدهم كمقرات لتجمع تماثيل وكل ما يقدم كهدايا من أشياء ثمينة ويسمح لعامة الشعب برؤيتها كأولى المعارض المتحفية وسموه بدورهم موزيوم MUSEUM، لذلك فكلمة موزي MUSEE بالفرنسية والمتداولة الآن مستمدة من هاتين الكلمتين.16

أما في فترة القرون الوسطى فكانت أوربا لها فكرة متبلورة بحيث كل ما هو فني وله قيمة مادية كبيرة كان يجمع في الكنائس ويمنع من رؤيته كل الناس، أما العائلات الحاكمة فلها متاحف خاصة بها والتي استعملت خلال الفترة الحديثة لتمويل المتاحف العامة في أوربا.

في نفس هذه الفترة لم يكن المتحف بالنسبة للعرب والمسلمين مفهوما عاما ولكن قصور الخلفاء والأمراء كانت عبارة عن متاحف تعج بشتى أنواع التحف الفاخرة الثمينة في كافة أقطار العالم، أما على الطريقة المنظمة فالفاطميون [17] أول من اهتم بالعرض المنظم في قصورهم بتقدير القيمة الفنية والأثرية للمعروضات.

وإن توسع حقل المعرفة الإنسانية الذي جاء عن طريق رجال الدين وكذا المكتشفات المختلفة، وبداية من القرن الخامس عشرة ظهرت فكرة إحياء أمجاد الماضي (RENAISSANCE) جمع كل ما تعلق بالحضارات القديمة وعرضها للناس.

وحتى القرن السابع عشرة والثامن عشرة بدأت فكرة تقديم المتحف بمفهوم العصر الحديث أين سارعت الدول الأوربية بجمع كل ما وجد في قصور الملوك والأمراء ووضعها داخل مراكز خاصة وفي أغلبها بنايات قديمة مثل القصور.

واعتمدت الدول الأوربية وخاصة فرنسا في تأثيث متاحفها من تراث الحضارات العالمية المتواجدة في مستعمراتها مثل الجزائر، دون أن تهمل الأهمية البالغة التي بدأت تحضى بها التحف و الآثار من قبل العلماء لتعليم كافة أبناء المجتمع، ولو كانت البلدان العربية متأخرة نوعا ما بالنسبة للبلدان الغربية، فإن بولاق بمصر من أول المتاحف التي عرفتها عواصم البلدان العربية سنة 1858م.

أما في الجزائر فأول متحف هو المتحف الوطني للآثار بالجزائر العاصمة سنة 1897م وخلال هذا القرن أصبحت التحف لا تعرض بطريقة فوضوية أو لغرض التزين. بل صنفت بطريقة منهجية وعلمية أدت إلى إنشاء متاحف جد متنوعة منها متاحف أثرية ومتاحف فنية،متاحف طبيعية ومتاحف علمية.18

والجزائر تملك متاحف عديدة من هذا القبيل بأصناف مختلفة كالمتاحف البلدية والجهوية ومتاحف على الهواء الطلق، وأخيرا المتاحف الوطنية ومن بينها المتحف الوطني للآثار بسطيف.

ظهرت فكرة جمع التحف في سطيف سنة 1896 م حيث تم اختيار حديقة " أورليون " – سابقا– الأمير عبد القادر حاليا لإقامة معرضا في الهواء الطلق لأحجار أثرية هامة اكتشفت في جميع أنحاء الولاية تمثلت في أعمدة من الحجر الكلسي وعدد لا بأس به من التيجان الكورنثية والدورية والأيونية ونقائش منها الجنائزية والنذرية وتعود كلها إلى الفترة الرومانية.

وفي سنة 1932 م أفتتحت قاعة بثانوية " ألبارتيني " محمد قيرواني – حاليا – احتوت على تحف أثرية صغيرة مصنوعة من البرونز، والزجاج، والفخار، وحجر الصوان، والعظام الحيوانية والمستحثات وغيرها جمعت هذه الأخيرة اثر اكتشافات عفوية وتحريات أثرية.

وفي سنة 1968 م حول قصر العدالة القديم إلى متحف جهوي لمدينة سطيف، جمع فيه ما تم اكتشافه خلال الحفريات الأثرية المنجزة في الفترة ما بين 1959 إلى 1966 م بمواقع مختلفة من المدينة القديمة "سيتيفيس" كالمقبرة الشرقية وحي المعبد وحي الكنائس عثر فيها على أدوات أثرية مختلفة.

وضمت أيضا التحف المجلوبة من الحفريات المنجزة في الفترة ما بين 1977 م إلى 1984 م بحي الثكنات العسكرية الفرنسية، حيث تم العثور على أدوات من البرونز والفخار والزجاج والحديد والعظام ... إلخ، منها التي تعود إلى الفترة الرومانية في وسط المدينة الرومانية " سيتيفيس " ومنها التي تعود إلى الفترة الإسلامية في الحي الإسلامي وبعضها أوتي به من قلعة بني حماد بالمسيلة ويعود للفترة الحمادية.

بسبب كثرة اللقى الأثرية وأهميتها العظمى والوضعية المزرية التي كانت عليها دار العدالة القديمة المهددة بالانهيار، جرى التفكير في إنشاء متحف جهوي جديدا تجمع فيه الآثار، وبالفعل تحقق ذلك في 30 أفريل 1985 م بإنشاء متحف جهوي بسطيف، الذي يعتبر أول مبنى أنجز خصيصا ليكون متحفا بعد الاستقلال بالجزائر من ناحية عمارته أو تجهيزه بأحدث الوسائل، ثم رقي إلى رتبة متحف وطني في 06 جويلية 1992 م بمقتضى المرسوم التنفيذي رقم 92 – 282 المؤرخ في 05 محرم عام 1413 هـ الموافق لـ 06 يوليو 1992 الذي يتضمن إحداث المتحف الوطني لمدينة سطيف ويسمى بالمتحف الوطني للآثار.

تحتل طرق حفظ وأمن المتحف مكانا هاما ضمن اهتمامات المسؤولين عن المتاحف على مستوى العالم حيث يشكل حفظ وسلامة المتحف إحدى الأولويات التي توليها الهيئات العالمية اهتماما بل ويسعى القائمون على أمور وشؤون المتاحف إلى توفير أفضل وأحسن السبل لحماية المتاحف وما تتضمنه من تحف.

أولا – **الحفظ**: عبر الأربعين سنة الماضية، تطور ميدان حفظ وصيانة الآثار من مهنة بسيطة إلى علم مهم ومكمل لعلم الآثار، فهو لايتطلب درجة عالية من المهارة اليدوية فحسب لكنه يتطلب فهما لعلم الآثار الحديث ووظائفه. ومعرفة بالعلوم المادية المتطورة وتقنيات الترميم التقليدية والقديمة. بالإضافة إلى الإحساس الجمالي وهذا التطور يجب أن يشمل مجالات الآثار كافة.

ولتأكيد هذه الفكرة تبنت جمعية " الترميم " للمجلس العالمي للمتاحف وثيقة بعنوان: " المرمم، تعريف المهنة ".19

1 – **مفهوم الحفظ**: له مفهومان:

أ – لغة: الحفظ نقيض النسيان، وهو التعاهد وقلة الغفلة. الحفاظ، المحافظة على العهد والمحماة على الحرم، والمحافظة تعني المواظبة على الأمر.20

ب – اصطلاحا: كلمة حفظ تعني باللغة الإنجليزية conservation المشتقة من الكلمة اللاتينية consertio والتي تعني الصيانة، الحفظ والعلاج.

وظهرت هاته الكلمة بعد أعمال الترميم التي كانت بطريقة عشوائية لا أساس علمي يتحكم فيها حتى تحفظ الأثر بشكله الأصلي، وأطلق على هاته الأعمال الترميم restauration.

وخلال القرنين 18 و 19 م ظهرت اتجاهات جديدة تنادي بالحفاظ على التراث حيث تكون هناك أعمال ترميم فنية وموجهة لعلاج التلف دون فقدان قيمتها الأثرية والتاريخية.21

ومع بداية القرن 20 م أصبح مصطلح صيانة الآثار يطلق على الأعمال والدراسات العلمية التي يقوم بها المختصون في ترميم وصيانة وعلاج الآثار من جميع مظاهر التلف المختلفة وفق أسس علمية من خلال تحديد خصائص التلف الفيزيوكيميائي بطرق علمية.22

وخلاصة القول أن الحفظ والترميم وسيلتان لمعالجة الأضرار الواقعة على الآثار، أما الحفظ فهو يرتكز على البحث وإتباع أساليب الوقاية لمنع التلف والتدهور والحفاظ على الأثر لمدة أطول.23

أما الترميم فيطلق على الأعمال التطبيقية التي يقوم بها المرمم على الأثر وإصلاح ما أتلف منها.24

2 – **أهداف الحفظ**: تتمثل أهداف الحفظ في النقاط التالية:

– المحافظة على الجذور الإنسانية من الاندثار .

– المتابعة والاستمرارية في حفظ المقتنيات إلى أبعد حد من الصيانة الدائمة .

– إنشاء تراث ضخم في خدمة الجمهور من خلال الدراسة والعرض والبحث.25

3 – **حماية التحف**: حماية المعروضات هي محاولة للحفاظ عليها أطول مدة ممكنة وذلك لقيمتها التاريخية أو العلمية وأهميتها بالنسبة للأجيال القادمة فتوجب المحافظة عليها وعدم تعريضها للعوامل المسببة للتلف ويمكن تقسيم هذه العوامل إلى ما يلي:

أ – 1 – **العوامل البيئية**: تعتبر الرطوبة من أهم أسباب تلف المعروضات26، والرطوبة عبارة عن بخار الماء العالق في الجو27، وبزيادة الرطوبة في الهواء تزداد قابلية المعروضات لامتصاص كمية الماء العالق، ومن هنا تتكون الفطريات التي تسبب تآكل المعروضات ويمكن أيضا أن تسبب نقص درجة الرطوبة في الهواء في جفاف المعروضات وتيبسها.28

ويجب التحكم فيها وتكون عادة محصورة بينِ 45° و 65° 29، وهي درجة مناسبة فمثلا إذا كانت الرطوبة النسبية مرتفعة تؤدي إلى تعفن وإزدياد حمض الكربون والكلور، لبعض المواد وإذا حدث العكس أي إنخفاض درجة الرطوبة تصبح بعض المواد هشة وسهلة الإنكسار30، وتتراوح درجة الرطوبة في متحف سطيف ما بين 30° و 36° وذلك راجع لطبيعة المنطقة القليلة الرطوبة.

ويقل تأثير هذا العامل على مقتنيات متحف سطيف وذلك راجع لموقع المدينة في منطقة قليلة الرطوبة.

أ – 2 – **الحرارة**: بما أن الرطوبة والحرارة في الهواء مرتبطان بشكل واضح فإن هذا يؤثر على عملية التكثيف ،فالهواء يفقد الحرارة بسبب ارتفاع الرطوبة31. وحينما تصل التحف إلى المتحف فإنها تأتي من أماكن متفاوتة في درجات حرارتها 32 لذا ينبغي أن تحفظ هذه المعروضات في درجة حرارة مناسبة وهي 16° و 24° درجة32. وهذا طبعا يؤثر على المعادن الأضعف.

إذن يجب أن نتذكر أن الانخفاض في درجة الحرارة يسبب إرتفاعا في الرطوبة النسبية33. ومتحف سطيف مجهز بالتكييف الهوائي بحيث يحافظ على تلطيف الجو وفقا لما تتطلبه المقاييس للحفاظ على المجموعات الأثرية بحرارة متوسطة بين 24° و 25° درجة.

أ – 3 – **الضوء**: له مصادر مختلفة سواء كان طبيعيا أم صناعيا حيث يسبب بعض التغيرات الكيميائية في تركيب بعض التحف العضوية كما يحدث الضوء أيضا تغيرا في ألوان بعض التحف المصنوعة من الزجاج أو الفخار أو غيرهما34. فأكسدة الضوء الذي يسبب هذه التفاعلات المعقدة تصبح الأقمشة والجلد والأوراق والصوف الأصفر وكذلك العديد من المواد الاصطناعية المستخدمة كمواد لاصقة هشة عند تعرضها للضوء35.

وفي متحف سطيف استخدمت الأضواء الاصطناعية والضوء الطبيعي مع أخذ كل التدابير اللازمة للتقليل من تأثيرها السلبي على التحف.

أ – 4 – **الماء والغبار والهواء الملوث**: تؤثر هذه العوامل منفردة أو متجمعة على الكثير من المعروضات حيث تتعرض التحف لذرات الغبار بكميات هائلة ويزيد تأثيره عندما يكون الهواء الداخلي غير متجدد أو مشبع بالطفيليات

والمكروبات المجهرية الضارة36. فالماء يلحق ضررا فيزيائيا وكيميائيا بالمعثورات الأثرية ويعرف بـ " العامل المحفز " حيث أنه يحفز العديد من عوامل التحلل الأخرى وبالتالي فإنه يسهل معظم التفاعلات الكيميائية ويمكن من نمو الكائنات الحية37. أما انعدامه مطلقا فإنه يوفر أحوالا ممتازة للحفظ إلا أنه يسبب انكماشا وهشاشة في المواد العضوية38.

إذن الماء والغبار والهواء في حيز مغلق تظل الرطوبة المطلقة ثابتة ولكن الرطوبة النسبية تختلف لذلك فإن الهواء داخل كيس من البلاستيك في مكان العرض أو في مخزن المتحف سيصبح أكثر جفافا بارتفاع درجة الحرارة وأكثر رطوبة بهبوطها39، حيث دلت التجارب العلمية أن للهواء المجفف رطوبة نسبية أقل من 40 %.

والزائر لمتحف سطيف يلاحظ بعض الغبار المتراكم على الخزانات الزجاجية والناتج من جراء دخول الزوار بكثرة فيجلبون معهم الغبار بالإضافة إلى حركة الرياح التي تجلب الأتربة داخل المتحف من خلال البوابة التي تفتح وتغلق.

ب – **العوامل البيولوجية**: تؤثر الكائنات الحية في المواد ويعرف ذلك بالتلف البيولوجي حيث يظهر في المواد العضوية فقد تتحلل لتوفر مصدر طعام للقوارض والحشرات والفطريات.

من المعروف أن الفئران هي أكثر الحيوانات القارضة التي تشكل خطرا على المعروضات لسهولة دخولها لمناطق التخزين وترتب المعروضات ذات التأثير العضوي على رأس القائمة الأكثر تعرضا للتلف بسبب هذه الحيوانات القارضة40.

فعلى سبيل المثال تقرض الفئران البطاقات الورقية المصاحبة للمعروضات عند التخزين وبضياع هذه البطاقات تضيع قيمة هذه المعلومات الهامة بالنسبة للآثر والتي يصعب تعويضها بعد ذلك41.

يعد التلف جزء من الدورة الطبيعة للتلف فقد تتحلل المواد العضوية لتوفر مصدر طعام للقوارض والحشرات والفطريات وغيرها. أو لتوفير مأوى لرخويات الثاقبة للأخشاب البحرية أو أنها قد تضعف بواسطة منتجات فضلات الأبيض مثل بول الفئران أو الأحماض العضوية من الكائنات الحية الدقيقة42.

كما أن الحشرات الزاحفة تؤثر سلبا على التحف كالصراصير، وللوقاية من هذه الأخطار التي تسببها هذه الحيوانات والحشرات توجب استعمال الطرق الآتية:

– استعمال المصايد والسموم.

– رش المعروضات بالمبيدات غير ضارة بها لحمايتها من الحشرات.

– فحص التحف جيدا قبل إدخالها للمتحف.

ج – **العوامل البشرية**: تعد سوء الرعاية السبب الرئيس لتلف المعثورات داخل المتحف، ويمكن تجنب إعادة المعالجة إذا تم رعاية التحف بعناية وخبرة جيدة وإذا ما حفظت وعرضت بطريقة جيدة فبعض الخطوات البسيطة قد توفر الكثير من الوقت والمال43.

يعتبر الإنسان أحد أعظم الكائنات الحية تدميرا للمعثورات الأثرية فمعالجة المادة على النحو الخاطئ يؤدي إلى فقدان الكثير من المعلومات وكذلك المعالجة غير الضرورية.

ويعد الإخفاق في استرجاع كافة الأدلة المرتبطة بالمادة الأثرية أحد أوجه المعالجة الخاطئة ومن مظاهر هذه المشكلة عملية مسح عملة معدنية أو كشط إناء فخاري هش.

أخيرا فإن ضعف الإدراك بما يحيط بالمادة الأثرية من تلف وكيفية التعامل معه سوف يقودان إلى فقدان الأدلة وضياعها إلى الأبد، لذلك يجب التنبه باتخاذ الإجراءات السليمة والدقيقة44.

أيضا من أهم الوسائل الحفاظ على التحف العنصر البشري سواء من التلف أو من السرقة فالعمال داخل المتحف قد يساهمون في تلف المعروضات عند تخزينها أو عرضها بطريقة غير علمية أو يسهل سرقتها إذا كانت وسائل الحماية ناقصة.

فيمكن حماية المعروضات من السرقة بتعيين حراس ذو كفاءات عالية، وذوي خبرة والإقلال من عدد الأبواب التي تؤدي إلى مناطق التخزين بالمتحف وتجهيزه بأجهزة خاصة بمراقبة الأبواب والقاعات مثل الكاميرا وأجهزة الإنذار.

ومتحف سطيف مجهز بأحدث أجهزة المراقبة والمتمثلة في الكاميرات وأجهزة الإنذار الموزعة داخل المتحف بشكل منظم ولديه فريق من الحراس يسهرون على حماية التحف بداخله، إلا أن موقع المكتبة التي يتوافد عليها عدد كبير من الزوار جاء في مكان غير مناسب لها حيث توجد في موقع يحتم على الزائر المرور بالمخازن وورشة الترميم مما يعرضها لخطر السرقة أكثر.

د – **الحرائق**: تعتبر النار مصدر خطر على التحف والمتحف وعماله وتحدث لعدة أسباب منها:

– تدخين العمال بالمتحف أو الزائرين له.

– حدوث تماس كهربائي للأسلاك.

– الاستخدام السيئ للمواد القابلة للاشتعال أو الأجهزة الكهربائية.

ولتجنب هذه الحرائق أو التقليل من أضرارها إن وقعت توجب على العاملين بالمتحف أخذ الحيطة والحذر وعدم التلاعب بالمواد القابلة للاشتعال وتخزين معدات التدخل والإطفاء45 في مكان يسهل الوصول إليه في حالة حدوث خطر46، ووضع لافتات تمنع التدخين داخل المتحف.

أما بالنسبة لمتحف سطيف فاستعملت لافتات منع التدخين داخل أرجاء المتحف كما وزعت معدات التدخل والإطفاء في أماكن يسهل الوصول إليها وبشكل غاية في التنظيم.

هـ – **إجراء الفحوصات الدورية**: من الأمور الضرورية في مجال حماية التحف والعينات عملية الكشف الدوري على المعروضات المتحفية، وذلك بفحصها في المخازن دوريا 47، وتختلف الفترات اللازمة لفحص العينات حسب أنواعها وحسب طرق التخزين المستعملة وأيضا حسب طرق إعداد المخازن ضد العوامل البيئية والبيولوجية48.

3 – **حماية العاملين بالمتحف**: إذا كانت حماية المعروضات في المتحف من أهم الأولويات فإن حماية العاملين به تأتي على رأس هذه الأولويات، حيث أن مسؤولية السلامة الشخصية للأفراد العاملين بالمتحف مسؤولية كبيرة وهامة يجب اتخاذ كافة الإجراءات للحفاظ على العاملين وتجنيبهم مخاطر الحوادث من جراء تعاملهم مع المعروضات المتحفية.49

4 – **حماية المبنى والزوار**: من الأمور الهامة في اختيار موقع المتحف والمبنى أن يكون هذا المكان بالكامل مؤمنا تأمينا كاملا، وتنقسم المناطق التي تحتاج إلى حماية وتأمين مبنى المتحف إلى منطقتين وهي:

– **المناطق الخارجية**: مثل حماية المبنى والحديقة المتحفية من الأخطار الخارجية كالسطو والسرقة.

– **المناطق الداخلية**: مثل حماية المتحف من الداخل والزوار والموظفين والتحف النادرة.

أ– **التأمين الخارجي للمتحف**: أول ما يهدد المتحف خطر السرقة، وأهم ما نركز عليه هو الحماية الخارجية وتحديد موقع المبنى من أول الاعتبارات عند تحديد نوع الحماية فإذا كان المتحف خارج المدينة معزولا عن غيره من المباني ومحاط بأشجار أو حديقة متحفية فإن وسائل التأمين الخارجي تختلف عما إذا كان هذا المتحف يقع داخل المدينة وحوله حديقة متحفية أو مبنى ملاصق.

وموقع متحف سطيف جاء وسط المدينة وحوله حديقة متحفية في شارع واسع وبناية المتحف لا تحيط بها الأشجار العالية ، التي تسهل عملية السطو كما أن المناطق المحيطة بالمتحف مضاءة ليلا وللمتحف نوافذ مزودة بقضبان حديدية مناسبة له ولا تشوه المنظر الخارجي للبناية بالإضافة إلى أن أبوابه مزودة بأقفال ذات جودة عالية كل هذه العوامل ساعدت على تأمين الخارجي للمتحف بالإضافة إلى دوريات رجال الأمن حول المتحف ليلا.

ب – **التأمين الداخلي للمبنى:** مما لاشك فيه أن الحماية الداخلية للمبنى قد تبدو سهلة من أول وهلة ولكنها في غاية الصعوبة إذ يتطلب حماية المعروضات والمخازن بالمتحف من موظفي وعمال المتحف، وكذلك الزائرين وأيضا من أفراد الحراسة أنفسهم فالمتحف في العادة مملوء بالزوار وكذلك العاملين فيه خلال الفترة الصباحية إلى المساء وتلك الفترة تتطلب حماية المتحف من الثلاث الفئات السالفة الذكر50.

وكذلك يجب ملاحقة وملاحظة الزوار على مختلف أعمارهم دون إحساسهم بهذه المراقبة حتى لا ينفروا من زيارة المتحف مرة أخرى، ومن الأمور المهمة التي يجب الانتباه لها بالنسبة للزوار أن يتأكد الحراس من أن جميع الزوار قد غادروا المتحف قبل إغلاقه في نهاية اليوم خوفا من تخفي أحدهم داخل قاعات المتحف ثم سرقته للتحف ليلا وخروجه بعدها عندما تخف الحركة داخل وخارج المتحف فالخروج أسهل من الدخول.

إن العمل في الترميم الأثري لابد من تطويره أكثر وهذا نتيجة للنظرة الجديدة تجاه هذا التخصص. وعدم وجود موارد للبحث عن طريق أساليب جديدة وقبل أن يتم البحث في أساليب جديدة للحفاظ، يجب تقصى سبب تحلل القطع الأثرية من خلال ما تبذل الجهات المختصة سواء على المستوى العالمي أو الوطني من جهود عظيمة في الوقت الحاضر.

بينما تمت خطوات في هذا المجال على سبيل المثال التصوير بالأشعة، وطرق التجفيف، إلا أن هناك حاجة ملحة لتقنيات جديدة للرفع والتقصي والتنظيف والاستقرارية، فقد تأتي الأفكار من مجالات عديدة كالكيمياء والفيزياء وعلم المواد وغيرها، إلا أن جميعها يجب أن يطوع وفقا لهشاشة المواد الأثرية وتفردها.

الهوامش:

[1] - Sahnouni. (M)et autres, Récentes recherches dans le gisement Hanech, préhistoire acadimie de sciences, 1996, p.p 639 – 643.

[2] - GSELL. (S) : Histoire ancienne de l'Afrique du nord, T VIII, Alger,1972. p41

[3] - GSELL.(S) :Atlas Archéologique de l'Algérie, Feuille N° 16, T I , 2éme édition, Alger, 1997, n° 364 ,P 22

[4] - Ibid.

[1] – منصوري (خديجة): " سيتيفيس الرومانية نشأتها وتطورها "، في كتاب الملتقى الوطني سطيف آثار وحضارة وتطور (28 – 30 أفريل 1997)، المتحف الوطني سطيف، 2004، ص 22 – 37.

[6] – Gsell (S) : Atlas Archéologique de l'Algérie , Feuille 16 n° 25,alger, 1997, P 23.

[1] – بوعزيز (يحي): الموجز في تاريخ الجزائر، ج 1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1965، ص. 60 – 62.

[8]– Op – cit, P 24.

[1] – بورويبة (رشيد): الجزائر في التاريخ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 137 – 138 .

[1] – الوزان (حسن بن محمد): وصف إفريقيا، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ص 49– 51.

[1] – نفسه، ص 141– 143.

[1] – نفسه، ص 52– 53.

[1] – المجلس الدولي للمتاحف ICOM، نظام الآداب المهنية، الوكالة الوطنية للآثار، الجزائر، د ت، ص 06.

[1] – حملاوي علي، سلسلة " محاضرات علم المتاحف "، معهد الآثار، الجزائر، ص 8 – 11.

[1] – لعمى (عبد الرحيم)، المتحف ودوره في المجتمع " متحف أحمد زبانا بوهران نموذجا "، مذكرة ماجستير، قسم الثقافة الشعبية، جامعة تلمسان، 2006، ص 04.

[1] – حملاوي (علي)، مرجع سابق، ص 12 – 14.

[1] – بوزقندة (عمر)، " متحف الفنون الإسلامية برباط المنشير "، مجلة الحياة الثقافية، العدد 202 وزارة الثقافة والمحافظة على التراث، تونس، أفريل 2009، ص 82.

[1] – حملاوي (علي)، مرجع سابق، ص 16.

[1] – ج – أ م– (كرونين)، و . س (روبنسون)، أساسيات ترميم الآثار، ترجمة عبد الناصر بن عبد الرحمان الزهراني، جامعة الملك سعود، الرياض، 2006 م، ص 10.

[1] – ابن منظور الأفريقي المصري، لسان العرب، م 07، ط 1، دار هناء، بيروت، 1992، ص 441.

[1] – فايزة (إبراهيمي)، وسط الحفظ بمتحف تلمسان، مذكرة ماجستير، قسم علم الآثار جامعة تلمسان، 2007 م، ص 6.

[1] – المرجع نفسه، ص 07.

[23] – Feilden(b.m),conservation of hustoric building ,ICCRIM,Rome, 1998.p 1

[1] – ماري (يرديكو)، الحفظ في علم الآثار " الطرق والأساليب العلمية لحفظ وترميم المقتنيات الأثرية " ترجمة أحمد شاعر، المجلد 02، المعهد العلمي للآثار، القاهرة، 2002 ص 07.

[1] – نفسه، ص 07.

[1] – حامد قادوس (عزت زكي) علم الحفائر وفن المتاحف، مطبعة حضري، الإسكندرية، 2005. ص 313.

[1] – الرزقي (الشرقي)، " مخاطر الوسط المناخي المتذبذب أو غير المتجدد بأجنحة المتحف وانعكاساتها السلبية على التحف الفنية واللقى والأثرية المحفوظة أو المعروضة في كنفه "، مجلة حوليات المتحف الوطني للآثار، العدد 08، الجزائر، 1990. ص 107.

[1] – حسام الدين (عبد الحميد)، مقدمة لعلم صيانة وترميم الآثار والمقتنيات، المحلية العلمية للبحوث وترميم وصيانة المقتنيات الثقافية والفنية، المجلد01، مركز البحوث الترميم والصيانة، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1997. ص،11 – 12.

[1]– الرزقي (الشرقي)، مرجع سابق، ص 107.

[30] – Emmonnél dé morgerie et outrés ,présention et sécuents dans les musées canité technique de la scurité France ,1978. p 123 .

[1] – ج – أم – (كرونين)، وس– (روبنسون)،مرجع سابق، ص 52 – 53.

[32]– Alin(soret),humidité rélative et temperateur dans muséo,fiche,p22.

[1] – حامد قادوس (عزت زكي)، مرجع سابق، ص 313.

[*]– مثل السيف والسكين عندما تكون مصنوعة من الحديد ومقبضها خشب أو عاج وما شابه ذلك.

[35] – Esrait (j-jacques),naval d'eclairement dans muséo, fiche ,p31.

[1] – ج– أم – (كرونين) ،و–س (روبنسون)، مرجع سابق، ص 54 – 55.

[1] – محمد رفعت (موسى)، مدخل إلى فن المتاحف، ط 01، الدار المصرية اللبنانية القاهرة، 2002، ص 64.

[1]– حملاوي (علي)، سلسلة محاضرات علم الآثار، معهد الجزائر، دت، ص 45.

[39] – Sélim(abdul-hak)etude d'ensenble sur les musée algeriens,reformes et madernisation,consultont de L'unesco,alger, 1964.p 89.

[40] – La conservation préventive,sous le patronage, paris, 1992.p121.

[1] – ج – أم (كرونين)، وس (روبنسون)، مرجع سابق، ص 38 – 40.

[42] – Berdcou (Marie claude),la consevation en archeoloie ,Paris,p 71.

[1] – حامد قادوس (عزت زكي) ،مرجع سابق ،ص 314.

[*] – الأيض هو عملية التحول الغذائي في الأجسام الحية.

[1] – ج أم – (كرونين)، و س (روبنسون)، مرجع سابق، ص 37.

[46]- Manual d'accompa,la conservation prevantive dans les musées, unversite de québac Montéal, p50.

[1] - ج – أم - (كرونين)، و س (روبنسون)، مرجع سابق، ص ص 48 - 49.

[48] - Verne(e), horgen(g-c),la mise en reserve des collection de musée, unesco, paris,p26.

[49] - G(m),sauvgarde de collections du patrimoine, paris,p 23.

[50] - Mattais(p),maura (j) ,and rinaldi(g), the degradatiob of lead antiquities from italy ,studies in consertion ,p87.

[51] - Watson(g),conservation of lead and lead alloys ussing, edta solution in miles and pollard,1986.

[1]- حامد قادوس (عزت زكي)، مرجع سابق، ص 317.

[*] - للإشارة فإنه يوجد مخزنين كبيرين الأول يسمى مخزن Roger Guery، و الثاني يسمى مخزن الآنسة محمدي.

[1]- محمد رفعت (موسى)، مرجع سابق ،ص 70-71 .

محال المقاصد الأصلية ومدى أهميتها

د. مليكة مخلوفي

جامعة الحاج لخضر – باتنة

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

ملخص:

يتناول هذا البحث المتواضع مفهوم المقاصد الأصلية،وبيان مجالاتها، ليتنبّه القارئ إلى المواضع التي تلفى فيها المقاصد الأصلية،وتحديد دائرتها،مما يزيد توسيع وترسيخ معناها بشكل أدق،ثم بيان أهميتها والفائدة العملية التي نجنيها من تحديد المقصد الأصلي من غيره،لتوسيع أفق الفهم ،والتعرّف على أعظم الخيرات ،وعلى ضابط الترجيح بين المصالح عند التعارض. وبيان أهم الخصائص التي تميزها عن غيرها من المقاصد.

أولا : مفهوم المقاصد الأصلية في اللغة والاصطلاح

1- المقاصد الأصلية في اللغة

أ – المقصد لغة:

وأصل مادة (ق، ص، د) في اللغة الاعتزام والتوجه والنهود، والنهوض نحو الشيء على اعتدال كان ذلك أو جور هذا أصله في الحقيقة، وإن كان قد يختص في بعض المواضع بقصد الاستقامة دون الميل،ولكن التوجه شامل لهما جميعا[1]

كما يطلق القصد على:

- استقامة الطريق[2]، قال تعالى :" وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ"[3] أي: على الله تبيين الطريق المستقيم، وقال ابن جرير الطبري: "والقصد من الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه"[4]
- العدل والتوسط وعدم الإفراط لقوله تعالى: "وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ"[5] .

ب- الأصل لغة:

ما بني عليه غيره، وأصل كل شيء: قاعدته التي لو أهملت مرتفعة ارتفع بإرتفاعه سائره، وأصل الشيء أيضا: أسفله.[6]

وجاء في لسان العرب، الأصل: أسفل كل شيء، جمعه أصول، وأَصُلَ الشيء صار ذا أصل، واستأصله أي قلعه من أصله ،واستأصل قطع دابرهم .[7]

وقال ابن فارس: "الهمزة والصاد، واللام تأتي بمعنى الأصل، أي أساس الشيء"[8].

2- المقاصد الأصلية اصطلاحا:

- عرّفها الإمام الشاطبي بقوله: "أما المقاصد الأصلية فهي التي لا حظ فيها للمكلف وهي الضرورات المعتبرة في كل ملة".[9]

فهو بهذا يحيلنا إلى أنّ المقاصد الأصلية هي المقاصد العامة للتشريع،والأهداف العليا التي رام الشارع إلى تحقيقها،من خلال التكاليف الشرعية،أوّلا وابتداء.

ثانيا: محال المقاصد الأصلية

1- الضرورات بذاتها (العبادات):

سبق في تعريف المقاصد الأصلية؛أنّها الضرورات المعتبرة في كل ملّة، فكل مقصد يحفظ الكليات الخمسة ابتداء يقال عنه مقصد أصلي، فتحصّل أن مجال المقاصد

الأصلية هي الضرورات (حفظ الدين،والنفس،والنسل،والعقل،والمال)، وأما الحاجيات، والتحسينات فهي فروع من فروعها.[10]

قال الشاطبي: "المقاصد الضرورية في الشريعة أصل للحاجية، والتحسينية".[11]

وقال وهو يتكلم عن كون الضروري أصل للحاجي والتحسيني: "فإذا فهم هذا لم يرتب العاقل أن هذه الأمور الحاجية فروع دائرة حول الأمور الضرورية".12

وقال في موضع آخر: "الضروري هو الأصل المقصود، وأن ما سواه مبني عليه كوصف من أوصافه أو كفرع من فروعه".[13]

وهي المعبر عنه أحيانا بالمقاصد التي هي: "الأعمال والتصرفات المقصودة لذاتها والتي تسعى النفوس إلى تحصيلها بمساع شتى أو تُحمَلُ على السعي إليها امتثالا".[14]

وهي حق الله المتمثل في العبادات أساسا قال الشاطبي: "...فعلمنا قطعا أن المقصود الأول التعبد لله".[15]

وبهذا تكون المقاصد الضرورية التي هي كليات الدين وأساس العبادات 16المقابلة للعادات هي المحل الأساسي والحقيقي للمقاصد الأصلية.

وقد أكد الشاطبي أن العبادات مقصد أصلي لذا كان قصد التعبد، والخضوع لله هو المقصد الأعظم، والمقصد الذي لا مقصد وراءه، فهو منتهى المقاصد كلها، وكل مقصد دونه وسائل تبع له.[17]

2- الأوامر والنواهي الابتدائية الصريحة:

أما في مجال الأحكام الشرعية فإن الأوامر والنواهي الابتدائية الصريحة ،هي المقاصد الأصلية لأنها مقصودة لذاتها بخلاف النواهي ،والأوامر المقصودة بالقصد الثاني ،أو الضمنية فهي مقاصد تابعة، قال الشاطبي: "وإنما قيد بالتصريحي تحرزا من الأمر أو النهي الضمني الذي ليس بمصرح به، كالنهي عن أضداد المأمور به الذي تضمنه الأمر، والأمر الذي تضمنه النهي عن الشيء، فإن النهي والأمر ههنا إن قيل بهما بالقصد الثاني لا بالقصد الأول، إذ مجراهما عند القائل بهما مجرى التأكيد للأمر أو النهي المصرح به".[18]

فالأوامر والنواهي الراجعة إلى حفظ أمر ضروري في الدين أو النفس أو العقل أو النسل أو المال تعد مقاصد أصلية، سواء تعلق تحقيقها بأعيان المكلفين أو بمجموعهم.[19]

3- الاقتضاء قبل طروء العوارض(العزائم):

كما أمكن أن يقال أن الاقتضاء في الأحكام الشرعية مقاصد أصلية في دائرة الأحكام التكليفية؛ لأنها عزائم مقصودة بالتشريع ابتداء لا استثناء، بخلاف العادات فهي من قبيل الرخص ورفع الحرج ،فهي مقاصد تابعة شرعت استثناء ولم تقصد لذاتها.[20]

وإذ قيل أن الأحكام الشرعية التكليفية التي هي عزائم مقاصد أصلية يحتاج الأمر إلى تخصيص، فالمراد بذلك منها هو معانيها لا صيغها وألفاظها، لأن المقصود الأصلي من الألفاظ دلالتها ومعانيها، واللفظ تبع له، فقد دل الاستقراء على أن الأوامر واجبات كانت أو مندوبات، والنواهي محرمات كانت أو مكروهات في ذاتها وأعيانها أعلى المصالح، والمفاسد، وأنها مقصودة لذاتها بعد تعيين معانيها التي هي في الحقيقة مقاصدها الأصلية.

ويضرب لنا الشاطبي مثالا من واقع اللغة العربية: "فالصيغة اللفظية تنقلب إلى هُزء وضحك إذا فرغت من دلالتها ومعانيها، كما إذا قلنا فلان أسد، أو كثير الرماد فمجرد الصيغة توحي بالسخرية، أما إذا اعتبرنا المعاني أدركنا المراد بقولهم فلان أسد أنه شجاع، وفلان كثير الرماد أنه كريم جواد، وفي دائرة النهي نهى عن الوصال ووجد في الصحابة من واصل، فلو اعتبرنا مجرد الصيغة لحكمنا على من صام وواصل بالعصيان وحاشاهم أن يكونوا كذلك، ولو قلنا أنه واصل، ولما نهاهم فلم ينتهوا، وحكمنا على النهي الأول أن المراد به هو ما عناه ظاهره، لما أمكن تفسير المراد بهذا الظاهر، وهو النهي عن الوصال، فعلم أن المعنى المراد أنه نهاهم ما لم يطيقوه فإن أطاقوا ذلك فلا نهي.[21]

ولذلك قال ابن عاشور: "حق الفقيه أن ينظر إلى الأسماء الموضوعة للمسمى أصالة أيام التشريع، وإلى الأشكال المنظور إليها عند التشريع من حيث إنها طريق لتعرف الحالة الملحوظة وقت التشريع لتهدينا إلى الوصف المرعي للشارع".[22]

ثم قال في موضع لاحق: "قال الفقهاء: إذا استقامت المعاني فلا عبرة بالألفاظ".[23]

4- الحاجيات بمنظور كلي(الضرورات بغيرها):

إنّ الحاجيات ومكملاتها بالنظر الكلي مقاصد أصلية ، لأنها وسائل لتحقيق المقاصد الضرورية في الواقع، فهي بالنظر الكلي مقاصد أصلية وبالنظر الجزئي مقاصد تابعة فالحاجيات والتحسينات وسائل لتحقيق المقاصد الكلية نحو النفس، والعقل، والمال، بالنظر الكلي، ومن جهة أخرى مقاصد تابعة بالنظر إلى أجزائها،وأنفسها، ولذلك قال الشاطبي: "فأصول العبادات راجعة إلى حفظ الدين... والعادات راجعة إلى حفظ النفس والعقل من جانب الوجود أيضا؛ كتناول المأكولات والمشروبات، والملبوسات، والمسكونات، وما أشبه ذلك، والمعاملات راجعة إلى حفظ النسل والمال من جانب الوجود وإلى حفظ النفس والعقل أيضا لكن بواسطة العادات".[24]

وعلى هذا المحمل يمكن تفسير كلام العز بن عبد السلام في قوله: "فالضرورات كالمآكل والمشارب. والملابس والمساكن والمناكح، والمراكب الجوالب للأقوات وغيرها. مما تمس إليه الضرورات".[25]

وقول الشاطبي في الضرورات أنها ضربان: أحدهما: "ما كان للمكلف فيه حظ عاجل مقصود كقيام الإنسان بمصالح نفسه وعياله في المأكل والمشرب، والمسكن والملبس وما شابههما من النكاح وأنواع البيوع.

والثاني ما ليس فيه حظ عاجل مقصود كفروض الأعيان وفروض الكفايات".[26]

فليس قصد الشاطبي من ذكر القسم الأول من الضرورات أنه ضروري بذلك الوضع المذكور، وهو الوضع الجزئي إنما قصد منه وضعه الكلي الذي به صار وسيلة لتحقيق المقصد الكلي الضروري، بدليل أنه فيما بعد فصّل وذكر أن القسم الأول

أجري على الإباحة حوالة على الجبلة، وإذا تعلق هذا الجزئي الكلي رجعنا به إلى حكم الوجوب فصار كليا لاحظ فيه.[27]

وعليه فمقصود الشاطبي من القسم الأول من الضرورات والذي مثله بالمباحات، قد قصد به أن الضرورات تتحقق ضمن تناول هذه المباحات. ولذلك تجده يفصل أكثر في الصفحات الباقية فلما ذكر أقسام الضرورات قال: " فإن اكتساب الإنسان لضروراته في ضمن قصده إلى المباحات التي ينعم بها ظاهر، فإن أكل المستلذات، ولباس اللينات، وركوب الفارهات ونكاح الجميلات، قد تضمن سد الخلات، والقيام بضرورة الحياة، وقد مر أن إقامة الحياة –من حيث هو ضروري– لا حظ فيه.

وأيضا فإن في اكتسابه بالتجارات ،وأنواع البياعات والإيجارات وغير ذلك مما هو معاملة بين الخلق قياما بمصالح الغير، وإن كان في طريق الحظ، فليس فيه –من حيث هو– حظ له يعود عليه منه غرض، إلا من جهة ما هو طريق إلى حظه، وكونه طريقا ووسيلة غير كونه مقصودا في نفسه وهكذا... سائر إلى ما يتوسل به إلى الحظ المطلوب".[28]

فواضح أن اعتبار الحظ في قسم المباحات، وهو القسم الأول الذي ذكره الشاطبي في أضرب المقاصد الضرورية، راجع إلى اعتبار الجزئية لا الكلية، وإذا كان وسيلة إلى الكلي صار مثله فأعطي حكمه وجرد من اعتبار الحظ فيه.

❖ دفع إشكال جمال الدين عطية في اعتبار الشاطبي الحاجيات من أفراد الضروريات:

وبهذا يندفع في نظري الإشكال الذي ذكره: "جمال الدين عطية" في اعتبار الشاطبي الحاجيات والتحسينات من أفراد الضرورات وأن توافرها من كمال الضرورات، والإخلال بهما يضفي الحرج على الضروري. وعبارة جمال الدين عطية: "أما الشاطبي فكلامه أكثر إيهاما إذ اعتبر الحاجيات والتحسينات من أفراد الضروريات، وأن توافرها من كمال الضروريات، والإخلال بها يلبس الضروريات الحرج والعنت..."[29]

إن اعتبار الشاطبي الحاجيات والتحسينات من أفراد الضرورات ،راجع إلى النظر الكلي لا الجزئي لأن الإخلال العام والمطلق بالحاجات والمكملات ،يوقع الإخلال بالضروري ،مما يؤدي إلى إزالة حسنه وإغلاق باب السعة عنه، بخلاف الإخلال بالحاجيات ومكملاتها في بعض الأحيان لا يلحق خللا بالضروري في أغلب الأحوال، والشاطبي قد فصل هذا ولم يترك كلامه مجملا.

كما يندفع به الإيهام الذي وقع لجمال الدين عطية،في اعتبار المآكل ،والمشارب،والملابس... من الضرورات، في عبارة العز بن عبد السلام وقد مر ت في الصفحة السابقة.

وعبارة جمال الدين عطية هي:"فكلمتا الضرورات التي تحتها خط موهمة، وكان يمكن أن تكون العبارة، فوسائل حفظ النفس كالمآكل...مما يحقق هذا القصد المجزئ من ذلك ضروري".30

فقصد العز من أن المآكل والمشارب ونحوها أنها ضرورات باعتبار الكلية لا الجزئية.

وذكر جمال الدين عطية أن اعتبار الشاطبي شروط الصلاة وأركانها خادمة للصلاة ومقوية لها فيه لبس لأنها أجزاء من الصلاة ليست خارجة عنها، وسبب هذا اللبس الذي وقع فيه الشاطبي 31 هو تمسكه في التعبير عن الوحدة المقصودة بالضرورة، فلو استعمل بدلها المقصد أو المصلحة لما أدى إلى هذا اللبس حيث قال:"وأنظر أيضا ...حيث اعتبر (أي

الشاطبي) شروط الصلاة وأركانها خادمة للصلاة ومقوية لها مع أنها جزء من الصلاة وليست خارجة عنها. وقد أشار الشاطبي إلى وحدة الضروري مع الحاجي والتحسيني ، ولكنّه ضل يعبر عن هذه الوحدة بالضروري، ولو أنّه عبر عن هذه الوحدة بالمقصد والمصلحة،لما أدى إلى هذا اللبس.32

الجواب:

إنّ شروط الصلاة وأركانها من الطهارة، والقراءة والتكبير ينظر إليها من وجهين:

الوجه الأول: باعتبارها أجزاء بالنسبة لأصل مشروعيته الصلاة فهي خادمة ومكملة لها.

الوجه الثاني: باعتبار أنفسها فهي تشكل الماهية للصلاة فهي ركن لها.

فالاعتبار الأول هو الذي تكلم عنه الشاطبي وعد التكبير والقراءة من مكملات الصلاة فإذا بطلت هذه الأخيرة سقطت تلك المكملات ،حيث قال: "... الأصل إذا اختل اختل الفرع من باب أولي... كما إذا سقط عن المغمى عليه أو الحائض أصل الصلاة لم يمكن أن يبقى عليهما حكم القراءة فيها، أو التكبير أو الجماعة أو الطهارة،... ومن هنا يعرف مثلا أن الصلاة إذا ارتفعت ارتفع ما هو تابع لها ومكمل من القراءة والتكبير... وغير ذلك، لأنها من أوصافها الصلاة بالفرض فلا يصح أن يقال إن أصل الصلاة هو المرتفع وأوصافها بخلاف ذلك... لأن النهي عن العبادة المخصوصة من حيث هي كذلك، لا تكون منهيا عنها إلا بمجموع أفعالها وأقوالها، فاندرجت المكملات تحت النهي باندراج الكل".[33]

ثم افصح إفصاحا تاما من شأنه أن يدفع الإشكال المتوهم الذي طرحه جمال الدين عطية سابقا حيث قال: "إن القراءة والتكبير وغيرهما لها اعتباران: اعتبار من حيث هي أجزاء الصلاة، واعتبار من حيث أنفسها، فأما اعتبارها من الوجه الثاني فليس الكلام فيه [أي: فإنها مقاصد في ذاتها وأركان لها لأن الصلاة لا تتحقق في الواقع إلا بها]. وإنما الكلام في اعتبارها من حيث هي أجزاء مكملة للصلاة وبذلك الوجه صارت بالوضع كالصفة مع الموصوف ومن المحال بقاء الصفة مع انتفاء الموصوف فإذا كان ذلك لم يصح القول ببقاء المكمِل مع انتفاء المكمَل".[34]

فإذا فهمنا مجال المقاصد بشكل دقيق، فإنّه يندفع الإشكال الذي وقع فيه جمال الدين عطية كما مر شرحه – والله أعلم

الخلاصة:

- إنّ المجال الحقيقي والأول للمقاصد الأصلية هي الضرورات بذاتها والتي هي العبادات ، ويلحق بهذا المجال الحاجيات(العادات و المباحات)،إذا نظر إليها نظرة كلية،وهو ما يعبر عنها بالضرورات لغيرها.

- إن تحديد مجال المقاصد الأصلية يجلوا الأفهام ،ويزيح الغموض واللبس في اعتبار أفراد العاديات والمباحات تارة من الأمور الضرورية،وتارة تكون حاجية ،دون تعارض وتقابل في المفاهيم.

ثالثا: أهمية معرفة المقاصد الأصلية

-تبرز أهمية التعرف على المقاصد الأصلية فيما يلي:

1- تصحيح المعتقد: وذلك أن المقصد الأصلي إذا علم وسعى المكلف لتحصيله والعمل وفقه، فإنه يأمن الخبط والخلط، ويبتعد عن خدمة الفروع، وهدم الأصول، فيتجنب الابتداع والضلال، ويأمن شر النفاق.

ذكر الشاطبي أن المنافقين وقعوا فيما وقعوا فيه بغفلتهم عن المقصد الأصلي من التوحيد، ورأوا أن المقصود يتحقق بالمقاصد التابعة الحاصلة من المصالح الدنيوية لذا كانت لهم متابعة، ولكن حرموا أنفسهم متعة الإخلاص وجردوا الألفاظ من معانيها المقصودة أصالة، وليس قصد الشارع من المتابعة إلا تثبيت التوحيد الذي هو المقصد الأصلي، فضم العمل إلى المعتقد هو ما فهمه أهل السنة من خلال مصطلح الإيمان ،فلم يفتهم المقصد الأصلي فكانت أعمالهم بعيدة عن الرياء، والنفاق، لموافقة أعمالهم معتقدهم.[35]

فقال الشاطبي :"العامل لأجل أن يحمد ،أو يعظم ،أو يعطى ، فهذا عامل على الرياء....فإن عمله على غير أصالة".36

قال الشاطبي: "الأعمال الشرعية ليست مقصودة لأنفسها، وإنما قصد بها أمور أخرى، هي معانيها، وهي المصالح التي شرعت لأجلها."[37]

وقال في موضع آخر:" فنحن نعلم أن النطق بالشهادتين والصلاة، وغيرهما من العبادات إنما شرعت للتقرب إلى الله، والرجوع إليه، وإفراده بالتعظيم والإجلال، ومطابقة القلب للجوارح في الطاعة والانقياد؛ فإذا عمل بذلك على قصد نيل حظ من حظوظ الدنيا من دفع أو نفع، كالناطق بالشهادتين قاصدا لإحراز دمه وماله لا لغير ذلك، أو المصلي رئاء الناس ليحمد على ذلك أو ينال به رتبة في الدنيا، فهذا العمل ليس من المشروع في شيء، لأن المصلحة التي شرع لها لم تحصل، بل المقصود به ضد تلك المصلحة.[38]

كما أن العلم بالمقصد الأصلي في دائرة العقيدة يعين على امتلاك معيار التكفير والتبديع، والتفسيق مما يفيد الحذر من ارتكاب المخالفات التي تستوجب ذلك أو الحكم بها لغير موجبها.39

2-الإعانة على ترتيب الأحكام الشرعية:أما في دائرة الفروع فإن تمييز المقصد الأصلي من غيره يعين المجتهد على ترتيب الأحكام الشرعية على محالها من الصحة، والبطلان، والفسخ، والجبر، والجواز وغيرها.

أو بعبارة أوفق فإن تمييز المقصد الأصلي من التابع يحصل به فهم المراد من الخطاب سواء بالنسبة للمجتهد أو لغير المجتهد، فينجم عنه ترتيب الأخذ بالأولويات قبل الأخذ بالأمور الثانوية، وبناء الأصول، والأركان وتحصيلهما، وعدم التفريط فيهما، أو قبول المساومة فيها أو التهاون في أدائهما، والغفلة عن هذا ينجم عنه إحلال الفروع بدل الأصول، وإقام التحسينات والمكملات مقام الضرورات، والأولويات، مما يورث الفهم السقيم والنظر الكليل، ومنه الإفتاء في الدين بغير أس شرعي، ويمكن أن يلمس هذا فيمن يكفر، ويعذب، ويقتل لأجل الصغائر، ومخالفة السنة، أو ارتكاب محقرات الذنوب، ويجعل معيار الالتزام الشرعي التمسك بالأمور التحسينية المظهرية، ويغفل المقصد الأصلي من كل أمر ونهي هو إفراد المعبود بالعبادة، ووقوف المكلف على قدم الخدمة، فالإعراض عن المقصد الأصلي، جهلا أو قصدا ينشأ عنه قلب في المفاهيم، والموازين و المعايير، وعدم التفريق بين الفرض والنفل، والحرمة والكراهة،والمعصية والبدعة،والكبيرة والصغيرة...قال الشاطبي:"إن كانت الطاعة و المخالفة تنتج من المصالح أوالمفاسد أمرا كليا، ضروريا كانت الطاعة لاحقة بأركان الدين، والمعصية كبيرة من كبائر الذنوب ، وإن لم تنتج إلا أمرا جزئيا فطاعة لاحقة بالنوافل،واللواحق والفضيلة، والمعصية صغيرة من الصغائر".40

3-تمييز أعظم المصالح والمفاسد: كما تظهر أهمية المقصد الأصلي في تمييز أعظم المصالح، والمفاسد من غيرهما.إذ أن كل مصلحة أو مفسدة، المقصد الأصلي فيها أعظم من مصالح ومفاسد المقصد التابع .قال أبو حامد الغزالي:" إن جلب المنفعة ودفع المضار مقاصد الخلق وصلاح الخلق في تحصيل مقاصدهم، لكنا نعني بالمصلحة المحافظة على مقصود الشرع ومقصود الشرع من الخلق خمسة هو أن يحفظ عليهم دينهم،وأنفسهم،وعقلهم،ونسلهم،ومالهم، فكل ما تضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة،وكل ما يفوت هذه المصلحة فهو مفسدة".[41]

4-**تمييز أعظم الطاعات** :كما أن معرفة المقاصد الأصلية من غيرها، يعرفنا على أعظم الطاعات، فيسعى إلى تحصيلها، ويقصدها المكلف بالامتثال لينال أعظم الأجر، كما يعرفنا بأعظم المخالفات فيحذر المكلف من إتيانها، وذلك أن جوامع الطاعات وأصولها راجعة إلى اعتبار المقاصد الأصلية، وكبائر الذنوب راجعة إلى مخالفتها[42]، لان المصالح متفاوتة تفاوت القصد إليها قال العز:" مصالح الإيجاب أفضل من مصالح الندب، ومصالح الندب أفضل من مصالح الإباحة.." [43]

فمن عمل وفق المقصد الأصلي يُصيِّر تصرفاته عبادة وإن كان أصلها عاديا نظرا لعظم المشقة التي يتحملها، وإيثاره مرضاة الله وعبادته على حظ النفس[44].

قال الشاطبي عن مصالح المكلف التي هي العاديات: "إنما هي تابعة لمقصود التعبد فإذا اعتبر صار أمكن في التحقق بالعبودية، وأبعد عن أخذ العاديات للمكلف، فكم ممن فهم المصلحة فلم يلو على غيرها فغاب عن أمر الآمر بها. وهي غفلة تفوت خيرات كثيرة بخلاف ما إذا لم يهمل التعبد".[45]

كما قال: "العامل بالامتثال عامل بمقتضى العبودية، واقف على مركز الخدمة...؛ بخلاف ما إذا عمل على جلب المصالح".46

5- **الترجيح بين المصالح:** كما تتجلى أهمية المقاصد الأصلية من غيرها في الترجيح بين المصالح عند التعارض، فمعلوم أن المصالح المتعلقة بالمقصد الأصلي، مقدمة في الاعتداد والاعتبار على غيرها من المقاصد التابعة إذا تعارضت معها.لأن مصالح المقاصد الأصلية تتعلق بالإيجاب والتي هي العبادات ومصالح المقاصد التابعة تتعلق بالإباحة.

قال العز بن عبد السلام:"إذا دارت المصلحة بين الإيجاب والندب، فالاحتياط حملها على الإيجاب لما في ذلك من براءة الذمة،وإذا دارت المفسدة بين الكراهة والتحريم،فالاحتياط حملها على التحريم...فإن اجتناب المحرم أفضل من اجتناب المكروه، كم أنّ فعل الواجب أفضل من فعل المندوب".47

- بل إن تعيين أعلى المقاصد الأصلية يعين في ذاته على الترجيح بين دائرة المقاصد ذاتها، فكل ما قوي فيه مقصد التعبد يقدم على غيره في الدائرة الواحدة، قال الشاطبي:"ليست الكبيرة في نفسها مع كل ما يعد كبيرة على ميزان واحد،ولا كل ركن مع ما بعده ركنا على ميزان واحد أيضا".48

- ولهذا قضى الشرع بقتل الكافر المضل ومعاقبة المبتدع الداعي إلى بدعته لمضرتهم على الدين ،فقدم على مصلحة حفظ الأرواح،كما شرع الجهاد على ما فيه من تعريض النفس للموت حفظا للدين،والكل ضروري.قال العز:"دفع الصوّال عن الأرواح أفضل من درئهم عن المنافع والأموال ،وكذلك تتفاوت رتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بتفاوت المأمور به في المصالح والمنهي عنه في المفاسد ".49

- وقال الشاطبي:"إذا نظرنا إلى الأول (مصالح الضرورات)وجدنا الدين أعظم الأشياء؛ولذلك يهمل في جانبه النفس والمال وغيرها.ثم النفس ؛ولذلك يهمل في جانبها اعتبار قوام النسل والعقل والمال.فيجوز عند طائفة من العلماء لمن أكره بالقتل على الزنا أن يفدي نفسه به،وللمرأة إذا اضطرت وخافة الموت ولم تجد من يطعمها إلا ببذل بضعها جاز لها ذلك".50

6-**أنّها مسلك للتعرف على المقاصد العامة**:كما تبدو أهمية المقاصد الأصلية في التعرف على مقاصد الشارع، حيث عد الشاطبي أن المقصد الأصلي مسلك من مسالك التعرف على مقاصده العامة، وعدّه ضابطا يهتدى به إلى مقاصد الشارع.[51]

رابعا : خصائص المصالح المتعلقة بالمقاصد الأصلية :

1- أنها عامة وضرورية:

وذلك أن المقاصد الأصلية لما جردت من اعتبار الحظ أجراها الشارع وربطها بالمقاصد العامة الضرورية، وهذا مبين في تعريف الشاطبي لها بقوله: "...وهي الضرورات المعتبرة في كل ملة".[52]

فالمقاصد العامة الضرورية مقاصد مجردة من الحظ، وهي أصل مقصده في وضع الشريعة للتكليف بمقتضاها، فإذا تحقق هذا المقصد الأصلي تكون مقاصد وضع الشريعة للامتثال بها قد تحققت، وإذا انخرمت لم يكن لها تحقق ووجود، فالمقاصد الأصلية تدور على المصالح الضرورية وجودا وعدما. وهي عامة في خطابها للمكلفين ما قام شرط التكليف بهم، لا يستثنى من الدخول تحت أحكامها أي مكلف مهما كانت مكانته.[53]

قال الشنقيطي: "أعلم أن الشريعة بحسب المكلفين كلية عامة فلا يحاشى من الدخول تحت أحكامها مكلف البتة".[54]

وقال في موضع آخر: "أن الأحكام الشرعية موضوعة لمصالح العباد فلو وضعت على الخصوص لم تكن موضوعة لمصالح بإطلاق لكنها كذلك حسب ما تقدم في موضعه فثبت أن أحكامها على العموم لا على الخصوص.[55]

وقال حامد العالم: "...إن الشريعة الإسلامية في تقرير حكم من أحكامها لا بد أن تراعي مصلحة الأفراد، ومصلحة الجماعة، والمصلحة الخاصة، والمصلحة العامة وهذا مبدأ أساسي في تشريع الإسلام."[56]

2- أنها أعلى المصالح وأعظمها:

وذلك أنها أساس المصالح كلها لتعلقها بأصول المقاصد التي هي الضرورات الخمسة، وفي هذا يقول الإمام الغزالي: "إن جلب المنفعة ودفع المضار مقاصد الخلق وصلاح الخلق في تحصيل مقاصدهم، لكنا نعني بالمصلحة المحافظة على مقصود الشرع ومقصود الشرع من الخلق خمسة، وهو أن يحفظ عليهم دينهم، وأنفسهم، وعقلهم، ونسلهم، ومالهم، فكل ما تضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة وكل ما يُفوّت هذه المصالح فهو مفسدة".[57]

وهذه الضرورات بجميع ما تضمنته من كليات، وجزئيات بها قوام حفظ الشريعة في أصولها، وفروعها لأنها أعظم المصالح كلها.[58] قال محمد سعيد اليوبي: "إن المقاصد الأصلية لا بد أن تكون مصلحتها أعظم من مصلحة غيرها من المقاصد التابعة لها".[59]

3- أنها مصالح معتبرة:

فلا تعارض نصا من الكتاب، أو السنة أو الإجماع المتيقن، أو القياس الصحيح.[60]

وأكد الامام أبو حامد الغزالي؛ أن كل مصلحة لا تحفظ مقصود الشارع فهي غير معتبرة حيث قال: "كل مصلحة لا ترجع إلى حفظ مقصود مهم من الكتاب، والسنة، والإجماع وكانت من المصالح الغريبة التي تلائم تصرفات الشرع، فهي باطلة مطروحة ومن صار إليها فقد شرّع".[61]

فما عده الشرع مصلحة فهو مصلحة قطعا، وما عده مفسدة فهو كذلك قطعا والخروج عن هذا هو اتباع لسلطان الهوى، وهو مرفوض شرعا، قال تعالى: (يا داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله).[62]

وقال علال الفاسي: "إن وضع الإسلام لمقياس تقاس به المصلحة ضروري كعدم الوقوع في فوضى المدلولات التي تدل عليها كلمة مصلحة، والتي يفهم منها كل واحد بحسب ما يشتمله من أفكار ومذاهب".[63]

ولذلك أكد الشاطبي في الموافقات أن المصالح، والمفاسد مما يختص الشارع بها ولا مجال للعقل فيها لأنها قد آل النظر فيها إلى التعبدات حيث قال: "فإن كون المصلحة هو من قبيل الشارع، بحيث يصدقه العقل وتطمئن إليه النفس فالمصالح من حيث هي مصالح فقد آل النظر فيها إلى أنها تعبديات، وما ابتنى على التعبدي لا يكون إلا تعبديا"[64]

وذلك أن المقاصد الأصلية تدور على العبادات فكانت المصالح المتعلقة بها عبادية أيضا من وضع الشرع،ولا مدخل للعقل فيها، ولذلك فلا اعتبار لكل مصلحة ناتجة عن الخبرات العادية أو من اجتهادات المهارات العلمية كالدعوى إلى رفع الحدود،وإلغائها بدعوى حماية حقوق الإنسان أو الدعوة إلى إباحة الربا من قبل بعض علماء الاقتصاد بناء على أنه ضروري للدورة الاقتصادية.[65]

قال الشاطبي:"إن اعتبار الشارع للمصالح المجتلبة والمفاسد المدفوعة مؤسس على إقامة الحياة الدنيا للآخرة، لا من حيث أهواء النفوس في جلب مصالحها العادية ودرء مفاسدها العادية"[66]

4-إنها مصالح مبرأة من الحظ بالقصد الأول:

قرر الشاطبي أن المقاصد الأصلية هي مصالح شرعت لإقامة الدين والدنيا لا لنيل الشهوات ولا لإجابة داعي الهوى.[67]

وينبغي أن ننبه أن خلو المصالح المتعلقة بالمقاصد الأصلية من الهوى وإطراحه لا يعني استئصال الشهوات، والرغبات الجبلية، واقتلاعها، بل المقصود هو مجافاة الشهوات والهوى المستقبح عقلا وشرعا، وإلا فإن الشهوات الفطرية التي تتلائم، وتخضع لسلطان العقل، والشرع هما مما تقتضيه الشريعة، بل وقد شرعت أحكامها وفقها بعد تهذيبها من أدرانها.[68]

وهذا الجانب الجبلي مراع في المصالح المتعلقة بالمقاصد الأصلية بالنظر التبعي الثاني لا الأول، حتى تنقاد الجبلة لأحكام، ومقاصد الشارع وإلا حدث العكس، فتصبح الشهوات، والحظوظ مقصدا أوليا، ويكون الشرع تابعا لها، فيحدث اختلال في الدين.

خاتمة:

– المقاصد الأصلية هي مقاصد الشارع أولا وابتداء قبل طروء العوارض، فهي المقاصد العامة التي مدارها العبادات المرعي فيها قصد التعبد قصدا أوّليا ابتدائيا على سبيل العزم من غير التفات إلى حظوظ المكلفين إلا تبعا.

-مجال المقاصد الأصلية الحقيقي هو الضرورات بذاتها وبنفسها ، فهي بهذا دائرة تظم المقاصد الكلية الضرورية بالوضع الأول، كما يلحق بها الضرورات بغيرها ،وهي المباحات والحاجيات لا بالوضع الجزئي وإنما بالوضع والنظر الكلي وهو ما يعبر عنها بالضرورات لغيرها.

-إن تحديد مجال المقاصد الأصلية يجلوا الأفهام ،ويزيح الغموض واللبس في اعتبار أفراد العاديات والمباحات تارة من الأمور الضرورية،وتارة تكون حاجية ،دون تعارض وتقابل في المفاهيم.

-إن التحديد الدقيق لمجال المقاصد الأصلية يعد أمرا مهما ضروريا يدفعنا إلى التطلع إلى أهمية هذه المقاصد،وفوائدها،فهي تعرفنا على أعلى المصالح وأعظمها.

_المقاصد الأصلية ضابط في الترجيح بين المصالح و المفاسد في الدائرة الواحدة.

_و تعد مسلكا و طريقا يدلنا على مقاصد الشارع.

_ان المقاصد الاصلية لها عدة خصائص تميزها عن غيرها من المقاصد ، أهمها :

_أنها مصالح عامة و ضرورية و أنها من أعظم المصالح لأنها تعلقت بالعبادات و هي مصالح معتبرة شرعا و موكولة الى تقدير الشرع و لا مجال للعقل في تحديدها لأنها تمثل ابتداء التشريع المتعلق بالعبادات .

_و أنها مقصودة لذاتها لا لغيرها و مقدمة على غيرها ، لأنها مبرأة من الحظ بالقصد الأول و يحصل منها الحظ بالدرجة الثانية حتى تنقاد النفوس إلى الشرع و يتحقق فيها مقصد التعبد تحققا أوليا .

الهوامش:

[1]- علي بن سيده. المحكم المحيط الأعظم في اللغة. تحقيق: مراد كامل. دار مصطفى البابي الحلبي. مصر. ط1 (1392هـ). 116/6 ، والفيومي. المصباح المنير في غريب الشرح للرافعي. المكتبة العلمية. بيروت. مادة قصد. 504/2.

[2]-ابن منظور.لسان العرب.دار صادر. بيروت. لبنان. مادة قصد.ص:353/3 ؛ والفيزوآبادي.القاموس المحيط .ص:327/1.

[3]- سورة النحل. الآية 9.

[4]- الطبري. جامع البيان في تأويل القرآن. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. ط1 (1992/1412). 564/7.

[5]- سورة لقمان. الآية 19.

[6]- المناوي. التوقف على مهمات التعاريف (معجم لغوي مصطلحي)،تحقيق:محمد رضوان الداية،دار الفكر دمشق.(1410هـ1990م). ص: 79.

[7]- ابن منظور. لسان العرب. مادة أصل.ص:18/11 ؛والزمخشري.أساس البلاغة.تحقيق:عبد الرحيم محمود.دار المعرفة.ص:7.

[8]-بن فارس.معجم مقاييس اللغة. . تحقيق: عبد السلام محمد هارون دار الجيل.ط1 1997،مادة(علّ):109/1.

9-.الشاطبي. الموافقات في أصول الفقه.تحقيق: عبد الله دراز.دار المعرفة .بيروت .لبنان 176/2.

10- الشاطبي. الموافقات. 16/2.

11- الشاطبي. الموافقات. 16/2.

12- المرجع السابق. 18/2.

13- المرجع نفسه.

14- المرجع السابق. 300/2-302.

15- المرجع السابق. 301/2 ؛ وابن عاشور. مقاصد الشريعة. الشركة التونسية للنشر والتوزيع ،طبعة 1978م ،ص: 147.

16- وهذه العبادات مبنية في الغالب على عدم التعليل إلا ما يفهم من حكمة عامة في الانقياد إلى أوامر الله وأفراده بالخضوع والتعظيم لجلاله، والتوجه إليه، وما علل منها فهو من قبيل الجنس في أبواب العبادات لكن غير مفهومة على الخصوص، ومن هنا عد المناسب فيها معدودا فيما لا نظير له، وهو ما يسمى بالشبه بحيث لا يتفق على القول به القائلون، وإنما يقيس به من يقيس بعد أن لا يجد سواه، وإلا توقف عند حكمة التعبد. الشاطبي.الموافقات. 300/2-304.

17- الشاطبي. الموافقات . 398/2-404.

18- الشاطبي. الموافقات. 393/2-394.

19- المرجع السابق. 147/1-148 .

20- الشاطبي. الاعتصام. دار المعرفة،بيروتط(1405هـ/1985م)، 80/2.

21- الشاطبي. الموافقات. 153/2 و 150/3، 151.

22- ابن عاشور. مقاصد الشريعة. ص: 105.

23- المرجع السابق. ص :149.

24- الشاطبي. الموافقات. 2/ 8،9.

25- العز بن عبد السلام. العز عبد السلام. قواعد الأحكام في مصالح الأنام بمراجعة:محمود بن التلامد الشنقيطي.دار المعرفة.بيروت بدون ط. 60/2.

26- الشاطبي. الموافقات. 180/2.

27- المرجع السابق. 180/2، 181.

28- الشاطبي. الموافقات. 184/2، 185.

29- .جمال الدين عطية،نحو تفعيل مقاصد الشريعة ،المعهد العالمي للفكر الإسلامي،سلسلة المنهجية الإسلامية،17،دار الفكر،دمشق،ط1،(1422هـ/2001)،ص: 53.

30- جمال الدين عطية، نحو تفعيل مقاصد الشريعة،ص:52، لم يضع تحتها خط وإنما نقلها بخط خشن.

31- الشاطبي. الموافقات . 24/2، في ذكره الوجه الرابع، من المطلب الرابع هو اختلال التحسيني بإطلاق أو الحاجي بإطلاق يؤدي إلى اختلال الضروري من المسألة الرابعة التي هي:المقاصد الضرورية أصل للحاجي والتحسيني في الموافقات.2/16-24.

32- جمال الدين عطية. نحو تفعيل مقاصد الشريعة الإسلامية. ص: 53.

33- الشاطبي. الموافقات. 18/2، 19.

34- المرجع السابق. 19/2.

35- الشاطبي. الموافقات. 385/2-387.

36- الشاطبي ، الموافقات،401/2.

37- المرجع السابق. 385/2.

38- المرجع السابق. 385/2.

39-الشاطبي، الموافقات298/2-300.

40- الشاطبي، الموافقات،300/2،299.

41- أبو حامد الغزالي. المستصفى من علم أصول الفقه.دار الفكر بدون ط288/1،288.

42- الشاطبي. الموافقات. 2 /207؛ والشنقيطي. توضيح المشكلات في اختصار الموافقات،مراجعة:بابا محمد عبد الله(حفيده)،جامعة الملك سعود بالرياض،ط1414،1هـ/1993م) 125/2

43- العز عبد السلام. القواعد الصغرى. تحقيق:إياد خالد الطباع ،دار الفكر، دمشق،ط1(1416هـ/1996م)،ص: 39.

44- محمد مسعود اليوبي. مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة الشرعية ،دار الهجرة،بالرياض ،ط1،(1418هـ/1998م)،ص: 378.

45- الشاطبي. الموافقات. 374/2.

46- الشاطبي. 374،375/2.

47- العز بن عبد السلام،قواعد الأحكام،15/2.

48- الشاطبي،الموافقات،300/2.

49- العز ،قواعد الأحكام،147/2.

50- الشاطبي، الموافقات،299/2.

51- الشاطبي. المرجع السابق. 393/2.

52- الشاطبي. الموافقات. 176/2.

53- يوسف حامد العالم. مقاصد الشريعة. الدار السودانية للكتب. ط (1994/1414). ص: 9 ؛ والشنقيطي. توضيح المشكلات في اختصار الموافقات. 148/2؛ وحمادي العبيدي. الشاطبي ومقاصد الشريعة. ص: 129.

54- الشنقيطي . المرجع السابق. 137/2.

55- المرجع السابق. 138/2.

56- يوسف حامد العالم. المرجع السابق. ص :23.

57- أبو حامد الغزالي. المستصفى من علم الأصول. 287/1-288.

58- الشاطبي. الموافقات . 77/1؛ ونور الدين الخادمي. الإجتهاد المقاصدي. كتاب الأمة . العدد: (65) جمادى الأول (1419هـ) الجزء:1 .ص: 69 ؛ ويوسف حامد العالم. مقاصد الشريعة الإسلامية. ص: 41.

59- محمد سعيد اليوبي. مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة الشرعية. ص: 353.

60- محمد عقلة الإبراهيم. خصائص الشريعة الإسلامية .ص: 124،125.

61- أبو حامد الغزالي. المستصفى من علم الأصول. 310/1-311.

62- سورة: ص. الأية: 26.

63- علال الفاسي. مقاصد الشريعة الاسلامية ومكارمها .ص: 189.

64- الشاطبي. الموافقات. 315/2.

65- محمد عقلة الإبراهيم. الاسلام مقاصده وخصائصه. ص: 129؛ وعز الدين بن زغيبة. المقاصد العامة للشريعة الاسلامية. ص:280.

66- الشاطبي. الموافقات. 37/2-38.

67- الشاطبي. المرجع السابق. 27/2.

68- محمد عقلة الإبراهيم .الإسلام مقاصده وخصائصه. ص: 129-130.

القراءةُ التخصصيَّةُ للقرآنِ والسنُّةِ: تخصصُ الرياضةِ البدنيَّةِ أنموذجًا

أ.عبد القادر مهاوت

جامعة الشهيد حمة لخضر- الوادي

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

Abstract:

The idea of the topic starts from the hypothesis that every specialist in any modern science can understand the Holly Koran and the Sunnah of the prophet in a manner commensurate with his specialty. He can also read the recited and un-recited revelation through a specialized reading that may not be available to non-specialists in the science. This reading leads to more creativity in his specialty. It also enables the specialist to extract some treasures of the religious texts that the ancient and modern scientists, mufassirin (Koran interpreters), Sunnah explainers did not pay attention to. Moreover, it enables him to straighten out some concepts came from them, which are against some requirements of the art of the specialist. In addition to confirmation and appraisement of the sayings belongs and correspond to the legislative texts.

مقدمة:

تنطلقُ فكرةُ هذا الموضوعِ من فَرَضِيَّةٍ مفادُها أنَّ كلَّ متخصِّصٍ في أيِّ علمٍ من علومِ العصرِ يمكنُ له أنْ يفهمَ القرآنَ الكريمَ والسنةَ النبويَّةَ على نحوٍ يتناسبُ مع تخصصِهِ، وأنْ يقرأَ الْوَحْيَيْنِ المتلوَّ وغيرَ المتلوِّ قراءةً تخصصيَّةً قد لا تتأتَّى لغيرِ المتخصصين في ذلك العلمِ، وأنَّ تلك القراءةَ تدفعُهُ إلى الإبداعِ أكثرَ في ذلك التخصصِ الذي ساقَهُ اللهُ تعالى إليه، وتُمَكِّنُهُ من استخراجِ بعضٍ من كنوزِ النصوصِ الشرعيَّةِ التي لم يتمكَّنِ العلماءُ القدامى والمعاصرون من مفسِّري القرآنِ الكريمِ، وشارحي السنةِ النبويَّةِ، من الانتباه إليها، بل وتمكِّنُه من تصويبِ بعضِ الفهومِ الواردةِ عنهم مِمَّا تَأْبَاهُ مقتضياتُ الفنِّ الذي تخصصَ فيه، إضافةً إلى تأكيدِ وتثمينِ الفهومِ المأثورةِ عنهم والتي تتلاءمُ معها.

وهذا الصنيعُ يزيدُ من قوةِ إيمانِ الناسِ -المتخصصين أصالةً، وغيرِهم تبعًا-، ويجعلُهم يعتقدُون اعتقادًا جازمًا بأنَّ نصوصَ الكتابِ العزيزِ والسنةِ الصحيحةِ إنما صدرتْ من مشكاةِ الربوبيَّةِ، ومن مَعِينِ النبوَّةِ، وأنها ليستْ من وضعِ البشرِ العاديِّين، كما تؤكِّدُ أنها جاءتْ لهداية الناسِ جميعًا دون استثناءٍ مهما كان تخصصُهم، وأنها صالحةٌ للتعامل معها، وللتطبيق الميدانيِّ، لكل زمانٍ ومكانٍ.

أصلُ استمدادِ الفكرةِ:

استوحيْتُ هذه الفكرةَ من خلال تنوُّعِ التراثِ التفسيري والشَّرْحِيِّ للقرآن والسنةِ؛ حيث وجدتُ أنَّ الفقيهَ من علمائنا مثلًا يَتَرَاءَى له من المعاني والأسرارِ من النصوص الشرعيَّة ما لا يَتَرَاءَى للبلاغي، والأمرُ نفسُهُ بالنسبة لهذا الأخيرِ عندما يُقَارَنُ بالفقيه.

ولذا عندما يقرأُ الواحدُ منَّا في "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي -وهو تفسيرٌ للقرآن الكريم- يجدُهُ يختلفُ اختلافًا كبيرًا عن "الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل" للزمخشري —وهو أيضًا تفسيرٌ للقرآن الكريم-؛ فالأولُ يستنطقُ الآيةَ الواحدةَ فيستخرجُ منها ما شاءَ اللهُ له أنْ يستخرجَ من الأحكام الشرعيَّةِ العمليَّةِ؛ وذلك بحكم تخصصِهِ الفقهيِّ، وقراءتِهِ الفقهيَّةِ للقرآن الكريم، بينما الثاني يَقِفُ بقراءته البلاغيَّةِ اللغويَّةِ مع الآية المعيَّنَةِ فيَرَى فيها من اللطائفِ البلاغيَّةِ وأوجُهِ الإعجازِ اللغويِّ ما لا يكادُ يراه إلا هو وأمثالُهُ من البلاغيِّين وأهلِ الصناعةِ اللغويَّةِ.

ومع ذلك فإنَّ النصَّ القرآنيَّ المفسَّرَ استوعبَ التفسيريْنِ معًا، بل إنَّنا نعتبرُهما متكامليْنِ؛ إذ إنَّ كلَّ تفسيرٍ جَلَّى جانبًا من جوانب متضمَّنَاتِ ذاك النصِّ، وكَشَفَ عن حقيقةٍ من حقائقِهِ.

وما قيل عن هذيْنِ التفسيريْنِ يمكنُ أنْ يُقَالَ عن عددٍ معتبَرٍ من التفاسير التراثيَّةِ للقرآن الكريم التي ينطلقُ فيها كلُّ مفسِّرٍ من العلمِ الذي فُتِحَ عليه فيه، والتخصصِ الذي نَبَغَ فيه.

فانطلاقًا من ملاحظة تنوُّعِ مادةِ هذا النتاجِ التفسيريِّ والشَّرْحِيِّ للقرآن والسنة، قلتُ: لِمَ لا يقرأُ كلُّ متخصصٍ في علمٍ معيَّنٍ من العلوم المعاصرةِ 1 القرآنَ الكريمَ والسنةَ النبويَّةَ قراءةً تخصصيَّةً، بحيث تتحسَّسُ المواطنَ التي لها علاقةٌ بالتخصص، وتحاولُ أنْ تفهمَها فهمًا خاصًّا لا يكادُ يفهمُهُ إلا مَنْ كان من أهل ذاك الاختصاصِ؟

وهنا سنضمنُ المرجعيَّةَ الدائمةَ لهؤلاء المتخصصين –مع اختلاف تخصصاتِهم– للمنبع الإلهيِّ الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديْهِ ولا من خلفه؛ لأنه تنزيلٌ من حكيمٍ حميدٍ 2، وللمصدرِ النبويِّ الذي لا ينطقُ صاحبُهُ عن الهوى، إنْ هو إلا وحيٌ يُوحَى3.

والذي زادَ من تشجيعي على تَبَنِّي هذه الفكرةِ وجودُ تلك القراءاتِ العلميَّةِ المعاصرةِ لِلْوَحْيَيْنِ التي صدرتْ عن بعضِ البيولوجيِّين والجيولوجيِّين والأطباءِ ونحوِهم من المهتمِّين بالإعجاز العلميِّ في الكتاب والسنةِ؛ فإنَّ نتائجَ أبحاثِهم ودراساتِهم ونظراتِهم فيهما كانت موفَّقَةً إلى حدٍّ مُعْتَبَرٍ، بل مُبْهِرَةً في حالاتٍ متعددةٍ منها.

ما ينبغي أنْ يُرَاعَى في القراءة التخصصيَّةِ:

كَيْ تكونَ هذه القراءةُ التخصصيَّةُ منضبطةً، ونتائجُها مقبولةً، وعواقبُها محمودةً، رأيتُ أنه لا بدَّ أنْ تُرَاعِيَ جملةً من الأمور، ظهرَ لي أنَّ أهمَّها ما يأتي:

1– أنْ لا يكونَ هناك نصٌّ صحيحٌ صريحٌ، قطعيُّ الثبوتِ قطعيُّ الدلالةِ، يُلْزِمُنَا بفهمٍ معيَّنٍ للآية أو الحديث المعيَّنَيْنِ؛ لأنَّ هذا إنْ وُجِدَ لم يَعُدْ هناك مجالٌ –في تقديري– لآراء الناسِ وقراءاتِهم الخاصَّةِ، فإنَّ الشارعَ الحكيمَ أعرفُ بالمقصود من كلامه من غيره. وهذا الأمرُ مسلَّمٌ به في كلام البشرِ، فمِنْ باب أَوْلَى أنْ يُسَلَّمَ به في كلام اللهِ تعالى وحديثِ رسولِهِ الكريمِ.

2– أنْ تتلاءمَ القراءةُ التخصصيَّةُ مع قواعد علمِ أصولِ الفقهِ عمومًا، ومع دلالات الألفاظِ منها خصوصًا، وكذا مع مقتضيات قواعدِ اللغةِ العربيَّةِ؛ ذلك أنَّ نصوصَ الكتابِ والسنةِ نزلتْ وقِيلَتْ بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ، فكان لزامًا أن تُفْهَمَ ضمن تلك القواعدِ، وإلا كان الفهمُ متجرِّئًا على هذيْن المصدريْن، وفحواهُ قولًا على الله ورسولِهِ بغير علمٍ.

3– أنْ يُسْتَأْنَسَ بفهوم الأوائلِ من المفسِّرين والشرَّاح –بل والمعاصرين منهم أيضًا–؛ حتى لا تنطلقَ القراءةُ من فراغٍ، ولا تتجاهلَ تراثًا ثريًّا فيه ما فيه من الخير والصوابِ، ومن ثَمَّةَ لا تكون فهمًا نشازًا بالنسبة إلى تفاسيرهم وشروحاتهم، بل تكون قريبةً منهم، وامتدادًا لهم، وتطويرًا وتحديثًا لِمَا أُثِرَ عنهم، وقيمةً مضافةً إلى ما قالُوه، وتُظْهِرُ اعتزازَ الخلفِ بالسلف واحترامَهم لهم.

4– أنْ لا يُعْتَقَدَ بأنَّ الفهمَ الذي فُهِمَ من الآية أو الحديثِ المعيَّنَيْنِ هو الفهمُ الصحيحُ الوحيدُ الذي ينبغي أنْ يُفْهَمَ على أساسه ذاك النصُّ، بل يجبُ أنْ يُرَى بأنه وجهٌ من الأوْجِهِ السائغةِ التي يُمْكِنُ أنْ يُفْهَمَ النصُّ من خلالها، وعلى هذا لا يجوزُ أن تُرَدَّ أو تُسَفَّهَ أَوْجُهُ الفهمِ الأخرى، إلا ما كان منها واضحَ الضعفِ، أو بَيِّنَ الخطإِ.

القراءةُ الرياضيَّةُ كأنموذجٍ تطبيقيٍّ:

حتى تتضحَ فكرةُ "القراءةِ التخصصيَّةِ للقرآن والسنة" بضوابطها آنفةِ الذكرِ، سأُعطي فيما يأتي تطبيقًا عمليًّا لها من خلال ما عُنِيتُ به منذ سنواتٍ من أمر الرياضةِ البدنيَّةِ التي تعني "القيامَ بحركاتٍ خاصةٍ تُكْسِبُ البدنَ قوةً ومرونةً" 4؛ ذلك أنَّني ممارسٌ ومشاهدٌ لها، ومشجِّعٌ على مزاولتها والعنايةِ بها، وباحثٌ في تاريخها وواقعِها وقوانينِها وأحكامِها الشرعيَّةِ،

وهذا من خلال أطروحتي للدكتوراه الموسومةِ بـ: "أحكامِ الرياضاتِ البدنيَّةِ في الفقه الإسلاميِّ: دراسة مقارنة بالقوانين المنظِّمة للألعاب الرياضيَّةِ".

وهذا الأنموذجُ الذي سأقدِّمُهُ يتمثَّلُ في استعراض بعضٍ من النصوص الشرعيَّةِ من كتاب اللهِ ﷻ، وسنةِ النبيِّ ﷺ، هذه النصوصُ لا تدلُّ صراحةً على مشروعيَّةِ الرياضةِ البدنيَّةِ، ولا تحثُّ على ممارستها بوضوحٍ، ولا تُبَيِّنُ أهميَّتَها بجلاءٍ، ولكنْ عندما يمرُّ بها المتخصِّصُ في الرياضة البدنيَّةِ تستوقِفُهُ، ويَرَى فيها معانِيَ قد لا تظهرُ لغيره مِمَّنْ يَمُرُّ عليها.

أ- ثلاثة نماذج من القرآن الكريم:

1- قولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُواْ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَآءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة:247].

ففي هذه الآيةِ الكريمةِ بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ سببَ تفضيلِه لطالوتَ على غيره من الناس حتى يتولَّى الملكَ، إنَّما يرجعُ إلى أمريْن: البسطةِ في العلم، والبسطةِ في الجسم. "والْبَسْطَةُ هي الْوَفْرَةُ وَالْقُوَّةُ مِنَ الشَّيْءِ"5. وعلى هذا فإنَّ طالوتَ كان وفيرًا قويًّا في علمه وجسمِهِ.

وإذا ما ركَّزْنا على ما يَعْنِينَا من الرياضة البدنيَّةِ، فإنَّني أقولُ: إنَّ تلك البسطةَ الجسميَّةَ التي أُوتَاها طالوتُ -وقد يُؤْتَاها أيُّ واحدٍ من الناس-، قد تكون هبةً ابتدائيَّةً من الله تعالى -وهذا هو ظاهرُ الآيةِ-، وفي هذه الحالةِ لا بدَّ من ممارسة الرياضةِ البدنيَّةِ؛ حتى تُنَمَّى ويُحَافَظَ عليها، وإلا فإنَّها لا تنمو، بل ستتناقص، وربَّما تزول. كما أنَّ تلك البسطةَ قد تكونُ مكتسبةً بسعيِ الإنسانِ -وهذا محتمَلٌ-، وها هنا سنتصوَّرُ بأنَّ الرياضةَ البدنيَّةَ دخلتْ لا محالةَ كعاملٍ أساسٍ في اكتسابها.

وبما أنَّ العدوَّ لا يهابُ إلا الأقوياءَ في علمهم وجسمِهم، كان لزامًا على المسلمين أنْ يُعْنَوْا بكل ما يقوِّيهم فيهما، ومِنْ جملتِهِ الرياضةُ البدنيَّةُ؛ حتى يَقْتَدُوا بطالوتَ الذي ما أُهِّلَ لقيادة أمتِهِ إلا لقوَّتِهِ العلميَّةِ والجسديَّةِ. قال ابنُ عباسٍ ﷺ: "كان طالوتُ يومئذٍ أعلمَ رجلٍ في بني إسرائيلَ وأجملَهُ وأتمَّهُ؛ وزيادةُ الجسمِ مِمَّا يُهِيبُ العدوَّ"6.

والبسطةُ في الجسم التي تساهمُ الرياضةُ البدنيَّةُ في إنشائها أو في الحفاظ عليها وتنميتِها، مِنَ النعمِ الجليلةِ التي يمتنُّ اللهُ تعالى بها على عباده؛ لأنَّها تعينُ صاحبَها على قضاء حوائجِهِ على أحسن حالٍ، خاصَّةً إذا كانت تلك الحوائجُ مِمَّا يتطلَّبُ قوةً بدنيَّةً، ولذا ذكَّرَ بها هود عليه السلام قومَهُ؛ حتى يشكروا ربَّهم عليها، ويخصُّوه بالعبادة، ولا يشركوا به شيئًا. قال تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُواْ آلآءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[الأعراف:69].

2- قولُهُ تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾[الأنفال:60].

فاللهُ تعالى في هذه الآيةِ أَمَرَ المسلمين بإعداد العدةِ المستطاعةِ للعدو؛ حتى يرهبَ منهم ابتداءً، فلا يتجرَّأُ على محاربتهم. وبما أنَّ "الإعدادَ هو اتخاذُ الشيءِ لوقت الحاجةِ"8، فإنَّ الرياضةَ البدنيَّةَ -وهي ضمنَ المستطاعِ المقدورِ عليه-، لا سِيَّمَا ما كان منها معينًا في القتال، تُعَدُّ مِمَّا أُمِرْنَا بالتهيُّؤِ به لوقت ملاقاةِ العدوِّ.

كما أنَّ الرياضةَ البدنيَّةَ تدخلُ في معنى القوةِ التي طُولِبْنَا بإعدادها؛ ذلك أنَّ القوةَ لفظٌ "عامٌّ في كل ما يُتَقَوَّى به على حرب العدوِّ، وكلِّ ما هو آلةٌ للغزو والجهادِ" 9. وَالْقُوَّةُ أيضًا هي "كَمَالُ صَلَاحِيَةِ الْأَعْضَاءِ لِعَمَلِهَا" 10، ولا

تصلُحُ أعضاءُ المجاهدِ صلاحًا تامًّا إلا بتمرينها بواسطة الرياضاتِ البدنيَّةِ المختلفةِ. وعلى هذا، فإنَّ "الآيةَ تدلُّ على أنَّ الاستعدادَ للجهاد بالنبل والسلاحِ وتعليمِ الفروسيَّةِ والرميِ فريضةٌ، إلا أنَّهُ من فروض الكفاياتِ" 11.

ولا يُفْسِدُ هذا الفهمَ ما صحَّ عن النبيِّ ﷺ من حديث عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ﷺ عندما قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ: «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ: أَلاَ إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلاَ إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلاَ إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ» 12، فهو لا ينفي كَوْنَ غيرِ الرميِ معتبَراً، ولكنَّهُ يدلُّ فقط على أنَّ هذا المذكورَ جزءٌ شريفٌ من المقصود 13.

ومثلُ ذلك يُقَالُ في تخصيص الخيلِ بالذكر؛ ذلك أنَّها لَمَّا كانت قديمًا هي "أصلُ الحروبِ وأوزارِها التي عُقِدَ الخيرُ في نواصيها، وهي أقوى القوةِ، وأشدُّ العدةِ، وحصونُ الفرسانِ، وبها يُجَالُ في الميدان، خصَّها بالذكر تشريفًا، وأقسمَ بغبارها تكريمًا، فقال: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً﴾[العاديات:01] الآية" 14. أمَّا في عصرنا فيقومُ مقامَ الخيلِ والرميِ بالنبل اتِّخَاذُ الدَّبَّابَاتِ وَالْمَدَافِعِ وَالطَّيَّارَاتِ وَالصَّوَارِيخِ، فكان لزامًا على المسلمين أنْ يتمرَّنُوا عليها 15.

3- قولُهُ تعالى: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾[يوسف:12-13].

فهاتان الآيتان تبيِّنان أنَّ إخوةَ يوسفَ عليه السلام -وهم كبارٌ 16- استأذنوا والدَهم يعقوبَ عليه السلام في أنْ يرسلَ معهم أخاهم لممارسة ضروبٍ من الرياضة البدنيَّةِ من خلال اللعبِ، فلم يُنْكِرْ عليهم طلبَهم 17، بل أَذِنَ لهم بعد ذلك في الفعل، مِمَّا يُفْهَمُ منه إقرارُهُ على مشروعيَّتها. وشريعةُ مَنْ قبلَنا -نحن المسلمين- شريعةٌ لنا، ما لم يأتِ في شرعنا ما ينسخُها18.

وَاللَّعِبُ: فِعْلٌ أَوْ كَلَامٌ لَا يُرَادُ مِنْهُ مَا شَأْنُهُ أَنْ يُرَادَ بِمِثْلِهِ، نَحْوَ الْجَرْيِ والقفزِ والسّبقِ والمراماةِ، ويُقْصَدُ مِنْهُ الِاسْتِجْمَامُ وَدَفْعُ السَّآمَةِ، وَهُوَ مُبَاحٌ فِي الشَّرَائِعِ إِذَا لَمْ يَصِرْ دَأْبًا 19.

وقد كان لعبُ إخوةِ يوسفَ عليه السلام الاستباقَ، وهو ما دلَّ عليه قولُهُ تعالى على لسانهم لَمَّا رجعوا إلى أبيهم بعد رميِ أخيهم في الجُبِّ: ﴿يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾[يوسف:17]. فَهُمْ كانوا يتسابقون في الرميِ، أو على الفرسِ؛ أو على الأقدامِ 20، وكلُّها رياضاتٌ بدنيَّةٌ.

قال ابنُ العربيِّ: "المسابقةُ شِرْعَةٌ في الشريعة، وخَصْلَةٌ بديعةٌ، وعَوْنٌ على الحرب ... وفي ذلك في الفوائد رياضةُ النفسِ والدوابِّ، وتدريبُ الأعضاءِ على التصرُّفِ" 21.

ب- ثلاثة نماذجَ من السنة النبويَّةِ:

1- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ. احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلاَ تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلاَ تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّهِ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»22.

ففي هذا الحديثِ الشريفِ يقرِّرُ النبيُّ ﷺ أنَّ أفضليَّةَ المؤمنِ عند اللهِ تعالى على غيره من إخوانه المؤمنين، وكذا درجةَ محبتِهِ تعالى له، مرتبطةٌ بقوَّتِهِ؛ فكلَّما كان أقوى، إلَّا وكان أفضلَ عند اللهِ تعالى، وكانت محبتُهُ له أعظمَ.

وعلى الرغمِ مِنْ أنَّ المرادَ بالقوة هنا أصالةً "عزيمةُ النفسِ والقريحةِ في أمور الآخرةِ، فيكونُ صاحبُ هذا الوصفِ أكثرَ إقدامًا على العدوِّ في الجهاد، وأسرعَ خروجًا إليه، وذهابًا في طلبه، وأشدَّ عزيمةً في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصبرِ على الأذى في كلِّ ذلك، واحتمالِ المشاقِّ في ذات اللهِ تعالى، وأرغبَ في الصلاة والصومِ والأذكارِ وسائرِ العباداتِ، وأنشطَ طلبًا لها، ومحافظةً عليها، ونحوَ ذلك" 23، إلَّا أنَّ هذا لا يمنعُ من تعدِّيها لتشملَ الجانبَ البدنيَّ، بحيث تكونُ حينها عاملًا قويًّا في القيام بسائرِ الصالحات، فيستغلُّ المؤمنُ قوَّتَهُ البدنيَّةَ في زيادة ما يقرِّبُهُ إلى مولاه 24.

وعلى هذا فإنَّ المؤمنَ الأفضلَ والأحبَّ عند اللهِ تعالى هو "القويُّ البدنِ والنفسِ، الماضي العزيمةِ، الذي يصلحُ للقيام بوظائف العباداتِ ... مِمَّا يقومُ به الدينُ" 25.

ويؤكِّدُ هذا الفهمَ قولُهُ ﷺ: «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ»؛ فإنَّ فيه أمرًا بالأخْذِ بالأسباب الماديَّةِ –والرياضةُ البدنيَّةُ من هذا القبيلِ–، ومع الأخْذِ بها فإنَّ التعويلَ دائمًا على الله ﷻ؛ لأنَّ الأسبابَ لم يجعلْها اللهُ نافعةً بذاتها، وإنَّما النفعُ المطلَقُ مِنْ مسبِّبِ الأسبابِ، ولذا نَصَحَ النبيُّ ﷺ مَنْ فاتَهُ شيءٌ مع أَخْذِهِ بالأسباب أنْ لا يقولَ: «لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا»، وَلَكِنْ عليه أنْ يقولَ: «قَدَرُ اللَّهِ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ»؛ حتى يسدَّ بابَ الشيطانِ على نفسِهِ 26.

ومِمَّا يُعَضِّدُ ذاك الفهمَ، ويؤكِّدُ أهميَّةَ القوةِ البدنيَّةِ للمؤمن، لا سِيَّمَا في مواجهته لأعدائه، ما كان من النبيِّ ﷺ في عُمرة القضاءِ، عندما اصطفَّ له كفارُ قريشٍ عِنْدَ دَارِ النَّدْوَةِ؛ لِيَنْظُرُوا إِلَيْهِ وَإِلَى أَصْحَابِهِ، فَلَمّا دَخَلَ الْمَسْجِدَ اضْطَبَعَ بِرِدَائِهِ، وَأَخْرَجَ عَضُدَهُ الْيُمْنَى، ثُمَّ قَالَ: «رَحِمَ اللَّهُ امْرَأً أَرَاهُمْ الْيَوْمَ مِنْ نَفْسِهِ قُوَّةً»، ثُمّ اسْتَلَمَ الرُّكْنَ، وَخَرَجَ يُهَرْوِلُ، وَيُهَرْوِلُ أَصْحَابُهُ مَعَهُ، حَتَّى إِذَا وَارَاهُ الْبَيْتُ مِنْهُمْ، وَاسْتَلَمَ الرُّكْنَ الْيَمَانِيَّ، مَشَى حَتَّى يَسْتَلِمَ الرُّكْنَ الْأَسْوَدَ، ثُمَّ هَرْوَلَ كَذَلِك ثَلَاثَةَ أَطْوَافٍ، وَمَشَى سَائِرَهَا 27.

وهنا أشيرُ إلى عدم توفيقِ الشيخِ "ابنِ عُثَيْمِينَ –فيما يبدُو لي– عندما نَفَى أنْ يكونَ الجانبُ البدنيُّ مقصودًا من كلام النبيِّ ﷺ؛ وذلك عندما قال في معرض شرحِهِ لهذا الحديثِ: "المؤمنُ القويُّ: يعني في إيمانه، وليس المرادُ القويَّ في بدنه؛ لأنَّ قوةَ البدنِ ضرراً 28 على الإنسان إذا استعملَها في معصية اللهِ، فقوةُ البدنِ ليستْ محمودةً ولا مذمومةً في ذاتها، إنْ كان الإنسانُ استعملَ هذه القوةَ فيما ينفعُ في الدنيا والآخرةِ صارتْ محمودةً، وإنِ استعانَ بهذه القوةِ على معصية اللهِ صارتْ مذمومةً. لكنِ القوةُ في قوله ﷺ «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ» أي قويُّ الإيمانِ، ولأنَّ كلمةَ القويِّ تعودُ إلى الوصف السابقِ وهو الإيمانُ، كما تقولُ: الرجلُ القويُّ، أي في رجولته، كذلك المؤمنُ القويُّ، يعني في إيمانه؛ لأنَّ المؤمنَ القويَّ في إيمانه تحملُهُ قوةُ إيمانِهِ على أنْ يقومَ بما أوجبَ اللهُ عليه، وعلى أنْ يزيدَ من النوافل ما شاءَ اللهُ، والضعيفُ الإيمانِ يكونُ إيمانُهُ ضعيفاً، لا يحملُهُ على فعل الواجباتِ وتركِ المحرماتِ، فيُقَصِّرُ كثيراً" 29.

فرغم وجاهةِ سائرِ كلامِ الشيخِ، إلا أنَّهُ لَمَّا نَفَى أنْ يكونَ الجانبُ البدنيُّ مقصودًا من كلام النبيِّ ﷺ جَانَبَ الصوابَ؛ ذلك أنَّ القوةَ البدنيَّةَ لا تُنَافِي القوةَ الإيمانيَّةَ، ولكنَّها تكمِّلُها، وتجعلُ صاحبَها في وضعٍ أفضلَ؛ فإنَّ قويَّ الإيمانِ ضعيفَ البدنِ في الغالب لا يستطيعُ أنْ يحقِّقَ ما يحقِّقُهُ قويُّ الإيمانِ والبدنِ معًا، سواء على مستوى القيامِ بالعبادات والشعائرِ، أو على مستوى مجابهةِ العدوِّ وقتالِهِ، ولذلك كان النبيُّ ﷺ وصحابتُهُ الكرامُ يُعْنَوْنَ بتحصيل القوتيْنِ معًا، ومن خلالهما استطاعُوا أنْ يقومُوا بما قاموا به من إنجازاتٍ عظيمةٍ.

2– حديثُ هندِ بنِ أبي هَالَةَ التميميِّ ﷺ في وصف النبيِّ ﷺ عندما قالَ: "... مُعْتَدِلُ الْخَلْقِ30، بَادِنٌ مُتَمَاسِكٌ31، سَوَاءٌ الْبَطْنُ وَالصَّدْرُ32، عَرِيضُ الصَّدْرِ، بَعِيدُ مَا بَيْنَ الْمَنْكِبَيْنِ، ضَخْمُ الْكَرَادِيسِ33 ... رَحْبُ الرَّاحَةِ، شَثْنُ الْكَفَّيْنِ وَالْقَدَمَيْنِ"، سَائِلُ الأَطْرَافِ35"36.

وذَكَرَ "القاضي عياض" في سياق بيانِ تكميلِ اللهِ تعالى لنبيِّهِ ﷺ المحاسنَ خَلْقًا وخُلُقًا، وقرانِهِ جميعِ الفضائلِ الدينيَّةِ والدنيويَّةِ فيه نَسَقًا، بأنَّهُ37 كان عَبْلَ38 العضديْنِ والذراعيْنِ والأسافلِ، ضَرْبَ اللحمِ39.

فاللهُ ﷻ لا يختارُ لنبيِّهِ المصطفى إلا الأكملَ في ظاهره وباطنِهِ، في شكله وجوهرِهِ، ولذا وَهَبَ له ما وَهَبَ في بدنه من حُسْنِ المظهرِ والشكلِ والقوةِ واللياقةِ ما ذُكِرَ، وقد حافظَ عليه ﷺ من خلال ممارساته الرياضيَّةِ المختلفةِ40،

بحيث يَفْهَمُ المطَّلِعُ عن حاله ﷺ بأنَّهُ إنْ أرادَ لنفسه الأكملَ في ظاهره وشكلِهِ، فإنَّ عليه أنْ يحافظَ عمَّا وهبَهُ اللهُ تعالى في جسمه بالتمرينات الرياضيَّةِ، وإنْ لم يوهبْ إيَّاها ابتداءً، فلْيُحَاوِلْ أنْ يوجدَها بقدرِ المستطاعِ من خلال الرياضةِ أيضًا؛ فهي كفيلةٌ بالأمريْن معًا.

وهذا الفهمُ الذي فهمتُهُ من أمثال هذه الآثارِ الواردةِ في وصف بِنْيَةِ النبيِّ ﷺ، وجدتُ مَنْ يُشَاطِرُنِي فيه مِمَّنْ تخصصَ في الرياضة البدنيَّةِ تنظيرًا وتدريسًا، ومِنْ بين هؤلاء الدكتور "أمين أنور الخولي"41 الذي جَعَلَ ما يتعلَّقُ بالصفات الشكليَّةِ النبويَّةِ في صدر كلامِهِ عن "الرياضة البدنيَّةِ في السنَّةِ النبويَّةِ"42، فكأنِّي به يقرأُ السنةَ النبويَّةَ قراءةً رياضيَّةً تخصصيَّةً، لا سِيَّمَا وأنَّ غيرَهُ مِمَّنْ لم يتخصصْ في هذا المجالِ، قد لا يكادُ يكتشفُ وهو يَطَّلِعُ على الصفات الْخَلْقِيَّةِ الشكليَّةِ للنبيِّ ﷺ بأنَّ فيها ما يدعُو إلى ممارسةِ الرياضةِ والعنايةِ بها.

3- عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: كَانَتْ نَاقَةٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ تُسَمَّى الْعَضْبَاءَ43 ، وَكَانَتْ لاَ تُسْبَقُ ، فَجَاءَ أَعْرَابِيٌّ عَلَى قَعُودٍ44 لَهُ فَسَبَقَهَا، فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَقَالُوا سُبِقَتِ الْعَضْبَاءُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ لاَ يَرْفَعَ شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا إِلاَّ وَضَعَهُ»45.

فهذا الحديثُ يقرِّرُ أنَّ النبيَّ ﷺ كانت له ناقةٌ يُسَابِقُ عليها، وكان دائمًا يفوزُ، إلا أنَّ مركوبَ الأعرابيِّ سَبَقَهَا في هذه الحادثةِ، فاسْتَاءَ الصحابةُ ﷺ، ولم يتقبَّلُوا هزيمةَ ناقةِ رسولِ اللهِ ﷺ. فأرادَ ﷺ بحُسْنِ خُلُقِهِ أنْ يُذْهِبَ الغضبَ من نفوسِهم، فبَيَّنَ لهم أنَّ الهزيمةَ في هذه المرَّةِ من جنس ما جَرَتْ به الأقضيةُ الإلهيَّةُ التي أوجبَها اللهُ تعالى على نفسه؛ فهو ﷻ يَضَعُ المرتفعَ من الدنيا فيها كائنًا ما كانَ.

والحديثُ فيه تزهيدٌ في الدنيا، ودعوةٌ إلى إغماض الطرفِ عن زهراتِها؛ فإنَّها قد تتناهَى في أحيانٍ معيَّنَةٍ إلى أعلى المقاماتِ، ولكنَّها قد تصيرُ في أحيانٍ أخرى إلى منتهَى الدَّرَكَاتِ. وعلى هذا كان لزامًا على المسلم أنْ يتركَ فيها المباهاةَ والمفاخرةَ على غيره، وأنْ يتواضعَ ويَطْرَحَ رداءَ الكبرِ من على نفسه46.

وبالتمعُّنِ في صنيع النبيِّ ﷺ نجدُهُ أيضًا يُؤَصِّلُ لِمَا يُسَمَّى في عالَمِ الرياضةِ اليومَ بالروح الرياضيَّةِ التي تَعْنِي أنْ يكونَ المرءُ على درجةٍ كبيرةٍ من التحمُّلِ والصبرِ، وأنْ يتقبَّلَ الهزيمةَ كما يتقبَّلُ الفوزَ، وأنْ يعترِفَ بضعفِهِ وبقوةِ خصمه عند المواجهةِ المعيَّنَةِ التي ينهزمُ فيها، بل إنَّهُ صلواتُ اللهِ عليه وسلامُهُ أعطَى المثلَ الأعلى في هذه الحادثةِ في التحلِّي بهذه الروحِ وبالْخُلُقِ الرياضيِّ القويمِ47.

فرغمَ التباينِ الكبيرِ في المركز الاجتماعيِّ بَيْنَهُ وبين منافسِهِ؛ فهو رسولُ اللهِ وقائدُ المسلمين ووليُّ أمرِهم ومحبوبُهم، والمنافِسُ أعرابيٌّ من جملة عامَّةِ الناسِ، بل إنَّهُ كان نكرةً لا يكادُ يعرفُهُ أحدٌ48، ومع ذلك أَقَرَّ له ﷺ بالفوز عليه، ولم يفعلْ أيَّ شيءٍ من شأنه أنْ يُظْهِرَ احتقارَهُ له وترفُّعَهُ عليه وعدمَ رضاه بنتيجة المنافسةِ، وفوقَ كلِّ هذا بادَرَ إلى تسكين غضبِ مناصريهِ ومحبِّيهِ ومشجِّعِيهِ.

والتحلِّي بالروح الرياضيَّةِ لا يَعْنِي أنَّ الرياضيَّ إذا ما فازَ في موقعةٍ ما أنْ لا يُبْدِيَ فرحَهُ، وأنْ يَعْتَبِرَ ما حقَّقَهُ في إطار اللَّاحدثِ –كما يُقَالُ–؛ ذلك أنَّ ابتهاجَ النفسِ بالفوز وتحقيقِ النتائجِ الإيجابيَّةِ من فطرةِ الإنسانِ، ولو كان ذلك في مجال الرياضةِ.

ولذا وجدْنا النبيَّ ﷺ وصحابتَهُ الكرامَ، يَعتبِرون الفوزَ فيها إنجازًا يستحقُّ أنْ يُفْرَحَ به، بل وأنْ يُهَنَّأَ صاحبُه عليه أيضًا؛ فقد سُئِلَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ : "هَلْ كُنْتُمْ تُرَاهِنُونَ49 عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟" فَقَالَ: "نَعَمْ؛ لَقَدْ رَاهَنَ عَلَى فَرَسٍ لَهُ، يُقَالُ لَهُ: سَبْحَةُ50، فَسَبَقَ النَّاسَ، فَبَهَشَ51 لِذَلِكَ، وَأَعْجَبَهُ"52.

وحُذَيْفَةُ بنُ الْيَمَانِ ﷺ سَبَقَ النَّاسَ عَلَى فَرَسٍ لَهُ أَشْهَبَ، فجَلَسَ عَلَى قَدَمَيْهِ، مَا تَمَسُّ أَلِيَتَاهُ الأَرْضَ؛ فَرَحًا بِهِ، وهو يَقْطُرُ عَرَقًا، وَفَرَسُهُ عَلَى مَعْلَفِهِ، وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، وَالنَّاسُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِ يُهَنِّؤُونَهُ[53].

فبناءً على هذه النصوصِ الحديثيَّةِ، فإنَّهُ يجوزُ للرياضيِّ أنْ يُظْهِرَ أماراتِ الفرحِ عند فوزِهِ في المباراة المعيَّنَةِ، ولكنْ لا ينبغي أنْ يَصِلَ به الحالُ إلى درجةِ الاغترارِ بالنفس، والتعالي عن الخصمِ، وإذا ما انهزمَ فلا يَغْمِطْ مواجِهَهُ حقَّهُ، ولْيَعْتَرِفْ له بمقدرتِهِ.

خاتمة:

هذا، وبعد استعراضِ تلك النماذجِ التي قُرِئَتْ فيها الآياتُ والأحاديثُ قراءةً رياضيَّةً –إنْ صحَّ التعبيرُ–، أرجو أنْ تكونَ فكرةُ "القراءةِ التخصصيَّةِ للقرآن والسنَّةِ" قد اتضحتْ، ومعالُمُها قد ارتسمتْ، وأدعُو من خلالها كلَّ متخصصٍ في علمٍ معيَّنٍ أو فنٍّ محدَّدٍ إلى تفعيلها، والقيامِ بها واقعًا، بحيث يعكفُ من حينٍ إلى آخَرَ على كتاب اللهِ تعالى، فيختمُهُ وهو يقرأُ فيه قراءةً اجتماعيَّةً إنْ كان اجتماعيًّا، أو نفسيَّةً إنْ كان نفسانيًّا، وهكذا. وما يُقَالُ عن القرآن يُقَالُ على السنة، بحيث يَنْبَرِي إلى مصنَّفٍ حديثيٍّ معيَّنٍ، ويقومُ بالعمل سالفِ الذكرِ نفسِهِ.

وقلتُ "من حينٍ إلى آخَرَ"؛ حتى لا تُفْعَلَ تلك القراءةُ مرةً ويُنْتَهَى منها، بل لا بدَّ من تجديدها بين الْفَيْنَةِ والأخرى؛ لأنَّ علمَ الإنسانِ وتمكُّنَهُ من التخصص المعيَّنِ ينمُو يوميًّا –خاصَّةً إذا كان متابعًا باحثًا–، وتجاربَهُ المتتاليةَ تزيدُهُ صقلًا، ولذا فإنه قد يظهرُ له في القراءة المعيَّنَةِ ما لم يظهرْ له في القراءة أو القراءاتِ التي قبلها، هذا علاوةً على أنَّ الفهمَ والاستنباطَ فتحٌ ربانيٌّ، وتوفيقٌ إلهيٌّ؛ فقد لا يُفْتَحُ على الإنسان ولا يُوَفَّقُ في حالٍ ما لسببٍ ما، ولكن يُفْتَحُ عليه ويُوَفَّقُ في حالٍ أخرى لأسبابٍ أخرى، على حسب تقديرِ الحكيمِ العليمِ جلَّ في عُلَاهُ.

الهوامش:

[1]– أقصدُ بالعلوم المعاصرةِ في هذا السياقِ على وجه الخصوصِ العلومَ الإنسانيَّةَ والاجتماعيَّةَ، كالاجتماع والنفسِ والقانونِ والسياسةِ ونحوِها، ولا أَعْنِي العلومَ الكونيَّةَ والدقيقةَ، كالبيولوجيا والجيولوجيا والكيمياء والفيزياء؛ لأنَّ هذه الأخيرةَ قد عُنِيَ بها كثيرًا من قِبَلِ المهتمِّين بالإعجاز العلميِّ في الكتاب والسنة، وإنْ كانت مساحةُ هذيْنِ المصدريْنِ ما زالتْ تَتَّسِعُ لمزيدٍ من البحوثِ والدراساتِ في هذا الإطارِ.

[2]– فيه اقتباسٌ من قوله تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[فصلت:42].

[3]– فيه اقتباسٌ من قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[فصلت:3-4].

[4]– إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، مادة: راض، 382/1.

[5]– ابن عاشور، التحرير والتنوير، 292/2.

[6]– القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 246/3.

[7]– البغوي، معالم التنزيل، 371/3.

[8]– الرازي، مفاتيح الغيب، 148/15.

[9]– ابن عاشور، التحرير والتنوير، 55/10.

[10]– الرازي، مفاتيح الغيب، 148/15.

[11]– رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فَضْلِ الرَّمْيِ وَالْحَثِّ عَلَيْهِ وَذَمِّ مَنْ عَلِمَهُ ثُمَّ نَسِيَهُ، 52/6.

[12]– ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 148/15.

[13]– القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 73/8.

[14]– ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 55/10.

[15]– ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 81/18.

[16]- ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 139/9.

[17]- ينظر: الشوكاني، إرشاد الفحول، ص399.

[18]- ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 229/12.

[19]- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 145/9.

[20]- ابن العربي، أحكام القرآن، 39/3.

[21]- رواه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب فِي الأَمْرِ بِالْقُوَّةِ وَتَرْكِ الْعَجْزِ وَالاِسْتِعَانَةِ بِاللَّهِ وَتَفْوِيضِ الْمَقَادِيرِ لِلَّهِ، 56/8.

[22]- صحيح مسلم بشرح النووي، 329/16.

[23]- ينظر: فالح الصغير، حديث المؤمن القوي خير وأحب إلى الله: وقفات وتأملات، ص21 وما بعدها.

[24]- محمد بن علان الصديقي، دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، 71/2-72.

[25]- ينظر: عبد المحسن العباد، شرح سنن أبي داود، 305/26.

[26]- ينظر: ابن هشام، السيرة النبوية، 12/4-13. وقريبٌ من هذا ما جاء في صحيح مسلمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: "قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ مَكَّةَ وَقَدْ وَهَنَتْهُمْ حُمَّى يَثْرِبَ، قَالَ الْمُشْرِكُونَ: إِنَّهُ يَقْدُمُ عَلَيْكُمْ غَدًا قَوْمٌ قَدْ وَهَنَتْهُمُ الْحُمَّى، وَلَقُوا مِنْهَا شِدَّةً، فَجَلَسُوا مِمَّا يَلِي الْحِجْرَ وَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَرْمُلُوا ثَلَاثَةَ أَشْوَاطٍ، وَيَمْشُوا مَا بَيْنَ الرُّكْنَيْنِ؛ لِيَرَى الْمُشْرِكُونَ جَلَدَهُمْ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّ الْحُمَّى قَدْ وَهَنَتْهُمْ، هَؤُلَاءِ أَجْلَدُ مِنْ كَذَا وَكَذَا". وقَالَ: "إِنَّمَا سَعَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَرَمَلَ بِالْبَيْتِ لِيُرِيَ الْمُشْرِكِينَ قُوَّتَهُ". ينظر: مسلم، الصحيح، كتاب الحج، باب اسْتِحْبَابِ الرَّمَلِ فِي الطَّوَافِ وَالْعُمْرَةِ وَفِي الطَّوَافِ الأَوَّلِ فِي الْحَجِّ، 65/4.

[27]- هكذا جاء في متن الكتابِ "ضررًا" بالفتح، وأظنُّ أنَّ الصوابَ "ضررٌ" بالضمِّ؛ لأنَّ "ضرر" خبرُ "لأنَّ" مرفوعٌ، وعلامةُ رفعِهِ الضمَّةُ الظاهرةُ على آخره.

[28]- محمد بن صالح العثيمين، شرح رياض الصالحين، 380/1.

[29]- مُعْتَدِلُ الْخَلْقِ: أي معتدلُ الصورةِ الظاهرةِ؛ فهو متناسبُ الأعضاءِ خَلْقًا وحُسْنًا. ينظر: المناوي، فيض القدير، 99/5.

[30]- بَادِنٌ مُتَمَاسِكٌ: أي ضخمُ البدنِ، من غير إفراطٍ في السمنِ الموجبِ للرخاوة؛ فإنَّ بعضَ أجزائِهِ يمسكُ بعضًا، بحيث يكادُ يكونُ على الخلقِ الأوَّلِ، ولم يضرَّهُ السنُّ. ينظر: المناوي، فيض القدير، 99/5.

[31]- سَوَاءٌ الْبَطْنُ وَالصَّدْرُ: أي هما مُتَساويان، لا يَنْبُو أحدُهُما عن الآخَرِ. ينظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، 427/2.

[32]- الْكَرَادِيسِ: أي الأعضاء. ينظر: البغوي، شرح السنة، 278/13.

[33]- شَثْنُ الْكَفَّيْنِ وَالْقَدَمَيْنِ: أي غليظُهما بِلَا قِصَرٍ، وهو يدلُّ على قوةِ البطشِ والثباتِ، ويشيرُ إلى صفة الشجاعةِ، وهذا الْغِلَظُ في العظامِ، وإلا فإنَّ جلدَهُ ﷺ لَيِّنٌ، فتجتمعُ له بذلك نعومةُ البدنِ مع القوةِ. ينظر: القاري، مرقاة المفاتيح، 471/10. و: المباركفوري، تحفة الأحوذي، 116/10.

[34]- سَائِلُ الأَطْرَافِ: أي ممتدُّ الأصابعِ، طويلُها. ينظر: ابن قتيبة، غريب الحديث، 502/1. و: البغوي، شرح السنة، 279/13.

[35]- رواه البيهقي في شعب الإيمان، 154/2. ورواه الترمذي في الشمائل المحمدية، ص36.

[36]- ينظر: القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، 83/1-84.

[37]- عَبْل: من العَبالة، وهي الضَّخَمُ والشدَّةُ. ينظر: الزمخشري، الفائق في غريب الحديث، 249/3.

[38]- ضَرْبَ اللحمِ: خفيفَهُ. ينظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، 78/3.

[39]- مِنْ ذلك أنَّهُ مارسَ رياضةَ الْعَدْوِ والجري؛ بدليل حديثِ عَائِشَةَ رضي الله عنها عندما قَالَتْ: "سَابَقَنِي النَّبِيُّ ﷺ فَسَبَقْتُهُ، فَلَبِثْنَا حَتَّى إِذَا رَهَقَنِي اللَّحْمُ سَابَقَنِي فَسَبَقَنِي، فَقَالَ: «هَذِهِ بِتِيكَ». رواه النسائي في سننه الكبرى، كتاب عشرة النساء، باب مسابقة الرجل زوجته، 303/5. ورواه أحمد في مسنده، حديث رقم: 24118، 144/40. واللفظ لأحمد. كما أنَّهُ مارسَ رياضةَ ركوبِ الخيلِ؛ بدليل حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ لَمَّا سُئِلَ: "هَلْ كُنْتُمْ تُرَاهِنُونَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟" فَقَالَ: "نَعَمْ؛ لَقَدْ رَاهَنَ عَلَى فَرَسٍ لَهُ، يُقَالُ لَهُ: سَبْحَةُ، فَسَبَقَ النَّاسَ، فَبَهَشَ لِذَلِكَ، وَأَعْجَبَهُ". رواه البيهقي في سننه الكبرى، كتاب السبق والرمي، باب مَا جَاءَ فِي الرِّهَانِ عَلَى الْخَيْلِ وَمَا يَجُوزُ مِنْهُ وَمَا لاَ يَجُوزُ، 35/10. ورواه أحمد في مسنده، حديث رقم: 12627، 75/20. واللفظ لأحمد.

[40]- أمين أنور الخولي من مواليد القاهرة سنة 1946م، نال درجة الدكتوراه في الفلسفة في التربية الرياضية عام 1982م، وهو أستاذ أصول التربية الرياضية في كلية التربية الرياضية بجامعة "حلوان" المصرية، له عدة مؤلفات وبحوث في مجال الرياضة والترويح والتربية البدنية، مِنْ بينها:

كتاب "الرياضة والحضارة الإسلامية: دراسة تاريخية فلسفية للمؤسسة الرياضية الإسلامية"، ومقال "مكانة التربية البدنية والرياضية في الفكر التربوي الإسلامي". ينظر: أمين أنور الخولي، الرياضة والمجتمع، ص237.

[41]– ينظر: أمين أنور الخولي، الرياضة البدنيَّة في السنُّةِ النبويَّة، مقالٌ منشورٌ على الشبكة العنكبوتية.

[42]– الْعَضْبَاءُ هي الناقةُ المشقوقةُ الأذنِ. وناقةُ رسولِ اللهِ ﷺ لم تكن مشقوقةَ الأذنِ، لكنْ صارَ هذا لقبًا لها. ينظر: العيني، عمدة القاري، 135/23.

[43]– القَعُودُ هو البكرُ من الإبل حين يُمكِّنُ ظهرَهُ للركوب، وأدنى ذلك سَنَتَانِ. ينظر: العيني، عمدة القاري، 135/23.

[44]– رواه البخاري في صحيحه، كتاب الرقائق، باب التواضع، 2384/5.

[45]– ينظر: محمد بن علان الصديقي، دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، 78/5.

[46]– ينظر: بدر عبد الحميد هميسه، الإسلام والروح الرياضية، ص21-23.

[47]– قالَ ابنُ حجرٍ وهو يشرحُ هذا الحديثِ: "ولم أقفْ على اسم هذا الأعرابيِّ بعد التَّتَبُّعِ الشديدِ". ينظر: ابن حجر، فتح الباري، 87/6.

[48]– الرِّهانُ هو أنْ يُخْرِجَ كلُّ واحدٍ من المتسابقين شيئًا، ويجعلُهُ رهنًا، ليفوزَ بالكلِّ إذا غَلَبَ. ينظر: المناوي، فيض القدير، 557/5.

[49]– سُمِّيَ بذلك مِنْ قَوْلِهِم فَرَسٌ سابِحٌ، إذا كان حَسنَ مَدِّ الْيَدَيْنِ في الجَرْيِ. ينظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، 332/2.

[50]– يقال للإنسان إذا نظر إلى الشيء فأعجبه واشْتهاه وأسرع نحوه: قد بَهَش إليه. ينظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، 167/1.

[51]– رواه البيهقي في سننه الكبرى، كتاب السبق والرمي، باب مَا جَاءَ فِي الرِّهَانِ عَلَى الْخَيْلِ وَمَا يَجُوزُ مِنْهُ وَمَا لاَ يَجُوزُ، 35/10. ورواه أحمد في مسنده، حديث رقم: 12627، 75/20. واللفظ لأحمد.

[52]– رواه عبد الرزاق الصنعاني في مصنفه، كتاب الجهاد، باب سباق الخيل، 305/5. ورواه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب السير، باب السِّباقِ والرِّهانِ، 210/11.

خريجي الجامعة الجزائرية والأعمال الحرة

أ.فني غنية

جامعة برج بوعريريج

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

Résume:
Les diplômés de l'université vivent plusieurs problèmes liés au domaine de l'emploi en Algerie, et la solution pour eux est l'activité libérale ,ce qui signifie le travail pour sois même . Alors quelles sont les facteurs qui conduisent les diplômés de l'université algérienne aux activités libérales ? ces facteurs sont des facteurs économiques, sociaux et organisationnels.

مقدمة .

إن الاهتمام بقضايا الشباب و اتجاهاته ومشكلاته هو اهتمام بالمجتمع ككل و بمستقبله ، و تعد عملية ممارسة العمل و اختياره من المميزات الهامة لدى شباب الجامعة المقبلين على مجالات العمل المتعددة . و يحاط الفرد عند إقدامه على اختيار عمله بالعديد من المؤثرات و الظروف الخاصة و المجتمعية التي تؤثر من قريب أو من بعيد على اختياره ، فقد تدفعه إلى عمل معين حاجاته المتعددة التي يسعى دائما إلى إشباعها و كذلك ميوله ، و قد تؤثر عليه و تساعده في اتخاذ قراره ظروف البيئة كالتنشئة الاجتماعية من خلال مؤسساتها الكثيرة أو تخصصه أو تغير مكانته أو أوضاعه . كما و قد تساعد نظرة الناس إلى نوع العمل في اختيار الشاب .

إن خريج الجامعة هو ذلك الشخص الذي ينهي مرحلة الدراسة بالجامعة و هو متحصل على شهادة أو دبلوم في إحدى التخصصات العلمية أو الأدبية .

إن العمل الحر هو ذلك العمل الذي يمارسه الخريج الجامعي لحسابه الخاص و باستقلالية سواء كان ممولا من طرف الخريج ذاته أو بتدعيم من طرف الدولة عبر وكالات أو أجهزة لتدعيم الشباب البطالين .

توجد العديد من الأسباب في توجه خريج الجامعة نحو العمل الحر ، هذا التوجه قد يكون ناجما عن أسباب مباشرة داخلية نابعة من إرادة الخريج الجامعي نفسه أم ناتجة عن عوامل أخرى غير مباشرة خارجة عن إرادته بل هي خاضعة لظروف محيطية كثيرة . و من بين هذه الأسباب هي الأسباب الاجتماعية ، الأسباب الإقتصادية ، الأسباب التنظيمية . و فيما يلي تفصيل لها :

1- الأسباب الإجتماعية :

تعتبر الأسباب الإجتماعية عنصرا مهما في توجه خريج الجامعة نحو العمل الحر ، و هذه الأسباب تتضمن مجموعة من العناصر و هي :

- تغير القيم الاجتماعية :

تعتبر القيم موضوعا هاما في علم الاجتماع نظرا لكونها تمثل عنصرا من العناصر التي تشكل الثقافة . و تخضع هذه القيم لعامل التغيير الذي يمس كل الجوانب الحياة . و القيم هي " مجموعة من المعايير والأحكام تتكون لدى الفرد من تفاعله بين المواقف و الخبرات الفردية و الاجتماعية بحيث تمكنه من إختيار أهداف و توجهات لحياته يراها جديرة لتوظيف إمكانياته ".(1) و من بين القيم التي يحملها الفرد و توجه سلوكه و أفعاله قيم العمل التي عرفها طراونة (1990) بأنها : " مجموعة من المبادىء و المعايير التي تحكم سلوك الفرد أو الجماعة ، و ترتبط هذه المبادىء بتحديد ما هو خطأ و ما هو صواب في موقف معين ".(2)

إن قيم العمل مفاهيم دينامية ، أي أنها مؤثرة و متأثرة بما حولها ، فهي مؤثرة في اختيارات الأفراد لأنماط معينة من السلوك ، و متأثرة بالمتغيرات المحيطة بها سواء أكانت تكنولوجية أم اقتصادية أم اجتماعية ... الخ .

لقد اختلفت و تعددت القيم التي يحملها المجتمع و يلقي بظلالها على خريج الجامعة حينما يفكر في التوجه إلى العمل الحر . و من بين القيم التي توجه العمل في القطاع الحكومي هو اختلاف الولاء ، فكما هو معروف فإن ظاهرة الولاء تكون للأفراد و للجماعات و الأهل و الأصدقاء و العصبة والقبيلة و للوطن ، غير أن مفهوم الولاء تعداه أيضا إلى مجال الإدارة ، و ذلك حينما يتم طرح فكرة الولاء لعمل ما بصرف النظر عن علاقة الفرد به اقتصاديا ، و هو يعني نشوء نوع من الارتباط العقدي و الأخلاقي إزاء الوظيفة و هو يعتبر من المستلزمات الضرورية للاستمرار فيها .

و الولاء للمهنة يقتضي من العامل أن يهتم بالمهارة و الجدارة و التحكم في دفة الأمور و التصرف الواعي و لا يهتم نهائيا بالمصالح الشخصية و حماية الذات . و يمكن إسقاط فكرة الولاء على حال الخريج الجامعي حينما تكون هذه الفكرة سببا قويا له للتوجه إلى العمل الحر، و هذا خَلَقَ لدى الخريج تصورا جديدا عن العمل الحكومي سبب له أحكاما قيمية قد تتنافى مع متطلبات العمل الحر ، فالخريج يطمح لتكوين نوع من الولاء الذاتي نحو نشاط يحظى بالاهتمام و التطور.

إن الواقع الجزائري يؤكد على انتشار قيمة اجتماعية جديدة و هي فقدان الثقة بالتعليم في المجتمع ، و يذكر حسن وآخرون (1999 : 66) أن الفرد الذي يمكث فترة طويلة بدون عمل أو يقوم بعمل لا يتلاءم معه أو عمل يمكن أن يقوم به غيره – ممن لم يتعلم مثله – يفقد ثقته بالتعليم ويؤدي ذلك إلى اهتزاز قيمة التعليم في المجتمع .(3)

لقد تغيرت نظرة بعض الخريجين الجامعيين حول طبيعة العمل ويفضلون البطالة على الاشتغال في منصب عمل يعتبرونه منزلا لقيمتهم الاجتماعية . إذن نلاحظ أن هناك تحولا في النظرة إلى العمل كقيمة اجتماعية و اقتصادية . و السؤال الذي يطرح هنا يتعلق بمعرفة أسباب عدم قبول شباب مثقفين أو مؤهلين لمتابعة أي نشاط ، فهل يرتبط الوضع بنقص مناصب العمل فقط أم بأسباب ذاتية تتعلق بنوعية الشغل ؟ . و في هذا السياق يذهب كلا من علي غربي و إسماعيل قيرة استنادا لبيانات الديوان الوطني للإحصاء إلى أن " ظاهرة البطالة تنتشر بنسبة أكبر بين الذكور دون الإناث ، كما أنها لا تمس فئة غير المؤهلين فحسب ، بل تشمل أيضا ذوي الشهادات بما في ذلك خريجي الجامعات ، و ترتفع نسبتها في الوسط الحضري عنها في الوسط الريفي ... و إذا كانت أعلى نسبة للبطالة تتشكل من شباب المدن و الحاصلين على شهادات جامعية ، فلأن مثل هذه الفئات من المتكونين تكوينا عاليا يصعب عليها الحصول على منصب عمل . في حين يسهل على ذوي التكوين الأولي أو عديميه من الإلتحاق بالقطاع غير الرسمي كعمال أحرار أو حرفيين أو مستخدمين في المنازل ." (4)

– التوارث الإجتماعي للمهنة :

هناك سبب اجتماعي آخر في توجه خريج الجامعة على العمل الحر هو المنشأ الاجتماعي للفرد أو ما يسمى بالميراث العملي ، فبعض الخريجين يتبعون مسار أبائهم العملي ، فإن كان والد الخريج قد زاول عملا حرا فإنه سوف يتأثر بذلك الأمر و ربما قد يؤثر عليه الوالد أو العائلة بإتباع هذا السبيل . و حتى لا تضيع المصالح الاجتماعية للفرد و للجماعة أصبح الخريج الجامعي يرث مهنة الآباء و الأجداد ، فالعمل الحر لا يقتصر على الخريج الجامعي الذي ينتمي إلى طبقة دنيا أو عليا أو متوسطة .

– البطالة :

و تنشأ مشكلة البطالة بين المثقفين في البلاد التي ينتشر فيها التعليم النظامي العالي و يزيد عدد المتخرجين فيه على ما تستطيع إقتصاديات البلاد أن تتيحه لهؤلاء الخريجين من مستقبل . و ليس من السهل إخفاء أو حل مشكلة البطالة بين

مثل هذه الطبقة المتوسطة من الشباب المتصف بالامتياز و الانتباه و اليقظة ، ففي مصر مثلا وصلت نسبة البطالة بين الخريجين نسبة عالية قد تصل إلى الثلثين .(5)

يعاني خريجو الجامعة الجزائرية من هذه المشكلة العويصة و هي عدم توفر العمل وانخفاض مستوى المعيشة ، بالإضافة إلى الأزمات الاقتصادية و الاجتماعية الشائكة التي يعيشها غالبية الشباب الجزائري أفرزتها طبيعة الحياة الحضارية الحديثة التي عزلتهم عن واقع الحياة العملية و الإنتاج و أخرت دخولهم عشر سنوات أو أكثر إلى عالم الشغل ، مما أدى بهم إلى الشعور بعدم الأهمية و خلق شعورا بالحقد يسكن النفوس نتيجة الإحساس بالظلم أو " الحقرة " و هو المصطلح الذي يتداوله الجزائريون بكثرة .

كل هذه العناصر دفعت ببعض الخريجين الجامعيين إلى التوجه نحو العمل الحر، كما دفعت بالآخرين إلى التعبير عن رفضهم و نقدهم للمجتمع من خلال سلوكيات شاذة كالعنف و التمرد و الغلو و التطرف . و هذا الوضع يتطلب بالضرورة إعادة النظر في واقع نظام التعليم العام بإعادة بنائه من جديد ليوافق هدف إعداد الشباب للمشاركة الجادة في الحياة ، و ليس مجرد شخص قادر على الدخول إلى الجامعة و استيعاب موادها الدراسية و التخرج بشهادة جامعية .

– إنسداد فرص التوظيف أمام الخريج الجامعي :

تنتشر في المجتمع الجزائري ظواهر اجتماعية مرضية عديدة على غرار كل دول العالم و من بينها الرشوة ، المحاباة ، الوساطة ، المحسوبية أي الفساد بكل أشكاله ، و هذه الظواهر تمس كل الأنساق المكونة للبناء الاجتماعي و لها أسباب و عوامل أدت إلى انتشارها و خاصة أثناء العمل في القطاع العمومي . فالوضع الاجتماعي – الثقافي الذي مازال يحتكم إلى القواعد التقليدية و الذاتية بدلا من الاحتكام إلى القواعد و المعايير العقلانية العلمية التي تحدد شروط القبول في الوظيفة وفقا للمستوى العلمي و الخبرة و المهارة .

و يمكن إرجاع أسباب انتشار ظاهرة الفساد إلى العناصر التالية : (6)

– ضعف الأخلاقيات الوظيفية للعمل الحكومي ، لأن النظام الذي تخضع له الحكومة من حيث آليات المساءلة ضعيف ، و الكيانات الموجودة صورية ليست لها قوة حقيقية أو سلطة و لا تملك الاستقلالية أو الحصانة التي تمكنها من أن تباشر دورها بفاعلية ، فالمشكلة الحقيقية تكمن في تطبيق القوانين الرادعة للفساد و ليس عدم وجود المنظومة القانونية و الأجهزة التشريعية و الرقابية .

– إن النظم و الإجراءات و منظومة العمل الحكومي ذاته – كبيرة الحجم – تحوي من التعقيدات و الغموض ما يمكن فئات معينة من القفز و استغلال هذه الثغرات لصالحها .

– الصلاحيات و السلطات غير المقيدة التي تتمتع بها قيادات الأجهزة الحكومية و التي لا تخضع لمعايير واضحة معلنة و موضوعية و تعتمد على سلطة تقديرية تفتقر إلى الشفافية في قراراتها .

– يؤدي ضعف المجتمع المدني و تهميش دور مؤسساته الممثلة في الأحزاب السياسية و جماعات المصالح و التنظيمات الاجتماعية المختلفة يؤدي إلى غياب قوة الموازنة المهمة في هذه المجتمعات ، مما يساعد في تفشي ظاهرة الفساد و استمرار نموها .

و على مستوى التعيينات للوظيفة العامة يبقى الحصول عليها يتم في بعض الأحيان – إن لم يكن في أغلبها – عن طريق الوساطات الشخصية دون الطريق المعتاد المراعي لدرجة التعليم و الخبرة . و السؤال الذي يطرح نفسه هو : هل هناك معايير أخرى تراعى عند تعيين الموظفين الجدد ؟ و الجواب هو نعم . فقد أثبت الواقع أن المكانة الاجتماعية للفرد

أو صلة القرابة أو الثروة و ربما الدين أو المذهب السياسي ، كلها اعتبارات أصبح يؤخذ بها في التوظيف لخريجي المعاهد التكوينية و الجامعات .

و الوساطة أو (الواسطة) تعتبر من أهم صور السلوك الانتهازي و الذي انتشر بشكل وبائي كغيره من السلوكيات السلبية الشاذة ، إلا أن الواسطة التي نعنيها تكون بتوسيط شخص آخر يملك السلطة و الإمكانيات لممارسة سلوك ما و التي لا يملكها الشخص نفسه . أما الواسطة في (محاباة الأقارب) فتعني أن " الموظف المخالف نفسه يملك السلطة و الإمكانيات لممارسة – صورة من صور السلوك الانتهازي – إما بإرادته الذاتية أو بضغط من أقاربه ".(7)

تعتبر ظاهرة الرشوة متفشية كثيرا في أغلب المجتمعات و منها المجتمع الجزائري ، و تتجاوز آثارها و سلبياتها سلوك الفرد أو مجموعة الأفراد الذين يمارسونها لتشمل المجتمع بكل قطاعاته ، بحيث أنها تضعف من فاعلية المشاريع الاقتصادية و تحدث خللا خطيرا في القيم و المثل الاجتماعية و تؤدي إلى ضعف الضمير الجمعي و التضامن الاجتماعي ، في حين أنها تصيب أجهزة الدولة بالشلل و تحد من فاعليتها في تحقيق الأهداف الطموحة لخطط الدولة الاقتصادية و الاجتماعية . و تعتبر ظاهرة الرشوة من أخطر مظاهر الفساد ، و هي ظاهرة صارخة تتفاوت من رشوة صغيرة إلى رشوة كبيرة تصل إلى الملايين ، إذ الرشوة تعني إتمام إجراءات معينة لقاء حقوق محفوظة للموظف .

كما أن المحسوبية و المجاملات والوساطة تتم على حساب الآخرين بما يمتلك الموظف من سلطة و نفوذ و هي كلها أشكال لبيروقراطية ضعيفة لا تعمل بالإجراءات القانونية بل برواسب إجتماعية تعيق سيرورة المجتمع و تصبح معوقات وظيفية للبناء الاجتماعي .

إن كل هذا الكلام الذي قيل عن الفساد و أشكاله غير نظرة خريجي الجامعة نحو العمل الحكومي. فالجدير بالذكر أن لعدم تكافؤ الفرص بين المواطنين في الحصول على العمل تأثير مستقبلي من الصعب التنبؤ بنتائجه ، و يظهر ذلك واضحا في مجال الوظيفة أي عدم وضع الشخص المناسب في المكان المناسب ، و من جهة أخرى فالفرص في القطاع الحكومي لم تعد تأت للكفؤين بقدر ما تعتمد على المصالح الشخصية و المحسوبيات... ، لكن في العمل الحر تختفي المظاهر السلبية إلى حد كبير طالما أن صاحب العمل الحر لا تتحكم فيه أي جهة خارجية .

يمكن القول أن الفساد الإداري ليس سببا في توجه الخريج الجامعي إلى العمل الحر ، و إنما هذا الفساد زاد من عدم تراكم الرأس مال الذي يسمح بتوسع العمل و زيادة التوظيفات أو ربما احتكار أصحاب الإدارة الفاسدة المناصب إلى من أقربائهم أو أصحابهم أو من يصبحون لهم أوفياء و يقدمون رشاوي .

– كفاءة خريج الجامعة و صلاحيته للوظيفة :

من المفترض أن يكون المقياس الوحيد في اختيار المرشحين الجدد للعمل هو مدى ملاءمتهم للعمل و مستوى تأهيلهم بما يوفر إضافة ثرية للعمل لإنجاحه . و لكن معظم المسؤول – في عالمنا العربي – يضطر إلى تجاوز هذه القوانين من أجل إرضاء أقاربه أو أصدقائه الأعزاء أو أبناء عشيرته حتى ولو كان لا يرغب في ذلك . (8)

إن نظام التوظيف في الغرب يقوم على الاختيار و الترغيب لشغل الوظائف على أساس الجدارة و المهارة و الكفاءة ، و الذي يمكن فيه كسر شوكة الفساد إلى حد بعيد .

إن الآلية التي لا بد أن تعتمدها الدول المتخلفة و حتى السائرة في طريق النمو هي أن تحدث تعديلات جوهرية على التعليم و ذلك باتجاه جعله أكثر توافقا مع حاجات التنمية و أسواق العمل ، مع التوسع في إكساب الشباب مهارات و خبرات متعددة من خلال مناهج ابتكارية تقوم على التجديد و الإبداع و تغليب الجانب التطبيقي على الجانب النظري

فبعض الدراسات تشير " إلى أن الجيل الصاعد سيتعرض لتبديل وظيفته بمعدل (4 – 6) مرات على امتداد حياته المهنية ، و يفرض هذا التغيير المستمر في المهارات المطلوبة ، و في الوظائف المعروضة على الأجيال الصاعدة أن تتهيأ بشكل أفضل من خلال امتلاك مرونة كبيرة في اكتساب مهارات و خبرات مستجدة ". (9)

و في البلدان العربية يختلف الموقف نوعا ما من حيث أن النظرة ، إذ كانت الأعمال الحرة في سنوات ماضية لا تلقى رواجا كبيرا و هذا عائد للإمكانيات الضئيلة لدى الأفراد و للتوجه الاقتصادي السائد في البلد ، حيث أن النهج الاشتراكي أي الاقتصاد الموجه ساعد كثيرا في تكريس فكرة العمل الحكومي و ضرورة تحكم الدولة في دفة الاقتصاد . أما بعد التحول الذي شهده المجتمع العربي و انفتاحه على السوق العالمية أدى ذلك إلى بروز فئات تشتغل ضمن فكرة العمل الحر و المشاريع المصغرة .

2– الأسباب الاقتصادية : و تتمثل في العناصر التالية :

– الاستقلالية المادية :

أصبحت الاستقلالية المادية مطلب الكثير من الشباب و خاصة الشباب المتخرجين من الجامعة والذين يطمحون في تحصيل العديد من المتطلبات من خلال العمل الذي يقومون به . و قد أضحى العمل الحر هو ملجؤهم و سبيلهم ، لأن انتظار الوظيفة الحكومية ربما يضيع الوقت الكثير من عمر الشباب بالإضافة إلى عدم تقبل الأجور الحكومية و اعتبارها غير كافية خاصة مع سيادة المنطق المادي و القيم القائمة على الاستهلاك المادي المفرط لكل ما هو منتج جديد الذي ربما يكون غير ضروري في كثير من الأحيان . كما أن العديد من الشباب الخريجين يطمح من التوجه إلى العمل الحر إلى تحقيق الربح المادي السريع و الذي لا يتأتى إلا من خلال ممارسة هذا العمل بالرغم من قلة الإمكانيات المتاحة للبعض منهم .

و في هذا السياق يعتبر محمود عطا حسين عقل أن تغير نمط الحياة و أسلوبها يتجلى في تغير القيم الاستهلاكية و بروز ظاهرة المغالاة في شراء الحاجيات و الكماليات و أنواع السيارات باعتبارها مؤشرات لقيم التفاخر و التفاضل والتقليد ، فظهرت قيم الإسراف و التبذير و اختفت قيم ترشيد الاستهلاك .(10)

– الوضع الاقتصادي في الجزائر :

و يعتبر سببا في توجه خريج الجامعة الجزائرية إلى العمل الحر، فقد أدت التحولات الاقتصادية التي عرفتها الجزائر مع نهاية الثمانينيات إلى ظهور تفاوت هائل في مستوى معيشة الأفراد سواء فيما يتعلق بحالة المسكن أو مستوى الدخل أو نوعية الخدمات الصحية و التعليمية و الثقافية التي يحصلون عليها ، و هذا ما زاد في تفاقم الأوضاع الاقتصادية في الجزائر.

و تشير الإحصائيات المتوفرة في الجزائر إلى وجود فوارق كبيرة بين الأفراد و الفئات الاجتماعية و ذلك لعدم توفر نفس الإمكانيات و الشروط الخاصة بالحصول على المداخيل ، إذ أن هناك زهاء 1.7 مليون شخص لا يتحصل إلا على قدر 12.6 دينار جزائري خلال سنة كاملة ، و هذا يعتبر مدخولا ضئيلا جدا مقارنة بمستوى الأسعار و مستوى الحاجيات التي يتطلبها الفرد .(11) و مع أن هذا المبلغ قد ارتفع نسبيا غير أنه لا يلبي الطموحات المرجوة .

و الشباب الجامعي الذي يتخرج من الجامعة حديثا يتطلع إلى الحصول على العمل لإشباع حاجاته الفطرية ، و تحقيق مطالبه الضرورية التي تحقق له في الوقت نفسه مكانة له ولأسرته ، فالفرد مندفع بالفطرة نحو إشباع حاجاته و تحقيق مطالبه و تحصيل أجر أو مال يحقق له ولأسرته على الأقل قدرا متوسطا من الحياة الكريمة ، فيراعى في عطائه المالي حاجته و كفايته بما يتناسب مع المستوى العام للمعيشة.

و تتوقف مواجهة المشكلات الاقتصادية (المادية) على الفرص المتاحة للشاب الجامعي المتخرج للعمل و الكسب ، كما تعتمد كذلك على اتجاهاتهم نحو كيفية استغلال هذه الفرص و دوافع المبادرة من أجل السعي لتحسين المكانة الاقتصادية ، فهناك عدة مستويات تحدد اتجاهات الشباب نحو فرص العمل و الكسب و هي وجود فرص متعددة أو فرص محدودة أو انعدام هذه الفرص تماما .

و من أهم المجالات المؤثرة في الإهتمامات الإقتصادية للشباب خريجي الجامعة هو اتجاهاتهم نحو العمل الحكومي و الخاص ، فهناك اعتقاد راسخ بأن العمل الحكومي مصدر دخل ثابت و أمان للمستقبل و هيبة اجتماعية في المجتمع و ذلك لمن حصله . و قد تغير هذا الاتجاه تغييرا حاسما بين مختلف فئات المجتمع و على الأخص بين فئة الشباب الذين أصبحوا يتبنون قيما جديدة نحو العمل الحر الذي يدر دخلا أكبر. و تفسير ذلك هو اتجاه و تكوين الشباب الجامعي الذي ينزع إلى التجديد و الاستقلالية ، إذ أن غالبية الشباب الخريجين يعتقدون أن العمل الحر يمكن أن يتيح أمامهم فرصا أوسع لتحقيق مطامحهم من الناحية الاقتصادية على وجه الخصوص بعد أن اتضح أن العمل الحكومي لا يحقق في ضوء القواعد البيروقراطية المسيطرة عليه إشباعا لهذه المطامح . و يبدو أن السياسة الاقتصادية المعاصرة قد عملت على دعم هذا الاتجاه نتيجة للانفتاح في المجال الاقتصادي على استثمار رؤوس الأموال و دعم المشروعات الخاصة و تشجيعها .

– العمل المؤقت :

إن العمل المؤقت أصبح ظاهرة يعاني منها الكثير من الشباب الذين تخرجوا من الجامعة ، و هو حتمية اقتصادية في مجتمع العولمة من أجل الرفع في الإنتاجية و تخفيض التكاليف ، فلم يبق لدى المؤسسات الكبيرة سوى إستراتيجية واحدة هي الترشيد و تخفيض الأجور ، و هكذا صارت عمليات تقليص و نقل الإنتاج للخارج و إعادة الهيكلة هي الوسائل التي تواجه العاملين في كل مناطق العالم .

إذن العمل المؤقت هو سياسة أو برمجة داخلية تنفذها المؤسسة من أجل معرفة وضعيتها و وضعية العاملين ، كما تمكنها هذه السياسة من تقييم العمال لديها و محاولة إبقاء العامل الجيد و الفعال و التخلص ممن لا يتماشى مع سياستها . وهذا مرة أخرى عامل حافز يدفع العمال للعمل بجدية و فعالية حتى يقبلوا في وظائفهم كعمال دائمين . و في أحيان كثيرة يشغل العامل المؤقت على أساس أن العمل مؤقت أو محدد بفترة معينة و ينتهي و هذا شيء متعارف عليه .

إذن المدة ضرورية جدا في إبرام العقد المؤقت ، و يجب على طالب العمل المؤقت أن يتعرف على مدته . و قد تم اللجوء إلى العمل المؤقت إبرام عقود خدمات لمواجهة الاحتياجات الظرفية من اليد العاملة ، و مادام أن الأمر لا يتعلق بتشغيل دائم إلا أن المشرع حدد نظام اللجوء إلى إبرام عقود محددة المدة بقواعد صارمة .(12)

معظم العقود الحالية هي عقود مؤقتة و يختار صاحب العمل هذا النوع لأنها تعطي مرونة لمواجهة عدم التأكد ، كما أن أصحاب العمل يفضلون مثل هذه العقود و ذلك من أجل تجربة الموظف دون أن يكون هناك أي التزام ، حيث تكون الأشهر الأولى هي فترة تجربة ، كما تتيح درجة من الرقابة على العاملين . والسبب الرئيسي في توظيف الموظفين المؤقتين هو وجود التحفيز من أجل أن يصبحوا موظفين دائمين .(13)

و لا يشكل العمل المؤقت لدى بعض الخريجين الجامعيين إلا حلا عابرا ، فهم أشخاص نشيطين يعدون بمثابة مبتدئين يجدون في هذا العمل وسيلة لتعميق تكوينهم المهني أو لاكتشاف توجه محدد .

و من الأمور التي تستحق الذكر هنا أن العامل المؤقت و وضعه و حالته الراهنة هي أيضا نتاج الاقتصاد الذي يحاول في نطاقه توفير وسائل عيشه ضمن المجتمع الذي يعيش فيه . إنه ليس هامشيا و ليس عضوا في تشكيلة اقتصادية غير رسمية ، إنه مندمج في النظام الحضري و الوطني لكن هذا الاندماج يتم على أسس مؤقتة و متقطعة و ربما استغلالية . (14)

إن العمل بصفة مؤقتة لدى القطاع الحكومي و نظرا للخلفيات التي سبق ذكرها كالتسريح ، جعل خريج الجامعة يفكر في أن يجد له دورا آخر في اختيار مصدر آخر للعمل يتمثل في النشاط الحر سواء وافق أم لم يوافق التأهيل العلمي ، و بإمكانيات بسيطة أم كبيرة ، و بدعم فردي أو بمساعدة الدولة ، المهم هو العمل .

3- الأسباب التنظيمية : و تتضمن العناصر التالية :

يمكن تفسير ظاهرة توجه خريجي الجامعة نحو الأعمال الحرة إلى الأسباب التنظيمية التالية :

- سياسة الدولة في التعليم و احتياجات سوق العمل :

إن التعليم يهدف إلى تحسين نوعية المواطن سواء من الناحية الأكاديمية أو التخصصية المهارية ، و هذا يتطلب التعرف على المهارات الأساسية و كيف يكون للفرد تخصصا مهنيا بقدر ما تسمح به قدراته و اتجاهاته المهنية ، و بقدر ما تسمح به حاجات المجتمع الحاضرة و المستقبلية .

إن تحقيق أهداف التعليم بوجه عام و أهداف التعليم الجامعي بوجه خاص ينبغي أن يتم على ضوء إطار الخطة الشاملة للتنمية . و عدم وجود علاقة ارتباط بين التخطيط للتعليم و خطة التنمية يؤدي من ناحية إعداد الموارد البشرية إلى نقص في بعض المهارات و الاختصاصات المطلوبة لتنفيذ خطط التنمية من جهة و إلى خلق البطالة بين الخريجين الذين يمتلكون مؤهلات من جهة أخرى . و مع أن الدولة قد تتدخل لمعالجة ظاهرة البطالة بين الخريجين الجامعيين عن طريق تشغيلهم في أعمال لم يتم تدريبهم أو إعدادهم إليها ، إلا أنه يعني في كثير من الحالات الخسارة المادية و الضياع الاجتماعي و النفسي و فقدان الشعور بالمسؤولية لأنهم يعملون في دوائر لا تحتاج أصلا إلى خدماتهم .(15)

و تتدخل سياسة الدولة في إعداد القوى العاملة على كل مستوى و تحديدا للمهارات و المعلومات اللازمة التي تقدم في مختلف المستويات التعليمية . و تحديد نوع التعليم و مداه ومكوناته ضرورة لإعداد المواطن القادر على مواجهة التحديات و نعني بذلك الخريجين من إطارات الجامعة و مؤسسات التعليم العالي .

إن الإستراتيجية التعليمية الفعالة هي التي تتلاءم مع السيرورة الاقتصادية و الاجتماعية للتشغيل ، بمعنى آخر فإن قطاع التعليم في الدولة عليه أن يلائم متطلبات عالم الشغل و توفير فرص العمل للفئات من الشباب الذين يتخرجون من المعاهد و الجامعات .

كثيرا ما تعمل حكومات الدول النامية على امتصاص هؤلاء الخريجين في الأنشطة الحكومية الخدمية و في دوائر القطاع العام المختلفة حتى مع عدم وجود حاجة اقتصادية إليهم ، مما ينتج عنه تكديس أعداد كبيرة من الأيدي العاملة فيها أي خلق حالات البطالة المقنعة و نقص التشغيل .

إن زيادة الضغط على التعليم الجامعي أدى إلى زيادة العرض على سوق العمل ، مما دفع المسؤولين في الدولة إلى الزج بالخريجين في أعمال تخالف تماما مجال تخصصهم و كذا نقلهم من عمل لآخر خارج مجال التخصص الذي درسوه .

إن فعالية التعليم الجامعي في تأدية رسالته في إعداد و تطوير الموارد البشرية اللازمة لعملية التنمية الاقتصادية و الاجتماعية تقتضي إيجاد الموازنة بين الجانبين الكمي و النوعي ، لأن الاتجاه السائد في الوقت الحاضر لا يزال في صالح التطور الكمي للتعليم على حساب التطور النوعي .

إن المتتبع لتطور أعداد الطلبة الجامعيين في الجزائر يجده في تزايد مستمر عبر السنوات . لكن في الآونة الأخيرة و خاصة في العشرية الأخيرة زاد العدد كثيرا نظرا لارتفاع نسب النجاح في شهادة البكالوريا . فقد بلغ عدد المسجلين في التدرج خلال الموسم 05-2006 حوالي 743 ألف و 54 طالبا من بينهم 23 ألف و 541 طالبا مسجلون في نظام L.M.D . تخرج خلال هذا الموسم 112 ألف و 932 طالبا في شتى الفروع العلمية . و ارتفع عدد المسجلين خلال

الموسم 06-2007 إلى 820 ألف و664 طالبا من بينهم 87 ألف و 483 طالبا في ليسانس L.M.D وتخرج خلالها 121 ألف و 905 طالبا من بينهم ثلاثة آلاف و 560 طالبا متخرجون متحصلون على ليسانس L.M.D . و لازال العدد في ارتفاع ، حيث بلغ المسجلون خلال الموسم 07-2008 حوالي 952 ألف و 67 طالبا أي قرابة المليون طالب ، إنتقل منهم ثلاثة ألاف و 242 طالبا إلى مستوى الماستر في نظام L.M.D . و أصبح عدد الخريجين من الجامعة آنذاك 146 ألف و 889 خريجا من بينهم تسعة ألاف و 719 ليسانس L.M.D . و الملاحظ هنا أن عدد الطلبة في نظام L.M.D قليلون مقارنة مع النظام الكلاسيكي نظرا لحداثة هذا النمط من التعليم و تخوف الطلبة منه ، إذ كان للطالب في السنوات الأولى من تطبيقه الحرية في إختياره إلى أن زال نهائيا النظام الكلاسيكي . و خلال الموسم الجامعي 2009/08 بلغ المسجلون في التدرج مليون و 48 ألف و 899 طالبا من بينهم 271 ألفا ليسانس L.M.D و 11 ألف و 952 طالبا في الماستر . أما تطور أعدد الطلبة المسجلون في ما بعد التدرج في الجزائر من الموسم الجامعي 05-2006 إلى الموسم الجامعي 08-2009 فقد بلغ على التوالي : 37 ألفا و787 طالبا ثم 43 ألفا و 458 طالبا ثم 48 ألف و 764 طالبا ثم 54 ألفا و 924 طالبا . (16)

وبهذه الإحصائيات نقول أن الجزائر خطت خطوات عملاقة في كم الطلبة سواء المسجلون أو المتخرجون مما سيجعل هناك ضغطا كبيرا على سوق العمل خاصة مع تطبيق نظام التعليم العالي الجديد L.M.D ، حيث يرى الباحث بشير مصيطفى في معرض حديثه عن هذا النظام أن " سوق العمل في الجزائر ليس مرنا بل ضيقا ، والجزائر دولة رؤيتها في مجال السياسات الإقتصادية ضيقة ، و هي دولة تخرج – في ظل النظام الكلاسيكي – سنويا 150 ألف جامعي أغلبهم باحثون عن الشغل ، أما في النظام الجديد و مع بقاء سوق العمل على حاله أو بإفتراض تطوره المحدود على سلم المرونة في المدى القريب فإن نظام " الألمدي " سيرفع من نسبة الخريجين بسبب قصر مدة الليسانس إلى 3 سنوات و قيود الإنتقال إلى الماستر" . (17) فمن المعلوم أن نظام L.M.D يهدف إلى تقريب التكوين الأساسي من سوق الشغل .

إن الجامعة الجزائرية مطالبة اليوم أكثر من أي وقت مضى أن تخضع منظومة التعليم الجامعي لحقائق الإقتصاد الوطني و للمعادلة الإجتماعية و النفسية للطالب و من ثمة الخريج الجامعي من جهة و لقيود التنمية التي تقوم في العصر الحالي على نوعية المعرفة من جهة أخرى .

يمكن القول بأن سياسة الدولة وفق المعطيات التي تم إيرادها و كل العوامل المتعلقة بها تعطي فكرة عامة عن العوامل التي تساعد الخريج الجامعي إلى أن يتوجه إلى الأعمال الحرة ، لأنها بالنسبة إليه هي المخرج من المعضلة التي يعيش فيها .

و بالتأمل و التحليل السوسيولوجي فإن ما يحدث في السياسة التعليمية إنما يعبر عن غياب المفهوم الحقيقي لنظرية " رأس المال البشري " و غياب عنصر التنسيق بين مخططات التعليم و سوق العمل .

إن الجامعة تعد طرفا مهما في عمليتي التخطيط و التنسيق ، و عليه فإن دورها يتمثل بالنسبة للسياسة التعليمية و علاقتها بسوق العمل و التخفيف من بطالة الخريجين من الجامعة فيما يلي: (18)

1- تكثيف برامج التثقيف و التدريب لتأهيل شباب الخريجين على فكر و مهارات العمل الحر .

2- على المستوى الوطني لا بد من الدفع بالمقررات التعليمية التي تنمي روح الابتكار و المهارات الإبداعية حتى تتطابق مخرجات التعليم مع احتياجات عالم الشغل .

3- من أجل التخفيف على القطاع العام في الدولة ، فإنه لا بد من انفتاح الجامعات على المراكز و الأنشطة الإنتاجية للقطاع الخاص و التعاون المشترك من خلال البرامج التدريبية و البحثية في مواقع العمل و التي ترتبط بالمناهج الدراسية في الجامعات .

4- تنشيط نقل خبرات الرموز الناجحة من رجال الأعمال إلى شباب الخريجين من خلال تكثيف لقاءات التثقيف و التدريب بالكليات المختلفة بما يسمح بتأصيل و ترسيخ فكر الاقتصاد الحر و عرض القدوة الصالحة لأجيال الشباب من الخريجين الجامعيين .

و يرى نادر فرجاني أن هناك " تأزم هيكلي للعلاقة بين نسق التعليم العالي و حاجات عالم العمل و الإنتاج في البلدان العربية ... فقد ساد فيها نمط للتخطيط المركزي متفاوت الشمول من دولة إلى أخرى في ميداني التعليم و العمل ، و لكن هذا التخطيط كان ضعيفا و نجمت عنه المشكلات . و يمكن القول بأن نظام التخطيط قد انهار فعلا دون أن تلغى مؤسساته في كثير من الأحيان ، و دون أن يجري إصلاحها أو تحويلها إلى نسق من التخطيط " التأشيري " (Indicative) المتسع مع التحول إلى آلية السوق و لكن الفعال " .(19)

– سياسة الدولة في التشغيل :

تعتمد الكثير من الدول النامية و من بينها الجزائر إلى اتخاذ سياسة للتشغيل تهدف إلى امتصاص المتعلمين العاطلين – رغم عدم الحاجة إليهم – في العديد من القطاعات العمومية الاقتصادية و الخدمية . لكن هؤلاء العمال لا يشكلون طاقة فاعلة في القوى العاملة ، بل إنهم في الغالب يشغلون وظائف هامشية ليس لهم فيها أية سلطة أو قرار ، و قد يستدعي الأمر أنهم لا يعملون أي عمل ذو فائدة و هذا ما نسميه ظاهرة التشغيل الناقص أو البطالة المقنعة أي أن هؤلاء يعملون شكليا لكنهم في الواقع لا يمارسون أي فعالية حقيقية .

كما يعاني البعض من الخريجين في الجزائر من مشكلة العمالة المؤقتة و هي تمثل عائقا تنظيميا نحو التشغيل الجدي لهم ، فالحكومة تتقاعس عن الوفاء بالتزامها بتعيينهم في المناصب الوظيفية الشاغرة و عليه فإن الأمر يستوجب طرح السؤال التالي : هل من المعقول أن يتم تمديد العمل للعديد من الموظفين بعد تجاوزهم سن الستين في الوقت الذي يعيش فيه آلاف الخريجين البطالة و اليأس ؟ كما أن الحكومة لا تكترث في تعييناتها للطلاب المتخرجين المتفوقين في الجامعات و لا تقوم بتثبيتهم .

لقد أصبحت قضية توظيف الخريجين معضلة كبرى في الجزائر ، و ما زاد المشكلة تفاقما هو تضخم مشكلة البطالة بينهم حتى أضحى سوق العمل عاجزا حتى الآن عن استيعابهم بصفة شاملة و هو مطلب مستحيل التنفيذ ، مما دفع الحكومة إلى إرجاء سرعة تعيين الخريجين فور تخرجهم لضمان تنظيم عملية التوزيع و تحقيق مبدأ تكافؤ الفرص في التعيين أمام جميع الخريجين . و على الرغم من هذا نجد أن نظام ضمان التعيين له تأثير قوي بين الآباء و الأبناء إيمانا بفكرة (الشهادة ضمان للحصول على وظيفة) .(20)

– دور القطاع الخاص :

إن مسألة تشغيل خريجي الجامعة لا تقتصر على القطاع الحكومي فقط بل تتعداه إلى القطاع الخاص ، لأن الجزائر و بعد الإنفتاح الاقتصادي و التوجه إلى الاقتصاد الحر، فتحت المجال واسعا للاستثمار في القطاع الخاص .

و القطاع الخاص في الجزائر يستقطب أيضا اليد العاملة من الإطارات الجامعية الجزائرية ، إلا أن هناك مشكلة يطرحها هذا القطاع تتمثل في عدم أهلية وكفاءة هذه الإطارات فعلا للعمل في القطاع الخاص ، فالجامعات و المعاهد تخرج أعدادا كبيرة جدا تفوق الاحتياجات المتوقعة ، غير أنها ليست معدة بالشكل المطلوب . و يوجد هناك عامل آخر أدى إلى بروز هذه المشكلة و هو انحسار الفرص الوظيفية التي كانت متاحة من قبل الحكومة ، ففي السابق كانت الحكومة تستوعب كل من يتخرج من الجامعة ، أما في الوقت الحالي فإن المساحة بدأت تضيق بشكل ملفت للانتباه .

إن الملاحظ في الجزائر كما في أغلب الدول العربية أن الوضع الذي يجذب خريجي الجامعة إلى الجهاز الحكومي و عدم إقبالهم على العمل في القطاع الخاص سببه أن أنظمة و سياسات التوظيف و التشغيل و التحفيز و التعويض في القطاع الحكومي تشجع على الاسترخاء و اللافعالية هذا من جهة ، و من جهة أخرى يقع اللوم أحيانا على أرباب القطاع الخاص الذين يتهمون بأنهم يفضلون تشغيل اليد العاملة الأجنبية نظرا لأنها ترضى بالأجور الرخيصة و قبولها بساعات عمل طويلة و شاقة . و يرد أرباب القطاع الخاص على هذا الإتهام فيلقون اللوم على الشباب أنفسهم و على وزارة التشغيل التي ترغب في تشغيل الخريجين و هم غير مدربين على الحياة العملية بشكل كاف ، فضلا عن أن كثيرا منهم يميلون إلى العمل السهل و البسيط و يتهربون من العمل المعقد ، وع دم الإنضباط و الإلتزام التام الذي يفرضه العمل في القطاع الخاص .(21)

لقد جعل هذا الوضع الحكومي خريج الجامعة يتخذ من العمل الحر وسيلة للاسترزاق لأن الدولة لم تتمكن من توفير فرصة عمل له لتخفيف الضغوط عليها و القطاع الخاص يفرض شروطه .

إن عملية تشغيل خريجي الجامعة الجزائرية يخضع لتقنيات و آليات أهمها نظام التوظيف عن طريق نظام امتحانات المسابقة كوسيلة لاختيار الموظفين . و هذا يدل على أن الشهادة الدراسية هي أحد الشروط للحصول على الوظيفة بل هي ضمان للحصول عليها ، و بذلك أصبحت الشهادة هدف كل من يود إكمال تعليمه العالي . و كلما كانت إجراءات الاختيار و التعيين دقيقة وفق الحاجة الفعلية المطلوبة من الخبرات و المهارات كلما أدى ذلك إلى وضع الرجل المناسب في المكان المناسب .

– البيروقراطية الإدارية :

إن التطورات المجتمعية التي حصلت في المجتمع مست المنظمات و الإدارات العمومية على وجه الخصوص أدت إلى تغيير مفهوم البيروقراطية و أصبح ينظر لها بمنظور سلبي حيث يطلق مصطلح البيروقراطية على اللانظام و الروتين و الالتزام بالقواعد و القانون . و كل التعابير التي تعكس المفهوم الحقيقي للبيروقراطية من حيث أنها معيار للتطبيق الحرفي للقواعد و اللوائح و الالتزام بالقانون و الترتيب و مركزية السلطة و التنظيم و غيرها من المفاهيم التي تتصل بالرشد و العقلانية أصبحت غير مطبقة و غير محترمة من قبل المسؤولين و المشرفين على تنفيذ هذه القوانين .

إن توجه خريج الجامعة الجزائرية للعمل الحر تعود أحد أسبابه إلى البيروقراطية السلبية التي يعيشها كل مواطن جزائري ، و هذه العراقيل البيروقراطية التي تلاحظ في الإدارات الحكومية سوف تدعو بعض الخريجين للابتعاد عن العمل لدى الدولة والتوجه إلى ابتكار عمل حر آخر لضمان حياة كريمة . و هذه المساوئ التي تتميز بها البيروقراطية أصبحت عامل طرد للخريجين الجامعيين من العمل في إدارات وأجهزة القطاع العام .

إن الاتجاه الصحيح للمنظمات و البيروقراطيات الرائدة يجب أن يكون على أساس منهجي و علمي يتخذ من العلوم الجديدة و تكنولوجيا المعلومات و من الاستفادة من التجارب و توسع الأفكار و ارتقاء الأهداف و الطموحات و القدرات البشرية الهائلة أسسا إستراتيجية للوصول إلى وضع أفضل في البقاء و التطور و الاستمرار ، و هذا ما يتطلب دائما توفير عناصر الابتكار و الإبداع و التي تتمثل في التخطيط الاستراتيجي و التفكير الاستراتيجي و بناء ثقافة الأفراد و المؤسسات وفق معايير إنسانية رفيعة .

و عليه فإن بعض خريجي الجامعة الجزائرية سوف يرون في هذه الأوضاع معرقلا و حاجزا ، وبالتالي عليهم أن يطرقوا باب التفكير في عمل حر أو مشروع صغير مهما كان نوعه مما أتاحته الإمكانيات و الظروف يتم العمل فيه كخلاص

لمشكلة نقص التشغيل أو انعدام العمل أي البطالة تلك الظاهرة الشبح ، و حينها سوف يعملون مرتاحين دون تلك الصعوبات التي تفرضها إدارة الموارد البشرية في القطاعات الحكومية .

الهوامش :

(1) محمد حسن محمد حمادات ، **قيم العمل والإلتزام الوظيفي لدى المديرين والمعلمين في المدارس** ، عمان ، دار حامد ، ط 1 ، 2006 ، ص 26.

(2) محمد حسن محمد حمادات ، مرجع سابق ، ص 32.

(3) محمد علاء الدين عبد القادر، **البطالة . أساليب المواجهة لدعم السلام الإجتماعي والأمن القومي في ظل الجات . العولمة تحديات الإصلاح الاقتصادي** ، الإسكندرية ، منشأة المعارف ، 2003 ، ص 91.

(4) بلقاسم سلاطنية ، " **التكوين المهني كرهان مستقبلي للقضاء على بطالة الشباب** " ، الباحث الإجتماعي ، ع 2 ، السنة 2 ، جامعة منتوري قسنطينة ، سبتمبر 1999 ، ص 121.

(5) محمد علاء الدين عبد القادر، مرجع سابق ، ص 99 .

(6) المنظمة العربية للتنمية الإدارية ، ، **ندوات ومؤتمرات " إصلاح الخدمة المدنية لتفعيل القطاع الخاص . أوراق ووقائع** " ، 15-16 ديسمبر كانون الأول 1997 ، القاهرة ، المنظمة العربية للتنمية الإدارية ، ط 1 ، 1997، ص ص 221 - 222 .

(7) أيمن أحمد الدويك ، **السلوك الإنتهازي في العمل** ، الجزائر، دار الخلدونية ، ط 1 ، 2007 ، ص 115.

(8) أيمن أحمد الدويك ، مرجع سابق ، ص 79.

(9) عدنان حسن باحارث ، **وسائل المجتمع الاقتصادية لتأهيل الشباب المبكر للحياة الاجتماعية** ، السعودية ، دار المجتمع ، ط 1 ، 2004 ، ص ص 49-50 .

(10) محمود عطا حسين عقل ، **القيم السلوكية لدى طلبة المرحلتين المتوسطة والثانوية في الدول الأعضاء بمكتب التربية العربي لدول الخليج . دراسة نظرية و ميدانية** ، الرياض ، مكتب التربية العربي لدول الخليج ، ط 2 ، 2006 ، ص 56.

(11) بلقاسم سلاطنية وسامية حميدي ، **العنف والفقر في المجتمع الجزائري** ، القاهرة ، دار الفجر ، 2008، ص149.

(12) بن صاري ياسين ، **عقد العمل محدد المدة . دراسة نظرية ، تطبيقات ، مقارنة** ، الجزائر ، دار هومة ، 2004 ، ص 123 .

(13) زيد منير عبوي ، **معجم مصطلحات الإدارة العامة . عربي – انجليزي** ، عمان ، دار كنوز المعرفة ، ط 1 ، 2007، ص196.

(14) إسماعيل قيرة وآخرون ، **التصورات الاجتماعية ومعاناة الفئات الدنيا** ، الجزائر، عين مليلة ، دار الهدى ، دون سنة نشر، ص239.

(15) عبد المنعم علي الحسيني ، " **دور التعليم العالي في التنمية العربية حتى سنة 2000** " ، دراسات عربية ، ع 5 ، السنة 24 ، بيروت ، دار الطليعة ، مارس 1988 ، ص 74 .

(16) Office nationale des statistiques , office nationale des statistiques ," **annuaire statistique de l'algerie resultat 2006-2008 . N°26** ", 2010 . p 120

(17) بشير مصيطفى ، " **جامعة تغرق في قطرة إسمها نظام أل. أم. دي** " ، جريدة الشروق اليومي ، ع 3228 ،2011/03/10، ص 19.

(18) محمد علاء الدين عبد القادر ، المرجع نفسه ، ص129.

(19) نادر فرجاني ، " **التعليم العالي والتنمية في البلدان العربية** " ، المستقبل العربي ، ع 23 ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، نوفمبر 1998 ، ص 97 .

(20) محمد متولي عنيمة ، **التربية والعمل وحتمية تطوير سوق العمالة العربية** ، القاهرة ، الدار المصرية اللبنانية ، ط 2 ، 1998، ص 79.

(21) المنظمة العربية للتنمية الإدارية ، مرجع سابق ، ص 99 .

الخصائص الاجتماعية والديموغرافية وعلاقتها بالتشاور بين الزوجين حول عدد الأطفال المراد إنجابهم

دراسة ميدانية بعيادة ''مريم بوعتورة'' للتوليد وأمراض النساء لمدينة باتنة

د.علي العكروف

قسم علم الاجتماع –جامعة باتنة

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

Résumé

Le présent article aborde la question de la concertation entre les conjoints concernant le nombre d'enfants souhaité. Une enquête a été réalisée, à cet effet, auprès d'un échantillon non probabiliste de femmes .

Dans un premier temps l'étude examine les déterminants de la concertation, c'est-à-dire les variables qui l'expliquent le mieux ; dans un deuxième temps, l'étude vise à vérifier l'existence d'une corrélation entre la concertation en tant que variable indépendante dans ce cas et deux variables dépendantes : le nombre d'enfants réellement mis au monde et la coercition ou la contrainte exercée sur les femmes en matière de procréation.

مقدمة

اهتم العديد من الباحثين وفي مختلف التخصصات بدراسة العلاقة الزوجية من حيث طبيعتها ونوعيتها–منذ مطلع القرن العشرين– وتزايد الاهتمام بالمسالة عقب الحرب العالمية الثانية وتم استعمال مصطلحات كثيرة لإدراك طبيعة هذه العلاقة مثل " التوافق الزوجي، والإرضاء، والسعادة، والتماسك، والتكيف، والتكامل "[1]. وبرزت مواضيع كثيرة ذات صلة بهذا الحقل العلمي، ولعل من أبرزها مسألة التشاور بين الزوجين بشأن الإنجاب. وهي المسألة التي بدأ العمل الأكاديمي يركز عليها أكثر فأكثر– وهذا في كل المجتمعات– إذ تعتبر من المؤشرات الهامة لقياس نوع العلاقة القائمة بين الزوجين.

في المجتمعات العربية تم طرح العديد من الآراء حول هذه الظاهرة، و لو أخذنا بها جميعاً فإنها تعطي في مجملها صورة متجانسة تقوم على أساس التكامل، فالفكر السائد يذهب أصحابه للاعتقاد أن طبيعة العلاقة الزوجية مرتبطة بالتغير الاجتماعي، فبعدما كان الزوج في الماضي " يرأس الأسرة ويسيطر علي أمورها سيطرة كاملة، فهو غالبا ما كان ينفرد في اتخاذ القرارات المتعلقة بشؤون المنزل. وكانت علاقة الزوجة بزوجها علاقة طاعة وخضوع وتبعية مطلقة"[2]. وشيئا فشيئا بدأت هذه الصورة تتغير بعد أن نالت المرأة قسطا كبيرا من التعليم وأصبحت تكتسح سوق العمل، فضلا عن الحركات التحررية النسائية العالمية والمحلية التي أصبحت تنادي بحقوق المرأة الكاملة غير المنقوصة، الشيء الذي ساهم في التلاشي التدريجي للنظام الأبوي التسلطي، إذ أصبحت العلاقة بين الزوج والزوجة " تقوم علي أساس الاحترام و التفاهم وتبادل الآراء، مع المزيد من مشاركة الزوجة لزوجها في اتخاذ القرارات التي تتعلق بشؤون الأسرة"[3].

في الجزائر تعد مسالة التشاور بين الزوجين حول عدد الأطفال المراد إنجابهم من المواضيع التي لم تحظ باهتمام المختصين. فرغم غزارة البحوث العلمية المتعلقة بالخصوبة علي المستوي الوطني،إلا أنها نادرة جدا– إن لم نقل منعدمة– تلك المتعلقة بشان هذا الموضوع الذي نحن بصدد دراسته.

في هذا الإطار جاءت هذا الدراسة الميدانية البحتة **التي كانت عينتها تحوي 1024 سيدة** لتسلط الضوء علي بعض العوامل التي يخضع لها هذا المتغير الهام، من جهة، والتي يؤثر عليها، من جهة أخري، والذي لا يعكس فقط مدى التوافق بين الزوجين،إذ يعد من الضروريات التي تساعد على استقرار الأسرة وانسجام أفرادها، وإنما أيضا مدى تمتع الزوجة بحقها في اخذ القرارات بشأن الإنجاب.

بناء على ما تقدم، نتجه إلى تقسيم هذا العرض إلى ثلاث محاور أساسية:

يتضمن المحور الأول الإطار المنهجي للبحث، و المتعلق بمشكلته، وفرضياته، و أهميته، وأهدافه، ومنهجه، وكذا استعرض معاني المفاهيم والمصطلحات الأساسية للبحث. كما نتطرق إلى المجالات البشرية والمكانية والزمانية للدراسة الميدانية، وإلى الأدوات المستعملة والمتمثلة في استمارة المقابلة، وكذا إلى كيفية تفريغ البيانات.

أما المحور الثاني فيتناول عرض ومناقشة الجزء الأول من نتائج البحث الميداني، حيث تم تسليط الضوء علي **محددات** التشاور بين الزوجين حول عدد الأطفال المراد إنجابهم، **من خلال اختبار العلاقة بين مجموعة من المتغيرات المستقلة والمتمثلة في الخصائص الشخصية للسيدات المبحوثات وأزواجهن و** التشاور بين الزوجين بوصفه **متغير تابع.**

وجاء المحور الثالث مقتضبا، وتناول تفسير ومناقشة النتائج المتعلقة بآثار **التشاور بين الزوجين علي مكونين اثنين مرتبطين بالإنجاب وهما: عدد الأطفال الذي تم إنجابهم** بالفعل، وكذا الإكراه الممارس ضد السيدات بشأن الإنجاب.

1 الإطار المنهجي للدراسة

1-1 أبعاد المشكلة

ينطلق البحث من تصورين أساسين مفادهما أن مستوي التشاور بين الزوجين حول عدد الأطفال المراد إنجابهم- باعتباره متغير تابع للدراسة- يختلف إلي حد كبير باختلاف الخصائص الديموغرافية والاجتماعية للسيدات المبحوثات وأزواجهن بوصفها مجموعة من المتغيرات المستقلة، والمتمثلة في سن الحالي للسيدات المبحوثات، والمستوي التعليمي للزوجين، ووضع السيدات المهني، ووسط الإقامة، ومحل الإقامة، والفرق في السن بين الزوجين، و كيفية زواج السيدات- من حيث ما إذا كان زواج حرا (عن طريق التعارف) أو زواج مرتب(عائلي) - وكذا صلة القرابة بين الزوجين.

كما تقوم الدراسة على أساس افتراض وجود علاقة ارتباطيه سالبة بين التشاور بين الزوجين حول عدد الأطفال المراد إنجابهم من حيث هو متغير مستقل- في هذه الحالة- **ومكونين اثنين مرتبطين بالإنجاب** عند المرأة، بوصفهما متغيرات تابعة، والمتمثلة في **عدد الأطفال الذي تم إنجابهم** بالفعل، والإكراه الممارس ضد السيدات في الإنجاب.

بناء علي هذا التصور فان إشكالية البحث الحالي تتحدد في التساؤلين التالين:

هل توجد فروق ذات دلالة إحصائية في مستوي التشاور بين الزوجين حول عدد الأطفال المراد إنجابهم حسب سن الحالي للسيدات، والمستوي التعليمي للزوجين، ووضع السيدات المهني، ووسط الإقامة، ومحل السكن، و الفرق في السن بين الزوجين، وكيفية زواج السيدات، وكذا صلة القرابة بين الزوجين؟

ما مدى تأثير التشاور بين الزوجين حول عدد الأطفال المراد إنجابهم على كل من عدد الأطفال الذين تم إنجابهم بالفعل، وعلى الإكراه الممارس ضد السيدات بشأن الإنجاب؟

2-1 فرضيات البحث

تأسيسا على ما سبق ذكره، فان الدراسة تسعى لفحص واختبار فرضيتين أساسيتين، تم صياغتهما على شكل إثبات، بمعنى أن كليهما تعني وجود علاقة دالة إحصائيا سواء أكانت هذه العلاقة عكسية أم طردية بين المتغيرات قيد الدراسة وجاءتا علي النحو الأتي:

1- توجد اختلافات ترقى إلي الدلالة الإحصائية في مستوي التشاور بين الزوجين حول عدد الأطفال المراد إنجابهم باختلاف السن الحالي للسيدات، والمستوى التعليمي للزوجين، ووضع السيدات المهني، ووسط الإقامة، ومحل السكن، والفرق في السن بين الزوجين، و كيفية زواج السيدات المبحوثات، وصلة القرابة بين الزوجين.

2- كلما ارتفع مستوي التشاور بين الزوجين كلما انخفض حجم الأسرة(عدد الأطفال) وانخفض مستوي الإكراه الممارس ضد السيدات بشان الإنجاب.

لاختبار هاتين الفرضيتين تم اللجوء إلي دراسة ميدانية -كما تم الإشارة إليه سلفا- علي مستوي عيادة التوليد وأمراض النساء لمدينة باتنة.

1-3 أهمية البحث

تأسيسا على ما سبق ذكره ، فان لهذه الدراسة أهميتان :

تكمن الأهمية الأولي، وهي نظرية في إثراء التراث العلمي الوطني بالمزيد من المعلومات حول طبيعة العلاقة الزوجية.

أما الأهمية الثانية لهذا البحث، فهي ميدانية وتتمثل في المساهمة ولو بقسط صغير ولما لتوظيفها في بناء إستراتجية فعالة في تعزيز و ترقية نوعية العلاقة بين الزوجين في شأن الإنجاب.

1-4 أهداف البحث

إن أهداف البحث الحالي هي أهداف ارتباطيه أو سببية -كما سبق و أن أشرنا إليها في فرضيات البحث- و تسعى، من جهة، لاختبار مدى تأثير مجموعة من المتغيرات الاجتماعية والديموغرافية والمتمثلة في السن الحالي للسيدات المبحوثات، والمستوي التعليمي للزوجين، ووضع السيدات المهني، ووسط الإقامة، ومحل الإقامة، والفرق في السن بين الزوجين، و كيفية زواج السيدات، وكذا صلة القرابة بين الزوجين، على مستوي التشاور بين الزوجين حول عدد الأطفال المراد إنجابهم.وتسعى،من جهة أخرى لفحص تأثير هذا المتغير الأخير علي كل من عدد الأطفال الذين تم إنجابهم بالفعل، وعلي الإكراه الممارس ضد السيدات في الإنجاب.

1-5 منهجية البحث

إن الدراسة الحالية اعتمدت على المنهج الإحصائي، الذي من خلاله استخدمنا مجموعة من المؤشرات لقياس مدى ارتباط المتغيرات المختلفة فيما بينها حتى يمكن تحليل العلاقة بينها، وفهمها، ومنه الخروج بالنتائج التي يمكن تعميمها.

1-6 تعريف مفاهيم البحث

يعد الحوار والتشاور بين الزوجين مدخل للتفاهم، واستمرار الحياة الزوجية، أما غيابه فيؤدي إلى الشقاق المستمر وفقدان الثقة بين الطرفين وبالتالي عدم الوصول إلي حلول مرضية في كثير من القضايا.ولما كانت الحياة الأسرة تقوم علي المشاركة بين الزوجين، ولا سبيل لذلك إلا بالتشاور، فانه لا يسعنا **في إطار هذه المفاهيم** إلا أن نعرف مصطلحين مرتبطين مباشرة بهذا الموضوع الذي نحن بصدد دراسته وهما:

1- التشاور: ورد تعريف التشاور- تعريفا مبسطا ومفهوما ودقيقا- في الموسوعة الشاملة [4] على أنه : تناصح فيما بين الأفراد من أجل تجويد العمل وأداءه وإدراك الصواب، وفي المجال الأسري فان التشاور ضرورة لتتأسس التدابير والقرارات على الرضا الذي لا سبيل إليه إلا من خلاله، في نفس المجال-تضيف الموسوعة-علي أن الإسلام جعل علاقة الزواج قائمة على الاختيار الحر والتراضي بين الطرفين وعلى الانسجام والتشاور في كافة الشؤون بحيث تشيع روح المودة والتفاهم.

ولا يكون التشاور مثمرا وناجحا إلا إذا تخلله آداب منها:إعطاء فرصة الكلام للغير وإبداء الاحترام أثناء تحدثه، والإصغاء إليه والتزام الهدوء والانضباط أثناء حديثه.

2- **الأسرة** :هي "جماعة اجتماعية مرتبطة بروابط الزواج والدم ويسودها الود والإنس والمحبة وتوفر الرعاية لإفرادها وإعالتهم"[5].

وعرفت الشريعة الإسلامية الأسرة في نصوص عديدة من القران والسنة علي أنها جماعة يسودها الود والرحمة، ويأنس أفرادها ويستريح لبعضهم البعض.كما بين الشرع أن للأسرة أهداف كثيرة، منها الإنجاب وتنشئة الأبناء.

1-7 مجالات البحث الميداني

إن المؤسسة التي وقع اختيارنا عليها لإجراء البحث الميداني، هي عيادة "مريم بعتورة" للتوليد وأمراض النساء، والتي تقع في وسط مدينة باتنة (شرق الجزائر)، وتم تدشينها في سنة 1985.

وتم اللجوء إلي العينة غير الاحتمالية، لسهولة استخدامها ولتجنب العمليات الحسابية. ونظرا لخصائص هذا النوع من العينات، التي لا تمثل درجة عالية من الثقة في تعميم نتائج البحث لأن أفرادها لم يتم انتقائهم بطريق عشوائية، عكس ما هو موجود في العينات الاحتمالية، لذلك فقد تم احترام بعض المعايير لتحقيق نتائج دقيقة قابل للتعميم.إذ كان لابد علينا أن نعتمد على عينة كبيرة الحجم التي قد يكون مجموع مفرداتها تمثِّل المجتمع الأصليَّ تمثيلاً سليماً لتحقيق أقصى قدر من الصفة التمثيلية. ذلك انه كلما زاد حجم العينة غير احتمالية زادت دقة النتائج.

هذا، وقد اعتمدت الدراسة علي المسح الشامل لكل الأمهات اللاتي وضعن خلال فترة شهر من الزمن في العيادة، والممتدة من 20جوان إلي 20 جويلية لسنة2009، وهي عينة غرضيه تتكون من 1024 سيدة.

1-8 أدوات الدراسة

لقد تم استخدام أداة المقابلة لجمع البيانات، كونها التقنية الأكثر ملائمة لهذا النوع من المواضيع، على اعتبار أن نسبة الأمية مرتفعة بين أوساط النساء في الجزائر، إذ بلغت عند ذوات **10سنوات فأكثر حوالي 29% حسب التعداد العام للسكان والسكن لسنة2008**[6].

وشملت الاستمارة كل من : سن الزوجين، ومستوى تعلميهما، ووضع السيدات المهني، ووسط الإقامة، ومحل الإقامة، وكيفية زواج السيدات، وصلة القرابة بين الزوجين، بالإضافة إلى سؤال حول ما إذا حدث هناك تشاور مع الزوج حول عدد الأطفال المراد إنجابهم، كما تضمنت أسئلة الاستمارة سؤالين تمحورا حول عدد الأطفال الذين تم إنجابهم، وما إذا كانت السيدة تعرضت لنوع من أنواع الإكراه بشأن الإنجاب؟

وقد جرى عرض استمارة على مجموعة من الخبراء في العلوم الاجتماعية والديموغرافية لتحديد مدى صدقها. كما طبقت على عينة أولية صغيرة الحجم لمعرفة مدى ثبات أسئلتها واتساق فقراتها.

1-9 تفريغ البيانات

لقد تمت الاستعانة في جمع المادة الميدانية بثلاث طلبات من قسم علم الاجتماع والديموغرافيا (تخصص ديموغرافيا). وخصص لهن برنامج تدريبي تم التركيز فيه على شرح كيفية إجراء المقابلة. وبعد جمع البيانات، أجري تبويبها وتفسيرها وتحليلها باستخدام عدد من المقاييس الإحصائية كالأوساط الحسابية ومعامل ارتباط **بيرسون، وذلك باستخدام الحزمة الإحصائية للعلوم الاجتماعية رقم 18** (SPSS18).

2- عرض ومناقشة نتائج البحث الميداني الخاصة بالعلاقة بين الخصائص الشخصية للزوجين و التشاور بينهما **حول عدد الأطفال المراد إنجابهم**

2-1 انتشار التشاور بين الزوجين

يتبين من خلال قراءة معطيات الجدول 1 أن 73.7 % من السيدات ذكرت انه حدث تشاور مع الزوج حول عدد الأطفال المراد إنجابهم، بينما صرحت 26.3 % منهن انه لم يحدث ذلك على الإطلاق.

الجدول1: توزيع السيدات حسب التشاور الحاصل مع الأزواج حول عدد الأطفال المراد إنجابهم

التشاور مع الزوج حول عدد الأطفال المراد إنجابهم	العدد	%
نعم	755	73.7
لا	269	26.3
المجموع	1024	100

2-2 العلاقة بين التشاور بين الزوجين حول عدد الأطفال المراد إنجابهم وسن السيدات

يكشف الجدول 2 عن وجود ارتباط عكسي ذو دلالة معنوية بين التشاور بين الزوجين حول عدد الأطفال المراد إنجابهم والسن الحالي للسيدات(معامل الارتباط=-0.067 ،عند مستوي 0.05)، أي أن التشاور يزيد بين السيدات صغيرات السن مقارنة بالسيدات المتقدمات في السن.

الجدول2: توزيع السيدات حسب التشاور مع الأزواج حول عدد الأطفال المراد إنجابهم وحسب العمر الحالي

فئات الأعمار	التشاور مع الزوج حول عدد الأطفال المراد إنجابهم		المجموع
	نعم	لا	
19-15	14	4	18
24-20	174	61	235
29-25	263	82	345
34-30	175	56	231
39-35	97	44	141
44-40	29	19	48
49-45	3	3	6
المجموع	755	269	1024

إن معطيات ذات الجدول تبين أن نسبة التشاور بين الزوجين حول الإنجاب تنخفض من 77.8 % لدى الأمهات اللواتي تقع أعمارهن بين 15-19 سنة كاملة إلي 75.8 % عند العمر 30-34 سنة ، ثم 60.4 % لدى السيدات 40-44 سنة.

وهذا ما ذهبت إليه دراسات عديدة التي أجريت في هذا الشأن، إذ أظهرت "أن الشباب أصبح يشعر الآن بحرية أكثر في التحدث عن موضوعات تتعلق بالجنس والإنجاب والعلاقة الزوجية بالمقارنة ببعض الأشخاص المتزوجين فعلا في الماضي،حيث كان هؤلاء يتحاشون التحدث في مثل هذه الموضوعات حتى بعد أن ينجبوا أطفال"[7].

2-3 العلاقة بين التشاور بين الزوجين حول عدد الأطفال المراد إنجابهم والمستوى التعليمي للسيدات

الجدول 3 : توزيع السيدات حسب التشاور مع الأزواج حول عدد الأطفال المراد إنجابهم وحسب مستوي تعلميهن

المستوي التعليمي للمبحوثات	التشاور مع الزوج حول عدد الأطفال المراد إنجابهم		المجموع
	نعم	لا	
أمي	85	52	137
ابتدائي	87	37	124
متوسط	232	66	298
ثانوي	207	74	281
عالي	144	40	184
المجموع	755	269	1024

يتضح من خلال الجدول3 أن هناك علاقة موجبة ذات دلالة إحصائية بين التشاور بين الزوجين حول عدد الأطفال المراد إنجابهم ومستوي التعليمي للزوجة (معامل الارتباط =0.093، عند مستوي 0.01)، بمعنى أنه كلما زاد المستوى التعليمي للسيدات ارتفعت قدرتهن علي التشاور مع الزوج حول الإنجاب. وقد وصلت نسبة التشاور مع الزوج عند السيدات الجامعيات إلي78%، فيما تنخفض إلي73.7% لدى السيدات ذوات المستوى التعليمي الثانوي، للتراجع من جديد إلي حدود 62% عند السيدات الأميات.

وتسير هذه النتيجة–أيضا– وفق ما توصلت إليه دراسات عديدة التي أجريت في هذا المضمار، إذ بينت" أن مستوى التعليم يمنح المرأة قدرة و مهارة كبيرة للتشاور والتحاور والتفاوض مع زوجها حول المسائل المرتبطة بالحياة الزوجية "[8] .هذا، فالمرأة التي نالت قسطا كبيرا من التعليم أصبحت أكثر حظا في تلقي الخطابات التحسيسية والتربوية،عكس المرأة الأقل تعليما. وهذا ما عزز من مكانة الزوجة المتعلمة فأصبحت أكثر استقلالية في مجال الاختيار الأسري، الأمر الذي ساهم في خلق نوع من التوازن بينها وبين زوجها.

2-4العلاقة بين التشاور بين الزوجين حول عدد الأطفال المراد إنجابهم و الوضع المهني للسيدات

تشير الدراسات الحديثة التي تناولت موضوع أداء أدوار الزوجين داخل الأسرة أن المرأة العاملة زاد نفوذها في البيت، إذ لا تستسلم للزوج عن ضعف وإنما تتوأم معه عن طريق الحوار والنقاش. واستنادا إلى ذات الدراسات فان عملها قربها من زوجها ، حيث أصبح هذا الأخير يستطيع التفاهم والأخذ والعطاء مع شريك متكافئ[9]. فالمرأة تكتسب من خلال عملها نوع من المرونة في التعامل مع الزوج وتصبح قادرة علي التأثير في مجمل القرارات التي تخص الأسرة.

الجدول 4 : توزيع السيدات حسب التشاور مع الأزواج حول عدد الأطفال المراد إنجابهم وحسب نشاطهن المهني

النشـــــاط المهـــــني للمبحوثات	التشاور مع الزوج حول عدد الأطفال المراد إنجابهم		المجموع
	نعم	لا	
غير مشتغلة	661	252	913
مشتغلة	94	17	111
المجموع	269	755	1024

ولعل هذا ما أكدته الدراسة الحالية، إذ نلاحظ من خلال معطيات الجدول4 أن هناك تباين ذو دلالة إحصائية(معامل الارتباط=-0.087،عند مستوي0.01) في مستوي التشاور بين الزوجين حول عدد الأطفال المراد إنجابهم بين السيدات المشتغلات والسيدات الماكثات بالبيت.

إن نسبة التشاور بين السيدات غير العاملات بلغت 72.4% ، في حين وصلت بين السيدات العاملات إلي84.7 %. هذا يعني أن المجموعتين غير متجانستين في متغير التشاور بين الزوجين حول الإنجاب.

2-5 العلاقة بين التشاور بين الزوجين حول عدد الأطفال المراد إنجابهم ووسط الإقامة

إن التحليل الإحصائي لمعطيات للجدول 5 يظهر بجلاء عدم وجود فروق دالة إحصائيا بين سيدات الوسط الحضري (73.8%) وسيدات الوسط الريفي (73.7 %) فيما يخص نسبة التشاور بين الزوجين حول الإنجاب، أي أن هناك تجانس في مستوي التشاور حسب وسط الإقامة.

الجدول 5: توزيع السيدات حسب التشاور مع الأزواج حول عدد الأطفال المراد إنجابهم وحسب وسط الإقامة

وسط الإقامة	التشاور مع الزوج حول عدد الأطفال المراد إنجابهم		المجموع
	نعم	لا	
حضري	548	195	743
ريفي	207	74	281
المجموع	755	269	1024

2 -6 العلاقة بين التشاور بين الزوجين حول عدد الأطفال المراد إنجابهم و محل السكن

الجدول 6: توزيع السيدات حسب التشاور مع الأزواج حول عدد الأطفال المراد إنجابهم وحسب محل السكن

محل السكن	التشاور مع الزوج حول عدد الأطفال المراد إنجابهم		المجموع
	نعم	لا	
مع أهل الزوج	374	142	516
مع أهل الزوجة	5	2	7

مسكن مستقل	376	125	501
المجموع	755	269	1024

من المفيد دراسة العلاقة القائمة بين التشاور بين الزوجين حول عدد الأطفال المرغوب فيهم ومحل سكن الزوجين –أي ما إذا كان مستقلا أو مع أهل احد الزوجين– وقد انتهت نتائج بعض الدراسات المحلية التي أجريت في هذا المضمار إلي اتجاه يفيد أن التشاور بين الزوجين حول عدد الأطفال المراد إنجابهم يزيد بين النساء اللواتي يعشن في اسر نووية مقارنة بمن يعشن في اسر ممتدة[10].

إلا أن نتائج الدراسة الميدانية الحالية تبين أن محل سكن لا يلعب دورا مؤثرا في تحديد مستوي التشاور بين الزوجين في ميدان الإنجاب، حيث لم يتم تسجيل فروق جوهرية بين المحلين،إذ قدرت نسبة التشاورب72.5 % إذا كان الزوجين مقيمين مع أهل الزوج، وهي نفس القيمة تقريبا (75 %) إذا كان الزوجين يتمتعان بمسكن مستقل.

2-7 العلاقة بين التشاور بين الزوجين حول عدد الأطفال المراد إنجابهم و المستوي التعليمي للأزواج

حاولت الدراسة من خلال الجدول7 اختبار العلاقة الموجودة بين المستوى التعليمي للأزواج والتشاور بين الزوجين حول عدد الأطفال المراد إنجابهم، وقد جاءت النتائج لتؤكد أن هناك تناسب طردي بين المتغيرين، أي كلما ارتفع المستوى التعليمي للأزواج كلما زادت مساحة التشاور.

الجدول 7 : توزيع السيدات حسب التشاور مع الأزواج حول عدد الأطفال المراد إنجابهم وحسب المستوي التعليمي للأزواج

المستوي التعليمي للأزواج	التشاور مع الزوج حول عدد الأطفال المراد إنجابهم		المجموع
	نعم	لا	
أمي	34	17	51
ابتدائي	96	59	155
متوسط	290	79	369
ثانوي	223	71	294
عالي	112	43	155
المجموع	755	269	1024

إن تحليل معطيات ذات الجدول توضح أن نسبة التشاور بين الزوجين حول الإنجاب ترتفع من 66.7 % عند سيدات الأزواج الأميين من الرجال إلي72.3% عند سيدات الأزواج ذوي مستوى جامعي. وباستخدام معامل ارتباط بيرسون لفحص دلالة الفرق تبين انه ليس دال إحصائيا.

2-8 العلاقة بين التشاور حول عدد الأطفال المراد إنجابهم و الفرق في السن بين الزوجين

الجدول 8 : توزيع السيدات حسب التشاور مع الأزواج حول عدد الأطفال المراد إنجابهم وحسب الفرق في السن بين الزوجين

الفرق في السن بين الزوجين	التشاور مع الزوج حول عدد الأطفال المراد إنجابهم		المجموع
	نعم	لا	
-5-9*	4	0	4
-0-4*	35	16	51
0-4	275	90	365
5-9	296	110	406
10-14	105	37	142
15-19	37	11	48
20-24	2	3	5
25-29	1	2	3
المجموع	755	269	1024

* الزوجات أكبر من أزواجهن

إن تحليل بيانات الجدول 8 تبرز انه ليس هناك تفاوت واضح بين مستويات التشاور بين الزوجين حول عدد الأطفال المراد إنجابهم حسب الفرق في السن بين الزوجين. فإذا أخذنا مثلا الفرق في السن بين الزوجين الممتد بين0-4 سنة لوجدنا أن نسبة التشاور تبلغ 75.3 %، أما إذا كان الفرق بينهما يتراوح بين 15و19 سنة فقد كانت النسب 77.1 %.

2-9 العلاقة بين التشاور بين الزوجين حول عدد الأطفال المراد إنجابهم وكيفية الزواج

إن دراسة تأثير كيفية زواج السيدات– من حيث ما إذا كان زواج مرتب أو عن التعارف–علي التشاور بين الزوجين حول عدد الأطفال المراد إنجابهم (الجدول 9) تكشف عن وجود فروق جوهرية في نسب هذا الأخير بين الأزواج الذين كان زواجهن مرتب(69.7 %)، والأزواج الذين كان زواجهن عن طريق التعارف (78.5%). أي انه لا يوجد تجانس بين فئتي الزواج المرتب والزواج الحر في مستوي التشاور بين الزوجين (معامل الارتباط =- 0.085، عند المستوي 0.01). وجاءت هذه النتائج لتسير ووفقا للدراسات التي عالجت هذا الموضوع،إذ تبين أن"فقدان الاختيار الحر للشريك يجعل من الاتصال بين الزوجين صعب إن لم يكن مستحيل"[11].

الجدول 9: توزيع السيدات حسب التشاور مع الأزواج حول عدد الأطفال المراد إنجابهم وحسب كيفية الزواج

كيفية الزواج	**التشاور مع الزوج حول عدد الأطفال المراد إنجابهم**		**المجموع**
	نعم	**لا**	
مرتب/عائلي	**368**	**160**	**528**
اختياري/ حر	**386**	**106**	**492**
إجباري	**1**	**3**	**4**
المجموع	**755**	**269**	**1024**

2-10 العلاقة بين التشاور بين الزوجين حول عدد الأطفال المراد إنجابهم وصلة القرابة بين الزوجين

تشير دراسات متعددة أن لصلة القرابة بين الزوجين دور هام في تحديد طبيعة ونوع العلاقة القائمة بينهما. وقد تبين أن الزوجان اللذان تربطهما علاقة قرابة دموية يكونان أقرب من بعضهما البعض. إلا أن نتائج الدراسة الحالية أسفرت على عدم وجود اختلاف جوهري في مستوى التشاور مع الأزواج بشأن عدد الأطفال المراد إنجابهم بين السيدات اللواتي يربطهم عرق قرابة مع أزواجهم (71.7 %)، وقريناتهن اللواتي لا تربطهن علاقة نسب بأزواجهن (74.6 %).

الجدول 10: توزيع السيدات حسب التشاور مع الأزواج حول عدد الأطفال المراد إنجابهم وحسب صلة القرابة بين الزوجين

صلة القرابة بين الزوجين	التشاور مع الزوج حول عدد الأطفال المراد إنجابهم		المجموع
	نعم	لا	
كل أشكال القرابة	228	90	318
بدون صلة قرابة	527	179	706
المجموع	755	269	1024

3- عرض ومناقشة نتائج البحث الميداني الخاصة **بتأثير التشاور بين الزوجين حول عدد الأطفال المراد إنجابهم على بعض الأبعاد المرتبطة بالإنجاب**

3-1تأثيرالتشاور بين الزوجين حول عدد الأطفال المراد إنجابهم علي عدد الأطفال الذين تم إنجابهم بالفعل

إن المعطيات المستقاة من الجدول11 تبين الارتباط العكسي القوي الموجود بين التشاور بين الزوجين حول عدد الأطفال المراد إنجابهم و عدد الأطفال الذين أنجبوا بالفعل، بمعني أخر كلما زاد التشاور بين الزوجين كلما قل عدد أطفال.

الجدول 11 : توزيع السيدات حسب التشاور مع الأزواج حول عدد الأطفال المراد إنجابهم و حسب عدد الأطفال الذي تم إنجابه بالفعل

عدد الأطفال الذي تم إنجابه بالفعل	التشاور مع الزوج حول عدد الأطفال المراد إنجابهم				المجموع
	نعم	عدد الأطفال	لا	عدد الأطفال	
1	364	364	102	102	466
2	189	378	63	126	252
3	99	297	41	123	140
4	57	228	26	104	83
5	34	170	21	105	55
6 فأكثر	12	72	16	96	28
المجموع	755	1509	269	656	1024

إن عدد الأطفال بلغ في المتوسط1.99 طفلا بين الزوجات اللاتي جمعهم تشاور حول عدد الأطفال المراد إنجابهم مع أزواجهن، فيما تجاوز2.43 طفلا بين الزوجات اللاتي لم يحدث بينهم ذلك علي الإطلاق. ووصل الفرق بين المجموعتين إلي 0.44 طفلا. هذا يعني أن الخصوبة ستنخفض بمقدار 18 % حين يسود التشاور بين الزوجين.

3-2 تأثير التشاور بين الزوجين حول عدد الأطفال المراد إنجابهم على الإكراه الممارس ضد السيدات في ميدان الإنجاب

يعتبر إكراه السيدات في ميدان الإنجاب من بين أهم المضايقات المفروضة عليهن في المجتمعات الشرقية، بما في ذلك المجتمع الجزائري.إلا أن المسالة لم يتم التطرق إليها نظرا للخصوصية المحيطة بها.

الجدول 12 : توزيع السيدات حسب التشاور مع الزوج حول عدد الأطفال المراد إنجابهم وحسب الإكراه الممارس ضد الأمهات في ميدان الإنجاب

الإكراه الممارس ضد الأمهات في ميدان الإنجاب	التشاور مع الزوج حول عدد الأطفال المراد إنجابهم				المجموع
	نعم	%	لا	%	
نعم	98	12.9	45	16.7	143
لا	657	87.1	224	83.3	881
المجموع	755	100	269	100	1024

وتفيد بيانات الجدول إلي أن إكراه السيدات بشكل أو بأخر في ميدان الإنجاب يقل بين الزوجين اللذان حصل بينهما تشاور حول عدد الأطفال المراد إنجابهم (12.9 %)، مقارنة بالزوجين اللذان لم يحصل بينهما ذلك علي الإطلاق (16.7 %).

الخاتمة

إن البحث في حقل العلاقات الزوجية هو من أكثر البحوث غموضا وتشعبا، ذلك أن المسالة يكتنفها كثير من الطبوهات والخصوصية. وقد جاءت هذه الدراسة لكشف النقاب علي بعض الأبعاد المرتبطة بعنصر هام متعلق بهذه الظاهرة،ألا وهو التشاور بين الأزواج حول عدد الأطفال المراد إنجابهم في الجزائر، وهي بذلك تعتبر من الدراسات القليلة التي أجريت حول الظاهرة، إذ شملت عينة غير عشوائية واسعة من المبحوثات بلغت 1024 سيدة.

هذا، وقد مكّننا، من جهة، من التعمق في فهم محددات التشاور بين الزوجين حول عدد الأطفال المراد إنجابهم، أي المتغيرات التي يخضع لها. كما كشفت لنا، من جهة أخرى،عن مدى تأثير هذا البعد على بعض الجوانب المتعلقة بالإنجاب.

وقد خلصت الدراسة إلى أن 73.7 % من المبحوثات أفدن أنه حدث هناك تشاور مع أزواجهن حول عدد الأطفال المراد إنجابهم.

وأظهرت المعطيات أن التشاور بين الأزواج حول عدد الأطفال المراد إنجابهم يتناسب من ناحية، تناسبا عكسيا مع سن الزوجات، بمعنى أن حجم التشاور يزداد مساحته بين السيدات صغيرات السن من المبحوثات مقارنة بالمتقدمات في السن، ويتأثر، من ناحية أخرى، طردا مع المستوى التعليمي للزوجين، فقد أظهرت النتائج أن نسبة التشاور بين الزوجين حول

عدد الأطفال المراد إنجابهم بلغت 78 % عند الجامعيات، في حين أنها لم تتعدى 62 % عند السيدات الأميات، و تنطبق نفس النزعة علي مستوي الأزواج (الجداول 2 و3 و7).

وعند ما نضع في الاعتبار البعد المهني للزوجة، نجد أن نسبة التشاور مع الزوج عند السيدات العاملات (84.7 %) أعلى بكثير من نظيرتها عند السيدات الماكثات بالبيت (72.4%).

في حين كشفت النتائج عن عدم خضوع التشاور لكل من وسط الإقامة ومحل الإقامة، و الفرق في السن بين الزوجين، وكذا صلة القرابة بين الزوجين.

وبينت نتائج الجدول9 أن هناك علاقة ذات دلالة معنوية في نسب التشاور حسب كيفية زواج السيدات، حيث بلغت 78.5% إذا كان الزواج حرا، فيما لم تتجاوز69.7 % في حالة الزواج المرتب .

وعليه، فان هذه النتائج دعمت- بشكل جزئي- الفرضية الأولي والمتعلق بتأثير الخصائص الديموغرافية والاجتماعية للزوجين علي التشاور بينهما حول عدد الأطفال المرغوب فيه. حيث أفادت النتائج أن التشاور يرتبط ارتباطا معنويا ببعض خصائص الشخصية للسيدات وأزواجهن، ولا يرتبط ارتباطا جوهريا ببعضها الأخر.

أما عن الفرضية الثانية والتي مفادها أن متغيري عدد الأطفال الذين تم إنجابهم بالفعل والإكراه الممارس ضد السيدات في ميدان الإنجاب يخضعان للتشاور بين الزوجين، و يتناسبان تناسبا عكسيا معه، فإنها محققة وصادقة إلي أبعد الحدود. ولعل هذا ما أسفرت عليه معطيات الجدولين 11 و12، إذ بينت، من جهة، أنه كلما ارتفعت نسبة هذا الأخير ينخفض عدد الأطفال الذين تم إنجابهم، حيث بلغ 2.43 طفلا بين الأزواج الذين لم يحدث بينهم تشاور و1.99 طفلا بين الأزواج الذين حدث بينهم ذلك، و يقل- أيضا-من جهة أخرى الإكراه الممارس على السيدات في ميدان الإنجاب، إذ بلغت نسبته12.9 % بين الأزواج الذين حصل بينهما تشاور حول عدد الأطفال المراد إنجابهم و16.7 % بين الأزواج الذين لم يحصل بينهما ذلك على الإطلاق.

المراجع

1-سناء الخولي، الأسرة والحياة العائلية.الإسكندرية : دار المعرفة الجامعية، 2002. ص209 .

2-عبد القادر القصير،الأسرة المتغيرة في المجتمع المدينة العربية. بيروت: درا النهضة العربية،1999 . ص206.

3- نفس المرجع، ص 207.

4-Disponible sur http:// www.islamport.com .site consulte le 20/10/2012.

5-مرسي كمال إبراهيم، الأسرة، التعريف ،الوظائف والأشكال. الكويت دار القلم، 2003، ص 12.:

6-Office National des Statistiques .Collections statistiques N142, RGPH 2008. Alger, 2008.P13.

7- سناء الخولي، مرجع سابق ، ص.91.

8- Kaczmarek, Sylvie. Femmes et féminismes .Toulouse : édition ères, 1993, P74.

9-كاميليا إبراهيم عبد الفتاح، سيكولوجيا المرأة العاملة.بيروت: درا النهضة العربية، 1984.ص91.

10- Attout, Nadia.Haider ,Fadila .Mutations des structures familiales et évolution du statut de la femme en Algérie . Alger : CeNEAP,1997.P11.

11-Lacoste Dujardin,Camille. Des mères contre les femmes. Paris : Cérès Editions,1995. P295.

دور شبكات التواصل الاجتماعي في تنمية ثقافة العمل التطوعي

(مجموعة ناس الخير بورقلة ، أنموذجا)

أ.جمال كانون – جامعة سعيدة

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

الملخص:

لقد أصبحت شبكات التواصل الاجتماعي الأداة التواصلية والتفاعلية الأكثر استخداما نظرا لقوتها التقنية ، والتي في مقدمتها شبكة "الفايس بوك" تحديدا ، إلى جانب شبكات التواصل الاجتماعي الأخرى "كالتويتر" و"ماي سبايس "و...ألخ ما جعلها تعد كضاهرة اجتماعية محل دراسة في العديد من المجالات نظرا للدور الذي يمكن أن تلعبه شبكات التواصل الاجتماعي في التحولات الاجتماعية والسوسيوثقافية في المجتمع.

لذلك نحاول من خلال هذأ المقال إبراز الدور الذي يمكن أن تلعبه شبكات التواصل في المجتمع ،وما إذا كان من الممكن جعلها أداة فعالة للتغيير الايجابي نحو خدمة مصالح الفرد والمجتمع ، وهذا إذا ما أحسن استثمارها واستغلالها وتوجيهها بشكل إيجابي ،حينها تستطيع شبكات التواصل الاجتماعي أن تحول الأقوال والأفكار والتوجهات إلى مشروعات عمل جاهزة وقابلة للتنفيذ ،وهو ما ذهبت إليه مجموعة من المتطوعين الجزائريين من خلال نقل أفكار تطوعية وعمليات التضامن الاجتماعي من العالم الافتراضي إلى الواقع ،بتأسيسهم لمجموعة تحمل إسم "ناس الخير " والتي اشتهرت في الآونة الأخيرة عبر "الفايس بوك " و استطاعت أن تفرض وجودها ، وأصبحت مجموعة "ناس الخير" تحتل بمبادراتها العديدة واجهة العمل الخيري بعدة ولايات في الجزائر وخاصة بعدما شملت نشاطاتها ميادين اجتماعية مختلفة ، لذلك كانت أنموذجا لدراستنا هذه التي نحاول من خلالها أن نبرز دور شبكات التواصل الاجتماعي في تنمية ثقافة العمل التطوعي وروح التضامن في المجتمع الجزائري.

الكلمات المفتاحية : شبكات التواصل الاجتماعي،مجال التفاعل، ثقافة التطوع ،العمل التطوعي

Résumé :

Les réseaux de communication sociale sur internet sont devenus l'outil et le moyen interactif le plus généralement utilisé à cause de sa force, technique, notamment le "face book" , en ajoutant, les autres réseaux tels que "Twiter" et "My Speace" ... etc. Ce phénomène est devenu le sujet d'une étude sociale dans plusieurs de domaines à cause de son rôle que peut être joué par les réseaux de communication sociale dans les transformations sociales et socioculturelles de la société.

Donc, nous essayons, par cet article de mettre en évidence le rôle que peut être joué par ces réseaux de communication dans la société et s'il peut être un moyen de changement positif efficace vers les intérêts de l'individu et la communauté et que le meilleur investissement et l'exploitation de ces réseaux de communication positifs et opportuns peut conduire à la réalisation des projets prêts et capables de mise en œuvre.

Cet objectif a encouragé un groupe de volontaires algériens d'adopter cette stratégie en vu de réaliser la solidarité sociale. Ce groupe portant le nom "des bons gens , qui était célèbre récemment par "Ness elkhir" a pu imposer sa présence et devenu un modèle par ces activités au niveau national. Ce modèle était pour nous un sujet d'étude pour mettre en évidence le rôle de ces réseaux de communication social dans le développement d'une culture de bénévolat et de l'esprit de solidarité dans la société algérienne.

المقدمــة: شهدت المجتمعات الإنسانية خلال العقد الأخير من القرن الماضي، تطورات متسارعة ومتلاحقة لتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات، مما ساهمت في تسهيل إمكانية التواصل الإنساني والحضاري، ولعل أهمها يتمثل في شبكة المعلومات العالمية "الإنترنت" حيث انتشرت في كافة أرجاء المعمورة، ، ومهدت الطريق لكافة المجتمعات للتقارب والتعارف وتبادل الآراء والأفكار والرغبات، وأصبحت أفضل وسيلة لتحقيق التواصل بين الأفراد والجماعات ،وخاصة مع ظهور ما يعرف بمواقع أو شبكات التواصل الاجتماعي مثل: (الفيس بوك ،تويتر ، ماي سبيس ،لايف بوون ، يوتيوب... وغيرها)، الشيء الذي أثار لدى الباحثين رغبة شديدة في دراسة تأثيراتها الواقعية والمفترضة سياسيا واجتماعيا واقتصاديا، وذلك لتميزها بالوفرة المعلوماتية الهائلة واستخدامها لكل الوسائط الإعلامية (صوت، صورة، نص، رسوم، فيديو...) والتي أتاح

البعض منها مثل: (الفيس بوك) تبادل مقاطع الفيديو والصور ومشاركة الملفات وإجراء المحادثات الفورية، والتواصل والتفاعل المباشر بين جمهور المتلقين وكذا تمكين الأفراد من التخاطب فيما بينهم مباشرة وعبر كل أرجاء العالم..

وبين الانتقادات التي تتعرض لها شبكات التواصل الاجتماعي بتأثيرها السلبي والمباشر على المجتمع الأسري، وبين من يرى لها أدورا إيجابية كونها ،وسيلة مهمة للتنامي والالتحام بين المجتمعات،والإطلاع والتعرف على ثقافات الشعوب المختلفة، إضافة إلى دورها الفعال والمتميز في التفاعل والتواصل و نشر بعض القيم الاجتماعية في المجتمع.

تأتي دراستنا هذه لتستعرض دور ومساهمة شبكات التواصل الاجتماعي وتحديدا"الفايس بوك" في نشر وتنمية ثقافة العمل التطوعي في المجتمع الجزائري من خلال "مجموعة ناس الخير بورقلة " أنموذجنا ،وذلك للأهمية البالغة للعمل التطوعي الذي يعد من القضايا المهمة جدًا والذي تترتب عليه أفعال وممارسات إيجابية في المجتمع وخاصة في المجالات الاجتماعية والثقافية والتعليمية والصحية والبيئية.

وتستعرض هذه الورقة فى محورها الأول ماهية الشبكات الاجتماعية ، كما تستعرض فى محورها الثاني ماهية ثقافة العمل التطوعي . أما المحور الثالث فيتناول التعريف بمجموعة ناس الخير كأنموذجا ثم نستعرض في الأخير نتائج وخلاصة الدراسة .

إشكاليــة الدراسة :

أضحت شبكات التواصل الاجتماعي ظاهرة اجتماعية لما تتميز به من وظيفة تفاعلية، تواصلية وكونها تستقطب شريحة كبيرة من فئات المجتمع، حيث بات من المؤكد انه لا يمكن إخفاء الأثر الكبير الذي تركته شبكات التواصل الاجتماعي والتي في مقدمتها موقع الفايس بوك تحديدا ،والتي أصبحت الأداة التواصلية الأكثر استخداما نظرا لقوتها التقنية والتفاعلية ،إلى جانب شبكات التواصل الاجتماعي الأخرى.

لذلك نحاول من خلال هذه الورقة إبراز الدور الذي الإيجابي الذي يمكن أن تلعبه شبكات التواصل الاجتماعي في التحولات الاجتماعية والسوسيوثقافية في المجتمع ،وكذا التعرف على وظائفها الخدمية التي يمكن الاستفادة منها ايجابيا ،وجعلها أداة فعالة للتغيير الايجابي نحو خدمة مصالح الفرد والمجتمع ،كما يمكنها أن تقوم بدور مهم في تربية النشء وإكسابهم عادات وقيم إيجابية صحيحة من خلال الدور الخدمي الذي تقدمه، وهذا طبعا لا يتأتى إلا إذا ما أحسن استثمارها واستغلالها وتوجيهها بشكل إيجابي وهنا تستطيع شبكات التواصل الاجتماعي أن تحول الأقوال والأفكار والتوجهات إلى مشروعات عمل جاهزة وقابلة للتنفيذ ،وهو ما ذهبت إليه مجموعة من المتطوعين الجزائريين إلى محاولة إعطاء الوجه الإيجابي" للفايس بوك "وغيره من شبكات التواصل الاجتماعي من خلال نقل أفكار تطوعية وعمليات التضامن الاجتماعي من العالم الإفتراضي إلى الواقع ،حيث أحدثوا مجموعة تحمل إسم "ناس الخير " والتي اشتهرت في الآونة الأخيرة عبر"الفايس بوك " حيث أصبحت تحتل بمبادراتها العديدة واجهة العمل التطوعي وأصبحت تقريبا لكل ولاية في الجزائر بمجموعتها الخاصة ،وتتفرع عنها مجموعات أخرى بإسم بلدياتها ودوائرها ، وخاصة بعدما شملت نشاطاتها ميادين اجتماعية مختلفة.

وهو ما جعلنا نتخذها أنموذجا لدراستنا هذه التي ننطلق فيها من طرحنا الإشكالية التالية : ما هو دور شبكات التواصل الاجتماعي في نشر و تنمية ثقافة العمل التطوعي في المجتمع الجزائري؟ وهل يمكن لشبكات التواصل الاجتماعي أن ترقى من مجال للتفاعل والتواصل بين مستخدميها إلى مجال لتنمية قيم اجتماعية إيجابية كثقافة العمل التطوعي ؟

الفرضيات :

1- يمكن أن تلعب مواقع التواصل الاجتماعي دورا مهما في تنمية ثقافة العمل التطوعي

2 –يمكن لشبكات التواصل الاجتماعي أن ترقى من مجال للتفاعل والتواصل بين مستخدميها إلى مجال لتنمية ثقافة العمل التطوعي، من خلال الأنشطة الثقافية والاجتماعية أو الفنية التي تغرس وتنمي القيم والمعايير الاجتماعية في نفوسهم.

أهمية وأهداف الدراسة:

ويستمد هذا الموضوع أهميته من أهمية الشبكات الاجتماعية في حد ذاتها، وما تمتاز به من خصوصيات اتصالية فائقة، حيث أصبحت أداة فعالة وفي غاية الأهمية في مختلف المجالات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية كما تبرز أهمية الدراسة من أهمية العمل التطوعي، الذي يعد من القضايا البالغة الأهمية لدى كل المجتمعات المعاصرة، على اختلاف هوياتها الدينية والثقافية. ونهدف من خلال هذه الورقة إلى محاولة التعرف على نوع العلاقة وطبيعة الدور الذي يمكن تلعبه شبكات التواصل الاجتماعي في تنمية العمل التطوعي من خلال التعرف على تجربة مجموعة ناس الخير ، ودورها في تنمية ثقافة العمل التطوعي وإلقاء الضوء على الأنشطة والفعاليات التي تمارسها المجموعة ونهدف من خلال ذلك ،إبراز الدور الخدمي والإيجابي الذي يمكن أن تلعبه شبكات التواصل الاجتماعي في المجتمع .

أولا :شبكات التواصل الإجتماعي:

_ماهية شبكات التواصل الإجتماعي:

هي "مجموعة من المواقع على شبكة الإنترنت، ظهرت مع الجيل الثانى للويب web 2 تتيح التواصل بين الأفراد فى بنية مجتمع افتراضي، يجمع بين أفرادها اهتمام مشترك أو شبه انتماء (بلد – مدرسة – جامعة – شركة... الخ) يتم التواصل بينهم من خلال الرسائل، أو الاطلاع على الملفات الشخصية، ومعرفة أخبارهم ومعلوماتهم التى يتيحونها للعرض. وهى وسيلة فعالة للتواصل الاجتماعي بين الأفراد، سواء كانوا أصدقاء نعرفهم فى الواقع، أو أصدقاء عرفتهم من خلال السياقات الافتراضية(1.(

ويعتبر بيير ميركل في كتابه سوسيولوجيا الشبكات الاجتماعية، أن الشبكات الاجتماعية كيان يتكون من مجموعة من الوحدات الاجتماعية، وعلاقات تربط فيما بينها، مباشرة أو غير مباشرة، من خلال سلاسل متباينة الطول. هذه الوحدات الاجتماعية قد تكون أفرادا، أو مجموعات غير رسمية للأفراد، أو أيضا المنظمات الرسمية كالجمعيات والشركات أو حتى الدول. (2(

ويعرفها الباحث إجرائياً بأنها: "مواقع إلكترونية تفاعلية ذات طابع اجتماعي، كونها تعزز العلاقات بين بني البشر وتتيح التواصل لمستخدميها و تحاول أن تقدم واقعاً افتراضياً لالتقاء الأصدقاء والمعارف والأهل، من خلال تكوين شبكة من العلاقات، تجمعهم اهتمامات ونشاطات مشتركة بالرغم من اختلاف وعيهم وتفكيرهم وثقافاتهم، وتعدت وظيفتها الاجتماعية لتصبح وسيلة إعلامية و تحسيسية يتبادل من خلالها المشتركون التجارب والمعارف والمعلومات والملفات والصور ومقاطع الفيديو، إضافة إلى توجيههم أو تحسيسهم أو تشجيعهم أو تزويدهم بثقافات أو قيم إجتماعية أو إنسانية تسهم في تطور الفرد والمجتمع كما تقدم العديد من الخدمات الأخرى لمستخدميها، مثل: البريد الإلكتروني والرسائل الخاصة والمحادثة الفورية وغيرها."

وتعد مواقع الشبكات الاجتماعية وسيلة للتواصل والتقاطع بين العالمية والمحلية. فالتفاعلات تتم على خلفية السياق العالمى، وتتبلور متغيراتها على الصعيد المحلى، وذلك عبر عدة متغيرات يمكن الوقوف عليها فى النواحى التالية:

1 –المتغيرات الاجتماعية:

تتلخص المتغيرات الاجتماعية للشبكات فى محورين، يتمثل المحور الأول فى تكوين الصداقات، بينما يتمثل المحور الثانى فى عضوية الجماعات، ويمكن طرحهما من خلال السياق التالى:

أ– تكوين الصداقات:

سهلت الشبكات الاجتماعية من تكوين الصداقات، حيث تجمع الشبكات بين الصداقات الواقعية، والصداقات الافتراضية. والفرضية الأساسية التى تقوم عليها هذه الصداقات هى مشاركة الاهتمامات، والجمع بين أصحاب الاهتمامات عبر الفضاء المعلوماتى.

ب– عضوية الجماعات:

سمحت الشبكات الاجتماعية بأن تجمع فى طياتها الجماعات الاجتماعية ذات الاهتمامات المتجانسة، ومن الممكن أن تؤسس هذه الجماعات بين أفراد المجتمع المحلى، أو يتم الاشتراك فيها على مستوى الصعيد العالمى .

2 –المتغيرات السياسية:

إن المردود البارز للشبكات الاجتماعية يتجلى بوضوح فى النواحى السياسية. ويمكن التدليل على ذلك فى ثلاثة محاور، يتمثل الأول هو تعبئة الرأى العام، ويتمثل المحور الثاني فى ممارسة قضايا المواطنة، والثالث فى تفعيل دور المجتمع المدنى.

أ– تعبئة الرأى العام:

تلعب الجماعات المنتشرة فى الشبكات الاجتماعية دورا فعالا فى تعبئة الرأى العام تجاه بعض القضايا السياسية. فعلى سبيل المثال، أضحت الشبكات الاجتماعية مجالا للاحتجاجات والتشجيع على الإضرابات وفتحت مجالا جديدا للدعايات الانتخابية ، وبذلك أضحت الشبكات الاجتماعية بوابات للممارسة السياسة .

ب– ظهور المواطنة الافتراضية:

فتحت الشبكات الاجتماعية المجال أمام ممارسة قضايا المواطنة عبر الإنترنت، وهى الظاهرة التى أطلق عليها المواطنة الافتراضية .Virtual citizenship ليصبح المجتمع الافتراضي مجالا لممارسة حقوق وواجبات المواطنة، والمطالبة بالحقوق السياسية (3(

ج– تفعيل دور المجتمع المدني:

تسهم الشبكات الاجتماعية فى زيادة تفعيل دور المجتمع المدني، حيث إن هناك العديد من منظمات المجتمع المدني قد بنت لها قواعد فى المجتمع الافتراضي عبر الشبكات الاجتماعية لتستغلها فى زيادة التواصل بين أفرادها، ودعوة المستفيدين إلى برامجها ومشروعاتها.

الخدمات التى تبثها الشبكات الاجتماعية: ومن أبرزها

1 –الملفات الشخصية أو صفحات الويب: وهى ملفات يقدم فيها الفرد بياناته الأساسية، مثل الاسم، والسن، وتاريخ الميلاد، والبلد، والاهتمامات، والصور الشخصية، ويعد الملف الشخصي هو بوابة الوصول إلى عالم الشخص.

2 –الأصدقاء أو العلاقات: وهى خدمة تمكن الفرد من الاتصال بالأصدقاء الذين يعرفهم فى الواقع، أو الذين يشاركونه الاهتمام نفسه فى المجتمع الافتراضي. وتمتد علاقة الشخص ليس فقط بأصدقائه، ولكن تتيح الشبكات الاجتماعية فرصة للتعارف مع أصدقاء الأصدقاء بعد موافقة الطرفين.

3 –إرسال الرسائل: تسمح هذه الخدمة بإرسال الرسائل، سواء إلى الأصدقاء الذين فى قائمة الشخص، أو غير الموجودين فى القائمة.

4 –ألبومات الصور: تتيح هذه الخدمة للمستخدمين إنشاء عدد لا نهائى من الألبومات، ورفع مئات الصور، وإتاحة المشاركات لهذه الصور للاطلاع عليها وتحويلها أيضا.

5 –المجموعات: تتيح الشبكات الاجتماعية فرص تكوين مجموعات بهدف معين أو لأهداف محددة، ويوفر موقع الشبكات لمؤسس المجموعة أو المنتسبين والمهتمين بها مساحة من الحرية أشبه بمنتدى حوار مصغر، كما تتيح فرصة التنسيق بين الأعضاء فى الاجتماعات من خلال ما يعرف باسم Events ودعوة الأعضاء لتلك المجموعات، ومعرفة عدد الحاضرين وأعداد غير الحاضرين.

6 –الصفحات: ابتدع هذه الفكرة موقع Face Book وتم استخدامها على المستوى التجارى بشكل فعال، حيث تسمح هذه الخدمة بإنشاء حملات إعلانية موجهة تتيح لأصحاب المنتجات التجارية فرصة عرض السلع، أو المنتجات للفئات التى يحددونها. ويقوم موقع الفيس بوك باستقطاع مبلغ مع كل نقرة يتم التوصل إليها من قبل المستخدم (4(

أبرز مواقع التواصل الاجتماعي والتعريف بها:

ما هو الفيس بوك؟

الفيس بوك (Face book) هو موقع اجتماعي أطلق في الرابع من فبراير 2004 والموقع يتبع نفس شركة فيس بوك الخاصة ويسمح هذا الموقع للمستخدمين بالانضمام إلى عدة شبكات فرعية من نفس الموقع تصب في فئة معينة مثل منطقة جغرافية معينة – مدرسة معينة وغيرها من الأماكن التي تساعدك على اكتشاف المزيد من الأشخاص الذين يتواجدون في نفس فئة الشبكة. كما أنه يعمل على تكوين الأصدقاء ويساعدهم على تبادل المعلومات والصور الشخصية ومقاطع الفيديو والتعليق عليها ويسهل إمكانية تكوين علاقات في فترة قصيرة .ويمكن للمستخدمين الاشتراك في شبكة أو أكثر على الموقع مثل المدارس أو أماكن العمل أو المناطق الجغرافية أو المجموعات الاجتماعية. وهذه الشبكات تتيح للمستخدمين الاتصال بالأعضاء الذين في نفس الشبكة. و يمكن للمستخدمين أن يضيفوا أصدقاء لصفحاتهم ويتيحوا لهم أن يروا صفحاتهم الشخصية (5(

ويرى بهذا الصدد الأديب النمساوي (روبرت مينا سه ,Menace) بان "الفيس بوك" هي شبكة لمن يريد أن يشارك، ويتعرف على الجديد فيها، والوصول إلى أكبر عدد من القراء بقوله: "يريد الفنان أن يكون وحيداً، غير أن الفنان لا يطيق الوحدة!"، (6) فهذه الشبكة مفتوحة للجميع من مختلف الفئات العمرية.

2 –تويتر :

تويتر: كما يراه الباحث: "هو أحدى شبكات التواصل الإجتماعي وأخذ (تويتر) أسمه من مصطلح (تويت) الذي يعني (التغريد)، وأتخذ من العصفورة رمزاً له كانت بدايات ميلاد هذه الخدمة المصغرة (تويتر) أوائل عام (2006)، وهو خدمة مصغرة تسمح للمغردين إرسال رسائل نصية قصيرة لا تتعدى (140) حرفاً للرسالة الواحدة، ويجوز للمرء أن يسميها نصاً موجزاً مكثفاً لتفاصيل كثيرة."

يوفر تويتر لمستخدميه إمكانيات عديدة منها: معرفة ما يقوم به أصدقائهم دائماً وفي أي وقت، كما أنه أسرع وسيلة لطرح التساؤلات على الأصدقاء وتلقي الإجابات الفورية، بالإضافة إلى أنه يتيح للمستخدم إمكانية إرسال الأخبار الهامة جداً والسريعة والمحيطة به كالاستغاثة أو الإخبار عن حادث مهم جداً. "(7(

3–اليوتيوب:

هو أحد المواقع الإجتماعية الشهيرة، والذي استطاع بفترة زمنية قصيرة الحصول على مكانة متقدمة ضمن مواقع التواصل الإجتماعي ,

يقول الدكتور عمار بكار: "إن نجاح (يوتيوب) له سبب آخر أكثر أهمية، وهو أن الجمهور صار من سرعة الإيقاع وتشتيت الانتباه وتعدد المهام، بحيث صار للفيديو القصير قيمته الأساسية مقابل المادة التلفزيونية الطويلة، التي تستغرق نصف ساعة أو أكثر على شاشة التلفزيون. البرهان على أن قصر الفيديو هو أهم من مسألة المحتوى الشخصي، أن الإحصاءات تثبت بلا شك أن الفيديو القصير الذي تتوافر فيه الإنتاج الحرفي (بروفيشنال) له شعبية أكبر من الفيديو الشخصي بشكل عام" (8(

الحراك الاجتماعي والسياسي لشبكات التواصل الاجتماعي :

إن شبكات التواصل الاجتماعي ذات تأثير عالي الفاعلية لم يتصوره المحللون وخبراء العالم ، بل أنها أسهمت في صناعة ثقافة التأثير من قبل بعض المؤثرين من مستخدمي الانترنيت كما كان في الاحتجاجات المصرية الأخيرة ، التي بدأت إلكترونيا لتصبح ثورة شبابية شعبية على ارض الواقع.

إن تويتر، واليوتوب، والفايس بوك، وماي سبايس ،وغيرهاعوالم إفتراضية ومدونات إلكترونية وضعت أخيرا في الحسبان وباتت من وسائل الاتصال الرئيسية المستخدمة في أنحاء العالم، استطاعت أن تزيد من مهارات التواصل الاجتماعي واستقطاب أعداد كبيرة من البشر وبكافة الأعمار والتوجهات والإتجاهات السياسية إيذانا بانطلاق مرحلة جديدة من التواصل.

كما أطرت هذه الشبكات التفاعلية لعلاقات إلكترونية أكثر عمقا من متصفحي الأنترنيت حيث تبادلت فيها المعلومات والبيانات والآراء والأفكار في شفافية وحرية وأصبحت إحدى الوسائل المحورية للتعبير عن الرأي كما لديها دور في التحيش والتفاعل واستطاعت أن تحول الأقوال والأفكار والتوجهات إلى مشروعات عمل جاهزة للتنفيذ.

وانطلاقا من تعاريف التواصل الاجتماعي يتأكد لنا ما رآه علماء الحياة والاجتماع والنفس في أن التواصل الاجتماعي غير مهدد بالزوال لان التواصل ظاهرة اجتماعية تقوم على علاقات تفاعلية وتحديدا بين أعضاء الثقافة الواحدة كما يشعر المشارك فيها أنه فاعل ومتفاعل اجتماعيا وليس كما كان يعتقد نفسه أنه هامشي ومستهلك لادوار له ، لذلك نجحت مواقع التواصل الاجتماعي من التأثير على ملايين المتفاعلين مع الأحداث ليحصل المؤثرون على أهدافهم وما أرادوه من تعبير (9.(

ثانيا : ثقافة العمل التطوعي :

ماهية ثقافة التطوع ؟

1–الثقافة: لقد أطلق هذا المفهوم العنان لعلماء الاجتماع و الأنتروبولوجيا لتعميق المفهوم و التوسع فيه من خلال دراسات و بحوث ميدانية لثقافات شتى، وكان ذلك على يد راد كليف براون، و ماكس فيبر، و ماركس، و إدوارد تايلور، الذي جاء في تعريفه للثقافة، على أنها ذلك الكل المركب الذي يشتمل على المعرفة والمعتقدات و الفنون و الأخلاق و القانون و العرف، و غير ذلك من الإمكانات والعادات التي يكتسبها الإنسان باعتباره عضوا في المجتمع (10. (

وهناك العديد من التعاريف حول مفهوم الثقافة و التي يمكن إجمالها عموما في مضمون واحد و هو أن الثقافة تشير إلى ذلك النسيج الكلي المتمثل في الأفكار والاجتهادات و العادات و منظومة القيم و طريقة التفكير و العمل و أساليب الإدارة وآداب السلوك التي تحكم جماعة من الأفراد و كذلك اللغة ونمط العيش و ما يتطلبه من مأكل و مشرب، و علاقات تؤسس التواصل بين الفرد و الفرد، و بين الفرد والجماعة و بين الفرد و خالقه ،وفي دراستنا هذه أقرناه بالعمل التطوعي على أساس أنه مجموع من الأفكار والقيم والعادات يجب أن ننشرها وننميها بكل الطرق والأساليب.

2 – مفهوم العمل التطوعي وأهميته:

- -التطوع لغة: " كلمة التطوع مأخوذة من الفعل (طوع) و هو ما تبرع به الفرد من ذات نفسه مما لا يلزمه فرضه " (11) ، و هو بمعنى "لان و تكلف الطاعة (12). "والتطوع بالشيء التبرع به، والمطوعة : الذين يتطوعون بالجهاد " (13).
- مما سبق يتبين لنا أن المعنى اللغوي للتطوع في معاجم اللغة يدور حول: التبرع والتكلف، و اللين، والطاعة .
- و أما اصطلاحًا :
- يطلق التطوع فى الاصطلاح الشرعى على الأعمال والعبادات التى يحبذها الشرع دون أن يعتبرها فرضاً واجباً على المكلف، وهى النوافل والمستحبات. يقول الله تعالى {فَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ} (14) أى من زاد على المقدار الواجب.
- كما عرف بأنه "الجهد الإرادي الذي يقوم به فرد أو جماعة من الناس طواعية و اختيارًا؛ لتقديم خدماتهم للمجتمع أو لفئات منه، دون توقع لجزء مادي مقابل جهودهم، سواء أكانت هذه الجهود مبذولة بالنفس أم بالمال" (15).
- **التطوع في العلوم الاجتماعية:**

ونظراً لأن التطوع يعد مبحثاً أساساً في علم الاجتماع وذو علاقة مباشرة بالأبعاد النفسية والثقافية والتربوية فقد نالت دراسة المصطلح اهتماماً واضحاً في أدبيات الفكر البشرى ، إذ جاء في قاموس علم الاجتماع أن العمل التطوعي : (اصطلاح يصف الطرق النظامية التي تستعمل في تقديم العون و المساعدة للمحتاجين الذين لا يستطيعون بأنفسهم التغلب على المشاكل و الأزمات الحياتية التي تواجههم, (

وعلى المستوى الاجتماعي فإن مفهوم التطوع يعني تلك الجهود الإنسانية التي يبذلها أفراد المجتمع بصورة فردية أو جماعية، ويقوم بصفة أساسية على الرغبة الذاتية سواء كان هذا الدافع شعورياً أو لا شعورياً، وهو عمل لا يهدف المتطوع من ورائه إلى تحقيق مقابل مادي أو ربح خاص بل اكتساب شعور بالانتماء إلى المجتمع وتحمل بعض المسئوليات التي تشهد في تلبية الاحتياجات الاجتماعية الملحة أو تخدم قضية من القضايا التي يعاني منها المجتمع

التعريف الإجرائي للتطوع :

من كل التعريفات السابقة يمكننا استنتاج تعريف إجرائي للتطوع وهو عبارة عن جهود إرادية (فردية أو جماعية) نابعة من مسئولية أخلاقية والتزام شخصي لمساعدة الآخرين ، سواء كان ببذل الجهد والوقت أو ببذل مال مع انطلاق التطوع دون توخي أي أهداف ربحية أو تجارية أو سياسية أو غيرها

المتطوع :

بشكل عام يمكن أن نصف المتطوع بأنه إنسان يؤمن بقضية معينة، واقعي ومتعايش مع ظروف مجتمعه، له القدرة على الاندماج والتفاعل مع أفراد مجتمعه، ومستعد لتقديم يد المساعدة لرعاية وتنمية مجتمعه.كما أنه الشخص الذي يتمتع بمهارات وخبرات معينة، يستخدمها بشكل إداري لخدمة جمعية أو منظمة، بحيث يتولى مهمة داخلها دون انتظار مقابل مادي، على أن تقرر هذه المنظمة رسميا قبولها لدور هذا الشخص كمتطوع وعدم اعتباره موظف بها. (16(

ونستخلص من التعريفات السابقة للعمل التطوعى أن التطوع هو(17 :(

*عمل غير ربحي: إن العمل التطوعى دائما يكون بدون مقابل يكون تطوع من المتطوع

*عمل غير وظيفى: إن المتطوع لا تكون له حقوق مثل الموظفون.

*يقوم به الأفراد: فنجاح الأفراد وانخراطهم فى العمل التطوعى يعنى نجاح للعمل التطوعى

*الآخرين: هم الأهل والجيران والمجتمع كله.

ويوصف العمل التطوعى بصفتين أساسيتين تجعلان من تأثيره قوياً فى المجتمع وفى عملية التغيير الاجتماعى، وهما(18:(

1 –قيامه على أساس المردود المعنوى أو الاجتماعى المتوقع منه، مع نفى أى مردود مادى يمكن أن يعود على الفاعل.

2 –ارتباط قيمة العمل بغاياته المعنوية والإنسانية.

لهذا السبب يلاحظ أن وتيرة العمل التطوعى لا تتراجع مع انخفاض المردود المادى له، إنما بتراجع القيم والحوافز التى تكمن وراءه، وهى القيم والحوافز الدينية والأخلاقية والاجتماعية والإنسانية.

وثقافة التطوع هي: "منظومة القيم والمبادئ والأخلاقيات والمعايير والرموز والممارسات التي تحض على المبادرة بعمل الخير الذي يتعدى نفعه إلى الغير؛ إما بدرء مفسدة أو بجلب منفعة، تطوعاً من غير إلزام، ودون إكراه(19(

ثقافة العمل التطوعي:

على الرغم مما تشهده مؤسسات العمل التطوعي من انتشار واسع و اهتمام حكومي يتفاوت بتفاوت درجات التقدم في مجتمعات العالم إلا أن نجاح هذه المؤسسات يستلزم توافر إرادة النجاح لدى القائمين عليه ، كما يتطلب التوسع في دائرة المشاركة الجادة لأبناء المجتمع في إنماء العمل التطوعي ، إذ أثبتت الخبرات و التجارب المتتالية أن مشروعات الإصلاح و التنمية لن تتأصل في حياة المجتمع ولن تؤدى الفائدة المرجوة منها ما لم يشارك فيها أفراد هذا المجتمع و جماعاته ، ومرجع ذلك أن المواطنين في مجتمعٍ ما هم أكثر دراية من غيرهم لما يصلح لمجتمعهم وما لا يصلح له ،ومن ثم فاشتراك المواطنين في تخطيط برنامج معين يضمن اختيار ما يتلاءم مع طبيعة هذا المجتمع، ومن خلال نظرتهم البسيطة و الواقعية يمكن أن يصلوا إلى أنسب الحلول لمقابلة الاحتياجات الفعلية للمجتمع بأسلوب الشورى والتناصح كما يضمن توفير عناصر النجاح لمشروعات التنمية.

أثار العمل التطوعي:

المستوى النفسي: المتطوع يقدِّم جزءاً من جهده ووقته وأحياناً ماله في مقابل تقدم الآخرين واستفادة هؤلاء الآخرين تشكل بالنسبة إليه مصدر راحة نفسية وإضافة إلى الرضا النفسي، والرضا عن الذات يرفع العمل التطوعي مستوى الدافعية للعمل ويزيد من حماسة المتطوع كلما رأى الآثار الإيجابية والتطور الملحوظ لدى من يتطوع للعمل من أجلهم.

كما أن التطوع يهذب الشخصيَّة ويرفع عنها عقلية الشح ويحولها إلى عقلية الوفرة مصداقاً للآية الكريمة »ومن يوقَ شحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون«إضافة إلى كل هذه الآثار الإيجابية هناك الجزاء الأخروي الذي وعد اللَّه سبحانه وتعالى (الذين يسارعون في الخيرات. (

المستوى الاجتماعي: فالعمل التطوعي يزيد من قدرة الإنسان على التفاعل والتواصل مع الآخرين كما يحد من النزوع إلى الفردية وينمي الحس الاجتماعي لدى الفرد المتطوع ويساهم في جعل المجتمع أكثر اطمئناناً وأكثر ثقة بأبنائه كما يخفف من الشعور باليأس والإحباط ويحد من النزعة المادية لدى أفراده. ويجعل القيمة الأساسية في التواصل والإنتاج والرضا الذاتي المتصل برضا اللَّه سبحانه وتعالى. (20 (

أشكال العمل التطوعي:

الشكل الأول: السلوك التطوعي: ويقصد به مجموعة التصرفات التي يمارسها الفرد وتنطبق عليها شروط العمل التطوعي ولكنها تأتي استجابة لظرف طارئ، أو لموقف إنساني أو أخلاقي محدد، مثال ذلك أن يندفع المرء لإنقاذ غريق يشرف على الهلاك، أو إسعاف جريح بحالة خطر إثر حادث ألمّ به.

أما الشكل الثاني : فيتمثل بالفعل التطوعي الذي لا يأتي استجابة لظرف طارئ بل يأتي نتيجة تدبر وتفكر من خلال الإيمان بفكرة ما إنسانية أو إجتماعية أو ...في محيطه الاجتماعي أو خارجه .

كما يمكن التمييز بين شكلين من أشكال العمل التطوعي (21 :(

1- العمل التطوعي الفردي : وهو سلوك اجتماعي يمارسه الفرد من تلقاء نفسه وبرغبة منه وبدون دافع مادي، ويقوم على اعتبارات أخلاقية أو اجتماعية أو إنسانية أو دينية.

2- العمل التطوعي المؤسسي : أكثر تقدماً من العمل التطوعي الفردي من ناحية التنظيمية وسعة التأثير في المجتمع.

مجالات العمل التطوعي:

تتعدد مجالات العمل التطوعي لتشمل المجالات التالية:

أ) المجال الاجتماعي: ويتضمن (رعاية الطفولة – إعادة تأهيل مدمني المخدرات – رعاية الأحداث – مكافحة التدخين – رعاية المسنين – الإرشاد الأسرى – مساعدة المشردين – رعاية الأيتام – مساعدة الأسر الفقيرة.(

ب) المجال التربوي والتعليمي: ويتضمن (محو الأمية – التعليم المستمر– تقديم التعليم المنزلي للمتأخرين دراسياً.(

ج) المجال الصحي: ويتضمن (مساعدة المرضى – تقديم الإرشاد النفسي والصحي –تقديم العون لذوي الاحتياجات الخاصة(

د) المجال البيئي: ويتضمن (الإرشاد البيئي – العناية بالغابات ومكافحة التصحر – العناية بالشواطيء – مكافحة التلوث.(

هـ) مجال الدفاع المدني: ويتضمن (المشاركة في أعمال الإغاثة – المساهمة مع رجال الإسعاف – المشاركة في أوقات الكوارث الطبيعية). (22(

أنواع المشاركة فى العمل التطوعي:

يمكن تحديد أهم أنواع المشاركة فى العمل التطوعى فى الأبعاد التالية:

1 –المشاركة المعنوية: ونعنى بها دعم المشاريع التطوعية معنوياً وذلك سواءً بالتشجيع ، أو الدفاع عن المشروع الخيرى، أو التعريف به فى المحافل العامة إلى غير ذلك من صور المشاركة المعنوية

2 –المشاركة المالية: ونعنى بها دعم المشاريع الخيرية بالمال ،

3 –المشارك العضوية: ونعنى بها أن يكون الشخص عضواً فعّالاً فى الأعمال التطوعية (23(

هذه هى أهم ألوان المشاركة فى الأعمال التطوعية والخيرية، وكلها مهمة وضرورية لنجاح أى عمل خيرى

بعض المقترحات لتطوير العمل التطوعي

1 –أهمية تنشئة الأبناء تنشئة اجتماعية سليمة وذلك من خلال قيام وسائط التنشئة المختلفة كالأسرة والمدرسة والإعلام بدور منسق ومتكامل الجوانب في غرس قيم التضحية والإيثار وروح العمل الجماعي في نفوس الناشئة منذ مراحل الطفولة المبكرة.

– 3 دعم المؤسسات والهيئات التي تعمل في مجال العمل التطوعي مادياً ومعنوياً

6 –مطالبة وسائل الإعلام المختلفة بدور أكثر تأثيراً في تعريف أفراد المجتمع بماهية العمل التطوعي

7 –تدعيم جهود الباحثين لإجراء المزيد من الدراسات والبحوث العلمية حول العمل الاجتماعي التطوعي. (24(

ثالثا : ماهية مجموعة ناس الخير:

1- تقديم مجموعة "ناس الخير:"

هي مجموعة شبابية با الدرجة الأولى التقى أعضاؤها من خلال الموقع الاجتماعي الفايس بوك وغالبا ما كانت البداية بين ابناء حي واحد او أصدقاء تجمعهم فكرة واحدة وهي فعل الخير و التطوع،وكانت صفحات الفايس بوك هو مقرها ،و مكان تعارف أعضائها ،و مكان انطلاق أعمالها ،فهي مجموعات حرة لا تحكمها لا جمعيات و لا أطراف حكومية أو خاصة ، أهدافها الوحيدة هي فعل الخير و حب المساعدة و استثمار الوقت و الجهد في أعمال صالحة تفيد المجتمع.

حيث صنعت هذه المجموعة إسمًا لامعا، من خلال انتقال نشاطها من العالم الافتراضي وتجسيدها في أرض الواقع ، حيث عملت هذه المجموعة على ترسيخ فكرة العمل التطوعي لدى الشباب وأسست لجيل جديد من المتطوعين دون الاعتماد على الدعم المالي للدولة،وجعلت من الفضاء الافتراضي لتحقيق أهداف نبيلة و أعمال تطوعية خيرية عوضت سبات ألاف الجمعيات التي لا تنشط سوى في المناسبات .

وفي مدة القصيرة استطاعت أن تفرض وجودها وأن تقدم للآخرين الدليل على أن فعل الخير مسألة لاتحتاج إلى الكثير من الوسائل، ولكن إلى الكثير من الإرادة والعزيمة وحب العطاء، وذلك في إطار إحياء الثقافة التطوعية التي كادت أن تنقرض ببلادنا، مجموعة "ناس الخير" أصبحت تحتل بمبادراتها العديدة واجهة العمل الخيري بعدة ولايات في الجزائر، والتي إنطلقت بفكرة بسيطة تتمثل في إنشاء صفحة على الفايسبوك وتعتبر من الأفكار الأبرز التي نجحت في الجزائر والتي انتشرت عبر الوطن بسرعة فائقة بفضل صفحات «الفايس بوك» ،التي سيكتشف المتصفح لهذا الموقع الإجتماعي ،بوجود العديد من الصفحات الخاصة التي تحمل نفس الشعار « ناس الخير» ولكن بألوان مختلفة تميز مدن المجموعات عن بعضها البعض، و الملفت أيضا هو العديد من الصور التي تبرز العديد من الحملات التطوعية الخيرية في العديد من الأماكن العامة في مختلف مناطق الجزائر، كحملات التنظيف و زيارات للمستشفيات و دور العجزة و – حملات النظافة(المحيط، المساجد، المناطق الأثرية، الغابات، الشواطئ...) – التبرع بالدم. – مساعدة الفقراء غيرها و التي تبرز جانبا لطالما اعتقد الكثيرون أنه غير موجود في المجتمع الجزائري و هو ثقافة التطوع .

والملفت للأنظار هو أنه لم يعد انتشار مجموعة ناس الخير عبر مختلف ولايات الوطن بل تعداه إلى خارجه كمجموعة «ناس الخير كندا» ، هدفها الأول هو العمل الخيري بكل أشكاله و بكل الوسائل المتاحة أمامهم بشكل تطوعي و من دون انتظار أي مقابل مادي أو معنوي ما عدا الرضا النفسي الداخلي الذي يشعر به أعضاء ناس الخير بعد كل مبادرة خيرة يقومون بها

2 –أصل التسمية و كيف كانت البداية ؟

الحاجة رحمة... النواة التي أنبتت "ناس الخير:"

الفكرة بدأت من خلال مبادرة حسنة قام بها مجموعة من الشباب من الجزائر العاصمة الذين تنقلوا إلى مدينة الاغواط لمساعدة « الحاجة رحمة» التي كانت "النواة" التي أنبتت مجموعة "ناس الخير. "

الحاجة رحمة ((رحمها الله والمتوفاة في الأشهر القليلة الماضية فقط)) "وهي سيدة من الأغواط عمرها 95 سنة، والتي بسببها زرعت بذور هذا الخير المترامي الأطراف في كل ربوع الجزائر ..

كانت الحاجة رحمة تعيش تقريبا بدون مأوى في ولاية الأغواط، فكان رواق صغير يحتضن كل مآسيها، و كانت تعيش ظروفا اجتماعية أقل ما يقال عنها أنها صعبة رفقة ابنها البالغ 45 سنة و الذي ظل رافضا لفكرة الزواج بسبب إقامته رفقة أمه في مكان لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يطلق عليه اسم سكن ...

لكن بعد نشر الأخ ياسين زايد شريط فيديو عن حالتها في الانترنت عبر شبكات التواصل الاجتماعي الفايس بوك واليوتوب ... حيث عرف هذا الفيديو تفاعلا كبيرا بين مستخدمي هذه الشبكات ، فانهالت ردود الفعل على الفيديو.

ويمكن القول أن الفضل يعود إلى كل من طارق زروقي وعثمان بعزيز وإلياس فيلالي الذين شاهدوا الفيديو معا فقرروا مساعدتها، و هنا اختار هؤلاء الشباب الذين شكلوا أول مجموعة تطوعية في الوطن بطريقة عفوية و التي نسج أعضاؤها المتطوعون شبكة خيوطها من خلال شبكات التواصل الإجتماعي المتمثلة في الفايس بوك ،فقط و تعود حسب تسمية احد شبابها بالجمعية الافتراضية التي لا مقر و لا اعتماد لها لكنها حققت في ظرف قياسي ما لم تحققه الكثير من الجمعيات خلال سنوات و يكفيها فخرا أنهم كانوا وراء حل مشكل الحاجة" رحمة " حيث التف حولها الخيرون و جمعوا لها من المؤونة و من الاحتياجات في شكل قافلة إنسانية حطت الرحال بالاغواط وأخذوا لها أشياء كثيرة ،عجز شبه المسكن أن يحويها ليتوسط احد المحسنيين للعجوز عند السلطات المحلية لتتحصل أخيرا على مسكن من شقتين تنفست فيها الصعداء.

وحين سألتهم –الحاجة رحمة– السيدة المنكوبة من تكونون؟ أجابوها وبكل عفوية أنهم = « ناس الخير « ومن هنا جاءت التسمية وإنطلقت فكرة مجموعة "ناس الخير "بحيث و فور عودتهم للعاصمة فكروا جديا في تأسيس مجموعة لا تنتمي لأية جمعية أو أي منظمة أو تيار ، بهدف تطوير العمل التطوعي بحرية مطلقة و السماح لأكبر عدد ممكن من الأعضاء بالالتحاق بالمجموعة متى شاءوا و دون أن يكونوا مضطرين بالالتزام بشروط أو قيود حيث إلتفت المجموعة حول أول نشاط وهو تنظيف شاطئ "بالم بيتش" و"الشاطئ الأزرق"... وكانت المجموعة والمشاركون قد تعارفوا من خلال الشبكة العنكبوتية فقط .

و من أهم الأشياء الإيجابية التي جسدتها مجموعات « ناس الخير « هي الجانب التضامني بين أفراد المجتمع و الذي يجسدونه من خلال مجموعاتهم التي تعمل على تطوير تنسيق وطني فيما بينهم من أجل الاتفاق على تنظيم مبادرات مشتركة و تبادل الأفكار من اجل تطوير نشاطاتهم الخيرية . فلكل مجموعة من مجموعات « ناس الخير « الفضل في تكوين مجموعة أخرى في مدينة أخرى.

و حسب ما تقتضيه الإجابة عن تساؤلات الدراسة وما تسعى إليه من أهداف، تنتمي هذه الدراسة إلى ما يسمى في علم المناهج بالبحوث الوصفية، لذلك تتخذ الدراسة الحالية منهج أو أسلوب دراسة الحالة كونها الدراسة التي تهتم بحالة فرد أو جماعة أو مؤسسة يصعب على الباحث إستخدام المناهج الأخرى من أجل جمع المعلومات عن مجتمع الدراسة بشكل معمق ، وهذا للتمكن من جمع أكبر قدر من المعطيات والمعلومات حول الموضوع ومعالجة الإشكالية المطروحة في هذا البحث والمتمحورة أساسا حول دور شبكات التواصل الاجتماعي في تنمية ثقافة العمل التطوعي في المجتمع الجزائري ،مجموعة ناس الخير أنموذجا

موضوع البحث:

– إن دور شبكات التواصل الإجتماعي في تنمية ثقافة العمل التطوعي ، هو موضوع البحث في هذه الدراسة من خلال مجموعة ناس الخير كنموذج يتم تناولها بالوصف والتحليل ، ونرى أن هذه الظاهرة تستحق الدراسة والبحث، ونأمل أن تعزز بدراسات وبحوث أكاديمية أخرى.

– أما عن الحدود الأكاديمية للموضوع فتتمثل في دراسة دور شبكات التواصل الاجتماعي كإحدى الآليات التي من شأنها تنمية بعض القيم الاجتماعية الإيجابية كثقافة العمل التطوعي في المجتمع ،كما تسعى لإبراز الدور الخدمي والإيجابي الذي يمكن أن تلعبه هذه الشبكات من خلال التفاعل والتواصل بين مستخدميها .

وشملت الحدود البشرية المشرفين على مجموعة ناس الخير بورقلة كنموذج ، لاستطلاع آرائهم حول أهم الدوافع التي دفعتهم للعمل التطوعي ، من خلال شبكات التواصل الاجتماعي وتحديد الفايس بوك.

أما الحدود المكانية فقد حُصرت هذه الدراسة مكانيا في إطار الحدود المكانية الافتراضية على مجموعة ناس الخير بورقلة و موقع (الفيس بوك) على شبكة الإنترنت.

وإعتمدنا في دراستنا هذه على المقابلة كونها الأداة الأنسب في دراسة الحالة ، التي تعرف على أنها "أسلوب جمع المعطيات الذي يستهدف استثارة الأفراد المبحوثين بطريقة منهجية، لتقديم حقائق وآراء أو أفكار معينة مرتبطة بموضوع الدراسة وأهدافها"(25).مع إستخدام الملاحظة العلمية وذلك من خلال ، تركيز الباحث على الزيارات المتواصلة لهذه المواقع، ومتابعة كل ما يكتب وينشر.

- وقد أجرينا المقابلة مع مع كل من السيدين : مصطفى ملوح و علاء الدين زكري : العضوين الدائمين بمجموعة ناس الخير ورقلة وفق دليل المقابلة الذي تضمن أهم الأسئلة التالية :

1. كيف جاءت فكرة الإنشاء وانطلاقة هذه المجموعة ؟
2. من هم مجموعة ناس الخير ورقلة وكيف كانت الانطلاقة ؟
3. كم عدد المنخرطين والمساهمين في الأعمال التطوعية معكم ؟ على ماذا تعتمدون في عملكم التطوعي ؟إمكانيات مادية وبشرية
4. ما هي مجالات عملكم و هل لديكم برنامج عمل ؟
5. على ماذا تعتمد مجموعة ناس الخير في تطبيق أفكارها وخاصة من الناحية المادية ؟
6. كيف هو تفاعل المواطنين معكم كمجموعة ناس الخير في ورقلة ؟
7. ما هي أهم الأنشطة التي قامت بها مجموعة ناس الخير ورقلة منذ نشأتها ؟
8. ماذا عن الصعوبات التي تجدها مجموعة ناس الخير ؟
9. ماهي أفاق مجموعة ناس الخير ورقلة ؟

وبعد إجراء المقابلات وجمع المعلومات تمت مناقشة وتحليل فرضيات الدراسة حيث أظهرت الدراسة الدور الكبير الذي لعبته شبكات التواصل الاجتماعي في ظهور وإنشاء مجموعة ناس الخيرمن خلال مقطع فيديو يبين الحالة المأساوية التي تعيشها إحدى العائلات الجزائرية والتي تم نشرها عبر شبكات التواصل الاجتماعي ،حيث إنتهت القصة بعمل تطوعي تضامني كبير مع هذه الحالة من مختلف أنحاء الوطن ،ومنها انطلقت فكرة إنشاء مجموعة ناس الخير التي تهتم بالعمل التطوعي بإنشاء صفحة في الفايس بوك والقيام بعدة مبادرات ومن خلالها تم تأسيس العديد من المجموعات وأصبح لكل ولاية مجموعتها ومن بينها مجموعة ناس الخير ورقلة، و أشتهرت مجموعة ناس الخير وعم نشاطها وتنوعت العمليات التضامنية في شتى المجالات ، إلى درجة التنافس بين هذه المجموعات ، ليساهم ذلك في إنتشار ثقافة العمل التطوعي التي كانت تنطلق من أفكار على الفايس بوك ، هذا الأخير الذي، الذي أدى حسب المبحوثين إلى زيادة الروابط بين أفراد هذه المجموعات، وهو ما يثبت لنا الدور الكبير الذي تلعبه شبكات التواصل الاجتماعي في نشر ثقافة العمل التطوعي في المجتمع الجزائري التي كادت أن تختفي في مجتمعنا، وهو ما أثبته الأنشطة التطوعية والتضامنية التي قامت بها مجموعة ناس الخير بالإعتماد على شبكات التواصل الاجتماعي ، وهو ما يؤكد صحة الفرضية الأولى لنقول : تلعب شبكات التواصل الاجتماعي دورا مهما في نشر وتنمية ثقافة العمل التطوعي في المجتمع الجزائري.

كما أكدت الدراسة في نفس السياق أظهرت الدراسة أن شبكات التواصل الاجتماعي وتجديدا الفايسبوك ساهم في إيجاد إطار جديد للعلاقات الاجتماعية ، حيث أحدث تغييراً في الجماعة الاجتماعية ،لتصبح من خلال شبكات التواصل الاجتماعي عبارة عن جماعات افتراضية كمجموعة ناس الخير التي التقى أعضاؤها من خلال الموقع الاجتماعي الفايس

بوك الذي هو مقرها ،و مكان تعارف أعضائها ،و مكان انطلاق أعمالها ،هدفها الأول و الوحيد هو العمل التطوعي بكل أشكاله و بكل الوسائل المتاحة أمامهم بشكل تطوعي و المساعدة و استثمار الوقت و الجهد في أعمال صالحة تفيد المجتمع وهذا عبر مختلف ولايات الوطن بل تعداه إلى خارجه كمجموعة «ناس الخير كندا» وهو يعني انتشار ثقافة العمل التطوعي عن طريق شبكات التواصل الاجتماعي في مختلف أنحاء القطر الجزائري.

كما أظهرت الدراسة الميدانية أن الشريحة العمرية الأكثر وتفاعلا في هذه المجموعات هم من الشباب ومن كلا الجنسين ، و المنظمين لهذه المجموعات في تزايد مستمر ، سواء متطوعون أو مساهمون بالمال أوبالإعانات ، إضافة إلى تزايد عدد طلبات الإعانة والمساعدة ، ويقابلها تزايد عدد المواضيع والأفكار المطروحة على المجموعة للنقاش ، من اجل التنقيذ أو التدخل أو العمل على الترويج ونشرها.

وكما يعبر أحد المبحوثين :"راس مالنا هو الفايس بوك "لأنه عنده صدى كبير ويساعد على نشر أفكارنا وإعلان وإعلام المتفاعلين في هذا المجال بأنشطتنا ومعلوماتنا والوصول إلى عدد كبير من المستخدمين للتواصل معنا وإعلامنا أو توجيهنا للمواقف التي تستدعي التدخل ، كما تكون درجة الإقناع أكبر ،وهو ما يؤكده التفاعل الكبير لمستخدمي هذه الشبكات على صفحات الفايس بوك من خلال التعاليق المشجعة ومن خلال وعود المساهمة وهوما تثبته دائما المشاركة الفعلية الواسعة التي تشهدها نشاطات مجموعة ناس الخير في الميدان ،وهو مايجعلنا نقول أن شبكات التوصل الاجتماعي أصبحت مجالا اجتماعيا لتنمية ثقافة العمل التطوعي من خلال ما تتميز به من قوة إعلامية وإقناعية عن طريق الوسائط الإعلامية والتفاعلية التي تميزها عن باقي وسائل الإعلام الأخرى.

خلاصــة عامــة :

–من خلال ما سبق يمكن أن نستخلص الأهمية الكبرى التي تكتسبها شبكات التواصل الاجتماعي يوما بعد يوم ، باعتبارها أصبحت أداة فعالة للتغيير الايجابي نحو خدمة مصالح الفرد والمجتمع ،كما يمكنها أن تقوم بدور مهم في تربية النشء وإكسابهم عادات وقيم إيجابية من خلال الدور الذي تلعبه في نشر ثقافة العمل التطوعي في المجتمع الجزائري ، وهو ما أثبتته الأنشطة التطوعية والتضامنية التي تقوم بها مجموعة ناس الخير بالاعتماد على شبكات التواصل الاجتماعي

–كما أظهرت الدراسة أن الشريحة العمرية الأكثر تفاعلا في هذه المجموعات هم من الشباب،وأنها ساهمت في إيجاد إطار جديد للعلاقات الاجتماعية.

– كما استخلصنا أن شبكات التواصل الاجتماعي لم تعد مجرد مجالا للتواصل والتفاعل بين مستخدميها بل أصبحت مجالا اجتماعيا لتنمية ونشر بعض القيم الاجتماعية الإيجابية كثقافة العمل التطوعي من خلال ما تتميز به من قوة إعلامية وإقناعية عن طريق الوسائط الإعلامية والتفاعلية التي تميزها عن باقي وسائل الإعلام الأخرى,

–وفي الأخير يمكن أن نشير هنا أنه لا يعني أننا أهملنا أو أغفلنا الجانب السلبي لشبكات التواصل الاجتماعي سواء على الفرد أو المجتمع نتيجة سوء الاستخدام أو عدم الإستغلال الإيجابي لهذه التقنيات ، كما خلصنا إلى أن شبكات التواصل الاجتماعي أصبحت حتمية تقنية واجتماعية ،لا يمكن الإستغناء عنها وعن خدماتها .

توصيات وإقتراحات الدراسة:

- في ضوء ما توصلت إليه الدراسة من النتائج ومناقشتها فإننا نوصي بما يلي :
- تعميق البحث في الموضوع وذلك من خلال إجراء دراسات مماثلة.
- توعية النشء بالأدوار الإيجابية التي يمكن أن تقدمها شبكات التواصل الاجتماعي في وتنمية القيم الإيجابية

- تشجيع المجموعات الهادفة على غرار مجموعة ناس الخير ،والتي تتبنى قضايا إجتماعية أو علمية أو ثقافية لتبادل وتعميم الفائدة.

الهوامش:

1. مواقع الشبكات الاجتماعية وطريقة عملها، وحدة المعرفة، h2012،17:32-10-165912http://toursmalaysia.com/vb/showthread.php?
2. 121, P 2004Mercklé Pierre, Sociologie des réseaux, Les Editions la découverte,
3. للمزيد حول أبعاد المواطنة الافتراضية، انظر: وليد رشاد: المواطنة فى المجتمع الافتراضى.. "تأملات نظرية على مرجعية الواقع المصرى"، ورقة مقدمة إلى المؤتمر السنوي العاشر للمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، القاهرة، الفترة من 16 – 19 مايو
4. مواقع الشبكات الاجتماعية وطريقة عملها، ?http://toursmalaysia.com/vb/showthread.php-165912 h.2012،17:32-10
5. متاح علي: ،منتديات حروف الأردن،أفنان المحيسن : تصميم مشروع متكامل ليكون التعليم الإلكتروني جزء لا يتجزأ من العملية التعليمية بمدارس التعليم العام من خلال الفيس بوك. ، جامعة طيبة : 1430 هـ 87014jo.com/showthread.php?t=1http://www.jor
6. مارسيلا دروم (س ج)، مراجعة: طارق أنكاي، الأدب والـ"فيس بوك" والـ"تويتر" – هل من علاقة؟، موقع دويتشه فيله.في .html5311807,00,,0 http://www.dw-world.de/dw/article/03.10.2012
7. شبكة الصحافة العربية، ألف باء التوتير , 3303.php?id=2http://www.arabpressnetwork.org/articlesv20&lang=arأكتوبر 2012على H23:29
8. د. عمار بكار: الإعلام الجديد واليوتيوب، واحة الحاسب-http://walhaseb.com/, في 20أكتوبر 2012على H23:12
9. زهير عابد : دور شبكات التواصل الاجتماعي في تعبئة الرأي العام الفلسطيني نحو التغير الإجتماعي والسياسي- دراسة وصفية – مجلة النجاح للأبحاث (العلوم الإنسانية) المجلد 26 (6) 2012
10. الصاوي علي السيد، نظرية الثقافة، دار المعرفة للطباعة والنشر و التوزيع، كويت 1997.ص09
11. أبن منظور، أبو الفضل: لسان العرب، (باب العين فصل الطاء)، دار صادر: بيروت: لبنان، ج 8، د . ت، ص 343.
12. مصطفى، إبراهيم وآخرون: المعجم الوسيط، مادة (طوع)، دار التراث العربي، ج2، ، د . ت، ص 576.
13. عبد العزيز، محمد بن أبي بكر بن: مختار الصحاح، مكتبة لبنان، 1406هـ - 1985م، ص 168.
14. سورة البقرة آية 184.
15. حسنين ، حسين محمد: المرشد الفني للجمعيات الخيرية ، جمعية عمال المطابع التعاونية ، 1416هـ - 1995م ، ص 141
16. إدارة الجهود التطوعية، ضمن سلسلة (الأدلة الإرشادية) التي يصدرها مركز خدمات المنظمات غير الحكومية، الكويت، ص5
17. إبراهيم حسين: العمل التطوعى فى منظور عالمى، المؤتمر الثانى للتطوع، الشارقة (23-24/يناير/2001.)
18. د.بلال عرابي: دور العمل التطوعى فى تنمية المجتمع، جامعة دمشق، 1999م.
19. مفهوم ثقافة التطوع وإشكاليته، مجلة المجتمع الكويتية (1474) نقلا عن موقع صيد الفوائد : .htm37http://www.saaid.net/Anshatah/dole/
20. مجلة بقية الله العدد 144 جمعية المعارف الإسلامية الثقافيةhttp://www.baqiatollah.net
21. بلال عرابي:دور العمل التطوعي في تنمية المجتمع، مقترحات لتطوير العمل التطوعي، مركز التميز للمنظمات غير الحكومية، عدد .htm38 www.saaid.net/Anshatah/dole/10
22. عبد الله أحمد اليوسف :ثقافة العمل التطوعي ،ط1 ،المملكة العربية السعودية ،ص23

23. عبد الله أحمد اليوسف المرجع السابق ذكره ،ص39
24. مجلة النبأ العدد (63) شعبان 1422 هـ/www.saaid.net/Anshatah/dole/38 htm.
25. Marck Ravelet, Thechnique d'enquêtes sociologiques, SANA, Quebeq, 2002 p , 31

علاقة تشكل هوية الأنا بالطمأنينة الانفعالية لدى الطالب الجامعي

(دراسة ميدانية على عينة من طلبة جامعة الوادي)

أ . تواتي إبراهيم عيسى

جامعة الشهيد حمه لخضر بالوادي

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

الملخص:

أعتبر أريكسون مرحلة المراهقة فترة في غاية الأهمية، لأن أغلب المراهقين يواجهون فيها أزمة الهوية المتمثلة في عدم معرفة ذواتهم بوضوح و هي علامة على طريق النمو يمكن أن تؤدي إما إلى الإحساس بالهوية أو إلى تشتتها. و باعتبار أن تشكل الهوية يعد المظهر الرئيس للنمو النفسي الاجتماعي في مرحلة المراهقة فهو لا ينفصل عن حاجات المراهق النفسية الأخرى و التي منها الحاجة للطمأنينة الانفعالية، التي تمثل أحد مظاهر الصحة النفسية الإيجابية و أول مؤشراتها. و كثيرا ما يصبح الشعور بالطمأنينة الانفعالية مهددا نتيجة لضغوط التغيرات السريعة الاجتماعية و السياسية و التكنولوجية التي تهدد هويته. و في ضوء ذلك، تبرز الحاجة إلى بحث العلاقة المحتملة بين تشكل هوية الأنا والشعور بالطمأنينة الانفعالية لدى طلبة جامعة الوادي، كما تسعى الدراسة لمعرفة الفروق في الشعور بالطمأنينة الانفعالية حسب متغير الجنس .

الكلمات المفتاحية: تشكل الهوية، هوية الأنا، الطمأنينة الانفعالية، أريكسون، النمو النفسي الاجتماعي

Abstract :

Erickson considered adolescence as a very important period, because most teenagers face the identity crisis presented in not knowing themselves clearly and it is a mark of development that could lead either to the identity achievement or to its dispersion. Since ego identity is considered as a the main form of the psychosocial growth in adolescence, it is inseparable from other psychological needs of adolescent and one of these needs is the emotional security that represents an aspect of the positive mental health and its first indicators. The feeling of emotional security often becomes threatened as a result of the rapid changes in social, political and technological developments that may threaten his identity. In light of this, there is a need to examine a potential relationship between ego identity formation and the feeling of emotional security among the students of El Oued University. The study also seeks to know the differences in the feeling of emotional security according to sex variable.

Key words: identity formation, ego identity, emotional security, Erickson, psychosocial development

1- إشكالية الدراسة:

يُمثّل تشكُّل الهوية قلب التغير في مرحلة المراهقة، حيث يرى أريكسون أنها تُمثّل محاولة المراهق لتحديد معنى لوجوده من خلال الإجابة على تساؤلات ترتبط بأهدافه و أدواره في الحياة مثل من أنا ؟ و ما دوري في هذه الحياة ؟ و إلى أين أتجه ؟ (1). و يشير كونوبكا Konopka إلى أن مرحلة المراهقة التي يعيشها الفرد هي المرحلة التي يحقق فيها الفرد عملية الإنجاز، أو يحل مشكلة الهوية. و يذهب ويلسل Willicil إلى أن أكثر المهمات التي تواجه المراهق هي تطوير هويته الذاتية، لتكون أكثر استقرارا، و هذه الهوية لا تنتهي إلا عندما يصل الفرد إلى مرحلة الرشد (2.)

حيث يعتبر تشكّل هوية الأنا Ego Identity واحد من أهم جوانب النمو التي تحدّث عنها أريكسون (1963، 1968) في نظرية النمو النفسي الاجتماعي، حيث في مرحلة المراهقة يتعرّض الفرد لأزمة الهوية (تحقيق هوية الأنا Ego identity achievement مقابل اضطراب الدور Role confusion) ، ممّا يعني أن الفرد في نهاية المراهقة و بداية الشباب يكون قد حقّق هويّته، أو أنّه ما زال في طور التحديد، أو أنّه تبنّى هوية سالبة لا تتفق مع معايير المجتمع (3 .)

و للتحقق من صدق نظرية أريكسون، قام مارشيا (1966) بالعديد من الدراسات انتهت إلى تحديد مجالين للهوية هما مجال الهوية الأيديولوجية و مجال الهوية الاجتماعية، كما انتهى إلى أن طبيعة التشكّل تتحدد بعاملين أساسين هما ظهور أو

غياب الأزمة و المتمثلة في رحلة من الاستكشاف، ثم الالتزام بما يصل إليه الفرد من قرارات. و هذا يعني احتمالية وجود أربع رتب للهوية في كل مجال: " تحقيق، تعليق، انغلاق أو تشتت الهوية " (4).

و يتأثر تشكل هوية الأنا بسنوات الدراسة في الجامعة التي تمثل فترة تحوّل أساسية في بناء شخصية الطالب الجامعي و تتزامن في نفس الوقت مع مرحلة المراهقة المتأخرة و بداية الرشد. و هذا ما أكدته بعض الدراسات كدراسة "وترمان و وترمان" (1972) حول حالة الهوية لدى طلاب الجامعة و التي بينت نتائجها على أن ذوي الهوية المؤجلة قد غيّروا تخصصاتهم بالكلية مرات متعددة ممّا فعل الأفراد في حالات الهوية الأخرى. كما أظهرت دراسة ستريتماتر (1989) إلى ارتباط تشكل الهوية بالإنجاز الدراسي للطلاب .

أما في العالم العربي فقد قام عبد المعطي (1993) بدراسة تشكل الهوية و علاقتها ببعض المتغيرات الأكاديمية و توصّل إلى ارتباط مستوى التحصيل الأكاديمي بالتوافق النفسي مع حالات الهوية (5 .).

و مع أهمية أزمة الهوية التي تحدث في مرحلة هي الأكثر حساسية لدى المراهقين الشباب، و في ظل التغيرات الجوهرية التي شهدها المجتمع الجزائري على جميع المستويات خاصة المأساة الوطنية التي مر بها الوطن في التسعينات و ما خلفته من انتشار لقيم العنف و تعزيز قيم الاستبداد و حالة اختلال الأمن و الطمأنينة. و من جهة أخرى انعكس ذلك على دور النسق الاجتماعي الذي واجه صعوبات في توفير قسط من الاستقرار النفسي والاجتماعي لأبنائه من خلال إشباع حاجاتهم النفسية و التي من أهمها شعورهم بالطمأنينة الانفعالية و خاصة لدى الجيل الذي وُلد في خضم هذه الأحداث (6).

هذا و تعد الحاجة إلى الشعور بالطمأنينة الانفعالية من المطالب الأساسية لجميع الأشخاص من كل فئات المجتمع باختلاف خصائصهم. و لعل ما يؤكد هذا تموقع الحاجة إلى الطمأنينة الانفعالية كإحدى الحاجات الإنسانية الأساسية في المرتبة الثانية بعد إشباع الحاجات الأولية في النموذج الهرمي للحاجات الإنسانية عند ماسلو .Maslow و هذا ما يدل على أهمية الطمأنينة الانفعالية لدى الأفراد و تأثيرها على حياتهم (7 .).

هذا و قد أشار ماسلو إلى أن الطمأنينة الانفعالية تمثّل الجانب النفسي في الشخصية في سوائها و مرضها، و يرى أن الشعور بالطمأنينة الانفعالية هو شعور مركب يتضمن ثلاثة أبعاد أولية هي: شعور الفرد بأنه محبوب متقبل من الآخرين، و يدرك أن بيئته صديقة ودودة غير محبطة لا يشعر فيها بالخطر و القلق و التهديد (8 .).

و في هذا الإطار يؤكد بولبي Bowlby على أن الصحة النفسية الايجابية هي الأساس في بناء الأمن والطمأنينة النفسية التي هي منطلق الانفتاح على الدنيا و الناس و الثقة بالذات بعيدا عن الانعزالية و الوحدة (9).

كما تعتبر الحاجات النفسية و الأمنية و الجسمية أكثر ما تكون إلحاحا في فترة الفتوة و الشباب، بسبب تميّزها بالحيوية و الجدة و قلة الخبرة، و الحاجة إلى النجاح و التقدير و الاستطلاع و الطمأنينة الانفعالية و الانتماء و غير ذلك (10).

و لقد تنوّعت البحوث و الدراسات العربية و الأجنبية التي حاولت الكشف عن الطمأنينة الانفعالية لدى المراهقين و الشباب الجامعي و منها دراسة عبد العال (1987) التي أشارت إلى أن أكثر حاجات الطمأنينة الانفعالية إلحاحا هي الحاجة إلى الاستقرار و الشعور بالسلام و هناك فروق في التوافق النفسي بين الطلبة المرتفعين في إشباع الحاجات، و المتوسطين و المنخفضين في إشباع الحاجات لصالح الطلبة الأكثر إشباعا (11 .).

و تتأثر الطمأنينة الانفعالية بالعديد من المتغيرات الديموغرافية و هذا ما أظهرته دراسة جبر (1996) و التي خلصت إلى أن مستوى الطمأنينة الانفعالية يرتفع بتقدم العمر و بازدياد المستوى التعليمي، و لا توجد فروق بين الذكور و الإناث

في مستوى الطمأنينة الانفعالية. و في البيئة الجزائرية، أظهرت دراسة ابريعم سامية (2011) عن الطمأنينة النفسية لدى طلبة المرحلة الثانوية بمدينة تبسة وجود مستوى منخفض من الطمأنينة الانفعالية لدى المراهقين، كما أظهرت وجود فروق في مستوى الطمأنينة الانفعالية حسب الجنس لصالح الذكور (12.)

هذا و يعد الالتحاق بالجامعة مرحلة تحوّل هامة في حياة كثير من المراهقين، حيث تمثل سنوات الدراسة الجامعية فترة نمو نفسي اجتماعي هامة، يسهم المناخ الجامعي السائد فيها بدور هام في تشكل هوية الأنا. فالجامعة مؤسسة علمية متطورة، و هي مصدر للمعرفة و الثقافة و الخبرة. كما أن الجامعة بما يسودها من علاقات و تنظيمات طلابية تربط الطالب بمجتمعه وتتيح له فرص للاختيار و حرية الرأي، مما يؤثر في شخصياتهم و قراراتهم المستقبلية و هي بداية لمعترك الحياة في المجتمع. و من جهة أخرى يعد الإحساس بالطمأنينة الانفعالية من أهم المطالب و الحاجات الأساسية لتشكيل هوية سوية تمتع بالصحة النفسية و فاعلة في المجتمع.

و نظرا لأن دراسة تشكل هوية الأنا و علاقتها بالطمأنينة الانفعالية لدى الطالب الجامعي الجزائري لم تحظ باهتمام الباحثين بشكل كاف، فقد شكل هذا دافعا لدى الباحث للمساهمة في توضيح العلاقة التي تربط بين هذين المتغيرين لدى طلبة جامعة الوادي. بناء على ما تقدم تحاول الدراسة الحالية الإجابة على التساؤلات التالية:

-1هل توجد علاقة ارتباطيه بين الدرجات الخام لرتب هوية الأنا والدرجات الخام للشعور بالطمأنينة الانفعالية لدى الطالب الجامعي ؟

-2هل توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسطات درجات الطمأنينة الانفعالية حسب متغير الجنس لدى الطالب الجامعي ؟

2- فرضيات الدراسة:

-توجد علاقة ارتباطيه بين الدرجات الخام لرتب هوية الأنا والدرجات الخام للشعور بالطمأنينة الانفعالية لدى الطالب الجامعي.

-توجد فروق ذات دلالة إحصائية في درجات الطمأنينة الانفعالية حسب متغير الجنس لدى الطالب الجامعي.

3- أهداف الدراسة:

-كشف العلاقة المحتملة بين تشكل هوية الأنا بكل رتبها و مجالاتها و الشعور بالطمأنينة الانفعالية.

-التعرف على مدى وجود فروق دالة إحصائيا في الشعور بالطمأنينة الانفعالية تعزى لمتغير الجنس.

4- أهمية الدراسة:

-أنها تتناول متغيرا نفسيا اجتماعيا هاما و المتمثل في أزمة الهوية لدى فئة الشباب الجامعي، حيث يسعى الفرد إلى تحقيق هويته من خلال اكتشاف الخيارات المتاحة و تبني أدوار مناسبة و الالتزام بها.

-اهتمت الدراسة بشريحة من الشباب في مرحلة المراهقة المتأخرة و بداية الرشد الذين هم الفئة الأكثر عرضة للتأثر بالأوضاع النفسية و الاجتماعية و الثقافية السائدة.

-تبرز أهمية هذه الدراسة أيضا في ما قد تسفر عنه من نتائج تساهم في معرفة تأثير أزمة الهوية على الإحساس بالطمأنينة الانفعالية لدى طلبة الجامعة.

-من المتوقع أن نتائج هذه الدراسة ستسهم في وضع استراتيجيات وقائية و نمائية و علاجية فيما يتعلق بسلامة النمو النفس الاجتماعي للشباب و مساعدتهم في فهم أدوارهم و تشكيل هويتهم بالطرق المناسبة.

-5المصطلحات و التعاريف الإجرائية للدراسة:

5-1- هوية الأنا :Ego Identity

أولا: التعريف الاصطلاحي:

استخدم أريكسون Erikson مفهوم هوية الأنا في مقابل اضطراب الدور للإشارة إلى أزمة النمو في مرحلة المراهقة. و يشير المصطلح على وجه العموم إلى " حالة داخلية تتضمن الإحساس بالتفرد، و الوحدة و التآلف الداخلي، و التماثل و الاستمرارية المتمثل في إحساس الفرد بارتباط ماضيه و حاضره و مستقبله، و الإحساس بالتماسك الداخلي و الاجتماعي ممثلا في الارتباط بالمثل الاجتماعية و الشعور بالدعم الاجتماعي الناتج عن هذا الارتباط."

و تمثل وجهة نظر جيمس مارشا Marcia أهم المحاولات المعاصرة لترجمة هذا المصطلح إجرائيا، حيث طوّر نموذجه في رتب هوية الأنا Ego Identity Status معتمدا على فكر أريكسون. و على هذا الأساس تشمل هوية الأنا مجالين أساسيين هما:

أ-هوية الأنا الأيديولوجية:Ideological Identity

ترتبط بخيارات الفرد ذات الصبغة الأيديولوجية في عدد من المجالات الحيوية المرتبطة بحياته و تشتمل على أربعة مجالات فرعية هي الهوية الدينية و السياسية و المهنية و فلسفة الحياة.

ب-هوية الأنا الاجتماعية (العلاقات المتبادلة: Interpersonal Identity)

و ترتبط بخيارات الفرد في مجال العلاقات الاجتماعية أو العلاقات الشخصية المتبادلة، و تشتمل أيضا على أربعة مجالات فرعية هي الصداقة و الدور الجنسي و أسلوب الترفيه و العلاقة بالجنس الآخر (13).

و يُعرّف تشكل الهوية إجرائيا في المجالين السابقين من خلال أربع رتب أساسية تحدد تبعا لخبرة الفرد أو عدمها لأزمة الهوية و تشمل الرتب الأساسية التالية:

- تحقيق الهوية :Identity Achievement تشير إلى خبرة الفرد لكل من أزمة هوية الأنا و الالتزام بما يتم الوصول إليه من خيارات.
- تعليق الهوية :Identity Moratorium تشير إلى استمرارية خبرة الفرد للأزمة دون الوصول إلى حلول مرضية لها و دون تحقيق الالتزام بما يتم اختياره.
- انغلاق الهوية :Identity Foreclosure تشير إلى غياب أزمة هوية الأنا مع إظهار التزام الفرد بما حدد له من أهداف و أدوار.
- تشتت الهوية :Identity Diffusion تشير إلى غياب كل من أزمة هوية الأنا و الالتزام في الوقت نفسه إذ لا يستشعر الفرد حاجته للبحث عن معنى لحياته أو أهدافه كما لا يبدي التزاما أو رضا عن أي من أدواره العرضية التي فرضتها الصدفة. (4).

ثانيا: التعريف الإجرائي:

يعتمد الباحث على التحديد الإجرائي للغامدي (2007) و المبني على دليل المقياس الموضوعي لتشكل هوية الأنا. حيث تتراوح درجة كل رتبة من 8 إلى 48 درجة في المجال الواحد للهوية، و تتحدد رتب الهوّية (التحقيق، التعليق، الانغلاق، التشتت) التي يقع فيها الفرد في كل مجال من مجالات الهوية (المجال الأيديولوجي، المجال الاجتماعي، المجال الكلي)، وفقا للدرجات الفاصلة في كل رتبة و التي تساوي متوسط درجات المجموعة في تلك الرتبة مضافا إليه قيمة الانحراف المعياري، حيث يتحصل الفرد على رتبة الهوية التي تساوي درجته فيها الدرجة الفاصلة أو أعلى .

2-5- الطمأنينة الانفعالية (الأمن النفسي:Emotional Security)

أولا: التعريف الاصطلاحي:

قبل تعريف الطمأنينة الانفعالية يجب الإشارة إلى أن مصطلح الطمأنينة الانفعالية يقابله العديد من التسميات مثل الأمن النفسي أو الطمأنينة النفسية، أو الأمن الشخصي، أو الأمن الخاص. و عليه يتبنى الباحث مصطلح الطمأنينة الانفعالية في هذه الدراسة.

و منه تُعرّف الطمأنينة الانفعالية بأنها شعور مركب يحمل في طياته إحساس الفرد بالسعادة و الرضا عن حياته بما يحقق له الشعور بالسلامة و الاطمئنان، و أنه محبوب و متقبل من الآخرين بما يمكنه من تحقيق قدر أكبر من الانتماء إليهم، و من ثم يتوقع حدوث الأحسن مع إمكانية تحقيق رغباته في المستقبل بعيدا عن خطر الإصابة باضطرابات نفسية أو صراعات أو أي خطر يهدد أمنه و استقراره في الحياة (14.(

ثانيا: التعريف الإجرائي:

تُعرّف الطمأنينة الانفعالية إجرائيا بالدرجة التي يتحصل عليها الفرد على مقياس الطمأنينة الانفعالية (الأمن النفسي) لزينب شقير (2005) و المبني على أبعاد الأمن النفسي لماسلو و المكيّف لهذا الغرض.

6- حدود الدراسة:

تتحدّد الدراسة الحالية بدراسة متغير تشكل هوية الأنا و علاقتها بالطمأنينة الانفعالية لدى الطالب الجامعي بالوادي، باستخدام المقياس الموضوعي لرتب هوية الأنا، و مقياس الطمأنينة الانفعالية، كما تتحدّد الدراسة أيضا:

-الحدود المكانية و الزمنية: أجري هذا البحث في جامعة الوادي خلال السنة الجامعية 2012- 2013.

-الحدود البشرية: يقتصر البحث الحالي على عينة من طلبة و طالبات جامعة الوادي من كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية من كل ميادين التكوين بالكلية (علوم إنسانية و علوم اجتماعية و علوم إسلامية) من مستوى السنة الأولى.

7- الإجراءات المنهجية للدراسة:

7-1- منهج الدراسة:

نتيجة لطبيعة الأهداف التي تسعى إليها الدراسة الحالية و من خلال الأسئلة التي يحاول البحث الإجابة عليها، فقد تم استخدام المنهج الوصفي .

7-2- مجتمع الدراسة:

يَتكوَّن مجتمع الدراسة الحالية من طلبة و طالبات جامعة الوادي من مستوى السنة الأولى بكلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية و المسجلين في السنة الجامعية 2012-2013.

7-3- عينة الدراسة:

لقد أجريت الدراسة الحالية على عينة قوامها 287 طالبا و طالبة بكلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية من مستوى السنة الأولى بجامعة الوادي، حيث تم اختيار أفراد العينة بطريقة غير احتمالية من جميع ميادين التكوين الموجودة بالكلية (علوم إنسانية و علوم اجتماعية و علوم إسلامية) و المسجلين للسنة الجامعية 2012-2013.

7-4- خصائص العينة:

تم سحب أفراد العينة من طلبة و طالبات كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية من مستوى السنة الأولى و من مختلف ميادين التكوين الموجودة بالكلية، حيث تراوحت أعمارهم الزمنية بين (18 و30 سنة)، بمتوسط حسابي مقداره 21.30 و انحراف معياري مقداره 02.34، و الجدول التالي يوضّح خصائص عينة الدراسة من حيث ميدان التكوين و الجنس.

جدول رقم (01): توزيع أفراد العينة حسب ميدان التكوين و الجنس

ميدان التكوين	عدد الذكور	النسبة المئوية	عدد الإناث	النسبة المئوية	العدد الإجمالي	النسبة المئوية
علوم إنسانية	31	% 10.80	66	%22.99	97	%33.79
علوم اجتماعية	19	% 06.62	73	%25.43	92	%32.05
علوم إسلامية	13	%04.52	85	%29.61	98	%34.14
المجموع	63	%21.95	224	%78.04	287	% 100

يتبيّن من خلال الجدول السابق أنّ نسب توزيع أفراد العينة على ميادين التكوين تراوحت بين 32.05 % و 34.14 %. أما نسب توزيع أفراد العينة حسب الجنس فكانت نسبة توزيع الذكور 21.95 %، أما الإناث شكّلت نسبتهم 78.04 % من أفراد العينة الكلية.

7-5- أدوات جمع البيانات:

أولا: المقياس الموضوعي لتشكل هوية الأنا:

1- وصف المقياس:

قام آدمز و آخرون (1979) ببناء المقياس الموضوعي لتشكل هوية الأنا في نهايات السبعينات المعتمد على نموذج "مارشيا" لهوية الأنا، و قد قام آدمز و زملاؤه بتطوير المقياس الموضوعي حيث تم تحديد مجالين للهوية هما مجال الهوية الأيديولوجية و تشمل أربع أبعاد هي الهوية الدينية و السياسية و المهنية و أسلوب الحياة. و مجال الهوية الاجتماعية، و يشمل أيضا أربعة أبعاد هي الصداقة و الجنس الآخر و الدور الجنسي و أسلوب الترفيه. و يتكون المقياس من 64 عبارة روعي فيها تخصيص 32 عبارة لكل من مجالي الهوية الأيديولوجية و الهوية الاجتماعية، و أربع رتب (تحقيق، تعليق، انغلاق، تشتت) لكل مجال حيث خصصت 8 عبارات لكل رتبة في كل مجال وزّعت لتكون 8 مفردات لكل بعد بمعدل عبارتين للبعد في كل رتبة.

يتم تقدير الدرجات الخام في مقياس رتب هوية الأنا الموضوعي عن طريق إجابة الفرد على مفردات المقياس وفق نظام ليكرت (Likert) ذي المستويات الستة من " موافق تماما" إلى "غير موافق إطلاقا."

لتحديد رتبة الهوّية التي يقع فيها الفرد في كل مجال من مجالات الهوية، لبد من تحديد الدرجات الفاصلة للدرجات الخام في كل رتبة (التحقيق، التعليق، الانغلاق، التشتت)، و التي تساوي متوسط درجات المجموعة في تلك الرتبة مضافا إليه قيمة الانحراف المعياري، حيث تحدد رتبة الهوية للفرد بالرتب التي تساوي درجته فيها الدرجة الفاصلة أو أعلى. و يعتمد المقياس أسلوبا لكشف الكذب أو الإهمال باستبعاد استمارات الأفراد الذين يقعون في ثلاث رتب للهوية في أي من مجالات الهوية (1).

2- الخصائص السيكومترية للمقياس:

يتمتّع المقياس في صورته الأساسية و المطبق على عينات أمريكية بدرجة مقبولة من الصدق و الثبات. و هذا أيضا ما أظهرته دراسة عبد الرحمن (1998) التقنينية على عينة من 422 من الذكور و الإناث في المدارس الثانوية و الجامعة بمدينة الزقازيق، حيث تمتع المقياس بدرجة مقبولة من الثبات عن طريق إعادة التطبيق حيث تراوحت درجة الثبات بين (0,72 و 0,83). كما أظهرت النتائج درجات مقبولة من الاتساق الداخلي حيث بيّنت النتائج وجود علاقة بين المفردات و الرتب المنتمية إليها لم تقل في مستوى دلالتها عن 0,05. إضافة إلى تمتعه بدرجة عالية من صدق المحتوى

المعتمد على المحكمين و التحليل العاملي لرتب المقياس المختلفة. و هذا أيضا ما أكدته دراسة عبد المعطي (1993) على عينة سودانية من 498 من طلاب الجامعات، حيث بلغ معامل ثبات الاختبار عن طريق الإعادة 0,59. و بين 0,82 و 0,67 لرتب الهوية المختلفة عن طريق التجزئة النصفية. أما على مستوى البيئة السعودية، أظهرت نتائج الدراسات التقنينية التي أجراها الغامدي (2000، 2001) تمتّع المقياس بدرجة مقبولة من الثبات و الصدق، حيث تدرجت العلاقات البينية بين المفردات و الدرجة الكلية للرتب المنتمية لها من 0,32 إلى 0,64 و كانت غالبيتها ذات دلالة. و أظهرت النتائج تمتع المقياس بدرجة ثبات مقبولة. كما بلغ معامل الاتفاق بين المحكمين لتحديد الرتبة و المجال الذي تقيسه كل مفردة 0,94 و في ذلك مؤشر على الصدق الظاهري للمقياس (4).

من أجل استخدام المقياس الموضوعي لرتب الهوية في البيئة الجزائرية تحقق الباحث من خصائصه السيكومترية بالطرق التالية:

2-1- الثبات:

لقد تم التحقق من ثبات مقياس رتب الهوية بعد تطبيقه على عينة استطلاعية مكوّنة من 60 طالبا و طالبة من مستوى السنة الأولى بكلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية و من مختلف ميادين التكوين (علوم اجتماعية و علوم إنسانية و علوم إسلامية) من جامعة الوادي باستخدام معاملات الثبات التالية:

أ- معامل ألفا- كرونباخ:

بما أن المقياس الحالي لا تقتصر إجابته على الصفر و الواحد، لذلك فقد تم حساب معامل ألفا- كرونباخ للتحقق من ثباته فكانت النتائج كما في الجدول التالي:

جدول رقم (02): معاملات ثبات مقياس هوية الأنا بطريقة ألفا – كرونباخ

مجالات هوية الأنا	معامل ألفا – كرونباخ
هوية الأنا الأيديولوجية	0.72
هوية الأنا الاجتماعية	0.69
هوية الأنا الكلية	0.82

يتّضح من الجدول (02) أن معاملات الثبات بطريقة ألفا – كرونباخ لمجالات هوية الأنا تراوحت بين (0.69 و 0.72) و هي معاملات ثبات مرتفعة، كما بلغ معامل الثبات الكلي للمقياس (0.82) و هي قيمة مرتفعة تعني أن المقياس ثابت فيما يعطي من نتائج.

ب- طريقة التجزئة النصفية:

تم حساب معامل ثبات المقياس بطريقة التجزئة النصفية حيث بلغ (0.60)، و عند تصحيحه بمعادلة سبيرمان-براون أصبح (0.75)، و هو معامل ثبات مرتفع يدل على ثبات الاختبار .

2-2- الصدق:

الصدق هو أن يقيس الاختبار ما وُضع لقياسه (15). و لأغراض الدراسة الحالية تم الاعتماد على طرق الصدق التالية :

أ- صدق المحتوى:

قام الباحث التأكد من صدق المحتوى من خلال استطلاع آراء المحكمين ، فطُلب من مجموعة متكونة من 09 أساتذة جامعيين من ذوي الخبرة و الاختصاص من جامعة البليدة 2، و جامعة الجزائر 2، و جامعة ورقلة، و جامعة الوادي. و

بعد الإطلاع على آراء المحكمين اتفقوا على صلاحية المقياس للتطبيق على البيئة الجزائرية. و بناءا عليه لم يتم حذف أي بند و لكنهم اقترحوا تعديل بعض البنود. و لحساب صدق المحكمين تم تطبيق معادلة "كوبر(Cooper) "، حيث بلغت نسبة الاتفاق بـ 98,24 % و هذه نسبة اتفاق عالية يمكن الاعتماد عليها في اعتبار المقياس صادقا و تتوقف دلالتها على صدق المحكمين.

ب- صدق الاتساق الداخلي:

تم حساب معاملات الارتباط بين درجة كل مجال من مجالات المقياس و الدرجة الكلية له، ثم تم حساب معاملات الارتباط بين أبعاد كل مجال و الدرجة الكلية للمجال، و كانت النتائج كما توضحها الجداول التالية:

جدول رقم (03): معاملات الارتباط بين مجالات المقياس و الدرجة الكلية له

المجالات	معامل الارتباط	مستوى الدلالة
هوية الأنا الأيديولوجية	0.90	0.01
هوية الأنا الاجتماعية	0.89	0.01

يتّضح من خلال النتائج المبيّنة في الجدول السابق أن مجالات المقياس الموضوعي لرتب الهوية تتمتع بمعاملات ارتباط قوية و دالة إحصائيا عند مستوى دلالة (0.01)، حيث تراوحت معاملات الارتباط بين (0.89-0.90)، و هذا يدل على أن مجالات المقياس تتمتع بمعامل صدق عالي.

جدول رقم (04): معاملات الارتباط بين أبعاد كل مجال و الدرجة الكلية له

المجال	البعد	الدرجة الكلية للمجال	مستوى الدلالة
المجال الأيديولوجي	المهنة	0.65	0.01
	الدين	0.73	0.01
	السياسة	0.73	0.01
	فلسفة الحياة	0.76	0.01
المجال الاجتماعي	الصداقة	0.74	0.01
	الجنس الآخر	0.68	0.01
	الدور الجنسي	0.73	0.01
	الترفيه	0.76	0.01

يتبّين من نتائج الجدول السابق أن أبعاد كل مجال من مجالات مقياس رتب الهوية تتمتع بمعاملات ارتباط قوية و دالة إحصائيا عند مستوى دلالة (0.01)، حيث تراوحت معاملات الارتباط بين (0.65-0.76)، و هذا يدل على أن أبعاد المجالات تتمتع بمعامل صدق مرتفع .

جـ-الصدق الذاتي:

يعتمد هذا النوع من الصدق على تخليص الدرجات التجريبية للاختبار من أخطاء القياس حتى تصبح درجات حقيقية. و يتم قياس الصدق الذاتي بحساب الجذر التربيعي لمعامل الثبات (16.)

الصدق الذاتي= 0,82 = 0,90

يتبيّن من النتائج السيكومترية السابقة أن المقياس يتمتع بدرجة عالية من الثبات و الصدق مما يجعله صالحا للتطبيق في البيئة الجزائرية بكل ثقة و اطمئنان.

ثانيا: مقياس الطمأنينة الانفعالية:

1- وصف المقياس:

أعدّت هذا المقياس زينب شقير (2005) بناءا على أبعاد الأمن النفسي لماسلو. و يهدف استخدامه كأداة موضوعية مقنّنة في تشخيص الأمن النفسي. و يتألف المقياس من 54 عبارة، حيث يُطلب من الفرد بأن يقوم بالإجابة عليها و ذلك على مقياس يتدرج من موافق بشدة (كثير جدا)، موافق (كثيرا)، و غير موافق (أحيانا)، و غير موافق بشدة (لا)، و أمام هذه التقديرات أربع درجات هي: (3،2، 1، صفر) على الترتيب، و ذلك عندما يكون اتجاه العبارات نحو الطمأنينة الانفعالية إيجابيا، بينما تكون هذه التقديرات في اتجاه عكسي (صفر ، 1 ، 2 ، 3) عندما يكون اتجاه التقديرات نحو الطمأنينة الانفعالية سلبيا. و تتوزع عبارات المقياس على أربعة محاور هي:

المحور الأول: الأمن النفسي المرتبط بتكوين الفرد ورؤيته للمستقبل و يتضمن (14 بندا)

المحور الثاني: الأمن النفسي المرتبط بالحياة العامة و العملية للفرد و يتضمن (18 بندا)

المحور الثالث: الأمن النفسي المرتبط بالحالة المزاجية للفرد و يتضمن (10 بنود)

المحور الرابع: الأمن النفسي المرتبط بالعلاقات الاجتماعية و التفاعل الاجتماعي للفرد (12 بندا)

2- الخصائص السيكومترية للمقياس:

قامت مصممة المقياس زينب شقير (2005) بتطبيق المقياس على عينة من الجنسين من فئات إكلينيكية مختلفة و أعمار زمنية مختلفة لتقنين المقياس و قامت بحساب صدقه على عينات سعودية و مصرية باستخدام كل من الصدق الظاهري و صدق المحك و كذلك الصدق التمييزي و تبين أنه يتمتع بالقدرة على التمييز بين فئات إكلينيكية مختلفة و بين الجنسين. و قد تم حساب ثبات المقياس بطرق مختلفة منها طريقة إعادة التطبيق حيث طبق المقياس على طلاب الجامعة من الجنسين و كذلك طريقة ثبات الاتساق عن طريق تطبيق معادلة "سبيرمان" و طريقة معامل ألفا لكرونباخ و توصلت الباحثة لمعاملات صدق و ثبات مرتفعة للمقياس (14).

من أجل التأكد من صلاحية هذه الأداة على البيئة الجزائرية، و باستخدام نفس بيانات العينة الاستطلاعية تم إعادة حساب الخصائص السيكومترية لهذا المقياس بالطرق التالية:

2-1- الثبات:

أ- معامل ألفا- كرونباخ:

تم حساب معامل ألفا- كرونباخ لمقياس الطمأنينة الانفعالية، حيث بلغ معامل الثبات الكلي للمقياس (0.89) و هي قيمة مرتفعة، مما يعني أن المقياس يتمتع بدرجة مرتفعة من الثبات .

ب- طريقة التجزئة النصفية:

تم حساب معامل الثبات بطريقة التجزئة النصفية فكانت قيمته (0.46) و بعد تصحيحه بمعامل سبيرمان-براون بلغت قيمته (0.63). و هذا يدل على أن المقياس يتمتع بدرجة مقبولة من الثبات.

2-2- لصدق:

أ- صدق المحتوى:

قام الباحث بعرض مقياس الطمأنينة الانفعالية على 09 من الأساتذة الجامعيين من ذوي الخبرة و الاختصاص من جامعة البليدة 2، و جامعة الجزائر2، و جامعة ورقلة، و جامعة الوادي. و بعد الإطلاع على آراء السادة المحكمين اقترحوا تعديلات على بعض البنود من ناحية الصياغة اللغوية و لكنهم اتفقوا على صلاحية المقياس للتطبيق على البيئة الجزائرية حيث بلغت نسبة الاتفاق بـ 98,24 % و هذه نسبة اتفاق مرتفعة يمكن الاعتماد عليها في اعتبار المقياس صادقا.

ب-الصدق التمييزي (المقارنات الطرفية):(

بعد تطبيق مقياس الطمأنينة الانفعالية على العينة الاستطلاعية، قام الباحث بترتيب درجاتهم الخام تصاعديا. ثم سحب 27 % من طرفي التوزيع. فتحصل على مجموعتان متطرفتان (عليا و دنيا) تساوي كل منهما تساوي 16 فردا (60×0.27= 16.2). ثم قام بتطبيق اختبار (ت) لدلالة الفروق بين المتوسطات، فتحصل على النتائج المبينة في الجدول التالي:

جدول رقم (05): نتائج اختبار (ت) بين متوسطي المجموعتين المتطرفتين في مقياس الطمأنينة الانفعالية

العينة العليا = 16	العينة الدنيا = 16	درجة الحرية	قيمة (ت)	مستوى الدلالة
المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري			
124	5,50	84,25	19,74	30	7,75	0,01 دال

يتضح من الجدول رقم (05) أن قيمة (ت) دالة إحصائيا عند مستوى 0.01 مما يعني أن المقياس يتميز بالقدرة التمييزية بين العينتين المتطرفتين في الطمأنينة الانفعالية.

انطلاقا من النتائج السابقة يتبين أن المقياس يتمتع بدرجات مرتفعة من الصدق و الثبات يمكن الوثوق بها لاستخدامه في البيئة الجزائرية بكل اطمئنان.

-6-7الأساليب الإحصائية:

تم تفريغ بيانات الدراسة الحالية و تحليلها عن طريق استخدام برنامج الحزمة الإحصائية للعلوم الاجتماعية (SPSS 17.0)، و قد تم استخدام الأساليب الإحصائية التالية:

-النسب المئوية لعرض خصائص أفراد العينة.

-المتوسط الحسابي لحساب متوسط درجات أفراد العينة في المقاييس المستخدمة في البحث.

-الانحراف المعياري لحساب تشتت درجات أفراد العينة في المقاييس المطبقة في البحث.

-معامل الارتباط بيرسون (Pearson) لمعرفة العلاقة التي تربط متغيري البحث و التحقق من صدق و ثبات أدوات الدراسة.

-اختبار (ت) للفروق و معامل ألفا كرونباخ (Alpha-cronbach) و سبيرمان-براون (Spearman-brown) و ذلك لدراسة وجود الفروق بين متغيرات الدراسة، و كذلك للتحقق من صدق و ثبات المقاييس المستعملة في هذا البحث.

8- عرض و مناقشة و تفسير نتائج الدراسة:

8-1- عرض و مناقشة و تفسير نتائج الفرضية الأولى:

تنص الفرضية الأولى على أنه: توجد علاقة ارتباطيه بين الدرجات الخام لرتب هوية الأنا والدرجات الخام للشعور بالطمأنينة الانفعالية لدى الطالب الجامعي. للتأكد من صحة هذه الفرضية تم استخدام معامل ارتباط بيرسون، والنتائج يوضحها الجدول التالي:

مجالات هوية الأنا	رتب هوية الأنا	العينة	معامل الارتباط بيرسون	الدلالة
هوية الأنا الأيديولوجية	تحقيق الهوية	287	0.12	0.05 دال
	تعليق الهوية	287	0.28-	0.01 دال
	انغلاق الهوية	287	0.12-	0.05 دال
	تشتت الهوية	287	0.24-	0.01 دال
هوية الأنا الاجتماعية	تحقيق الهوية	287	0.17	0.01 دال
	تعليق الهوية	287	0.14-	0.05 دال
	انغلاق الهوية	287	0.12-	0.05 دال
	تشتت الهوية	287	0.32-	0.01 دال
هوية الأنا الكلية	تحقيق الهوية	287	0.17	0.01 دال
	تعليق الهوية	287	0.25-	0.01 دال
	انغلاق الهوية	287	0.13-	0.05 دال
	تشتت الهوية	287	0.33-	0.01 دال

جدول رقم (06): مصفوفة معاملات الارتباط بين درجات هوية الأنا و درجات الطمأنينة الانفعالية

يُظهر الجدول رقم (06) نتائج معامل ارتباط بيرسون بين الدرجات الخام لهوية الأنا بكل رتبها (تحقيق، تعليق، انغلاق، تشتت) و مجالاتها (الأيديولوجية، الاجتماعية، الكلية) و الدرجات الخام للطمأنينة الانفعالية، حيث تشير النتائج إلى ما يلي:

- وجود علاقة ارتباطية إيجابية ذات دلالة إحصائية عند مستوى 0.01 أو 0.05 بين درجات تحقيق هوية الأنا في مجالاتها المختلفة (الأيديولوجية، الاجتماعية، الكلية) و درجات الطمأنينة الانفعالية.

-وجود علاقة ارتباطية سلبية ذات دلالة إحصائية عند مستوى 0.01 أو 0.05 بين درجات التعليق و الانغلاق و التشتت لهوية الأنا في مجالاتها المختلفة (الأيديولوجية، الاجتماعية، الكلية) و درجات الطمأنينة الانفعالية.

و منه فإننا نقبل الفرضية التي تنص على وجود علاقة ارتباطيه بين الدرجات الخام لرتب هوية الأنا والدرجات الخام للشعور بالطمأنينة الانفعالية لدى الطالب الجامعي. و تفسيرا لنتائج الفرضية الأولى يتوجب النظر إلى النتائج السابقة نظرة شمولية تأخذ بعين الاعتبار علاقة الطمأنينة الانفعالية برتب الهوية الأساسية في مجالاتها المختلفة، و ذلك على النحو التالي:

أ- تحقيق الهوية و الطمأنينة الانفعالية :

تؤكد نتائج الفرضية الأولى وجود علاقة طردية دالة إحصائيا بين رتبة تحقيق الهوية في جميع مجالاتها (الأيديولوجية، الاجتماعية، الكلية) و الشعور بالطمأنينة الانفعالية. و حسب نموذج مارشيا المبني على افتراضات أريكسون النظرية، تعتبر

رتبة تحقيق الهوية سواء على المستوى الأيديولوجي أو الاجتماعي الرتبة الأكثر نضجا من الناحية النمائية مقارنة بالرتب الأخرى. و في هذه الرتبة يكون المراهقين قد خبروا أزمة الهوية و وصلوا إلى حلول مناسبة لها و التزموا بأيديولوجيات معينة و اتخذوا قراراتهم بشأن خياراتهم المهنية . و من السمات المميزة للفرد المحقق لهويته الثقة بالنفس و البعد عن القلق، و الشعور بالرضا و السعادة، و القدرة على تكوين علاقات ألفة مع الآخرين و مشاركتهم مشاعرهم و أفكارهم، و النظرة الإيجابية للذات (17). و هذه السمات تعد من المؤشرات الدالة على الطمأنينة الانفعالية حيث يؤكد ماسلو على مكانة الفرد في الجماعة و علاقته بالآخرين و كذلك خلو البيئة من التهديد و القلق كمكونات أساسية للشعور بالطمأنينة النفسية، و التي تعتبر من أهم الحاجات الأساسية و شروط الصحة النفسية و بذلك احتلت المرتبة الثانية على هرم ماسلو للحاجات (18). و قد أكدت دراسة الشرعة (1998) على العلاقة بين الطمأنينة الانفعالية و وضوح الهوية المهنية، و تتفق هذه النتيجة مع ما توصلت إليه دراسة محمد السيد عبد الرحمن (1998) من وجود علاقة ارتباطية سالبة بين تحقيق الهوية في جميع مجالاتها بعدم الأمان و الطمأنينة ، و هذا يعني أنه كلما كان الفرد محقق لهويته كان أكثر شعورا بالطمأنينة (19). و كذلك دراسة عيد (1997) التي توصلت إلى وجود علاقة سالبة بين فقدان الطمأنينة الانفعالية و الاتجاه الإيجابي نحو الأنا (20).

ب- تعليق الهوية و علاقته بالطمأنينة الانفعالية:

إن نتائج الدراسة الحالية فيما يخص رتبة تعليق الهوية في مجالات الهوية المختلفة و علاقتها العكسية بالطمأنينة الانفعالية، تأتي متطابقة إلى حد كبير مع خصائص الأشخاص معلقي الهوية و الذين يفشلون في اكتشاف هوياتهم، و يستمرون في محاولة الكشف و اختبار الخيارات المتاحة دون الوصول إلى قرار نهائي، و دون إبداء أي التزام حقيقي بخيارات محددة فيما يتعلق بمجالات الهوية سواء الأيديولوجي أو الاجتماعي، مما يدفعهم إلى تغيير خيارتهم من وقت لآخر (1). رغم ذلك فهم يعانون من أزمات متواصلة، و كنتيجة لذلك يبدوا عليهم الاضطراب و عدم الاستقرار و عدم الشعور بالرضا، و بعض الأفراد المصنفين في هذه الفئة يتجنبون مواجهة المشاكل. و لأنهم يعانون من الأزمات فقد يميلون إلى الشعور بالقلق بسبب عدم وجود حلول للقرارات التي لديهم، فهم دائما في حالة نضال مع عالم القيم و الخيارات المتباينة (21). و منه فالشعور بالقلق يتنافى مع الشعور بالطمأنينة الانفعالية و هذا يفسر العلاقة العكسية بين تعليق الهوية والطمأنينة الانفعالية. و تتفق هذه النتيجة مع دراسة محمد السيد عبد الرحمن (1998) و التي توصلت إلى وجود علاقة ارتباطية موجبة ذات دلالة إحصائية بين تعليق الهوية الأيديولوجية و الاجتماعية و الكلية و كل من عدم الأمان و الطمأنينة و الحساسية و التوتر، أي كلما وقع فرد في هذه الرتبة زادت درجة شعوره بعدم الطمأنينة و توتره و حساسيته (19). و من جهة أخرى يشير الغامدي (2007) إلى أن الوقوع في هذه الرتبة يمثل تقدما إيجابيا نحو تحقيق الهوية إذا توافرت العوامل الإيجابية، بل إن فترة من التعليق تعد مطلبا أوليا لذلك (1 .).

ج- انغلاق الهوية و الطمأنينة الانفعالية:

ترتبط رتبة انغلاق هوية الأنا في جميع مجالاتها عكسيا مع الشعور بالطمأنينة النفسية، و هذا يتماشى مع الإطار النظري لهوية الأنا حسب أريكسون و نموذج مارشيا لرتب الهوية و كذلك الإطار النظري للطمأنينة الانفعالية، حيث يرتبط انغلاق الهوية من جانب بغياب الأزمة متمثلة في عدم مرور الفرد بفترة التعليق المفترضة و المعتمدة على محاولته الذاتية لاكتشاف هويته ممثلة في اختبار و تجريب المعتقدات والأهداف و الأدوار المتاحة لاختيار لما يناسبه منها، حيث يكتفي بما تحدده له قوى خارجية كالأسرة أو أحد الوالدين أو المعايير الثقافية و العادات من أهداف و أدوار (13 .).

تثبت الدراسات علاقة المتغيرات الاجتماعية و الأسرية و أساليب التربية و التعامل الوالدي بطبيعة النمو في الطفولة و المراهقة بما في ذلك حل أزمات النمو النفس اجتماعي و منها تشكل هوية الأنا. و من جهة أخرى يرتبط كذلك تحقيق الطمأنينة الانفعالية بالعديد من المتغيرات الاجتماعية و الأسرية و أساليب المعاملة الوالدية مثل ما تأكده دراسة عبد المقصود (1999) و دراسة مهندس (2006)، و كذلك دراسة كل من البري و أبو النيل (2007)، و دراسة روزين و روثبام (2009) و غيرها (12). و كل هذه الدراسات تشير إلى وجود علاقة بين الشعور بالطمأنينة الانفعالية و المعاملة الوالدية و بعض المتغيرات الأسرية و الاجتماعية. و من هنا نلاحظ أن للبعد الاجتماعي تأثيرا وسيطيا و متبادلا من جهة على نمو هوية الأنا بصفة عامة ومنغلقي الهوية بصفة خاصة. و من جهة أخرى يؤثر في الإحساس بالطمأنينة الانفعالية لدى الأفراد منغلقي الهوية لأنهم يعتمدون على والديهم و غيرهم في تحديد أهدافهم المهنية و خياراتهم الأيديولوجية، مما يؤدي إلى ارتباط هويتهم المنغلقة سلبيا بدرجة الشعور بالطمأنينة الانفعالية لديهم. أي كلما وقع الفرد في رتبة الانغلاق نقُص شعوره بالطمأنينة الانفعالية .

د- تشتت الهوية و الطمأنينة الانفعالية:

تشير نتائج الدراسة إلى ارتباط درجات رتبة التشتت في جميع مجالات الهوية سلبيا بالطمأنينة الانفعالية لدى الطالب الجامعي، و تتفق هذه النتيجة مع افتراضات أريكسون، حيث يرتبط هذا النمط من هوية الأنا بغياب كل من أزمة الهوية متمثلا في عدم إحساس الأفراد بالحاجة إلى تكوين فلسفة مقابل أدوار محددة في الحياة من جانب، و غياب الالتزام بما شاءت الصدف أن يمارسوا من أدوار من جانب آخر (1). و يتصف هؤلاء الأفراد بالنمطية و السطحية في تكوين العلاقات مع الآخرين، و الميل للانفصال عن الأسرة والمجتمع، و السلبية و الحيادية و اللامبالاة، و صعوبة التكيف مع الظروف، و التعرض لمخاطر عالية و متعددة مما يطور حالة التشتت لديهم، و يدفعهم للوقوع في مشاكل سلوكية عديدة كتعاطي المخدرات والجنوح. و تؤكد ذلك دراسات عديدة من بينها دراسة المنيزل (1989)، و دراسة الفليج (1991) اللتان أكدتا ضعف هوية الأنا لدى الجانحين. كما توصلت نتائج الدراسات التالية: (الغامدي، 1984؛ الثبيتي، 1988؛ العتيبي، 1989؛ الهمزاني، 1991؛ الغامدي، 1989؛ الغامدي، 1998، الغامدي، 2000) إلى ارتباط تشتت الهوية بجوانب السلبية للنمو، حيث خلصت إلى أن الجانحين أقل توافقا من الناحية النفسية.

كما يعتبر التشتت من الناحية النمائية اقل حالات الهوية تطورا، و ما يدعم نتيجة هذه الدراسة هو دراسة زيتوف و هونيك (Zaitoph & Hoinnek) في هولندا عن جنوح الأحداث حيث أشارا إلى أن السلوك الإجرامي للأحداث ما هي إلا أعراض ظاهرة تنطوي على رغبة جامحة في الطمأنينة الانفعالية و حاجة ملحة إلى العلاقات الدافئة (22). كما تتسق هذه النتيجة مع ما توصل إليه محمد السيد عبد الرحمن (1989) في دراسة حول علاقة بعض سمات الشخصية بأساليب مواجهة أزمة الهوية، حيث أفرزت دراسته على وجود علاقة ارتباطية سالبة بين تشتت هوية الأنا الأيديولوجية و الاجتماعية و الكلية و عدم الأمان والطمأنينة الانفعالية و الامتثال و الارتياب (19.)

8-2- عرض و تفسير و مناقشة الفرضية الثانية:

تنُص هذه الفرضية على أنّه: توجد فروق ذات دلالة إحصائية في درجات الطمأنينة الانفعالية حسب متغير الجنس لدى الطالب الجامعي.

للتأكد من صحة هذه الفرضية تم حساب اختبار "ت" لعينتين مستقلتين لكشف الفروق بين متوسطات درجات كل من الذكور و الإناث في الطمأنينة الانفعالية لدى الطالب الجامعي، و النتائج كما يوضحها الجدول رقم (07 :)

جدول رقم (07): نتائج اختبار "ت" لدراسة الفروق في الشعور بالطمأنينة الانفعالية حسب متغير الجنس

الجنس	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	درجة الحرية	قيمة "ت"	الدلالة
ذكور (ن= 63)	104.20	20.07	285	-0.28	غير دالة
إناث (ن= 224)	105.04	20.34			

تشير نتائج الجدول رقم (07) عدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسط درجات الذكور و متوسط درجات الإناث في الشعور بالطمأنينة الانفعالية لدى الطالب الجامعي.

و بالتالي فإننا نرفض الفرضية البديلة و نقبل الفرضية الصفرية التي تنص على عدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية في درجات الطمأنينة الانفعالية حسب متغير الجنس لدى الطالب الجامعي. تدعيما لهذه النتيجة، يؤكد راجح (1977) إلى إن الحاجة إلى الطمأنينة الانفعالية حاجة هامة لجميع الأشخاص في جميع المراحل العمرية، فالطفل في حاجة ماسة للطمأنينة نظرا لضعفه و تتحقق هذه الحاجة عن طريق إشباع حاجاته الفسيولوجية، و عطف و ود والديه، كما أن المراهق في حاجة ماسة إلى الطمأنينة الانفعالية في تلك المرحلة الانتقالية و التي يرغب فيها في الاستقلال عن أسرته ، لذا فهو في أمس الحاجة إلى صديق أو مرشد أو جماعة ينتمي إليها أو عقيدة دينية تشعره بالطمأنينة النفسية (23.)

و هذا ما أكدته دراسة المفدي (1994) التي هدفت إلى التعرف على الحاجات النفسية لدى المراهقين في دول الخليج العربي و الفروق بين الطلبة و الطالبات في تلك الحاجات و منها الحاجة إلى الطمأنينة الانفعالية. و لقد أسفرت نتائج هذه الدراسة عن عدم وجود فروق دالة في الحاجة للطمأنينة الانفعالية بين الطلاب والطالبات (24). كما تتفق هذه النتيجة كذلك مع دراسة جبر محمد جبر (1996) و التي هدفت لدراسة بعض المتغيرات الديموغرافية المرتبطة الطمأنينة الانفعالية، و توصلت إلى عدم وجود فروق دالة إحصائيا بين الذكور و الإناث في الشعور بالطمأنينة الانفعالية (25). و لقد أيّدت الكثير من الدراسات عدم وجود فروق دالة بين الجنسين في هذا المتغير منها دراسة أماني عبد المقصود (1999)، و دراسة سعد (1999)، و دراسة أبوعودة (2006) و غيرها (20 .).

في حين خالفت دراسات أخرى نتيجة الدراسة الحالية و ذلك بتأكيدها على وجود فروق بين الجنسين في الطمأنينة الانفعالية مثل دراسة أبومرق (1995) حول حاجات الشباب العربي و منها الحاجة إلى الطمأنينة الانفعالية و كانت النتيجة لصالح الإناث. و كذلك دراسة العمري و السلمان (1996) التي هدفت إلى قياس وتحليل درجة تحقيق حاجة الطمأنينة الانفعالية لدى هيئة التدريس في الجامعات الأردنية الرسمية و علاقتها ببعض المتغيرات (24.).

خلاصة:

يعد تشكل هوية الأنا كما افترضه أريكسون من أهم جوانب النمو الإنساني المؤثرة على طبيعة السلوك الاجتماعي للفرد، حيث استخدم أريكسون مفهوم هوية الأنا مقابل اضطراب الدور للإشارة إلى أزمة الهوية في مرحلة المراهقة و

بدايات الشباب و يمثل حلها المطلب الأساسي لاستمرارية النمو السوي خلال هذه المرحلة. كما يعد الشعور بالأمن و الطمأنينة الانفعالية من أهم العوامل المساعدة على حل هذه الأزمة. لذلك افترضت الدراسة الحالية تأثير تشكل هوية الأنا في الإحساس بالطمأنينة الانفعالية عند عينة من طلبة جامعة الوادي. و يظهر من خلال تحليل البيانات التي تم الحصول عليها في هذا البحث أن الشعور بالطمأنينة الانفعالية قد ارتبط بتشكل هوية الأنا حسب الإطار النظري لأريكسون، حيث ارتبط مستوى الطمأنينة الانفعالية إيجابيا بدرجات تحقيق الهوية، و سلبيا بالرتب الأخرى (تعليق، انغلاق، تشتت) في المجال الأيديولوجي، و الاجتماعي، و الكلي للهوية. كما أثبتت الدراسة عدم تأثير متغير الجنس في مستوى الطمأنينة الانفعالية.

بيبليوغرافيا:

-1الغامدي، حسين عبد الفتاح (2007): المقياس الموضوعي لتشكل هوية الأنا، نسخة مقننة على الذكور في سن المراهقة و الشباب بالمنطقة الغربية من المملكة العربية السعودية، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، ص ص 10-11، 14-15، 19-24.

-2الطرشاوي، خليل عبد الرحمن (2002): أزمة الهوية لدى الأحداث الجانحين مقارنة بالأسوياء في محافظات غزة في ضوء بعض المتغيرات، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، الجامعة الإسلامية، غزة، ص 2.

-3المجنوني، سلوى بنت عبد المحسن عبد الله (2001): تشكل هوية الأنا لدى عينة من طلاب و طالبات جامعة أم القرى تبعا لبعض المتغيرات الأسرية و الديموغرافية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، ص 2.

-4عسيري، عبير بنت محمد حسن (2003): علاقة تشكل هوية الأنا بكل من مفهوم الذات و التوافق النفسي و الاجتماعي و العام لدى عينة من طالبات المرحلة الثانوية بمدينة الطائف، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، ص ص 2، 5، 65.

-5الزهراني، نجمة بنت عبد الله محمد (2005): النمو النفس- اجتماعي وفق نظرية أريكسون و علاقته بالتوافق و التحصيل الدراسي لدى عينة من طلاب و طالبات المرحلة الثانوية بمدينة الطائف، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، ص 59-61.

-6حدار، عبد العزيز (2012): النسق الأسري الجزائري في مواجهة إشكالية حالة اللامعيارية و العولمة و تشكيل البنية الانفعالية المعرفية الحداثية لدى الفرد، الملتقى الوطني حول الأسرة و التحديات، مخبر التربية و التنمية ، قسم علم النفس و علوم التربية، جامعة وهران، الجزائر، ص 3.

-7السهلي، ماجد اللميع حمود (2007): الأمن النفسي و علاقته بالأداء الوظيفي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الدراسات العليا، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، المملكة العربية السعودية ، 2007، ص 7.

-8الصرايرة، خالد أحمد (2009): التماثل التنظيمي لدى أعضاء الهيئات التدريسية في الجامعات الأردنية العامة و علاقته بإحساسهم بالأمن، منتدى الأستاذ، العدد 5 و 6 ، ماي، المدرسة العليا للأساتذة بقسنطينة، الجزائر، ص 106.

-9السميري، نجاح (2010): المساندة الاجتماعية و علاقتها بالأمن النفسي لدى أهالي البيوت المدمرة خلال العدوان الأسرائيلي على محافظات غزة، مجلة جامعة النجاح للأبحاث (العلوم الإنسانية)، مجلد 24، ص 2155.

-10أقرع، إياد محمد نادي (2005): الشعور بالأمن النفسي و تأثره ببعض المتغيرات لدى طلبة جامعة النجاح الوطنية، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين، ص 03.

-11الشميمري، هدى صالح بن عبد الرحمن و بركات، آسيا علي راجح (2011): مستوى الأمن النفسي (الطمأنينة الانفعالية) لدى الطالبة الجامعية في ضوء الحالة الاجتماعية و التخصص و المستوى العلمي، المؤتمر السنوي السادس عشر للإرشاد النفسي بجامعة عين شمس مركز الإرشاد النفسي، مجلد 2، ص 664.

-12سامية، ابريعم (2011): الأمن النفسي لدى المراهقين، دراسة ميدانية على عينة من طلبة المرحلة الثانوية بولاية تبسة، دراسات نفسية و تربوية، عدد 06، جوان،مخبر تطوير الممارسات النفسية و التربوية، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، ص ص 250، 1793-1794.

-13الغامدي ، حسين عبد الفتاح (2000): تشكل هوية الأنا لدى الأحداث الجانحين، المجلة العربية للدراسات الأمنية و التدريب، المجلد 15، العدد 30، رجب، السنة 15، أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، ص ص 188، 197.

-14شقير، زينب (2005): مقياس الأمن النفسي (الطمأنينة الانفعالية)، ط 1، كراسة التعليمات، ص ص 07، 13-19.

-15محمد، عبد السلام أحمد (1960): القياس النفسي و التربوي، ط 1، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ص 179.

-16معمرية، بشير (2007): القياس النفسي و تصميم أدواته، ط 2، منشورات الحبر، بني مسوس، الجزائر، ص 164.

-17الوحيدي، لبنى برجس (2012): الحكم الخلقي و علاقته بأبعاد هوية الأنا لدى عينة من المراهقين المبصرين و المكفوفين في محافظة غزة، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة الأزهر، غزة، ص 58.

-18خويطر، وفاء حسن علي (2010): الأمن النفسي و الشعور بالوحدة النفسية لدى المرأة الفلسطينية (المطلقة و الأرملة) و علاقتهما ببعض المتغيرات، رسالة ماجستير منشورة، الجامعة الإسلامية، غزة، ص ص 14، 30.

-19عبد الرحمن، محمد السيد (1998): سمات الشخصية و علاقتها بأساليب مواجهة أزمة الهوية لدى طلاب المرحلة الثانوية و الجامعية، دراسات في الصحة النفسية، الجزء 2، دار قباء للطباعة و النشر و التوزيع، القاهرة، ص 390.

-20الطهراوي، جميل حسن (2007): الأمن النفسي لدى طلبة الجامعات في محافظة غزة و علاقته باتجاهاتهم نحو الانسحاب الإسرائيلي، مجلة الجامعة الإسلامية، سلسلة الدراسات الإنسانية، مجلد 15، عدد 2، يونيه، ص ص84، 86، 996-998 .

-21شريم، رغدة (2009): سيكولوجية المراهقة، ط 1، دار المسيرة عمان، ص 194.

-22حسين، محمود عطا (1989): الشعور بالأمن النفسي في ضوء متغيرات المستوى و التخصص و التحصيل الدراسي لدى طلاب المرحلة الثانوية في مدينة الرياض، المجلة التربوية، المجلد 06، العدد 22، مجلس النشر العلمي، الكويت، جامعة الكويت، ص ص 307- 308.

-23راجح، أحمد عزت (1999): أصول علم النفس، ط 11، دار المعارف، القاهرة، ص ص 113-114.

-24الخضري، جهاد عاشور (2003): الأمن النفسي لدى العاملين بمراكز الإسعاف بمحافظات غزة و علاقته ببعض سمات الشخصية و متغيرات أخرى، رسالة ماجستير منشورة، الجامعة الإسلامية، غزة، ص ص 83، 85.

25- العقيلي، عادل بن محمد بن محمد (2004): الاغتراب و علاقته بالأمن النفسي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الدراسات العليا، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض، ص 40.

دور وسائل الإعلام في نشر ظاهرة العنف

أ.حمزة قدة

جامعة الشهيد حمه لخضر بالوادي

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

الملخص:

ترتب عن القدرات الهائلة التي وفرتها تكنولوجيا الإعلام الحديثة تطورات في إمكانيات الصحف والراديو والتلفزيون وزيادة دورهم في التأثير في المجتمعات، وقد حدث جدل كبير حول هذا الدور في زيادة حجم العنف وانتشاره، وحمل البعض الإعلام مسئولية كبرى في تزيين الجريمة في نفوس الناس لأنها تنشر الجريمة بطريقة مثيرة ، وتعطي مرتكبيها طابع الشهرة، و قد قيل إن وسائل الإعلام لا تولد سلوكيات العنف لدى الأفراد ، كما قيل إن وسائل الإعلام تولد سلوكيات عنف لم تكن موجودة في الأفراد، وبين هذا وذاك وصلنا إلى نتيجة مفادها أنه يمكن لوسائل الإعلام أن تتناول مواضيع العنف دون التسبب في انتشاره في المجتمع.

Abstract

Due to the huge potentials provided by modern Media Technology: Press, Radio and Television are creating an enormous influence on communities. The situation caused a endless argument related to the increase of violence. On one hand, some people believe that Media claim entire responsibility to enhance crimes in a way that crime protagonists are excitingly becoming so famous .On the other hand, it is suggested that Media do not create violent behaviors against people, but might raise the curtain on violent behaviors that are originally not born with them .Finally we are highly convinced that Media can easily broach the subject of violence without any incitement.

مقدمة

أكدت الكثير من الدراسات الإعلامية والاجتماعية أن الناس في معظم حالاتهم يتجهون إلى وسائل الإعلام لإرضاء حاجات معينة في نفوسهم ، وأنهم يتجهون إلى محتوى معين في هذه الوسائل لإرضاء تلك الحاجات ، و أن أهمية التصميم هذه تنبع من الإدراك بأن الإنسان " إنتقائي " بطبيعته ، وهو يتوجه إلى عدد محدود من الصور والأصوات والمشاهد المتوفرة في بيئته في وقت واحد ، وإنه من المحتمل إن ينصرف الطفل أو الشاب إلى " إنتقاء " ما هو أكثر تشويقا وإثارة وتسلية بما تعرضه وسائل الإعلام المتوفرة في محيطه(1)، ولهذا لابد أن يكون تصميم الرسالة الإعلامية غاية في الدقة لتفادي التأثيرات غير الجانبية لوسائل الإعلام على الأفراد والمجتمع.

وإنه لمن المثير للسخرية أن نقول إن عصر وسائل الإعلام والتكنولوجيا عاجز عن أداء رسالة تحتوي مضامين تؤدي عمدا أو دون عمد إلى تحقيق أهداف وتأثيرات عكسية ، حيث أن العمل والإنتاج الإعلامي إذا لم يُبنى على تخطيط واع ودراسات معمقة وأهداف واضحة لاحتياجات الجمهور المستهدف فإنه قد يولد نموذجا جديدا لا يرغب فيه الناس، وتستثمره الصحافة والإذاعة و التلفزيون الموجهين للترويج لأفكارهم وإعلاناتهم دون إدراك المضامين الإعلامية وتأثيراتها،ومما يزيد من خطورة الإعلام تأكيد معظم الدراسات والبحوث العلمية على أن الناس يفكرون فيما تقدمه لهم وسائل الإعلام،فالجمهور الذي يتعرض لوسيلة إعلامية معينة سيُكيف اهتمامه بالقضايا المختلفة وفقا للأهمية التي تعطيها لها هذه الوسيلة (2.)

وبحكم القدرات الهائلة التي وفرتها تكنولوجيا الإعلام الحديثة فإنه من غير الممكن لأي دولة أو إنسان في العالم تجاهل الإمكانيات الضخمة التي يوفرها استخدام التكنولوجيا في مجال الإعلام، فقد أتاحت الأقمار الصناعية التواصل الآني بين أطراف المعمورة، وترتب عن استخدامها تطورات هائلة في إمكانيات الصحف والراديو والتلفزيون سواء كانت هذه

التطورات على مستوى الوسيلة أو الرسالة الإعلامية (3) ، خاصة هذه الأخيرة وما تحمله من مواد إعلامية جذابة تدس بين ثناياها قيما غريبة تُبث في نفوس النشء من مخالفات وجرائم وظواهر أخرى غريبة عن المجتمع .

من جهة أخرى أصبحت اليوم الأطراف التي تشترك في تشكيل الناشئة على درجة كبيرة من التنوع، فقد أصبحت وسائل الإعلام تنافس بقوة باقي المؤسسات الاجتماعية الأخرى كالأسرة والمدرسة، حيث دخلت ميادين التربية والتعليم و التثقيف، و قد صاحب التطور التكنولوجي في مجال الاتصال تنوع في وسائل الإعلام التي تعتبر مصدرا من مصادر المعلومات و أصبح من الصعب تمحيصها و غربلتها وفقا لمتطلبات وخصائص مجتمعاتنا النامية، و برزت ظواهر اجتماعية غريبة كتنامي سلوكات العنف ، و صارت ظاهرة العنف في الجزائر تحتل صدارة اهتمام وسائل الإعلام، مما دفع بالبعض إلى اعتبار ما يحدث من ظواهر العنف في بلادنا سببه ما تنشره الصحف وتبثه الفضائيات من مواد إعلامية تركز على العنف و الجريمة ممزوجة ببعض السلوكات من المجتمعات المتقدمة التي تؤدي بالمجتمعات النامية إلى التقليد الأعمى حتى و إن خالف ذلك قيمها و متطلباتها(4).

ونظرا لأهمية وسائل الإعلام وصلتها بالإنسان فقد اهتم التربويون والإعلاميون بدراسة تأثيرها و لاسيما على الشباب المراهقين الذين يتصفون بطبيعتهم أنهم ذوو قدرات إدراكية وخبرات حياتية محدودة تجعلهم يستجيبون للمثيرات التي يتعرضون لها دون تمحيص أو محاكمة، ويقدر بعض الباحثين أن الإنسان العادي يقضي صحبة وسائل الإعلام ما يقارب ثلاث ساعات في اليوم، وأن الشباب المراهقين يقضون أمام التلفزيون و حده وقتا يعادل الوقت الذي يقضونه في المدرسة(5).

الإعلام والعنف

يعد العنف أحد الظواهر الاجتماعية التي لازمت المجتمعات البشرية منذ بدايتها، حيث لا يكاد يوجد مجتمع من المجتمعات لا يتحدث فيه الناس عن العنف ، وأسبابه ، وطرق مكافحته أو معالجته ، نظرا لانتشاره ، وازدياد خطورته على الفرد والمجتمع، ويعرف عالم الاجتماع الفرنسي "دوركايم" الجريمة: " إن الجريمة ظاهرة طبيعية تمثل الضريبة التي يدفعها المجتمع نظير حياة متطورة، ويتحمل الفرد آثارها نظير تمتعه بحرية الاختيار"(6)، وقد انتشرت مصطلحات "العنف في المدرسة والجامعة والملاعب الرياضية" في المجتمعات ، حيث أصبح طابع الحديث عن الجريمة والفساد يحدوه الجرأة والمغامرة ، في حين أنه كان بالإمكان التحدث عن العنف من باب الإتعاض وأخذ الدروس والعبر منه ، لمحاولة منعه من الحدوث في مرات أخر.

وتأتي دراسة دور وسائل الإعلام في نشر العنف استجابة لعدة افتراضات، منها: وجود اعتقاد بأن التسلية تعد عاملا قويا مستقلا في استثارة السلوك العدواني، وهناك رؤية تؤكد أن التعرض للخيال العنيف في وسائل الإعلام له صلة بالسلوك الناتج من خلال التقليد والنمذجة، ورؤية ثالثة يرى أصحابها أن المراهقين تقل لديهم الضوابط الرسمية مما يجعلهم أكثر عرضة للتأثر بمضمون العنف في وسائل الإعلام(7).

وقد حدث جدل كبير حول دور الصحافة في العمل على زيادة حجم العنف وانتشاره، وحملوها مسئولية كبرى في " تزيين الجريمة والإجرام في نفوس الناس " لأنها تنشر الجريمة بطريقة سيئة ومثيرة ، وتبالغ في وصف الجريمة ، وكأنها ترفع من شأن مرتكبيها ، وتعطيهم طابع الشهرة ، مما يزعزع الثقة بمُثُل وقيم وعقيدة المجتمع ، والصحف التي تباع في الأسواق والفضائيات المتخصصة في أفلام العنف خير شاهد على ذلك .

وفي الثلاثينيات من القرن العشرين ظهرت دراسات عديدة تستهدف التعرف على الآثار الضارة لوسائل الإعلام ، ولكن لسوء الحظ لم يكن العديد من هذه الدراسات موضع ثقة للتوثيق، حيث صاحبها سوء في عرض البيانات وسوء في تفسير

النتائج، وبوجه عام زعمت هذه الدراسات أن وسائل الإعلام يمكن أن تثير الوعي لدى الجمهور نحو العديد من القضايا، وتكشف عن رموز الجنس والعنف في عدد محدود من الإعلانات المطبوعة (8 .(

وتؤكد الدراسات الإعلامية الحديثة حول التأثير المتبادل بين الإعلام والعنف ، أن أول لقطة فنية لمشهد من مشاهد العنف كانت اللقطة القريبة التي استخدمها المخرج السينمائي (ادوين بورتر) عام 1903 للص مخيف يطلق بندقية في وجه الكاميرا مباشرة لتستخدم كمقدمة وخاتمة لفيلم (سرقة القطار الكبرى) ثم زاد الاهتمام بتصوير وإنتاج مشاهد العنف تحت تأثير انتشار السينما في العالم خلال الحربين العالميتين(9)، كما أن منتجي البرامج وموظفي الشبكات التلفزيونية يرون أن برامج العنف أكثر سهولة وفعالية في إثارة إهتمام المشاهد ، ويعتمد بالتالي على أنها تزيد عدد المشاهدين ، وترفع تقييم البرامج ، وقبل كل شيء تزيد في إيرادات الإعلانات الدعائية.

لقد أصبح الكثير من الناس لا يرتضون وجود العنف والأمور الشاذة فحسب بل صاروا يحبون ذلك ويستمتعون بمشاهدته، لقد صار العنف جزءا من عملية التسلية والترويح، فنحن اليوم ننشره على الصفحات الأولى من الصحف والمجلات، كما أن ربع أو ثلث البرامج التلفزيونية تستخدم هذا العنف كجزء أساسي في برامجها.

فهل يمكن لبرنامج تلفزيوني يشاهده الشخص من خلال الشاشة الصغيرة أن يفرض تحولا أو يحدث تغييرا كبيرا في الاستعدادات النفسية التي يتميز بها الفرد ؟ الأصل أن تكون الاستعدادات النفسية سابقة على الوسيلة ، وهذا ما يحدث في حالة الأشخاص البالغين الذين تكاملت عناصر شخصيتهم الاجتماعية إلى حد كبير، فما هو الحال بالنسبة للمراهقين الذين يقفون على عتبة النضج والبلوغ ؟ لكل مراهق أو بالغ مجموعة من الاستعدادات التكوينية التي تعمل قبل ، و أثناء ، وبعد التعرض للوسيلة الإعلامية، ومثل هذه الاستعدادات تقرر نوعية الوسيلة التي يفضلها الشخص دون سواها من جهة ، وما يرسخ في ذهن الشخص من المعلومات التي تقدمها هذه الوسيلة من جهة أخرى ، فكيف يفسر الشخص هذه المعلومات؟ ، وهل العنف في الواقع ناتج عن وجود استعدادات مسبقة للعنف لدى الأفراد ، وتكتفي وسائل الإعلام بإثارتها لتظهر في الواقع، أم أن وسائل الإعلام تثير العنف حتى لدى الأفراد الذين ليست لهم استعدادات لارتكاب العنف؟

لقد أثبتت الدراسات أن الناس غالبا ما يختارون ما يقرؤون وما يسمعون وما يشاهدون وفقا لما ينسجم وميولهم وينبذون ما يخالف ذلك ، كما ويبقى في ذاكرتهم كل ما يوافق هذه الميول أو يعارضها، فالمدمنون على المخدرات مثلا لا يأبهون كثيرا لما يقال حول أضرار الإدمان بعكس أولئك الذين لا يدمنون ، وهذا يعني بلغة علم النفس أن ما يختارونه من هذه المواد لا يخلق ميولا واستعدادات جديدة ، بل يقوي أو ينمي تلك الميولات الموجودة لديهم بشكل من الأشكال.

وقد أجرت جامعة " ستانفورد " بولاية كليفورنيا الأمريكية دراسة علمية إحصائية على أربع محطات تلفزيونية في الولاية جاء فيها أن هذه المحطات الأربع عرضت في فترة خمسة أيام عادية المشاهد التالية (12) جريمة قتل عمد ، (16) مشاجرة بالسلاح ، (21) إصابة بطلق نارى ، (4) شروع في الإنتحار ثلاثة منها ناجحة ، (4) أشخاص يسقطون من قمم الجبال أو من سطوح البنايات ، (2) سيارتان تتدحرجان من قمة الجبل ، (2) حادثتا دهس بصورة عمدية ، (21) معركة بالأيدي أو بالسكاكين ، (2) حادثة قتل بالخنق ، (37) معركة بالأيدي والسلاح الناري والسكاكين وبوسائل أخرى، (1) قتل بالخنق غرقا ، ومجموعة متفرقة من القتل الإجرامي المأجور والسرقة بالإكراه والسرقة بالكسر والسرقة في وسائل النقل والإعدام بالشنق (10.(

إن تأثير موضوعات العنف والجريمة خاصة على الشباب المراهقين قد حظي باهتمام خاص من الباحثين وهو اهتمام جاء انعكاسا لقلق اجتماعي متزايد نفذ صبره أمام بطء خطوات البحث العلمي في التوصل إلى نتائج قاطعة وحاسمة بشأن تأثير وسائل الاتصال الجماهيري.

والواقع أن التلفزيون دون سائر وسائل الاتصال الجماهيرية قد تحمل الجزء الأكبر من اتهام الإعلام بنشر العنف والجريمة وأفلام الجنس ، والأمور الخارجة عن عقيدة وعادات وقيم وتقاليد المجتمع ، وإلا ما الفائدة التي يجنيها الفرد و المجتمع من جراء نشر الإثارة على الصفحات الأولى من مجلاتنا كصور النساء الجميلات ، وبعض العبارات التي تؤدي إلى زعزعة كيان الأسرة ، والتي بزعزعتها ينشأ الطلاق ، والذي بدوره يؤدي إلى ضياع وتشتت المراهق ، وهذا التشتت سيؤدي ولو بعد حين إلى ارتكاب جرائم أحداث وجرائم أخرى متوقعة .

نظريات التأثير لوسائل الإعلام

1- نظرية التأثير القوي أو المطلق (نظرية الرصاصة الإعلامية(

تسمى أيضا نظرية الطلقة السحرية أو الحقنة تحت الجلد، ويرى أصحاب هذه النظرية أن وسائل الإعلام لها تأثير قوي ومباشر على الفرد والمجتمع يكاد يبلغ حد السطوة والهيمنة وهذا التأثير قوي وفاعل مثل الرصاصة، و لا يفلت منه أحد، وأن علاقة الأفراد بمضمون الرسالة الإعلامية علاقة تأثير مباشر وتلقائي وسريع سواء كانت هذه الرسالة صادرة من صحيفة أو إذاعة أو تلفاز ، فالإنسان سيتأثر بمضمونها مباشرة، وبناء على فلسفة هذه النظرية فإن الإنسان سيحاكي مشاهد العنف والقتل أو أي جريمة أخرى(11 .)

إلا أن هذه النظرية لم تلق قبولا واسعا من قبل المهتمين العاملين في مجالات الاتصال الجماهيري ، لأن الإنسان ليس سلبيا أو ساذجا لتلك الدرجة التي يتأثر بكل ما يقرأ أو يسمع أو يشاهد لاغيا كل التأثيرات النفسية و الاجتماعية والبيئية وما إلى ذلك من تأثيرات أخرى، ولكن يمكننا القول بأن هذه النظرية (نظرية الرصاصة) ، متى وجدت التأثيرات الأخرى فإنها يمكن أن تكون فاعلة.

2- ظرية التأثير المحدود لوسائل الإعلام :

اهتزت نظرية الرصاصة الإعلامية أمام نتائج الدراسات الميدانية التي قام بها باحثون في ميدان علم النفس الاجتماعي حيث تبين لهم تأثير وسائل الإعلام محدود جدا إذا ما قورن بالتأثير الذي تحدثه عوامل أخرى أطلقوا عليها العوامل الوسيطة كالأسرة، واتجاهات الفرد، وقادة الرأي، والأحزاب، وعوامل أخرى كثيرة، تحول هذه العوامل دون التأثير المطلق أو القوي لوسائل الإعلام على الفرد(12)

3- نظرية التأثير المعتدل لوسائل الإعلام :

برز هذا الاتجاه في أواخر الستينات والسبعينات، ويعتقد أصحابه أن تأثير الوسائل الإعلامية على الفرد يتأثر بعوامل نفسية كثيرة ومتغيرات نفسية كثيرة، وكان التركيز القوي لهم على البعد النفسي. أي أسلوب الأفراد أمام وسائل الإعلام أكثر قوة من عوامل ومتغيرات مما يجعل التأثير معتدلا نوعا ما .

4- نظرية التأثير على المدى الطويل (النظرية التراكمية)

تقول هذه النظرية إن تأثير ما تعرضه الوسائل الإعلامية يحتاج إلى فترة طوية حتى تظهر آثاره على الأفراد من خلال تراكمات إعلامية عديدة تؤيدها معتقدات ومواقف وسلوكيات مختلفة ، وإن استمرار تعرض الإنسان من خلال وسائل الإعلام إلى أفكار جديدة وقيم مغايرة وأساليب حياتية غير التي إعتادها ، يؤدي به إلى تبني بعض تلك الأفكار أو القيم ، ويغير في أسلوب حياته متأثرا بما يعرض عليه من مختلف وسائل الإعلام ، وبدرجة تختلف من فرد إلى آخر حسب تركيبة

شخصيته ، وحالته النفسية ، والبيئة الاجتماعية التي يعيش فيها ، ونوع الوسيلة الإعلامية التي يتعرض لها ، ومضمونها ، والسياسة التي تسير عليها .

وقد أثبتت بعض الدراسات أن المشاهدة المبكرة للعنف الموثق والمصور في الصحف أو المتلفز تكون سببا مباشرا للعدوان فيما بعد، ولقد انتهت الدراسات إلى أن تصعيد درجة التهيج ، مهما كان نوع هذا التهيج من خوف أو رعب أو إثارة جنسية ، تمهد لأعمال الاعتداء خاصة إذا ما كانت إشارات البيئة مساعدة على ذلك (13.(

النظريات المفسرة للعنف في وسائل الإعلام

شغلت ظاهرة العنف في وسائل الإعلام الباحثين والخبراء والممارسين للعمل الإعلامي منذ الثلاثينيات من القرن العشرين سواء أكانت في المجتمعات العربية أو الأجنبية، وكثر الاهتمام بتأثير ذلك على شريحة الأطفال والمراهقين الأكثر قابلية للتأثر بوسائل الإعلام، وبوسيلة التلفزيون بوجه خاص باعتبارها أكثر نفاذا وانتشارا بين وسائل الاتصال الجماهيرية، وسوف نعرض بعض النظريات المفسرة للعنف في وسائل الإعلام، فهناك خمس نظريات أساسية في هذا المجال هي(14:(

1- نظرية التطهير.
2- نظرية الاستثارة (تأثير الحوافز أو المثيرات) (التحريض)
3- نظرية النموذج (التعلم بالملاحظة).
4- نظرية التدعيم.
5- نظرية التوحد.

أولا : نظرية التطهير Catharsis Theory :

تفترض هذه النظرية وجود آثار ايجابية لمشاهدة العنف في وسائل الإعلام، وترجع أصول النظرية إلى الفيلسوف اليوناني"ارسطو"، حيث ذكر في كتابه "فن الشعر" أن مشاهدة الدراما على المسرح تطهر الناس من مشاعر الحزن والغضب والعديد من العواطف القوية الأخرى، وتفترض هذه النظرية أن الناس في حياتهم اليومية كثيرا ما يواجهون العديد من الإحباطات التي عادة ما تدفعهم إلى ارتكاب بعض الأعمال العدوانية . والتطهير هنا هو الراحة أو التخلص من هذه الإحباطات من خلال قراءة أو مشاهدة الفرد للعنف عبر وسائل الإعلام المختلفة ، والذي يمكن أن يعطى الفرد فرصة المشاركة السلبية في الصراع العنيف الذي ينطوي عليه البرنامج أو الفيلم المعروض تلفزيونيا أو القصة المكتوبة في المجلة، أي أن الميول العدوانية يتم السيطرة عليها بواسطة الميكانيزمات النفسية والاجتماعية المشاركة في هذه الخبرات البديلة (15.(

ويعتبر "فيشباخ " Feshbach – أبرز المؤيدين لمفهوم نظرية التطهير، ويرى مع غيره من المتبنيين للنظرية أن مشاهدة ممثل تلفزيوني – أو القراءة عنه في مجلة – في دور يتسم بالعنف والعدوانية تجعل الفرد يشارك في أعمال الممثل العدوانية ، وذلك يؤدى إلى خفض حاجة هذا الفرد إلى الانخراط في أعمال عدوانية حقيقية ، أي أن السلوك العدواني لشخصيات مسلسلات الجريمة وأفلام العنف يمكن أن تكون نوعا من التنفيس عن احباطات متراكمة لدى المشاهدة فتقل احتمالات السلوك العدواني لدية (16.(

ثانيا : نظرية الاستثارة (تأثير الحوافز أو المثيرات) Stimulating Theory

إن أول من وضع الإطار العام لنظرية الاستثارة في مجال تأثيرات العنف الذي تقدمه وسائل الإعلام هو ليونارد بيركوفيتش Leonard Berkowitzأحد علماء النفس الاجتماعيين . والافتراض الأساسي لهذه النظرية هو أن التعرض لحافز أو مثير عدواني من شأنه أن يزيد من الإثارة السيكولوجية والعاطفية للفرد ، هذه الإثارة بدورها سوف تزيد من احتمالات قيام الفرد بسلوك عدواني(17.(

ونظرية التحريض Instigation Theory تعني أن التعرض للعنف في وسائل الإعلام يحرض المتلقي على السلوك العدواني، وخاصة إذا كان للعنف ما يبرره (18)، وأكدت دراسات أخرى حديثة أن مشاهدة العنف تزيد من العدوان في الحياة العملية لدى عدد كبير من الناس(19).

وخلصت دراسة "ميلافاسكي Milavasky "التتبعية لمعرفة تأثير العنف على سلوك الأطفال من 6-17 سنة إلى وجود علاقة ارتباط بين السلوك العدواني لدى الأطفال، ومشاهدة مواد العنف في السينما والتلفزيون (20) ، ورغم ذلك فإن عديد الدراسات تشير إلى أن أثر الاستثارة ليس بالضرورة يكون سلبيا، وإنما يمكن أن يكون مفيدا اجتماعيا، إضافة إلى أن هناك تغيرات سيكولوجيه تحدث للفرد عند استثارته عاطفيا Emotionally Aroused ، حيث يمكن أن ترتفع نبضات القلب خلال التعرض لمحتوى يتسم بالإثارة، ويحدث احمرار للوجه، وذرف للدموع، ويصاحب هذه التغييرات زيادة كمية الأدرينالين في الدم، ولا تحدث الاستثارة عن التعرض للعنف في وسائل الإعلام فقط، وإنما يمكن أن تحدث من خلال التعرض إلى البرامج الفكاهية أو الدراما الرومانسية (21).

ثالثا : نظرية التدعيمReinforcement Theory

تفترض هذه النظرية أنه لا توجد علاقة مباشرة بين التعرض للعنف في وسائل الإعلام وزيادة السلوك العدواني لدى أفراد الجمهور، ولعل أول من قدم استنتاجات في هذا الاتجاه "جوزيف كلابرKlapper "، الذي خلص إلى نتائج مفادها: أنه لا يمكن الحديث عن تأثير مباشر للتلفزيون إلا على الأشخاص ذوي الميول العدواني أساسا قبل التعرض لوسائل الإعلام، واقترح "كلابر" عدة مبادئ، أبرزها أنه بغض النظر عن الظروف الأخرى، فإن وسائل الإعلام تميل إلى تدعيم ما هو موجود أصلا، وليس تغيير ما هو قائم (22).

كما أن هناك دراسات أخرى سارت في نفس الاتجاه كالبحث الذي موله الكونجرس الأمريكي حول التلفزيون والعنف ، وأشار إلى وجود علاقة ضعيفة بين برامج التلفزيون وتزايد أعمال العنف لدى الأطفال والمشاهدين عامة، وأنه توجد متغيرات أخرى يجب أخذها بعين الاعتبار مثل: نوع التنشئة التي تلقاها الفرد، وظروفه الأسرية، ومدى إدراكه المباشر للعنف في المجتمع (23).

ويمكن القول إن تأثير العنف عن طريق التلفزيون يمكن أن يدعم المبادئ السلوكية والاتجاهات الموجودة لدى المشاهدين ذوي الميول العنيفة وغير ذوي تلك الميول، هذا التأثير يجعلهم أقل أو أكثر رغبة في التورط في سلوكيات عنف مما لو لم يشاهدوا برنامجا ذا طابع عنيف في التلفزيون (24).

رابعا: نظرية النموذج أو التعلم من خلال الملاحظة

الافتراض الأساسي لهذه النظرية أن الناس يمكنهم تعلم العنف أو السلوك العنيف من خلال ملاحظة العنف فيما تصوره وسائل الإعلام ، في ضوء الشخصيات الشريرة التي تحفل بها، ولا يؤكد علماء هذه النظرية أن مشاهدي برامج العنف سوف يقومون بأداء أعمال العنف التي تعلموها بشكل آلي أو أوتوماتيكي، فالأعمال العدوانية التي يتعلمها الفرد من وسائل الإعلام تشبه السلوك الذي يكتسبه الفرد في قاعات الدرس لا تخرج إلى واقع الممارسة الفعلية ما لم ينشأ موقف يستدعي أداء هذا السلوك المكتسب (25.)

خامسا : نظرية التوحدIdentification Theory

فكرة التوحد لها علاقة وثيقة بنظرية النموذج، فهي الفكرة التي تجعلنا نختلف في حجم تقديرنا لبعض الناس اللذين إما نعرفهم بشكل مباشر، أو نتعرض لهم في وسائل الإعلام، وتكمن أهمية "التوحد" في تطوير "مفهوم الذات Self " concept، وأنواع أخرى من التعلم تساهم فيه وسائل الإعلام (26).

طرق تأثير الرسالة الإعلامية

إن الصفة التي يمكن أن يتميز بها مضمون الاتصال ترتبط بالقدرة على التأثير، لذا يمكن حصر مجال الاتصال في مجال التفاعل الإنساني عن طريق الرموز والإشارات، و من زاوية أخرى أكثر تناسبا مع هذا التأويل يبقى الإعلام وسيلة فعالة لإحاطة الغير بأمور وأخبار أو معلومات جديدة أو التأثير في سلوكيات الأفراد و الجماعات و التغيير و التعديل الفعال في هذا السلوك أو توجيههم (27.)

وكما ذكرنا سابقا أن تأثير الرسالة الإعلامية لا يتم بطريقة تلقائية ساذجة ، بل أن هناك عوامل ومتغيرات تتدخل هي أيضا كالبيئة ، والمحيط الاجتماعي ، وأمور أخرى نفسية وشخصية ، نذكر منها ما يلي :

1- تكرار عرض الرسالة الإعلامية

تكرار التعرض للرسالة يؤدي إلى زيادة الموافقة على ما تطرحه من أفكار، والتكرار الزائد جدا قد يقلل الموافقة حيث يؤدي إلى التبرم والتخمة، وعموما يؤدي التكرار الزائد إلى موافقة أكثر من عدم التعرض، ويمكن أن تعمل فترة عدم التعرض على تحييد أي تأثيرات مرتدة تنتج عن التعرض الزائد (28.(

و قد ثبت من خلال دراسات كثيرة الفرد أن الفرد يتأثر بما تعرضه وسائل الإعلام من خلال التعرض المنتظم لرسائل إعلامية معينة. كما أثبتت الدراسات التي تناولت العلاقة بين السلوك العدواني للأطفال ومشاهدة التلفزيون أن (تكرار) تعرض الأطفال لبرامج تحتوي على مشاهد عنف كان عاملا مهما في نشوء ذلك السلوك العدواني عند الأطفال (29.(

2- طريقة عرض الرسالة الإعلامية

مع التطور الهائل لوسائل الإعلام ، ودخولها مجال التقنية المتقدمة جدا تضاعف مرات عديدة التأثير الذي تحدثه تلك الوسائل في الجماهير، و لم يعد الفرد يتعامل مع الرسالة الإعلامية بطريقة مجردة وبشكل مباشر، بل صارت تأتيه محفوفة بكثير من المؤثرات النفسية والسمعية والبصرية ،وصار الإخراج (طريقة العرض) فنا قائما بذاته تبدي فيه العقول أعمالا خلاقة.

فعلى مستوى الإعلام المطبوع وظفت الصورة والألوان وحجم الخط والخطوط والرسوم التوضيحية والخلفية ، ومكان النشر في الصحيفة أو المجلة لدعم عنصر التأثير في الرسالة الإعلامية، أما على المستوى الإعلام المرئي فقد خرجت عدسة التصوير التلفزيونية من الأستديوهات إلى الفضاء الرحب فصارت تختلط بالناس في الشوارع وأماكن العمل وتطير معهم على متن الطائرات (30.(

3- صياغة الرسالة الإعلامية

الرسالة هو مضمون السلوك الاتصالي، فالإنسان يرسل ويستقبل كميات ضخمة ومتنوعة من الرسائل، بعض هذه الرسائل يتسم بالخصوصية مثل: الحركة والإيماءة والإشارة والابتسامة والنظر، وبعضها الآخر يتسم بالعمومية مثل: الندوات والمحاضرات والمؤتمرات ورسائل الصحف والمجلات والراديو والتلفزيون والسينما (31.(

والصياغة هي القالب الذي تصاغ فيه أفكار الرسالة بطريقة منظمة من خلال الاستخدام الذكي للغة والترتيب المنطقي للوقائع والأحداث، في الإعلام المطبوع ، (الصحافة) تسمى (الصياغة) أما في الإعلام المرئي (التلفزيون والسينما) تسمى الصياغة بالسيناريو، والرسالة الإعلامية قد (تعرض) بطريقة جذابة ومؤثرة ، لكن إذا كانت (صياغتها) رديئة فإن ذلك يضعف من تأثيرها (32.(

ووسائل الإعلام هنا قد لا يكون دورها (دفع) الفرد إلى ممارسة العنف ، وإنما مثلت مرجعية لذلك الفرد في (نوع) العنف أو الإثارة أو الخروج على قيم ومبادئ المجتمع ، الذي يمكن أن يقوم به في مثل هذه الحالات و (كيف) يقوم به ، وربما كيف يفلت من العواقب التي تترتب على ممارسة سلوك عنيف مثل هذا الذي قام به.

ويبقى مفهوم ظاهرة العنف إعلاميا مرتبطا بما تنقله وسائل الإعلام للمشاهد أو القارئ من أفلام و أحداث و أخبار تجعله يتأثر بها و أحيانا يتصرف وفقا للمضمون الذي تحمله الرسالة الإعلامية عندما تجد صدى عند مستقبليها (33.(

هل تُنشر أخبار العنف أم لا ؟

تباينت الآراء حول هذا الموضوع ، هل من الأفضل نشر أخبار العنف في وسائل الإعلام ، أم إغفالها نهائيا ؟ والكل أصبح فيها له رأي ، علماء النفس والاجتماع من جانب، والإعلام من جانب آخر، والقانون والإدارة من جانب ثالث ، حتى المجتمع بمختلف طبقاته بما فيه الآباء والأمهات لهم وجهة نظر أخرى،ولذلك كان لابد أن ذكر شيئا من هذه الآراء .

الآراء المؤيدة للنشر

1- الوسائل الإعلامية هي مرآة المجتمع التي تعكس كل ما يقع فيه من خير أو شر ، والعنف بشتى أشكاله ظواهر اجتماعية خطيرة يجب على وسائل الإعلام أن تسجلها وتبثها ليعلم الناس حقيقة أضرارها التي تصيب المجتمع ، حتى لا يقع فرد من أفراده ضحية لذلك العنف.

2- أن الوسيلة الإعلامية لابد وأن تمد الجمهور بحقيقة العنف ، لكي يصبح الناس مستعدين لعمل شيء ما تجاهها واتخاذ إجراءات معينة تحول دون تكرارها .

3- إن نشر أخبار العنف يحول دون فعل الشر ، ويجعل من يفكر في ممارستهما مترددا خوفا من الفضيحة بنشر وإذاعة اسمه مقرونا بارتكاب العنف والتشهير به في المجتمع.

4- نشر وسائل الإعلام لمواد العنف ، يساعد على كشف خطط وأساليب وحيل المجرمين وأصحاب العنف في ارتكاب جرائمهم ، وبذلك يصبح أفراد المجتمع متيقظين لألاعيبهم وأساليبهم الإجرامية ، حتى لا يقعون فريسة سهلة في حبالهم.

5- في نشر وسائل الإعلام للعنف إعانة لرجال الأمن في تعقب المجرمين والقبض عليهم ، وذلك لأن بعض المخبرين أو المندوبين أو المراسلين الإعلاميين يستطيعون أحيانا – متنكرين – الاختلاط بالمجرمين أو أهاليهم ومعايشتهم في بيئاتهم والوقوف على قدر كبير من حيلهم ومخططاتهم فيصارحهم هؤلاء المجرمون بأمور قد تخفى على رجال الأمن.

6- أن نشر العنف عن طريق وسائل الإعلام ، يساعد الأطفال في التعرف على الخير والشر والتمييز بينهما قبل نزولهم إلى معترك الحياة.

7- عندما تنشر وسائل الإعلام أخبار العنف والجريمة ، فإنها بذلك تشبع في الناس رغبة التشفي من مرتكبي الجرائم ، وتطمئن المواطنين على حسن سير العدالة.

8- عند نشر أخبار جرائم الأحداث يجب الاتفاق على عدم نشر أسمائهم أو صورهم ، وذلك حتى لا يحتفظ الناس بالصورة القبيحة الإجرامية عنهم وهم لا يزالون في مقتبل العمر ، لأن الأمل كبير في إصلاحهم.

الآراء المعارضة للنشر

1- من وسائل الإعلام كثيرا ما تعرض لإخبار الجريمة بشكل يضر بالمجتمع ، حيث تقدم تلك الأخبار بصورة سطحية مبالغ في وصفها ، تعظم وتضخم صورة المجرم وكأنه البطل الذي حير رجال الأمن ، مما يغري الأطفال والشباب خاصة بتقليدهم ، ومن هنا يأتي تأثير وسائل الإعلام السيئ التي تجعل من نفسها – بنشر أخبار وقصص الجريمة يوميا – مدرسة لتعليم فن الإجرام وتخريج المجرمين.

و لنتساءل معا ، ما هي الفائدة المرجوة من عرض أفلام ومسلسلات المطاردة الأمريكية للصوص والتي غالبا ما تنتهي بهروب المجرمين من أيدي رجال الأمن غير غرس روح التحدي لرجال الأمن وللشرطة ، وهي بالطبع من صميم المحاكاة الضارة .

2- بنشر أخبار وقصص العنف و الجريمة في وسائل الإعلام تحدث بلبلة بين أفراد المجتمع ، وتتزعزع الثقة بالمثل والقيم والتقاليد الفضلة في المجتمع

3- قد تصدر بعض وسائل الإعلام أحكاما – مقدما – غير عادلة على المجرمين ، وتطلق عليهم كلمات مثل " القاتل " ، " السفاح " ... قبل صدور الحكم من قبل المحكمة المختصة ، مع أن القاعدة تقول أن المتهم برئ حتى تثبت إدانته.

4- يلاحظ أن بعض وسائل الإعلام – وخاصة المجلات – كثيرا ما تنشر قصص العنف و الجريمة بطريقة لا تطابق الواقع ، وإنما يميل الصحفي إلى تحوير الواقع وإعمال الخيال في وصف الجريمة ، حتى تكون كتاباتهم أكثر إثارة وجاذبية.

وبالعودة إلى كتاب ربنا ودستور حياتنا ، نلاحظ أن الله سبحانه وتعالى قد عرض في كتابه الكريم صورا كثيرة للصراع بين الخير والشر ، من بينها أول جريمة قتل متعمد حدثت على وجه الخليقة ، هي قصة (ابني آدم) ، إذ يقول الله تعالى { واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قربانا ، فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر ، قال لأقتلنك ... الآيات. }

يتبين لنا أن الله سبحانه وتعالى يأمر رسوله الكريم أن يبلغ هذا الخبر للمسلمين بكل تفاصيله ، ليبين لهم ماذا يمكن أن يفعله الحسد الذي يقضي على أقوى رابط ، وهي رابطة الأخوة، وانطلاقا من ذلك ، نخرج بنتيجة واضحة ومؤكدة ، أن الوسيلة الإعلامية (النظيفة) يمكنها أن تنشر وتقدم أخبار وقصص الجريمة للقراء أو المشاهدين كلما تطلب الأمر ذلك دون أي حرج ، متبعة في ذلك خطى كتاب الله الكريم الذي أورد هذه المعالم ، لتقبيح الجريمة ، وردع المجرمين .

الخاتمة والتوصيات

وها نحن نصل إلى نهاية المطاف لنجد أن الإعلام بقدر ما يقدم للمجتمع من خدمات جليلة بقدر ما يتسرب منه ما يزعزع العقيدة والقيم والمبادئ والأخلاق في نفوس أفراد المجتمع ، بل ويدغدغ الغرائز دغدغة من شأنها أن توقف عقل الإنسان عن التفكير في العواقب، فيقدم على اقتراف شكل من أشكال العنف أو الجريمة تحت ذلك التأثير القوي ، فالكل يعرف إلى أي مدى وصل الفيلم العربي، بعد أن كان يكتفي بتصوير جريمة واحدة ، صار اليوم يصور أحداث عنف عديدة ، كما تزخر الأفلام الأجنبية بارتكاب جرائم القتل والسرقات والتخطيط لها بوسائل تبهر ، وتدفع إلى المحاكاة والتقليد.

ولكن لا يعني ذلك أن نقف مكتوفي الأيادي ، بل يجب التخطيط بوعي وإدراك لمستقبل أفضل ، ويكون من خلال عرض بعض التوصيات:

1- الوقاية من العنف في الأوساط الشبانية " ، الوقاية كما يقال خير من العلاج ، فلا نقول مثلا الوقاية من جريمة الاغتصاب بل الوقاية مما أدى إلى الاغتصاب من سفور وتبرج تدعو إليه وتؤكده معظم صفحات مجلاتنا ومواد برامج تلفزيوناتنا وإعلاناتها.

2- التنسيق والتخطيط لا على مستوى وسائل الإعلام أو الشرطة والأمن، بل التخطيط الشامل لكل مؤسسات الدولة ذات الصلة بالوقاية من العنف والجريمة، وأن يقوم ذلك على دراسة واعية ذات أهداف واضحة، واضعة عادات وقيم وأخلاقيات المجتمع أساسا تنطلق منه.

3- يمكن اقتباس بل انتقاء كل ما هو نافع ومفيد من مختلف الثقافات العالمية ، مع تطويعه بما يتلاءم مع ثقافة وحضارة المجتمع ، والبعد عن التقليد الأعمى في كل المجالات لكي تبقى شخصيتنا هي السائدة.

4- أن يسن قانون بموجبه يفرض على وسائل الإعلام أن تكون 60% من برامجها ذات طابع محلي ، على غرار ما قامت به دولة كبرى ، وهي فرنسا ، التي ترى أن ما يأتيها من مواد إعلامية أمريكية عبارة عن غزو ثقافي فكري أمريكي

5- تشديد الرقابة الأسرية والأمنية على الألعاب الخيالية و تسجيلات الفيديو ، ليس لمنع المادة الدافعة للعنف أو الجريمة ، بل لمنع الخطوات الميدانية الأولى نحو الجريمة ، وذلك بمنع تداول الأشرطة الجنسية أو ذات إيحاءات جنسية كالتي تشاهد على شاشة التلفاز العادي وفي المنزل.

6-توجيه المجلات النسائية بالتخفيف من إعلانات المرأة الفاضحة ، وعدم استغلال المرأة لتكون سلعة رخيصة تشترى وتباع ، بالإضافة إلى عدم استغلالها في البرامج الغنائية ، لأن هذه الفكرة مقلدة تقليدا أهوج لما تبثه محطات M . Tv] [، حيث يختلط الغناء بالإثارة والعنف ، وهذا ما تحاوله تقليده التلفزيونات والفضائيات العربية الآن.

7- فإن كان لابد أن نبث أو ننشر أخبارا أو قصص الجريمة والجنس والعنف ، فليكن ذلك وبصورة صحيحة ودقيقة ، لإبراز ما فيها من مساوئ ومفاسد تعود على المجتمع بالخزي والعار ، ولتكن دروس رادعة لا تتكرر لاحقا.

الهوامش

1- إبراهيم أحمد الشمسي:دور وسائل الإعلام في الوقاية من الجريمة، ورقة بحث مقدمة لندوة " الوقاية من الجريمة "، الإمارات، 2008.

2- سوزان يوسف أحمد القليني، التخطيط للحملات الإعلامية والإعلانية،دار النهضة العربية، 2006، ص 21.

3- سوزان يوسف أحمد القليني: تكنولوجيا الاتصال والإعلام، دار النهضة العربية ،القاهرة،2007، ص 8.

4- صالح دياب الهندي : أثر وسائل الإعلام على الطفل ، ط 2 ، دار الفكر للطباعة و النشر،عمان ، الأردن 1998 ، ص 122.

5- لبيب سعيد: "أفكار حول الإعلام الديني، ماذا يريد التربويون من الإعلاميين؟"، ط 2 ،مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض ،1985 ، ص 78.

6- حسن عماد مكاوي، ليلى حسين السيد: الاتصال ونظرياته المعاصرة، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة 2006، ص 353.

7- عادل فهمي البيومي: دور التلفزيون المصري في تكوين الوعي الاجتماعي ضد الجريمة،دراسة تحليلية وميدانية، رسالة دكتوراه غير منشورة-كلية الإعلام – جامعة القاهرة،1995، ص ص75-78.

8- Lowry, and S.Defleur, M. (1983) Milestones in Mass Communication Research: Media Effects ,N.Y. Longman, P 122.

9- إبراهيم أحمد الشمسي، مرجع سابق.

10- إبراهيم أحمد الشمسي، مرجع سابق.

11- دور وسائل الإعلام في نشر العنف ، من http://sh22y.com/vb/t1677.html ، بتاريخ ، 2007- 6 -5.

12- المرجع السابق.

13- إبراهيم أحمد الشمسي، مرجع سابق.

14- حسن عماد مكاوي، ليلى حسين السيد، مرجع سابق، ص 365.

15- لندا ل . دفيدوف: مدخل علم النفس، ترجمة سيد الطواب، محمود عمر، نجيب خزام، ط3، القاهرة: الدار الدولية للنشر والتوزيع، 1988، ص 515.

16- حمدي حسن: مقدمة في دراسة وسائل و أساليب الاتصال، القاهرة: دار الفكر العربي، 1987 ، ص 138.

17- حمدي حسن:مرجع سابق، ص 140.

18- Hiebert , & Reuss, C . (1988) Impact of Mass Media, 2nd Ed., N.Y.: Longman. P 640.

19- Parke , R. D. (1974) "A Field Experimental Approach to Children's Aggression: Some Methodelogiecal Problems and Some Future Trends" In J. De Wit, & W.W Hartup (eds), Determinants and Origins of Aggressive Behaivior, The Hague: Mouton. PP 499-508.

20- Eron , L. D Huesman, L.R, Lefkowitz, M.M. ,& Walder, L. O. (1972) Does Television Violence Cause Aggression? American Psychologist 27, pp. 253-263 .

21- Becker, S.L. (1987) Discovering Mass Communication,2nd Ed. Scott, Foresman & Company, p 460.

22- حسن عماد مكاوي، ليلى حسين السيد، مرجع سابق، ص 371.

23- عدلي سيد رضا : السينما وظاهرة انحراف الشباب، دراسة مقارنة لعينات من الشباب بالقاهرة، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب-جامعة القاهرة، 1994، ص 73.

24- حمدي حسن ، مرجع سابق، 147.

25- إبراهيم أحمد الشمسي، مرجع سابق.

26- Becker, Ibid. , 1987, p 460.

27- مصطفى حجازي : الاتصال الفعال و العلاقات الإنسانية في الإدارة ، دار الطليعة ، المركز العربي للتطور الإداري، بيروت ، 1982 ، ص 2.

28- حسن عماد مكاوي، ليلي حسين السيد، مرجع سابق، ص 58.

29- إبراهيم أحمد الشمسي، مرجع سابق.

30- نفس المرجع السابق.

31- حسن عماد مكاوي، ليلى حسين السيد، مرجع سابق، ص 48.

32- إبراهيم أحمد الشمسي، مرجع سابق.

33- صالح دياب الهندي ، مرجع سابق ، ص 122.